المركز الثقافي الآسيوي

مشروع الرحلات

(٩)

تسع رحلات مجهولة

((جنوب ووسط الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر))

(ظفار- صنعاء- الربع الخالي- حضرموت- اليمن- عسير- تهامة- وسط الجزيرة العربية)

ترجمة

يحيى عبد المطلب السيد

تسع رحلات مجهولة

جنوب ووسط الجزيرة العربية

في القرن التاسع عشر

الطبعة الأولى 1

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

اسم الكتاب : جنوب ووسط الجزيرة العربية في القرن التاسع عشر

((تسع رحلات مجهولة))

اسم المترجم : يحيى عبد المطلب السيد

موضوع الكتاب : رحلات – تاريخ .

عدد الصفحات : ٣٤٦ صفحة

عـدد المـلازم : ٢٢ ملزمة

مقـاس الكتـاب : 17 x 24 سم

الترقيم الدولي : 978-605-69742-3-6





التوزيع والنشر

6/11 شارع وحيد أفندي - حي توفيق بيك - كوجوك

جكمجة - اسطنبول - تركيا - ت: 00905454886870

هاتف: 00201555566139 - 00201027013326

E-mail: info@arabhistorypublishing.com

Websit: www.arabhistorypublishing.com

الإهـــداء

إلى روح رمز الوفاء والإخلاص

إلى زوجتي المربية الفاضلة

أسكنها اللّه الفردوس الأعلى من الجنة

المقدمة

أعمل في مجال الترجمة منذ فترة طويلة لاسيما الترجمة في مجال التاريخ والبحث العلمي التاريخي، وقد لفت نظري هذا الاهتمام البالغ من قبل الباحثين في التاريخ، والجغرافيا، والأنثروبولوجيا، وعلم الاجتماع، وغيرهم من العلوم الإنسانية بكتب الرحلات واعتبارها مصدر شديد الأهمية لهذه العلوم جميعا، فكانت رغبتي شديدة حينئذ في الدخول إلى هذا المجال الخصب والحيوي.

ثم إنني عشت فترة طويلة امتدت لسنوات في سلطنة عمان كانت هي الأجمل في حياتي، وعايشت فيها أيضًا الكثير من أهل الخليج في دولة الإمارات والمملكة العربية السعودية، واليمن عبر رحلاتي البرية في بلدان وواحات ووديان هذه البلدان، وكان ذلك دافعًا لي أيضًا على الكتابة أو الترجمة لوصف وبيان أحوال تلك المناطق الغنية بالكنوز الجغرافية، والتاريخية، والطبيعية.

وثمة دافع ثالث هو أن أهل البحث العلمي في تنافسهم حول الحصول على مصادر الرحلات قد ترجموا الكثير من الرحلات التي قام بها الأوربيون إلى بلاد العرب وخاصة الجزيرة العربية والخليج العربي، فصار البحث عن جديد في كتب الرحلات شيء شديد الصعوبة، ويحتاج إلى خبرة ودراية كبيرة، وإلمام بما تم ترجمته، وما يحتاج إلى ترجمة وما هو أكثر أهمية، وما تم نشره من رحلات؛ بل كانت الصعوبة الأكبر والتحدي الأصعب هو الحصول على المصادر الأصلية التي نشرت هذه الرحلات، ولعل أشهرها وأكبرها هي المجلة الجغرافية التي كانت تصدرها الجمعية الجغرافية الملكية في لندن، والتي أيضا كانت ترعى وتمول معظم هذه الرحلات عبر مشاركة فاعلة من وزارة المستعمرات في الحكومة البريطانية،

وكذلك العديد من الجهات الاستخباراتية في تلك الحكومة وغيرها من الجهات العلمية والعسكرية .

وهنا كان دور "**المركز الثقافي الآسيوي**" ومديره الصديق العزيز الدكتور/ أحمد الشرقاوي، والذي فتح لي الباب على مصراعيه لأنهل من مكتبته الزاخرة بأعداد وفيرة من هذه المجلة وغيرها من المصادر والطبعات الأصلية لكتب الرحلات، والتي تحتاج إلى جهود كبيرة لإخراجها إلى النور، وكان هو أحد هؤلاء العاملين في حقل الرحلات ترجمة وتحقيقا .

وقد وقع اختياري على هذه المجموعة من الرحلات لترجمتها، وهي:

١. رحلة اثنين من اليسوعيين من ظفار إلى صنعاء ١٥٩٠م ، بكنجهام م و. د.سيرجنت.

٢. رحلة عبر صحراء الربع الخالي، برترام توماس.

٣. رحلة عبر صحراء الربع الخالي، برترام توماس، المستشار المالي لسلطان مسقط وعمان، يناير ١٩٣١م.

٤. رحلة عبر حضرموت، ليو هرش، مارس ١٨٩٤م.

٥. رحلة إلى اليمن، هوج سكوت، أبغرادب بيريتون، ديسمبر ١٩٣٨م.

٦. مذكرات حول رحلة في اليمن، شارلز ملنجن، ١٨٧٤م.

٧. رحلة في منطقة الأوربي في عسير واليمن، روزتا قوربر، أكتوبر ١٩٢٣م.

٨. رحلة في تهامة: جبال عسير وجبال الحجاز، و. تسنجر، ١٩٤٧م.

٩. رحلة وسط الجزيرة العربية، لبشيمان، ١٩١٤م.

ولعل من أسباب اختياري لهذه المجموعة هو أنها لم تنشر من قبل، وهي لرحالة مشهورين، ولهم إسهاماتهم العلمية في هذا المجال، كما أنها تمسح حيزاً كبيراً من الخليج والجزيرة العربية، وربما بعض البلاد التي نادراً ما تناولتها كتب الرحلات، وهي أيضا رحلات مجهولة لم تذكرها المصادر ولا الدراسات، فكأنني أعلن عنها لأول مرة، وأقدمها مترجمة للقارئ، والباحث، والمثقف؛ ليطلع معي على جانب مجهول من تاريخ وجغرافية وواقع جزء غال ونفيس من الأمة، في فترة تنافست فيها القوى الاستعمارية على استكشاف أسراره وخيراته لاستغلالها .

وفي النهاية أقر بقصور كل عمل بشري لاسيما الأعمال العلمية التي تكتشف نقصها مع كل تقدم علمي، لكنها تستفيد من أخطائها ومن نقد الآخرين لتدارك الزلل وتصحيح الخطأ؛ لذا فإنني أرجو من السادة القراء والباحثين التواصل معي بالنقد الهادف والبنّاء لتصحيح الأخطاء، وإبراز العمل في أقرب صورة إلى الصحة والكمال، ولعل في المقترحات التي أتلقاها منهم المزيد من الدوافع لمواصلة العمل والإنجاز .

والله ولي التوفيق ....

يحيى عبد المطلب السيد

الرحلــــة الأولــى

رحلة اثنين من اليسوعيين من ظفار إلى صنعاء عام ١٥٩٠م.

- المؤلف: بكنجهام، ر. ب سيرجنت.

- المصدر : المجلة الجغرافية المجلد ١١٥ رقم ٤/ ٦

(أبريل - يونيو ١٩٥٠م) صـ ١٩٤ صـ ٢٠٧.

إن رحلة اليسوعي الأسباني أنطونيو دي مونستريت، والآخر بدرو بيز عبر وادي حضرموت إلى مأرب وصنعاء أسرى لدى العرب عام ١٩٥٠م نالت اهتماماً ضعيفاً بشكل أقل مما تستحقه.

وهناك أوربي آخر هو هلفرتز يدعي إنه وصل إلى صنعاء مستخدما نفس الطريق، ويعد فليبي أوربي آخر وصل إلى مأرب من جهة الشرق، عدا شخص غريب تنكر في زى إسلامي سمع عنه أرنود. وهناك مدن أخري مثل تاريم Tarim وحنين Hainin لم يزرها رحالة أوربيين حتى القرن التاسع عشر. والرواية التي كتبها بيز Paez عن رحلاتهم ذات أهمية عظيمة ولسوف تأتي ترجمتها بعد.

إن رواية وقوعه في الأسر في يد العرب جاءت في الفصول من ١٥ إلى ٢١ من المجلد الثالث من كتابه بعنوان "**تاريخ إثيوبيا**"، وهذا المؤلف أُهدي إلى قائد اليسوعيين في مايو من عام ١٦٢٢م، وذلك قبل وفاته بوقت قصير، وهناك احتمال أنه كان يكتب هذه الرواية بعد مرور ثلاثين عاماً على الأحداث التي سوف نتناولها.

وهناك أسباني من Almedo في قشتالة Castile كتب هذا العمل باللغة البرتغالية، وفي أيامه الأخيرة كان شخصية قوية؛ بالإضافة إلى أنه كان فضولياً شغولاً في نظر الإمبراطور الذي استطاع أن يقنعه أن يتخلى عن الكنيسة القبطية، ويتحول إلى كنيسة روما، وقد اعتمد في ذلك على نصائح تناولت شئون زمنية وأخرى روحية، وليس غريباً أنه من خواص كتابة أنه كتب في عجالة، وكان يحتاج إلى مراجعة، فالجمل التي صاغها غير منسقة، والكلمات تتكرر وكأنه لم يعطِ نفسه الوقت اللازم ليفكر في المترادفات، وهذا يفسر لنا ابتعاده عن الحقيقة.

وبعد عدة سنوات أخرى يظهر يسوعي آخر هو مانويل دي الاميديا في كتاب له بعنوان "تاريخ إثيوبيا والحبشة"، وهو عبارة عن رواية

لقصة اقتبسها عن بيز Paeze، فكتب التاريخ المنسوبة إلى بيز Paeze بقيت مخطوطة إلى أن ضمها بكاري Beccari في كتاب بعنوان:

" Rerum Aethiopicarum Scruptores Occidentales Inediti"

١٩٠٣-١٩١٧م،

وفي عام ١٦٦٠م نشر بلتاسر تلز Balthssor Telles عمل جمعه من الكتب السابقة في كتاب بعنوان Historia Geral De Ethopia a Alta وقص عن الرحلة العربية بالتفصيل لم يهتم المؤرخين في موضوع كشف بلاد العرب بهذه المؤلفات، ويعد هوجارت وكرنان وكامرر العلماء الذين اهتموا بمناقشة المشكلات الطبوغرافية المتعلقة بالموضوع.

إن الجزء الأول من الرواية من الممكن إيجازه، بناء على أمر من الملك (فيليب الثاني لأسبانيا والأول للبرتغال) أنه لابد من بذل الجهود لإرسال قساوسة إلى إثيوبيا إن مونسترات وبيز غادرا جوا Goa في فبراير من عام ١٥٨٩م، وحيث لم يجدوا بحاراً ينقلهم إلى مصوع غيروا خطتهم، وقررا أن يقوموا بالرحلة إلى العراق، وسوريا، ومصر، وفي هرمز Ormuz تلقيا تحذيراً من القيام بهذه المخاطرة الطويلة، وانطلقا إلى زيلع، ولكنهم وقعوا أسرى في يد العرب يوم ١٤ فبراير ١٥٩٠م، بعد أن انطلقت سفنهم من جزر كوريا موريا.



الروايـــــة

The Narrative

وفي اليوم التالي نزلنا إلى الساحل قبل مدينة ظفار بمسافة قصيرة، وعدما كنا نسير على الشاطئ، وكان يصطحبنا رجل مسلم -كان نفسه معنا في إثيوبيا- يرشدنا، فبدأ يؤكد على الأب أنطونيو مونسريت أن يقول: إنه مسلم، وبالتالي يسمح لنا بالسير والتنقل، وأجاب الأب: حيث أنك تراني هنا هل تجرؤ على أن تتحدث بهذه اللباقة ؟

إنني لست هذا الشخص الذي يقول ذلك؛ حتى ولو مت مئة مرة، عندئذ سكت الرجل المسلم، وعندما وصلت منزل عمدة المدينة حضر عدد من المسلمين، وسألنا عدة أسئلة عن رحلتنا، وعندما انتهت هذه الأسئلة قال: " إنني أعرف أنكم جواسيس وأنكم ذاهبون إلى إثيوبيا لإقناع الإمبراطور أن يشن حربا على الأتراك "؛ حيث حبسونا ولم ننم هذه الليلة بسبب القمل والبق، وفي اليوم التالي نقلونا إلى مساكن من الطين كأنها قلعة، وهنا قضينا عدة أيام ذقنا فيها مرارة الجوع؛ حيث كان يصلنا مقدار ضئيل من الطعام؛ لأن الحراس اعتادوا أن يأكلوا المخصص لنا، وأثناء وجودنا هنا جاء إلى زيارتنا هذا المسلم الذي اصطحبناه من مسقط، وقال: إن عمدة المدينة قرر عدم قتلنا، ولكن سوف ينقلنا إلى الملك صاحب الحق أن يحكم علينا بالموت.

ومن هنا لا نستطيع أن نقول-عندما وصلنا هنا- إن عمدة المدينة استولى على مقدار من أمتعتنا، وعرفنا ما ينبغي أن يكون معنا أمام الناس، وسألنا إن كان هذا هو كل ما عندنا، وأجبنا أنه كذلك، وأمر أن تُربط هذه الأشياء، وأن تُنقل إلى الملك كما هي، وكان داخل أمتعتنا أيقونة للسيدة العذراء وأيقونة للمجدلي، وعندما شاهدوا هذه الأيقونات نظر أحدهم نظرة بعيدة، وبدءوا يلعنون هذه الأيقونات، ويظهرون تعصبهم الذي يدين زخرفة ورسم هذه

الأيقونات، وقد وقف أحد الأشراف- منسوب إلى أسرة محمد ﷺ ووجه إليهم اللوم، وأخبرهم أنهم مخطئون، وأنه حتى لو كان الرسام الفنان مخطئ، فإن هذه الصور قد تكون لرجل راهب، وهنا خيم الصمت على الجميع.

How they took us to the Moorish king and what happened to us on the way and on our arrival?

كيف أخذونا إلى الملك المسلم ؟ وماذا حدث لنا في الطريق وعند وصولنا؟

عندما قرر عمدة ظفار أن يرسلنا إلى الملك، نقلنا في قارب مع أمتعتنا والحراس، وسرنا بحراً لمدة خمس أيام، ثم نزلنا إلى البر، ولم نسر في ممر بل سرنا بين الصخور والشجيرات الشوكية، ووصلنا عند قرية صغيرة، أعطوني نعال ضيقة، ووصلت إلى هنا عاري القدمين، وقد امتلأت قدماي بالبثور، وفي صباح اليوم التالي سرنا على الأقدام وراء الإبل على امتداد ممر صخري ضيق، وتحملت آلام شديدة من السير عاري القدمين إلى أن تورمت قدماي، ولم أستطع ارتداء النعال الذي أعطوني إياه، والأب أنطونيو مونسريت لم يقدر على أن يواصل السير مع الإبل؛ حيث إنه رجل مسن.

وفي اليوم التالي سمحوا لنا أن نركب الإبل وسط الأمتعة، ثم دخلنا صحراء رملية شاسعة، وعندما حان وقت تناول الطعام أشعلوا النيران وجهزوا مقداراً من الجراد قدموه لنا، ولكن لم نقدر على تناولها، وعندما لاحظوا إعراضنا جهزوا خبزاً من دقيق القمح من الذي أخذناه معنا على القارب، وجهزوه على النار، ومن ذلك الحين اعتادوا أن يقدموا لنا هذا ولا شيء غيره، وكان عزاؤنا الوحيد أن الخبز كان قليلاً، ومن هنا كنا دائما نشعر بالجوع.

إن الماء في الصحراء قليل، وقد قدروا احتياجاتنا من مياه الشرب التي حملتها ظهور الإبل، وذات يوم وقعت أبصارنا على وادي يجري في الصحراء، أسعدنا رؤية هذا الجدول الصغير، وأخذنا نحلم أن نشرب أكبر مقدار من الماء، ولكن هيهات، عندما وصلنا هذا المكان وجدناه سرابًا، عبارة عن رمال ناعمة حملتها الرياح، وأصبح شكلها وكأنه مياه جارية، وهذا الشكل لم يكن يزيد ارتفاعه وقتها عن ثلاثة أو أربعة أشبار عن السطح.

وقال المصاحبين لنا: إنه عندما تأتي رياح أشد تحمل الرمال في اتجاه واحد، وتصنع التلال، والشمس فوق هذه الرمال في اتجاه وكأنها في بلاد الشام، ولم أعد أقدر أن أفتح عيناي، وأخذ الدمع يسيل منهما؛ حيث لا يغطي وجوهنا شيء إلا غطاء أبيض بسيط فوق رؤوسنا؛ لأنهم أخذوا كل شيء كان معنا، وتركوا له قطعة من القماش الخشن للأب مونسريت يضعها فوق رأسه؛ ليحمي بها نفسه من حرارة الشمس.

سافرنا عبر الصحراء مدة عشرة أيام دون أن نلتقي بإنسان واحد، ولم نسر في طريق واضح؛ ذلك أن الرمال غطت الطرق، ومن هنا عرفوا طريقهم نهارًا باستخدام الشمس وليلاً باستخدام النجم القطبي، وفي مساء اليوم الأخير وصلنا مدينة كبيرة عرفوها باسم تريم Tarim، وانتشرت الأخبار بوصول سجناء برتغاليين، وجاء حشد من الناس لرؤيتنا قبل أن ندخل المدينة.

وفي بداية الأمر أخذوا ينظرون إلينا في دهشة دون أن يقولوا أي شيء، ثم أخذوا يسألون المصاحبين لنا إن كنا نؤمن بالإسلام، وعندما رد هؤلاء أننا لسنا مسلمين، أخذ هؤلاء الأهالي ينادون علينا باسم الكافرون Cafarun، وهذه الكلمة في العربية تعني رجل لا دين له، صبوا علينا اللعنات والإهانة، تدافعوا للبصق على وجوهنا، ووصل

الأمر إلى أن ضربونا بأيديهم، ولم يقدر الرجال المصاحبون لنا على الدفاع عنا ضد هذا الجمهور الذي كانت تحتشد به الشوارع التي شقتها الإبل.

ووصل الأمر ذروته في الخطورة؛ حتى أنهم اضطروا أن يلجئوا بنا إلى الدخول في أحد المساكن؛ حيث بدأ الصبيان يلتقطون الحجارة ليرمونا بها، وفي هذا المسكن قضينا يومًا، وفي اليوم التالي وقبل الفجر أخذونا على الأقدام في عجل إلى أن خرجنا من المدينة؛ ذلك لأنهم كانوا يخشون الهياج عند رحيلنا؛ مثل ذلك الذي حدث عند وصولنا، وجاءت الإبل في أعقابنا.

في ذلك اليوم وبعده بيومين آخرين مررنا بعدد من المدن، لكن الذي حدث لنا في تريم Tarim لم يتكرر مرة أخرى، وعند سفوح الجبال شاهدنا عدداً من القلاع القديمة، وأخبرنا الرجال المصاحبين لنا أنها أنشئت على يد مسيحيين منذ أزمان قديمة، وفي آخر مدينة التقينا مع شقيق الملك ويدعي جعفر Xafer، أمر الرجال أن يأخذونا إلى منزله الكبير.

كان الرجل يجلس على أرض يغطيها سجاد حسب عادة المسلمين، وعندما وصلنا استقبلنا الرجل استقبالاً حسنًا، وأجلسنا وقدم لنا التحية من القهوة، وهي عبارة عن ماء يغلي فيه ثمرة عرفوها باسم "البن"، واعتادوا أن يشربوها ساخنة مكان النبيذ، وسألنا عن هويتنا ومن أين جئنا ؟ وبعد حديث استمر لوقت قصير طردنا، وتحدث إلى الرجال المصاحبين:"أن هؤلاء الرجال ينبغي ألا يعاملوا معاملة المسلمين".

وتركنا هذا المكان في مساء هذا اليوم، واستغرقت رحلة السفر طوال الليل، ووصلنا مع فلق الصباح ووصلنا مدينة عرفوها باسم حينان Heinan؛ حيث كان يقيم الملك، ويعرف بأنه سلطان عمر

Humar، ثم أخذونا إلى القلعة التي يعيش فيها، وكان البناء عالياً مبنيًا من الطوب اللبن كما كانت تبنى مساكن هذا الزمان، ووضعونا في برج فوق الجدار حتى لا يقلقنا الجمهور الذي سعى لرؤيتنا.

وبعد يومين من وصولنا أمرهم الملك أن يسلمونا ملابسنا؛ لأننا أصبحنا شبه عراة، ولكنهم لم يسلمونًا كل شيء، وفي المساء أخذونا إلى المكان الأعلى في القلعة؛ حيث كان الملك جالساً فوق مصطبة ارتفاعها عن الأرض ثلاثة أو أربعة أشبار، كان يرتدي تونك أخضر اللون، وفوق رأسه عمامة أطرافها مزخرفة بخيوط الذهب، في الأربعينيات من عمره، متوسط الطول، ويجلس أمامه على الأرض أحد الأشراف Xarife (من نسل رسول الله ﷺ) كانوا يحترمونه أشد الاحترام لهذا السبب، وكان بقية الرجال الحاضرين وقوفًا، وتقدمنا لتقبيل يد الملك، وبالتالي دعانا بكل سرور للجلوس، ولكن الملك لم يرغب في وجود الشامي المترجم؛ ذلك لأنهم يسيئون الظن بالشاميين .

وأمر الملك بإحضار امرأة بورمية الأصل Burmese من صويحبات الملكة؛ عندما جاءت تحدث إليها الملك باللغة العربية، ثم نقلت إلينا كلامه باللغة البرتغالية، يقول الملك: "لا تحزنوا، جئتم هنا بمشيئة الله. وأن سوآتكم جلبتكم هنا بين هؤلاء الأشرار". ثم أخذ الملك يسألنا عن هويتنا، وعن سبب ذهابنا إلى إثيوبيا، وأجبنا أننا آباء، وأننا قاصدين الذهاب إلى إثيوبيا؛ حتى ننضم إلى البرتغاليين الذين وصلوا هناك منذ دخلوا في عصور قديمة، وبعد نهاية الحديث طلبنا منه أن يستجيب لنا، ويأمر بتسليمنا كتب القداس، فأجاب: إن شاء الله، إن شاء الله، وهنا أعادونا إلى المكان الذي كنا فيه من قبل.

وفي اليوم التالي سلمونا كتب القداس، وغيرها من الكتب، وكان هذا بمثابة تعظيم لنا، وشكرنا الرب لأجل هذه الرحمة الكبيرة بأن يسر لنا القيام بالقداس.

مكثنا هنا عدة أيام دون أن ندري نوايا الملك، إلى أن جاءت إلينا هذه السيدة التي قامت بعمل المترجم لأجل زيارتنا، وقالت لنا: إن الملك أراد أن ندفع فدية، ولكنه لم يرغب أن يفعل هذا حتى يعرف رأي الأتراك الذين كان يدفع لهم الجزية، وقالت أنها ترى أنه سوف يتركنا لحال سبيلنا، وسألنا هذه السيدة كيف اعتقلت، قالت أنها تنتقل من Chaul إلى هرمز في مركب هبت عليها العاصفة التي دفعت إلى شهر Xaer -وهو ميناء ينتمي إلى هذا الملك-، وأثناء ركوبهم أمام المدينة جاء بعض المسلمين إليهم في قارب صغير، وأخبروهم أنهم أصدقاء البرتغاليين، وأنهم يستطيعون النزول إلى البر بكل أمان؛ ليحصلوا على قدر من الراحة، عندئذ نزل كل الركاب من على ظهر القارب، وعندما نزلوا إلى الساحل استقبلوا استقبالاً حسناً .

ولكن في اليوم التالي وقعوا في الاعتقال، صعد المسلمون إلى السفينة باستخدام بعض القوارب، واستولوا عليها بدون مقاومة، وأخذوهم جميعاً إلى الداخل إلى نفس المدينة؛ حيث كان يعيش والد الملك، ولقد بذل الرجل جهده حتى يحولهم جميعا إلى الإسلام؛ خاصة البرتغاليين، وكان عددهم ثمانية رجال، كان هؤلاء الأسرى متمسكين بدينهم؛ حتى أنهم ماتوا بسبب المرض؛ تاركين رجلاً أسود، هذا الرجل الأسود اعتاد أن يتودد إلى رجل مسلم كان يذهب كل عام بالسلع إلى مالِيندي Melinda.

وذات يوم طلب من المسلم أن يحمل رسالة إلى العمدة، وقال المسلم: إنه سوف يحملها، وسوف يعود له بالرد، وأخذها وسلمها إلى

الملك، الذي اهتم بقراءتها، حيث قال في الرسالة: إذا كان لهم أن يصلوا في خداع إلى مكان معين حدد اسمه، يستطيعون دون أية مقاومة أن يأخذوا أسرى يدفعون عنهم الفدية، وغيره من المسيحيين من الهند الذين كانوا هناك أسرى، وغضب الملك، وأرسل يستدعيه، وسأله عن نسبة الرسالة له، وما هي علاقته بها ؟ فأجاب: أنها بالفعل رسالته، قال الملك إما أن تتحول إلى الإسلام أو تقطع رأسك ؟

وأجاب أنه ليس الرجل الذي يتحول إلى الإسلام، وأنه له حرية اختيار الفعل الذي يراه، واستمر النقاش، وتحدث الرجل بعاطفة الولاء والحرية المسيحية، اشتد سخط الملك وأمر أن تقطع رأسه في حضوره، ويلقى بالرأس مع الجسد من شباك القلعة، وبعد ذلك لم يفكوا الأغلال عن المرأة، واستمرت كذلك أربع سنوات إلى أن تدخل الإسلام، وعندما وجدت نفسها في هذا المأزق ولا أمل لها في فدية، اعترفت بإسلامها وقالت: " إن هذا لم يحول قلبها، وأنها مكثت هناك أربعين عاما"، وشرحنا للسيدة مدى عظمة موت هذا البرتغالي وماذا ينبغي أن تفعل لأجل خلاصها، ورغم أن دموعها كانت غزيرة لم يكن للأمر حيلة.

قضينا أربعة أشهر في السجن نعاني الحرمان، وكان الأهالي كذلك لأن هذا الإقليم من الجزيرة العربية والذي يعرف باسم حضرموت إقليم فقير، معظمة صحراوي، والجزء المزروع منه ينتج القليل بسبب ندرة مياه الأمطار، فهم يزرعون بعض القمح، وكان الشعير هو المحصول الأساسي، وعندهم بعض أشجار النخيل.

كانت ملابس الرجال في العادة رديئة، شعورهم طويلة مجدولة باستخدام دبابيس من الحديد، ويستخدمون الدهون التي كانت تزيد من رداءة شكل شعورهم، وكانت النسوة يستخدمن غطاء رأس من

القماش الأبيض، وعندما يخرج النسوة من البيوت يغطين وجوههن بنقاب أسود مثل الراهبات.

وكانت النسوة تتمسك ببعض العادات التي كانت معروفة في عصور الكنعانيين المبكرة، وكانت إذا ماتت للملك واحدة من بناته؛ كانت النسوة يأتين من كل صوب قريب على الأقدام سيراً، يغطي وجوههن التراب، وبكل الأسى يأخذن الملكة إلى منزل قرب القلعة حيث يقضين شهراً حداداً، واعتدن الخروج يومياً، صباحاً ومساءً إلى سطح المنزل، وكان السطح متسعاً، وكن يصطففن في صفين متقابلين وجهاً لوجه، تتماسك أيديهن، وبين الحين والحين يلففن أذرعهن حول بعضهن البعض، ويصحن عالياً، وكأنهن ينادين بعضهن البعض بالعويل.

لم يعتادوا على دفن موتاهم في المساجد، ولكن كانوا يذهبون بهم إلى الخلاء خارج الديار كما يفعل كل المسلمين، ثم يضعون فوق القبر عدداً من الأحجار، ويستطيع أي واحد أن يقيم أربعة أعمدة حجرية، ويقيم فوقها قبة.

إن الجميع هنا من المسلمين، وينطقون كلمة التوحيد، ومحمد رسول الله ﷺ، وهناك المؤذن الذي ينادي للصلاة قبل الفجر، وعند الظهيرة، وفي المساء، ينادي بصوت مرتفع من فوق برج مرتفع يقول: "لا إله إلا الله محمد رسول الله"، الصلاة، لا إله إلا الله. وهؤلاء ينكرون الثالوث المقدس؛ ذلك أنهم ينكرون عدم وجود الابن، ذلك أنه مذكور في أول آية وأول سور من القرآن آية: "لم يلد ولم يولد" .

جدير بالذكر أنه عندما ينادي المؤذن بهذا النداء فإنه يغلق أذنيه بأصابعه، وعندما سأل الأب أنطونيو مونسريت أحد المسلمين عن السبب وراء ذلك، أجاب أن هذه الكلمات قوية، وأن قوتها قد تدمر

السمع، ولقد اندهشت عند سماع هذا، قال الأب: ذلك لأنني استمعت لهذه الكلمات أكثر من مرة وكثير من المسلمين استمعوها كل يوم، ولم يصبهم شيء، وأنا لم يصبني شيء، ولم أعرف أن واحداً من هؤلاء المسلمين أصيب بهذا، ولا شك لو كان هذا حقيقة، فإن كل المسلمين لابد وأن يصيبهم هذا الأذى، عندما سمع الرجل المسلم هذا الكلام غضب ثم انصرف.

How they took us to the Turks and examined us when we reached them?

كيف أخذونا إلى الأتراك وكيف استجوبونا عندما وصلنا إليهم ؟:

بعد أن قضينا أربعة أشهر في حبس الملك المسلم، وصلنا إلى مملكة تعرف باسم اليمن، وتبدأ حدودها من مدخل خليج مخا Meca يحكمها باشا تركي، هكذا عرفناه؛ لأن الملك الذي كان تابعاً له كتب له أن يرسلنا إلى هناك في الحال؛ لأن كل الأسرى البرتغاليين موضع اهتمام التركي الكبير، وأحس الملك بالأسف على هذا، ولكنه لا حول له ولا قوة ضد الأتراك، ومن هنا قرر أن يرسلنا وبصحبتنا أربعة خيول أصيلة؛ حتى لا يتهم بأنه استولى على كثير من أمتعتنا، أو أن يلام بالاحتفاظ بنا عنده فترة دون أن يبلغ بذلك.

واستدعى الرجل المكلف بأن يأخذنا، ونصحه أن يهتم بنا في الطريق من حيث الطعام، وكل ما هو ضروري؛ دون أي شكوى أو كلام منا، ونحن لم نطلب أي شيء، وأمر أن يعطونا الجياد لنركبها في الرحلة؛ بالإضافة إلى حراسة جيدة؛ حيث إن الطريق معرض لظهور لقطاع الطرق.

وبعد أن أعد شيء بدأنا الرحلة، عشية تعميد القديس يوحنا، وبعد رحلة سفر يومين وصلنا عند آخر قلعة للمملكة، وهنا أخذوا يزودنا بالمياه في قرب من الجلد حملتها الإبل، وسرنا في رحلة صحراوية

طويلة استغرقت مدة أربعة أيام ولياليهم دون توقف إلا عند الظهيرة، وعند منتصف الليل حتى يتناول الرجال والإبل الطعام.

وعندئذ تباطئوا قليلاً؛ إذ لم تعد هناك قطرة ماء في كل هذا الامتداد الصحراوي، وكانوا خائفين أن تأتي سحب تغطي عليهم رؤية النجم القطبي الذي يسترشدون به، ولم يعد هناك طريقة ولا علامة على وجود الطريق، وإذا لم يقطعوا رحلة السفر ليلاً، فإن مقدار الماء الذي معهم لن يكفي، لقد تحملنا متاعب شديدة خلال هذه الأيام لسببين، طريقة عدو الإبل عندما تسرع، وقلة النوم خوفًا من السقوط من فوق سنام هذه الإبل من هذا الارتفاع، ورغم السفر بهذه السرعة فإن هذه الإبل لم تشرب الماء.

في صباح اليوم الخامس وصلنا عند ينبوع ماء حيث مكثنا بعض الوقت للراحة؛ حتى جاء المساء، ثم واصلنا رحلة السفر عبر صحراء لا نعرف لها نهاية، وعندما حل الصباح قامت عصابة وفاجأت شريف كان في الخلف وهاجمته، ولم يجد أن يقول أنه ينتسب إلى أسرة محمدﷺ، ولقد تأثر كثيراً بسبب هذا، وقال: إنهم لم يكتفوا بسرقة أمتعته بل ضربوه دون أي احترام لنسبته لمحمد ﷺ .

وفي اليوم التالي وصلنا إلى مكان يعرف باسم بلقيس Melquis؛ حيث شاهدنا آثار مباني كبيرة، وشاهدنا أحجار عليها كتابات لم يقدر الأهالي على قراءتها أو تفسيرها، وكان يوجد فناء واسع اعتادوا أن يستخدمونه للدفن، وعندما سألناهم عن ماهية هذا المبني، أخبرونا أنه يوماً ما كان مدينة كبيرة، وأن ملكة سبأ كانت تمتلك أعداداً من الماشية هنا، ولو أن هذا الكلام حقيقة فإنه يؤكد رأي لويسBrother Lauis de Urreta الذي أكد في الفصل السادس من كتابه الأول، ولأجل التوفيق بين الآراء التي تقول: إن ملكة سبأ عندما أرسلت إلى أورشليم إلى سليمان، انطلقت البعثة من إثيوبيا .

وأصحاب الرأي الآخر يقولون: إن البعثة انطلقت من الجزيرة العربية، ويقولون أيضا أن ملكة سبأ كانت سيدة على جزء من بلاد العرب السعيد Arabia Felix التي كان يسكنها السبئيون والحضارمة، وهي عندما سافرت إلى أورشليم انطلقت من إثيوبيا وعبرت البحر الأحمر، وزارت الأقاليم التابعة لها في طريقها، وانطلقت من هناك إلى أورشليم، وكلاهما يقول الحقيقة على هذا الشكل، ولقد تناولنا هذا الموضوع في كتابنا الأول، ومن هنا فإنني أشير إلى الموضوع إشارة عابرة.

واصلنا رحلتنا من بلقيس فقطعنا اثنتي عشر يوما في بلاد آهلة بالسكان، ولكن أرضها وعرة، وعند عبور وادي واسع سقط الأب مونسيرت من فوق الناقة؛ حيث كان الماء الذي يجري قليل، فإنه اصطدم بالأرض حتى أنه فقد الوعي فترة طويلة، وكان لا يزال يتألم من الجرح إلى أن وصلنا مدينة صنعاء Cana؛ حيث كان يعيش الباشا التركي وهو الحاكم الذي يطلقون عليه اسم سوباشي Subaxi والذي خرج لاستقبالنا على الطريق قرب المدينة، ومعه رجال منهم من يركب الخيل وآخرون على الأقدام، وكانوا يدقون الطبول باستخدام أواني الطهي، وأمر أن نذهب -أنا والأب- أمام جواده، وبهذا الشكل أخذونا عبر شوارع المدينة إلى القلعة التي يعيش فيها الباشا.

إن بقية الرواية لا تشمل أي شيء له أهمية طبوغرافية إلا هذا الوصف الموجز عن صنعاء في الفصل ٢١، فقد كانت مدينة عظيمة في عصورها القديمة، وبعد أن استولى عليها الأتراك نقص عدد سكانها؛ حتى لم يعد عدد مساكنها يتعدى ٢٥٠٠ مسكن من بينها ٥٠٠ مسكن لليهود، وداخل أسوارها المبنية من الطوب السميك، وعدد كبير من الأبراج توجد الحدائق والخمائل ذات أنواع من الفاكهة

التي يوجد مثلها في البرتغال، وكل هذه الحدائق تروى من الينابيع؛ حيث إنه لا يوجد عين ماء واحدة داخل المدينة.

وبقي الرجلين اليسوعيين في صنعاء حتى عام ١٥٩٥م، ونقلا إلى مخا Mocha؛ حيث مكثوا فيها حوالي عام قبل أن تصل الفدية، فعادوا إلى الهند، وكلا الرجلين أصابهما المرض نتيجة هذه المعاناة وتوفي الأب مونسريت، أما عن بيز Paez وقد شفي وفي عام ١٦٠٣م نجح في الوصول إلى إثيوبيا؛ حيث عاش بقية حياته.

ملحـق ... Appendix.

حضرموت تحت حكم السلاطين الكثيريين خلال الحقبة البرتغالية

Hadhramaut Under Kathiri Sultans During Portuguese Era

عندما يقرأ المرء كتاب التاريخ الذي ألفه بالفقيه Bal-Faqih al-Shihri الشهري(Mukalla M.S.)يلاحظ أن سلاطين الكثيري كانوا جميعاً متسامحين مع المسيحيين، وكانوا يحصلون على الفدية عن أسراهم عوضاً عن قتلهم، والبرتغاليين كذلك حولوا الأمر إلى شأن تجاري بأخذ أسرى من المسلمين، وإطلاق سراحهم مقابل فدية، وإن كان هناك قدر بسيط من التجارة بين أصحاب الملتين تسجلها المصادر.

إن بدر بو تويريك Badr Bu Twairiq استخدم الأتراك والبرتغاليين والمهرة، في جيوشه حسب رواية بالفقيه، ويعتقد أنه حاول أن يقنع البرتغاليين لاعتناق الإسلام، ولم يضغط عليهم لقبوله، إن بدر في سياسته التوسعية نحو الغرب - شبوة Shabwa، وهيدي Wahidi، والعلاقي Aulaqi، كان عنده ما يشغله دون أن يقاتل الأتراك أو البرتغاليين؛ حيث تعامل مع الطرفين في أوقات مختلفة.

وفي ذات مرة فكر أن يبيع شهر Shihr إلى البرتغاليين، وتحالفه مع الأتراك ليس فيه أي إشارة عن تغير السياسة، ولعله ركز على هذه المعاملة مع الأتراك باستخدام العلماء Ulema الذين لم يوافقوا على التحالف مع المسيحيين؛ رغم أنه حسب رواية صلاح البكري في كتابه بعنوان: "في جنوب جزيرة العرب" Fe Ganub Gazirat Al-Arab- صدر في القاهرة عام ١٩٤٩م-يؤكد أن بدر في وقت ما استولى على نجران، ومن الواضح أنه لم يفكر في أن يوسع الأرض في بلاده المهرة Mahra، وعن خلفائه الذين لا نعرف عنهم الكثير لم يكونوا أقوياء، وخلال فترة حكم أحد خلفائه قدم اليسوعيين الأسبان إلى حضرموت.

The Route Of Jesuit Fathers

طريق الآباء اليسوعيين

من ظفار إلى تاريم، إن تحديد الطريق الذي سار فيه الآباء إلى تاريم يواجه عدة مشكلات، وأول هذه المشكلات أنهم أنفسهم لم يستطيعوا تحديد المنطقة التي نزلوا عندها على الساحل، والثانية تتمثل في وصف الطريق إلى تاريم؛ لأنه يقع وسط صحراوات رملية.

وفي وقت ما غير محدد عند نهاية فبراير، ومن الأهمية بمكان أن التخمين الأقوى للتجوال وقع في خلال الأيام الأولى لوقوعهم في الاعتقال؛ عندما كانوا يتوقعون مواجهة نهاية سريعة، رحل الآباء على ظهر قارب صغير من ظفار إلى سلطان حضرموت، عمر بن بدر بو تركي الكثيري، ولم يسألنا عن أسباب ترحيلهم بحراً، دعنا نؤكد أن الرحلة البحرية أسرع وأسهل وأرخص عن الترحيل البري؛ خصوصا أن اتجاه الرياح الموسمية تسير في اتجاه الجنوب الغربي، وهناك سبب آخر، وهو سبب سياسي، أن المهرة وسلطانهم في قيش Qishn من أعداء بدر بو تركي، ويبدو أنه مستحيل أن يوجه سياسته التوسعية نحو أراضيهم.

وفي عام ٩٣٨هـ (١٥٣١-١٥٣٢م) قبل ذلك بحوالي ستين عاما، هدد المهرة بالاستيلاء على شهر Shihr، وحيث إن بدر عقد تحالفًا تركيًا، فإن المهرة يميلون نحو التعاون مع البرتغاليين، وفي حالة وجود المزيد من المعلومات الآن قد نفترض أن المهرة كانوا لا يزالون أعداء الكثيرية، وعلى أية حال كان يستحيل سياسيًا إرسال هؤلاء الأسرى إلى سلطان الكثيرية براً.

والنقطة التالية تتعلق بالمكان الذي كان الآباء موجهين له، وهذا الاستنتاج الوحيد أنهم كانوا ذاهبين إلى شهر Shihr، أو على الأقل

إلى واحدة من الموانئ الأقل أهمية في الإقليم، تقع شهر Shihr عند الطرف الجنوبي للطرق الرئيسية في وادي حضرموت، ولقد كانت تلعب دور المركز الإداري الساحلي؛ حيث قد يضع الإنسان أمله في أن يجمع أخبار حول السلطان، وعلى أية حال فإن مدة خمسة أيام من الرحلة البحرية في هذا الوقت من السنة كافية أن يصل المسافر إلى الإقليم، ولكن الأسرى لم ينزلوا إلى ميناء شهر(١)؛ بل نزلوا عند مصب وادي، ثم سافروا إلى الداخل، والتفسير الوحيد وراء هذا العمل الغريب أنهم تجاوزوا شهر Shihr، وهذا أمر يقال إنه لا يتكرر؛ لأنه حتى ولو أن هناك تعكر يصيب الجو، فإن شهر تقع في منطقة تربتها رملية منبسطة ليس من السهل تحديدها.

والرأي المطروح أن هذا الفريق إما أن نزل أرضا على مسافة قصيرة شرق أو غرب شهر، وهناك احتمال أنه بالقرب من هامي Hami التي تقع جهة الشرق؛ حيث توجد عين ماء حارة، والمدينة القديمة تقع بين التلال وراء هذا المشهد، ولا يمكن رؤيتها من البحر، أو قد يكون مكان النزول غرب شهير Shihair(٢) قليلاً ناحية الغرب؛ ربما أن قائد هذه الجماعة عند جمعه المعلومات التي أفادت عدم وجود السلطان في هذه المنطقة الساحلية، قرر أن يوفر الوقت بعدم دخوله شهر Shihr، وأخذ طريق ما بين شهر وتاريم Shihr and Tarim عند نقطة من الميناء.

وعلى الرغم من أن إعادة بناء طريق أمر سهل، ولكن لا يمكن أن نجد في هذا المكان صحراء من هذا النوع الذي وصفه بيز في بيئات شهر، وفي الحقيقة فإنه توجد مقادير كبيرة من الرمال نعتقد أن بيز ذكرها، ولكن الطريق إلى تاريم Tarim يقع بين الجبال والـ

---

(١) شحر: الأطلس صـ ٣٦ وهي ميناء. (ج/ ٣). المترجم.

(٢) شحير: رأس، الأطلس صـ ٣٦، المترجم.

Jols، ولابد أن يعبروا المنطقة الساحلية الرملية في يومهم الأول، وإذا قاموا بتقصير الطريق، فمن الممكن أن نقول: إن الجماعة لا يمكن أنها وصلت تاريم باجتياز صحراء رملية .

ويرى كامير Kammer أن نقطة الانطلاق في منطقة المهرة أمر مستحيل؛ لأنه لا يمكن لأي رحلة أن تقطع هذا الامتداد الصحراوي في عشرة أيام، وعلى أية حال فإن الدراسات الحديثة أن منطقة المهرة كلها وديان تجري بصفة عامة نحو الساحل؛ علاوة على ذلك إذا أخذنا وجهة نظر كامير في الاعتبار، فإنه لم يفلح أن يقدر لنا عدد الأيام الكافية لرحلة بحرية.

إن عامل الوقت يستثني أي احتمال عن وصولهم تاريم عبر صحراء الربع الخالي، من جهة الشمال، لو أنهم وصلوا عند المصيلح Masilah لابد أن يتذكروا المياه الوفيرة ولابد أن يتحدثوا عن السكان ..... وإلي غير ذلك، ولو أنهم اتخذوا طريق يقع غرب شهر Shihr لا يمكن أن يكونوا اجتازوا صحراء رملية وعلى أية حال فإنهم لم تنته رحلتهم عند تاريم ولكن في شيبام Shibam.

ونستنتج أن الكتابة في الموضوع بعد مضي ثلاثون عامًا جعلت بيز يخلط معاناته في الربع الخالي، أو اجتياز فروعها بالرحلة الأولي عبر الـ Jols لابد وأنه كان لديه تسجيل عن رحلاته تتطابق فيه الأوقات مع المسافات المذكورة مع الظروف، ولكن في فترة هذه المغامرات التي قام بها الآباء من المحتمل أنه لم تكن هناك كتابة صحفية، ولأن أمتعتهم لم تكن ردت إليهم بعد، ولم تكن تحت أيديهم حتى وصولوا حنين Hainin، ولعله من جانب آخر لم تتوفر لديهم وسائل الكتابة حتى وصلوا إلى صنعاء.

إن مدة عشرة أيام تعد فترة مناسبة تقطع فيها قافلة فارغة المسافة حتى تصل إلى تارم من الساحل، هناك عدد من الطرق عبر

الـ Jols إلى تارم، ولكن الكتاب العرب المحدثين أمثال محمد بن هاشم في كتابه بعنوان:"رحلة إلى الثغرين Rihla ila L Thaghrain" القاهرة ١٣٥٠هـ يصف طريق من عقبة الأرشا Aqabat al-Arsha إلى الغلاغل Al-Ghalaghil، والوصول من الـ Jols الخالي، فإن المسافرين سوف يصلون إلى تارم عن طريق عقبة با الشامي Aqabat Ba Ashmi؛ حيث كان يسير يوماً ما بطريق الكف Alkaf، وهذا يظهر التباين الكبير بين امتدادات صخرية ووادي حضرموت جاءت في وصف عدد كبير من الرحالة منذ رحلة بيز.

من حنين إلى مأرب: رحل الآباء من حنين، ففعلوا شيئًا غير عادي، التزموا بالسير عند الجانب الشمالي من وادي حضرموت، وبعد رحلة سفر ليلتين ويومين وصلوا عند آخر قلعة في المملكة، وهذه القلعة يطلق عليها اسم حسن العبر Husan Al-Abar، وهذه قلعة قديمة عرفها الحمدانيين Hamadani باسم جزيرة العرب (الفرس)، وتقريبا كل الروايات الأخرى التي تصف طريق حضرموت - مأرب؛ حيث تصفها الكتابات العربية أنها من الطريق الجنوبي عن طريق شبوة.

على سبيل المثال السيد أحمد بن حسن العطاس في Ms والمنشور في Huraidha عام ١٩٤٨م بعنوان: "رسالة في أنساب القبائل الساكنين بحضرموت Risala Fi Ansab Al-qabail al-Sakinin Bi-Hadhramaut"، والذي كتب عام ١٣١٣هـ في يوميات رحلة، والآن بخصوص ما يقع بين صنعاء وحضرموت من بداية الأمر حتى الجزء الأدنى من وادي ظفار تعيش فيه قبائل العبيدية Ubaidi والنهديين Nahdi، وهذا الجزء يمثل المرحلة الأولي.

والمرحلة الثانية تبدأ من هذا الوادي حتى صحراء شبوة، والمرحلة الثالثة إلى سعفر من جبل الملح، والمرحلة الرابعة من سعفر إلى مأرب وسبأ، والخامسة من صرواح إلى الجمرة قرية

خولان، والمرحلة السابعة من الجمرة إلى صنعاء حتى ظهيرة اليوم والمراحل ما بين مأرب وصنعاء تظهر أقصر إذا قورنت برحلات أخرى.

ويرى فيليبي في كتاب "بنات شيبة Daughters of Sheba" لندن ١٩٣٩م أنه كانت هناك طرق كثيرة عبر هذه الصحراء إلى مأرب، ومن خلال دراسة خرائطه ومن خلال خريطة المسح الجوي الأمريكي الدولية، فإن سعفر Safir تقع على بعد حوالي ٨٥ ميل غرب العبر Al-Abr؛ المسافة التي يطيرها الغراب، والتقدير السليم لهذه المسافة الأرضية حوالي ١٢٠ ميل، على اعتبار أن المسافات اليومية لرحلة أربعة أيام هي ٣٠ ميل لليوم الواحد من عبر إلى سعفر، ومن هناك حوالي يومين رحلة سفر يصل فيهما المرء إلى مأرب؛ رغم أنه لا تتوفر خرائط دقيقة أو مسافات دقيقة لهذا الجزء من الجزيرة العربية، وتعد سعفر هي النقطة التي تجتمع عليها الآراء التي وصلت إليها الجماعة.

والآن اجتمعت الآراء على فرضية أن الآباء قاموا بالرحلة إلى مأرب رغم أنهم لم يذكروا اسمها ولكن تحدثوا عن مكان يسمي بلقيس Melquis وهذا لا توجد فيه صعوبة أن يذكر نزيه المؤيد Nazih Al Muaiyed (المرجع السابق) يذكر اسم حرم بلقيس ويصفه أنه عظم المنشآت في مأرب، وهناك رحالة أحدث وهو أحمد فخري في كتابه عن الآثار في اليمن Les Antiqutes du Yemen رحلة إلى صرواح ومأرب والجوف موسيون (١٩٤٨م) يذكر آثار محرم بلقيس، وعلى ما يبدو أنه معبد "علمقة Almaqah" الكبير وتحريف هذا الاسم إلى ملقيس أمر طبيعي.

ومن مأرب يبدو أن الآباء ودون دراسة استغرقوا وقتًا طويلاً؛ حتى يصلوا إلى صنعاء، وهذا التقدير من خلال مقارنة الأوقات التي

استغرقتها رحلات أخرى، ولقد أخذت الجماعة معها هدية عبارة عن أربعة خيول من رحلة عبر الصحراء، وكانت في شهر يوليو الشديد الحرارة؛ مما أدى إلى تعرض الدواب إلى أسوأ المواقف حتى ساء حالها، حتى ولو أن علف هذه الدواب حملته الجمال، وهي الأخرى لابد أنها ساء حالها بعد رحلة صيف حار دون مرعي، وأنه لا يرقي إلى الشك أن الجماعة المصاحبة لابد وأن تتباطأ في طريقها إلى صنعاء، وذلك حتى تعطي الخيول والإبل الفرصة أن ترعى وتستعيد قوتها.

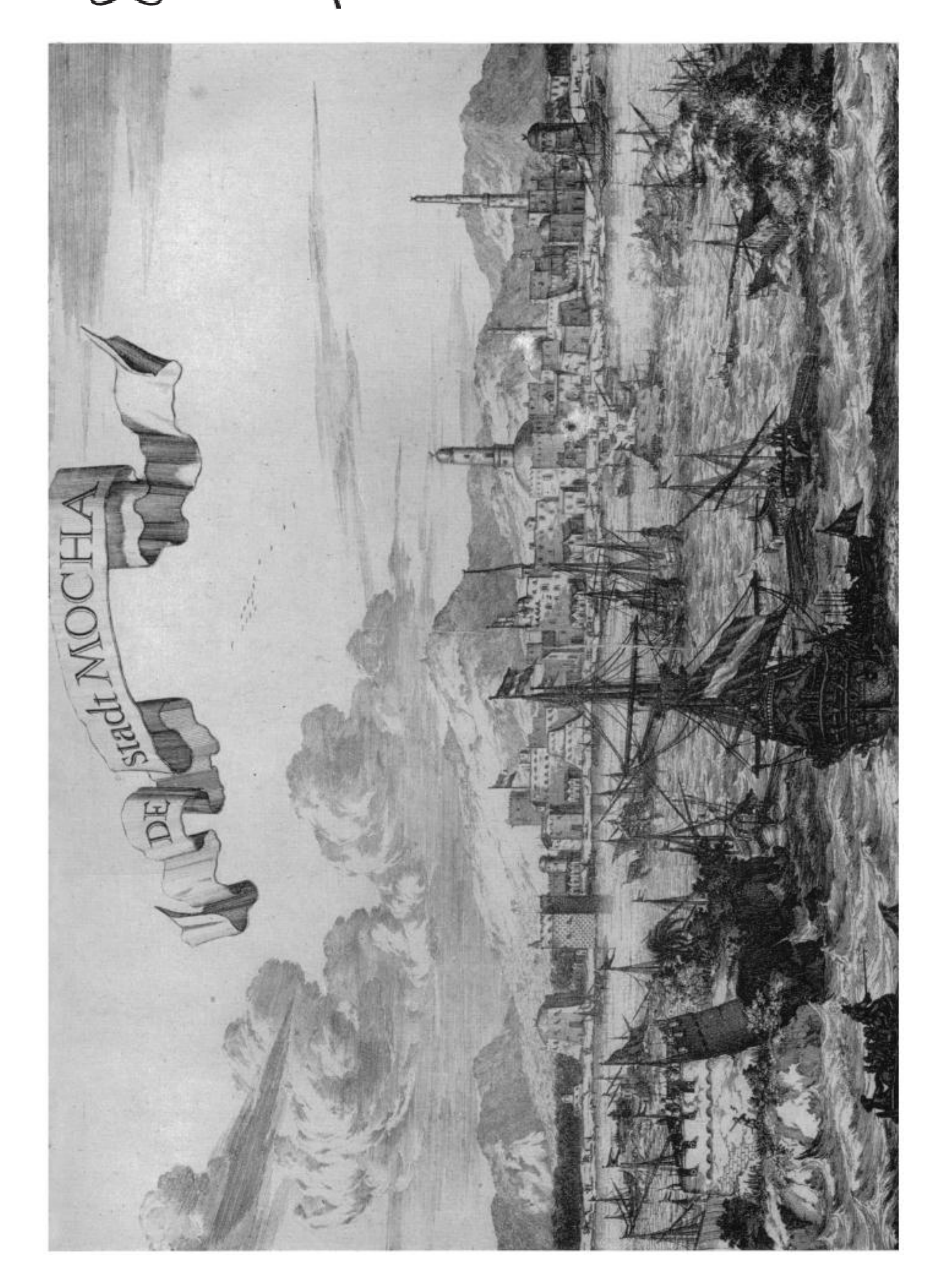
وبالنسبة لطريق صنعاء مأرب، من الممكن الاستفادة من الجولة التي قام بها أحمد فخري هناك؛ رغم أن رحلات التجول التي قام بها عدد من الرحالة إلى مأرب تشير إلى وجود عدد من الطرق هناك؛ حيث غادر أحمد فخري صنعاء في الأول من مايو عن طريق شاؤوبSha up، وادي السر Wadi El-Sirr، الروضة Al-Raudha وليقضي الليلة في غدران Ghadran، وترك وادي السر Wadi El-Sirr إلى وادي الشرفاء Wadi Al-Shurafa .

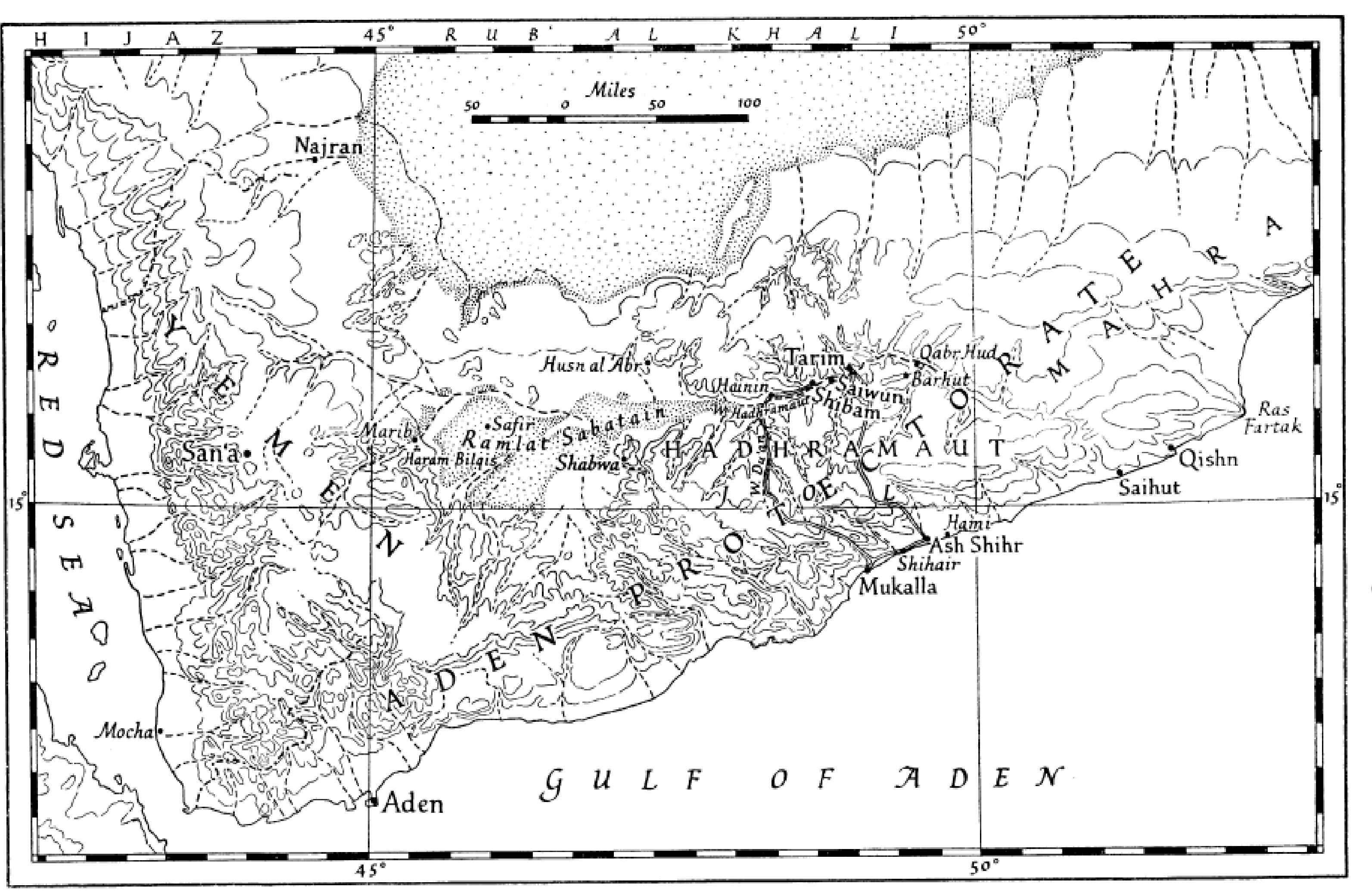
في اليوم التالي قضوا ليلتهم في الأحذوق Al-Ahzuk، وفي اليوم الثالث مروا (عبر ممر شوجا Shuga) وراءه يبدأ حارب القرامش Harib Al-Qaramish، وقضوا الليلة في الأكمة Al-Akamah، وفي اليوم التالي وبعد رحلة استغرقت ثمان ساعات وصلوا إلى قاع صرواح Qa Sirwah، وبعد مرور حوالي ثمان ساعات ونصف من السفر وصلوا إلى مأرب.

وبذلك يكون زمن الرحلة الإجمالي قد استغرق أربعة أيام؛ سواء سار الآباء باتجاه الطريق الشمالي، أو عن طريق يقع بعيداً إلى حد ما جهة الجنوب؛ حيث لا يوجد لدينا دليل يرشدنا إلى هذا، وقد يتعجب

المرء عن السبب لأنهم لم يعبروا الصحراء باستخدام طريق شبوة، وقد يكمن السبب في الظروف السياسية التي عطلت القيام بذلك.

وأخيراً إلى أن يتم نشر المواد التاريخية ذات الصلة بالموضوع وبالفترة، فإنه من الصعب أن نصل إلى حقيقة الأمر .


DE stadt MOCHA



South-west Arabia

الرحلـــة الثانيـــة

رحلة على ظهر جمل عبر صحراء الربع الخالي إلى قطر

A camel Journey Across the Rub Al Khali

- المؤلف: برترام توماس، الصفحات صـ ٢٠٩ إلى ٢٣٨ .
- المصدر: المجلة الجغرافية، سبتمبر ١٩٣١ .

هذه هي المناسبة الثالثة التي أتشرف فيها بقراءة ورقة أمام هذه الجمعية، ونتناول موضوع الصحراء الواسعة في جنوب جزيرة العرب، وهي "الربع الخالي"، ففي رحلة الإبل الأولى التي قمت بها في شتاء عام ١٩٢٧-١٩٢٨م اجتزت منطقة الحدود الجنوبية الشرقية لمسافة ٦٠٠ ميل، والرحلة الثانية قمت بها إلى الشمال قليلاً من وسط الجنوب لمسافة ٢٠٠ ميل حتى نهاية الرمال في الشتاء الماضي، والرحلتين بناءً على مبادرة شخصية بعيداً عن الجانب الرسمي.

وحتى أقوم بالرحلتين أطلقت لحيتي، وارتديت الملابس البدوية، وعشت حياتهم العادية، ولكني لم أتنكر لجنسيتي، ولم أترك عقيدتي؛ كانت الرحلتين جزاءً من مشروع تدريجي الغرض منه اكتشاف الجزء الجنوبي المجهول، وكانت كذلك جولات استطلاعية أولية لمحاولة نهائية لاجتياز الصحراء، وأن إنجاز هاتين الرحلتين هما موضوع هذه الورقة .

إنه من الضروري جداً أن تقول إن داخل الجزيرة العربية أرض محرمة بالنسبة للأوروبيين والمسيحيين على وجه الخصوص، وتتفق أصعدة ثلاثة على التصدي لأي تطفل خارجي على هذه المنطقة؛ أعني الصعيد الرسمي التقليدي البريطاني، وعلى صعيد معاهدة المشايخ Treaty Chiefs، وكذلك اتجاه السكان الأهالي أنفسهم، وهذا الاتجاه واضح منه المخاطر والتعصب الديني .

ليس هناك جهة سلطة تستطيع أو نتوقع جرأتها أن تقحم نفسها بحماس متحملة مسئولية الأمان على الحياة أو الممتلكات على هذه الأرض، ولو حاولت الحصول على تصريح رسمي لمشروع كشفي فإن هذا إما أن يدعو إلى الرفض أو الخطر، إن هذا الجزء المحظور من الجزيرة العربية لم يهتم به أحد منذ محاولة قام بها بورتون Burton للحصول على تصريح لأجل أهدافه منذ ثمانين عاما مضت.

قضيت ثلاثة عشر عاماً في أنشطة سياسية متعددة في بلاد العرب، يسرت لي خبرة عن قرب في التعامل مع القبائل العربية، لقد عرفت اللغة، وعرفت طرق حياتهم؛ مما كان يقف حائلاً دون القيام بأي محاولة لاجتياز واكتشاف الربع الخالي.

وبإتمام رحلتي الثانية دخلت في اتفاق سري مع أحد أفراد فريقي، وهو شخص مهم من أسرة آل الرشيد بأن يأتي بقافلة إلى الساحل ويتقابل معي في مطلع الشتاء القادم -أي الماضي-، ووثقت هذا الوعد أن قدمت له مبلغ عشرين جنيه إسترليني.

استعد هذا الرجل أن يأخذني إلى نقطة في الصحراء كانت قبائل مرة Murra تأتي إليها بين الحين والآخر في السنوات التي تأتي بالخير من جهة الشمال، وتنفيذ هذه الفكرة يقوم على انتقالي عبر الطريق من قبيلة إلى أخرى، وهذه تجربة عشتها في رحلتي الأولى عبر الجزء الجنوبي الشرقي في عام ١٩٢٧ – ١٩٢٨م.

في يوم السادس من أكتوبر الماضي خرجت من مسقط خفية، سرت إلى ظفار التي تقع في وسط الجنوب، وهناك أنتظر القافلة التي اتفقت معها، لم يكن هناك واحد في مسقط يعرف أي شيء عن مشروعي أو تحركاتي، عدا الوريث الشرعي للسلطان الأب؛ لأن هذا المشروع تطلب السرية التامة، إن الكشف عنه بكل الاحتمالات يغلق الطريق أمامي.

إن الأخبار سوف تنتشر؛ ذلك أن كل الأخبار تنتشر في الجزيرة العربية بسرعة مفزعة وغير مرغوبة، والشك أن أكون جاسوساً يقطع الطريق أمامي، ويحول دون دخولي، ولو أنني طلبت من بدوي أن أدخل مسكنه، أو أقترب من بئر الماء، أو الأرض التي يرعى فيها فإن هذا يثير فيه الرفض، كما أنه من الصعب جداً أن ندخل أغوار هذه العقلية.

انطلقت من مسقط عند منتصف الليل على ظهر قارب بحري صغير يرفع العلم الأحمر، وهذا العلم بناءً على ترتيب سابق، علامة لكي يتعرف عليّ في الصباح ناقل نفط، وحملني قارب بريطاني؛ حيث نقلني إلى قارب عربي صغير عند منتصف الليلة التالية؛ حتى الساحل الجنوبي من الجزيرة العربية، وهنا نزلت عند ريسوت Risut، ومنها وصلت إلى قلعة السلطان في صلاله عاصمة إقليم ظفار، وكان الذي يدور في ذهني انتظار القافلة، وساورني الشك أن هذا المكان ليس هو المكان المطلوب.

ولم يكن أحد منذ العام الماضي سمع عن سهيل الرشيدي Sahial The Rashidi الذي كنت أعلق عليه كل آمالي في اجتياز الصحراء، لقد ضلت مخططاتي، والسبب أن كانت الحرب على الأبواب، كانت قبيلة سعر Sa'ar أكبر قبائل حضرموت والعدو الأول لآل سهيل الرشيدي قطع الطريق، والبلد مغلق، والطريق مقطوع، ولا تستطيع أي قافلة أن تتحرك.

وهنا عند بداية المشوار وجدت نفسي أمام عائق لا يمكن تحريكه؛ لأجل التوغل داخل الجزيرة العربية، فلابد من قافلة قادرة ومستعدة للنقل، والعائقين الآخرين أمام الاجتياز يتمثلان في: الاتجاه الرسمي التقليدي، وعدم الأمان من هجمات الإغارات، ومن الخيانة والخوف من لمجهول، ولكنك لا تستطيع أن تتحرك قيد أنملة دون استخدام رفاق معروفين، واستخدام أجود أنواع الإبل.

ولقد علمتني تجربتي السابقة أن مشاريعي من الممكن إنجازها بواسطة قوافل آل الرشيد، إن هذه الصحراء الواسعة لا يمكن اجتيازها إلا بالاعتماد على رجال وإبل نشأوا وتربوا في ربوعها، والآن لم يتيسر واحد من هاتين، ولقد استطعت أن أشكل قافلة محلية من أشخاص العام الماضي، أو مثلهم وحصلت على دواب من جبال ظفار،

كما تعلمت من تجربتي أن هؤلاء يعجزون عن نقلي إلى أي مكان، وأصبح التأخير أمراً مقضياً، والأمل في التقدم نحو الأمام بعيد وغير مؤكد.

بحثت عن فردين من عائلة الرشيد جاءوا إلى ظفار في موسم البخور، وثقت فيهما ووعدت كل واحد منهم أن يكون له هدية ناقة؛ حتى يساعدوني في مهمة ناجحة، وبعثت الرجلين سراً إلى الصحراء، وهذه العملية لم يعرفها أحد حتى حاكم ظفار الذي أبلغ سراً أن يقدم لي المساعدة، كانت سيطرة مسقط لا تتعدى الشريط الساحلي، ولأجل أن يتعامل أي فرد معها، أو أي سلطة خارجية؛ قد تفهم دوافع الفرد وتفسر بشكل خاطئ.

إن النجاح من السهل الحصول عليه إذا استطاع المرء أن يقضي على أشكال الشكوك الداخلية من نفوس الآخرين، وأن تحقيق هذا الهدف أمر اشتهرت به شخصياً نتيجة لرحلات ناجحة قمت بها مع أبناء قبائل المناطق الجنوبية والشرقية، ولقد ارتديت ملابسهم وعشت كواحد منهم، وركبت وذهبت في رحلات صيد معهم؛ بل إنني في ثلاث مناسبات كنت مثلهم هدف طلقات العدو، كما تركت ثروة في هيئة دولارات فضة، وتركت من أشكال الجراية على الطريق المتعطش.

إن هذه الشهرة وهديتي إلى آل الرشيد عن حملة العام الماضي أثبتت مردود الاستثمار المفيد، وذلك أنه رداً على رسلي جاءت من الصحراء الجنوبية قافلة من ثلاثين رجلاً قطعت مسافة ٢٠٠ ميل بناءً على دعوتي السرية؛ حتى أهرب من محنة أعداءهم آل سعر Sa'ar، ومضت مدة شهرين مروراً بطيئاً قبل وصولهما، ومع مرور الأسابيع أخذ يساورني الخوف من انتشار الكلام في المدينة عن أهدافي

المشكوك في أمرها، وظننت أن رسلي وقعوا فريسة غارات آل سعر Sa'ar، ولم أعد أراهم بعد ذلك، وفقدت الأمل أن تتحقق مشروعاتي.

إن ظفار ليست أرض التوراة الغنية بالذهب Biblical Ophir[١]، والتي منها حصل سليمان على الذهب والبخور، هذا السهل الخصب الهلالي الشكل، والذي يحده من ناحية البحر سياج من أشجار جوز الهند، وهناك بقايا أطلال لمدينة قديمة مبعثرة هنا وهناك، ولا يوجد الكثير من الاستحكمات على الطراز البابلي .

ومن الممكن تفسير ذلك من توقعات الغزو المستمر منذ فجر التاريخ، والحكم على ذلك من وصفها المتفرد، وهبوب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية عليه، ولو كان الأمر كذلك، يظهر لنا أن معظم مواد البناء القديمة أعيد استخدامها على مر العصور، وأن الخاصية المعمارية الهامة في كل هذه الآثار تتمثل في وجود عمود حجري ضخم، مستطيل الشكل له رأس مطنف، وقاعدة مربعة، وارتفاعه حوالي ٦ أقدام ووجود الرأس يشير إلى أن هذا العمود كان دعامة قوية يقوم عليها مقرنصات، ويوجد وسط ركام الحصى شكل حجري مقوس، وهناك بناء حجري مقوس آخر من المحتمل أنه يعود إلى فترة ما قبل الإسلام.

ويربط بنت Bent بين طراز هذا العمود في ظفار وبأعمدة أخرى رآها في عدولة Adulis على البحر الأحمر، ويربط بينه كذلك وبين أخرى في كولو Kulu وأكسوم في الحبشة، ويقول إنه لا يمكن أن يكون هناك شك أن الذي قام ببنائها شعب واحد، وأنني أذكر هذا على أساس أنها واحدة من عدة نقاط تصل بين جنوب شبه الجزيرة، وبين شمال شرق أفريقيا.

---

(١) **Ophir**: أرض أوفير الغنية بالذهب المذكورة في التوراة (المترجم).

ووراء هذا السهل الساحلي، والذي مساحته ثمانية أميال، تقع جبال قرة Qara وهي عبارة عن حزام يعود تاريخه إلى العصر الكريتاسي الأعلى، وعصر الأيوسين من الحجر الجيري الذي يصل ارتفاعه إلى ٣٠٠٠ قدم، كما أن الرياح الموسمية الرطبة القادمة تبدأ من المحيط الهندي، وتسقط الأمطار هناك لمدة ثلاثة شهور على الجهة الجبلية المواجهة للبحر، مما يغطي الأرض بأنواع النباتات التي لا يوجد لها مثيل على طول وعرض الجزيرة العربية.

هنا توجد غابات كثيفة تقارن في أحجامها مع مثيلاتها في إنجلترا، وأشجار التين، والجميز، وأنواع الزواحف العملاقة تمتلئ بها الأودية الملاصقة للبحر ومنحدرات التلال، وفوق في الجهات الأعلى تشاهد المروج، وتشاهد قطعان الماشية ترعى، وفي هذه الجبال تحولت للكشف وأنا في هذا الوقت أنتظر وصول القافلة الصحراوية التي أنتظر وصولها بفارغ الصبر، وبغض النظر عن العباءة التي تستر السر وتحفظ طموحاتي، يسرت لي فرصة القيام بأبحاث وتحريات أنتروبولوجية ولغوية، وهي أمور كانت محط اهتمامي على مدى سنوات طويلة، بالإضافة للقيام بجمع حفريات عضوية لتقديمها إلى متحف التاريخ الطبيعي.

إن اللغة، والثقافة، وصفات الوجه لهذا الشعب الجبلي في جنوب الجزيرة العربية مختلف كلية عن عرب الشمال، وفي الحقيقة إذا اعتبرنا السمات السامية، والتي تتمثل في الأنف المقوس والرأس الطويل صفات عربية سامية أصيلة لعرب الشمال، وكل العرب على وجه العموم، فإنني أشعر أن أهل الجنوب - أقصد ليس فقط أهالي جبال ظفار بل القبائل الواقعة جهتي الغرب والشرق - يمثلون امتداداً لبقايا غير عربية، وأنني في مناسبة سابقة طرحت عدداً من الأسباب للاعتقاد؛ إما أن هذه القبائل من ناحية تحمل جزءً من أصل أفريقي،

أو أن عرب الجنوب، وبعض قبائل شمال شرق أفريقيا يعودون إلى أصل واحد.

أخذت معي أدوات قياس الجماجم، وقمت بعملية قياس عدد خمسين جمجمة وأطوال القامة، وأخذت صورة كاملة للوجه لأكثر من خمسين عينة، وهذه المادة البحثية تعد الأولى من نوعها من هذا الجزء من الجزيرة العربية، ذلك لأن الأهالي يكرهون أن تمسهم يد غير مؤمنة، وفي الكثير من الحالات اعترضوا بشدة على أخذ صور فوتوغرافية لهم، وأملي أن هذه المادة تخدم علماء الإنتروبولوجيا؛ ليخرجوا لنا بمزيد من المعلومات عن أهالي وأصل جنوب الجزيرة العربية عن ذي قبل، وأن ورقتي هذه بعنوان: "انتروبولوجيا صحراء جنوب الجزيرة العربية"، سوف تنشر في صحيفة معهد الدراسات الانتروبولوجية الملكي.

وصلت القافلة -عبارة عن ثلاثين رجلاً، وأربعين ناقة-؛ بينهم ربيعة Rabies من قبيلة كربKarab وقبائل العوامر Awamir ضماناً أن تفزعنا غارات القبائل إذا واجهناهم، ومع القافلة جاء صالح بن قلوط Salih Bin Kalut، وهو أحد الشيوخ الإخوة الثلاث لقبيلة الرواشد، وآمنته على السر، وكشفت له عن مشروعي، وقال: إن هذه أمور غير عملية، وكان على استعداد أن يصحبني إلى الصحراء الجنوبية؛ حيث كانت تعيش قبيلته، وأن يعيدني إلى ظفار إن شاء الله، ولكن في جهة الشمال تعيش قبائل مرة، وهو لا يستطيع شخصياً أن يذهب إلى هناك بدون حماية بني مرة، وقال: إن المسافة قليلة. وعلى أية حال لم يكن أحد يعرف عيون المياه إلا قبائل مرة، وعزمت على أنه إما أن أجتاز الصحراء وألا أبدأ الرحلة، وهو من جانبه أصر على أن هذا يفوق قدرته.

وعلى مدى ثلاثة أيام من النقاش والجدل، وكان واضحًا أمامي أنه لم يكن يضمن تعاون أي قبائل أخرى، وكان هذا الضمان ضروريًا لصالحي، ومن هنا كنت مضطرًا أن أقبل تعهده أنه سوف يعمل لأجل صالح أهدافي، ولم تعرف القافلة الحالية أي شيء عن أهدافي، والذي كان لابد أن يعرف شخص صالح؛ رغم أن الجراية المحمولة تثير العجب.

وهذه القافلة صدها من دقاقة Dakaka في صحراء الجنوب، وهذه دقاقة مفتاح الصحراء هذا العام، بسبب أمطار العام الماضي (التقيت معهم شخصيًا عند هذه الأطراف الجنوبية) والتي يسرت أن تغطي المراعي الخضراء معظم أرض دقاقة، وبالتالي كثرت قطعان الرعي، وطريقنا من الطبيعي أن يكون هو هذا الطريق؛ طريق المراعي الخضراء، ولكني أدركت أن مجموعة واحدة من الإبل لا تستطيع أن تجتاز هذه الصحاري بالسرعة التي أريدها، وكانت الإبل محملة بأثقال ولسوف يسوء حالها.

وفي الحقيقة أن الشيخ صالح رأى أن أربعة من الإبل عدد كافٍ؛ رغم أن ثلاثة كانت تكفي، ولكن لابد من توقع ما تخفيه الأقدار - والمشكلة تكمن في الآتي:

١) رأى قبائل مرة أثناء مروره في أراضيهم،
٢) ووجود المراعي الغنية هذا العام يجعل الرحلة أكثر سهولة،
٣) والقدرة على إقناع البدو أن يخاطروا بإبلهم .

وكان من المتعذر هذه المرة تحديده الرأي الذي سينفذ، وكان من غير المؤكد ترجيح رأي ما في هذه البدائل، وذلك بعد عناء شهرين من الرحلة، واحتمالات النضال أو التعاون من جانب قبائل (المرة) كان يستطيع أن يقررها الشيخ صالح.

وفي اليوم العاشر من ديسمبر انطلقنا نحو الشمال، والبدو المصاحبين لي حصلوا على جراية تكفيهم عشرين يوماً، وهذه المدة الكافية للوصول إلى ضاحية خور Khor Dhahiya؛ حيث توجد عين ماء مشهورة، وقطع هذه المسافة التي تقدر بـ ٢٠٠ ميل عن الساحل من شأنه أن يرهق الإنسان ودابته، ذهاباً وعودة .

وكانت ظهور الدواب مثقلة بالتمر، والدقيق، والزبد، والأرز، مما يكفي للرجال مدة ستة أسابيع، وكانت كمية هذه الجراية معدة على أساس التناقص المتواصل في أفراد الطاقم المصاحب، وأنا في طريقي جهة الشمال، وهذه كانت تمثل المرحلة الأولى من الرحلة، والتي كانت معرضة لغارات الأعداء، ولقد احتجنا في حالات المواجهة أن نقدر على أن نراجع حساباتنا بأنفسنا، ولأسباب مالية سوف أضطر أن أوفر في عدد الرجال المصاحبين إلى اثني عشر رجلاً، ولكن الخوف من قطاع الطرق في منطقة حضرموت على وجه الخصوص من أعدائهم من قبائل سعر Sa'ar؛ مما جعل الطاقم غير راغب أن يتحرك في عدد أقل من أربعين رجلاً.

وفي الحقيقة أن الأعداد الزائدة ضمت نفسها إلينا في المرحلة الأولى من الرحلة دون انتظار مكافأة؛ بل لأجل الحماية فقط، وجماعات الإغارة من مائتين أو ثلاثمائة كانوا غير معروفين في هذه الجهات، وكانت عمليات السطو على الإبل، وسرقة البنادق، وسفك الدماء أموراً عادية، هنا لا يوجد أمير يحكم الجماعة، ولم يكن في الأصل؛ بل إن الناس كانوا هم القائمون على أنفسهم، وكان النظام السائد بين القبائل هو النظام المَلَكَي .

عبرنا جبال قرة Qara وقد أشرت إلى ذلك من قبل، وهذه الجبال يصل ارتفاعها إلى ٢٣٠٠ قدم، ثم عبرنا وادٍ ممتلئ بشجيرات البخور، وهذا البلد على وجه التحديد ليس بلد البخور المذكور في التوراة،

وعن طريق وادي دوكا Dauka عبر منحدرات بسيطة إلى عين ماء شيصور Shisur التي تقع على مسيرة ستة أيام جهة الشمال، وهذا الجزء اكتشفته ورسمت له خريطة في موسم الشتاء الماضي (ص ١-٢٨، ٧٧ الجزء GF) ثم اتجهت إلى جهة الشمال الغربي من شيصور بغرض اكتشاف الحد الجنوبي من الصحراء في هذا الاتجاه .

والآن لابد وأن أتجه إلى الشمال الغربي إلى مكان غير معلوم، وأرسلت الشيخ صالح أمامي من قبائل قرة لكي يعد قافلة أخرى عند عين الماء التالية، وحتى يقوم بدراسة وتسجيل خدمات قبيلة مرة Murra رفيق حامد بن هادي Rafiq، وهو رجل صاحب شهرة واسعة يستطيع أن يرشدني في قلب الصحراء.

إن خط سير الرحلة من شيصور جهة الغرب تسير بمحاذاة الحد الجنوبي من الصحراء، وهي منطقة شديدة الجفاف، ولا يوجد بها إلا القليل جداً من الأعشاب الخضراء، ومرت أيام تعب كنت امتطي فيها السرج مدة تسع أو عشرة ساعات في هذه الصحراء القاحلة التي أصابت الإبل بالإعياء، وهكذا مرت تسعة أيام جفاف دون ماء، فالصحراء الجنوبية تشكل ما يشبه الحصن الهائل الأحمر، وهي حدود للسهول.

وهنا وهناك تشاهد غدارة Ghadara، وهي عبارة عن سطح أبيض يملأ قيعان الأودية، وهذه الأجزاء مظهرها من بقايا بحيرات جافة، والعينات التي جئت بها اتضح أنها من الجبس، وعلى سطح هذا السهل الذي يقع على دائرة عرض ١٨,٣٠ شمالاً، وخط طول ٤٥ ٥٢ شرقًا كانت توجد بقايا من المحار، ومن الحفريات العضوية، والذي جمعته من الـ Rostrea' l cucine بالإضافة إلى الـ Rostallaria، تأثرت بعوامل التعرية، ومن الواضح أنها تعود إلى منتصف العصر الأيوسيني من الحجر الجيري (الملحق II - رقم N).

وهناك امتدادات عرضية من الكثبان الرملية المتفرقة على امتداد الطريق، وهذه تسير مع خط الوادي، الذي يمثل شكل وتدي منحدر يمتد جهة الغرب بفضل سلسلة من الأودية تسير من الجنوب إلى الشمال؛ حيث تختفي عند حافة الصحراء.

ومن أمثلة هذه الأودية وادي فصد Fasad، وادي ميتان Mitan، وادي شحات Shuait، وادي عربة Urba، وقد اجتزنا رؤوس هذه الأودية، وجهة الغرب في أوقات الراحة من مسيرة اليوم شاهدنا أودية ثمريت Thumurat، ووادي الضاحية Dhahiya، ووادي توف Thuf، ووادي الرمة Rama، ووادي عوات المناهل Aiwat al Manahil، ووادي جناب Jinab، ووادي الخضرة Khadra، ووادي حظر Hazar، ووادي عوات السعر Aiwat as Sa'ar، وأخيراً وادي حضي Hudhi، وهذا الأخير يسير إلى الشمال من تارم Tarim.

وهذه الأودية سكنتها قبائل كثير Kathir، والمهرة Mahar، والمناهل Manahil، والعوامر Awamir (الأجزاء الجنوبية) بالإضافة إلى قبائل سعر Sa'ar، ترتيبها من الشرق إلى الغرب، وكلها قبائل سكنت السهول، والظروف جافة بالنسبة للخيول، والحمير والكلاب، وحلت الكهوف وأشجار السنط محل الخيام من الشعر سكنًا في الصحراء، وفي هذا السهل تعيش أنواع من الحيوانات البرية؛ منها الماعز والغزلان، وفي بعض الأحيان تشاده النعام، وقد قام أفراد من الطاقم المصاحب باصطياد نعام، وجمعت بعض من بقايا البيض، ولكن يبدوا أن الأسلحة النارية والمطاردة التي اعتاد عليها البدو قضت على النعام.

على أية حال في الجهات الشرقية التي وصلت إليها، وجمعت أفعى قرنية وثعابين، وعينات من السحالي التي وجدتها في الرحلة السابقة، ومن بين الثدييات المنتشرة كان هناك الماعز، والغزلان، والثعالب،

وقليل من القطط البرية، وكل هذه الأنواع موجودة في السهول وفي الصحاري، ولكن السحالي الكبيرة والغزال الأحمر (الظبيان) من حيوانات السهول، والغزال الأبيض (ريم) يقتصر وجوده على الصحاري، والماعز من حيوانات السهول؛ وعلى الرغم أننا في فصل الشتاء، إلا أن الأرض تزدهر بالمراعي، فيدخل الماعز مثل غيره من حيوانات السهول إلى الصحاري المجاورة.

هنا، وعند تخوم الصحراء ما بين السهول والصحراء أشار رجال البدو المرافقين إلى موقع عند دائرة عرض ٣٠ ١٨ ش وخط طول ٣٠ ٥٢ شرقا؛ حيث رأيت أثار مرور قافلة قديمة، وهذا الطريق عرف باسم طريق عبر Vbar Road؛ حيث هنا توجد مدينة قديمة، تقول أساطيرها أنها مدفونة تحت الرمال، جدير بالذكر أنه في رحلاتي السابقة سمعت من عرب آخرين عن اسم هذه الجزيرة الأطلسية، وسط الصحراء ولكن لم يخبرني أحد عن موقعها على وجه التحديد، وكل ما ذكر لي عنها اختفي من ذاكرتي.

عندما أشار الرجال المرافقين لي إلى هذه المجموعة من الآثار، مسافة حوالي ١٠٠ ياردة في مقطع عرضي، تقع عند منحدر شديد على ارتفاع ٣٢٥ درجة، وتطوع إلى أحد الرجال ويدعي نايف Nayuf بمعلومة مفادها أنه في صباه حملق في صحراء شحاط Shu Ait، فوقع بصره على قطعة صخر ضخمة إلى جانب عدد من البقايا الفخارية الملونة، وأنه لمخاطرة كبيرة من طرفنا أن نتحول إلى أرض قفر جافة، بغض النظر عن عدد أوعية الماء الجلدية، ومقدار الماء الذي بالكاد يكفينا حتى الوصول إلى عين الماء التالية، ونشك قليلاً في امتداد الصحراء نحو الجنوب.

ورواية وجود مدينة قديمة يعززه هذه الأدلة التي لا يرقى إليها الشك أن عدد كبير من القوافل هرولت في الوادي، والاقتراب

النسبي لإقليم البخور المشهور تاريخياً، ولو أن الظروف المناخية تعرضت للتغير مع مرور العصور التاريخية، ولو أن هناك طريق تجاري بري من إقليم البخور إلى جرها Gerrha على الخليج الفارسي أو إلى بتراء النبطية في سيناء، فإن موقع عبر لن نراه إلا معقولاً، وهل تستطيع أن تقول بوجود علاقة بين كلمة أوفير Ophir -الأرض الغنية بالذهب المذكورة في التوراة-، وبين اسم عبر Ubar - المألوف لغويا استبدال حرف "ف" بحرف "ب".

وعندما ضربنا الطريق جهة الشمال الغربي تركنا تخوم صحراء شحاط، ودخلنا دروب الضاحية وهي منطقة كثبان رملية واسعة، هنا ترتفع الكثبان وكأنها أبراج، ويوجد بينها أفلاج شديدة الانحدار، إنها منطقة يصعب اجتيازها، وأكثر من مرة اضطررنا أن نترك ظهور الدواب، ونجرف مواطن الأقدام بأيدينا في هذا المنحدر الناعم البسيط؛ حتى تستطيع الإبل أن تصعده، لا يقدر أي قطيع من الدواب، إلا الإبل على اجتياز العرق Uruq، ومن المؤكد أنه يتعذر على أي مركبة، ولكن هذا المشهد فيه شيء رائع قام به نحات من جبال الألب؛ إذ وضع هنا زهرة قديمة حمراء اللون ناعمة الملمس، إنه في مثل هذه الأرض المكسوة ببساط من الكثبان الرملية كان لابد من مواجهتها، وهذه ظاهرة جديدة عليّ.

ونحن نتحرك بدأ يصل إلى أسماعنا فجأة صوت دندنة رتيبة، هنا وصلنا منحدر صخري رملي، يطلق عليه اسم خيط Khait، وكان يقع على الجهة اليمني من مسيرتنا على ارتفاع ١٠٠ ياردة، ويبرز وكأنه مصدر هذا الصوت، الساعة الآن ٤,١٥ مساءً، وبدأت تهب نسائم رياح شمالية خفيفة من وراء هذا المنحدر، وصوت هذه الرياح لم يكن يختلف عن صوت صفارة الباخرة البخارية، حجمه مدهش، واستمر صوت هذه الصفارة حوالي دقيقتين وانتهي فجأة مثلما بدأ.

بعد رحلة سير استمرت تسع ساعات يوم عيد الميلاد، وصلنا عند صحاري شاهقة فوق وادي رملي فيه مراعي يعرف باسم الحوتة Huta؛ حيث يوجد خور الضاحية Khor Dahia، وهنا أجمل عين ماء يأوي إليها الإنسان والحيوان، وتمنيت أن أفاجئ الشيخ صالح -زعيم مرة Murra-، كذلك مفاجأة لإنعاش أحوال مجموعة الإبل، فقد هزلت الإبل من التعب، ومن المؤكد أننا سنفقد معظمها إذا استمر الحال على هذه الحمولة الثقيلة والإجهاد أيام متوالية، وهنا مكثنا ليلة عند الحافة الصحراوية على ارتفاع ٣٠٠ قدم فوق الحوتة Huta .

وفي محاولة للتسلية ركب اثنين من رجالنا وبعد فترة من المناوشة قاما بفحص عين الماء، وعادا بأخبار أنهما عثرا على شيء مسجل على سطح الرمال، وكانت هذه أخبار طيبة لم يتواجد هنا عدو، ولكن أحد رجال قبيلة آل الرشيد زار هذا المكان بالأمس على افتراض أن يتوقع لقاءنا، ذلك أننا تأخرنا يوماً في الوصول، إن إخفاق الشيخ صالح أن يحافظ على الموعد فتح الباب أمام تفسيرات كثيرة.

خور الضاحية مكان محفوف بالمخاطر، يعرفه قطاع الطرق من أنحاء السهل ويحضرون هذه المسافة البعيدة قاصدين عمليات دموية، وهذا باختصار مكان غير آمن أن تتوقف فيه للراحة عند هذه العين، ولكن التقارير تقول إنه على مسافة يوم سوف تجد أفضل المراعي، هنا قضينا الصباح نتزود بالماء ثم اندفعنا، وفي القريب العاجل، فإن آثار أقدام مرشد بني مرة Murra، وآثار ناقته على الرمل تعرف عليها البدو، وبعد وقت قصير ظهرت آثار أقدام أفراد آل الرشيد، وبينهم الشيخ صالح، سرنا على آثار هذه الأقدام، وفي اليوم التالي وصلنا إلى المكان الذي كنا نريده الرجال والإبل وصلوا عند مراعي غنية.

إن قراءة الآثار في الصحراء علم يعرفه البدو، إن كل ما هو حي من إنسان، ودابته حتى الحيوانات البرية والزواحف والطيور، كل هؤلاء يتركون آثارهم المميزة على سطح رمال الصحراء، وهذه الآثار تبقى فترات متفاوتة حسب وضع الرياح، ولكن الزمن يمحوها كلية، إن الخواص التي في القدم أو في المخالب تميزها نوعها وتاريخها، ومن هنا نقول إن الرمال لا تحتفظ بالأسرار، والبدوي يتحدث إليك من قراءة آثار خف الناقة، ويقرأ من هذه الآثار كل أحوال الناقة من صحة، ونشاط، وحمولة، وغير ذلك من المعلومات، إنه يعرف آثار كل إنسان، وكل حيوان من قبيلته؛ بل من الأعداء في بعض الأحيان.

وبالنسبة لرجل ضل طريقه في الصحراء، فإن الحل الآمن له أن يسير على هدي آثار الآخرين، هذه الآثار قد تصل به إلى الماء، وبدونها لا يمكن أن يصل ويعود كذلك على أثارها، وتأتي الخطورة عندما تهب رياح قوية تزيل آثار هذه الأقدام، ويضيع خط الرجعة، وقع حادث منذ سبع سنوات مضت، أن جماعة من قبيلة المهرة Mahra وقعت عليها إغارة قام بها أفراد من قبيلة المناهل Manahil وغنموا عشرة من الإبل، وحيث كانت آثار عودة المغيرين لا تزال ثابتة على الرمال.

خرج سبعة رجال من شجعان المهرة في مطاردتهم، والآثار وصلت بهم إلى الضاحية Dahiya، وكان هذا المكان مجهولاً عليهم، وجاء المطاردين الأول؛ الذين ظنوا أنه لابد أن يتوقفوا عن المطاردة عند عين الماء حتى يتزودوا، ولكن المناهل -وكانوا على حذر من المطاردة- ابتعدوا عن خور الضاحية، واتجهوا ناحية الشمال عبر هذه الصحاري القاتلة، رجل واحد فقط ذهب بكل حذر نحو عين الماء لكي يتزود بالماء، وعاد على نفس الآثار، وكان يمحوا آثاره بنفسه.

أما المهرة فقد تابعو على نفس آثار الإبل المؤذية إلى المناهل، وكانوا يدركون أن عطشهم سوف يروى، ولكن قبل أن يعتقلوا النهابين جاءت عاصفة شديدة، ومحت كل الآثار أمامهم ومن خلفهم، والآن ضل المهرة الطريق وسط هذه الصحراء، وأنه بفضل رجل من رجالي من آل الرشيد مر عند هذا المكان بعد مضي ستة أشهر وجد الهياكل العظمية لسبعة رجال وعظام الإبل في هذه الصحراء.

ليس كل البدو الذين ولدوا ونشأوا في هذه الصحراء يستخدمهم مرشدين، فهناك بعض الأطراف الصحراوية معروفة، ولكن في مناطق حظ Hadh البعيدة ؛ حيث يندفع الناس بسبب القحط، وهذه حالات مألوفة
-خاصة في الصيف- في حالة أن يتحرك بدوي بمفرده، مستفيداً من الآثار في متابعة الإبل يضلون طريقهم، ويهلكون بسبب العطش.

لقد تناقص عدد الجماعة المصاحبة إلى عشرين رجلاً، وكلهم بالنسبة لي غرباء غير مألوفين، اندفعت غربا عبر صحراء دقاقة Dakaka، وتركني الشيخ صالح أذهب وأعد القافلة الثالثة، والمقصد الآن شانا Sahnna، وهي عين ماء عميقة في غرب دقاقة، واليوم الذي حدد بعد عشرة أيام، وتحركنا بكل حكمة، وببطء وسط مراعي غنية ومياه كثيرة، والآن تيسر لي أكثر من فرصة لجمع ما يودع في المتحف الطبيعي وتحصيل الصور بعد إهمال تعرضت له المنطقة بسبب امتداد الرحلة وطولها، وبسبب الجوع، والجدب، والسير الاضطراري.

وفي حالتي هذه ينبغي أن يسجل المرء المعلومات عن الطريق، وكذلك تسجيل الأرصاد الجوية، ولقد جئت إلى هذا المكان مزوداً ببوصلة وبارومتر، ومقياس الرطوبة، ومقياس ارتفاع الأجرام السماوية Sextant، كرنومتر - لقياس الزمن - ؛ بالإضافة إلى أدوات

جراحة لأجل عمليات السلخ، أو غير ذلك من العمليات؛ بالإضافة إلى حفظ العبوات، وبندقية عيار ٧ مم وشبكة اصطياد الذباب، وأربطة للرأس، وعدد اثنين من آلات التصوير بينها واحدة مقاس ١٦ مم، وكانت عملية جمع عينات المياه، وعينات الرمل، وعينات الحفريات، تعني زيادة في الأثقال كلما انتقلنا من مكان إلى آخر، في المقابل كانت أثقال الجراية تقل، ولم أحمل معي خيمة بسبب ثقل الوزن.

وكانت برودة الجو ليلاً أمر محتمل، وعملية النوم في الخلاء في جو درجات الحرارة قد تصل إلى ٥٥ درجة، كنت أنام ملفوفًا في كل ثيابي مثلما كان يفعل رفاقي، ولكن بالإضافة إلى استخدام ثلاثة بطانيات لم تكن متوفرة لرفاقي الذين كانوا يرتعدون من شدة البرد، كانت عادتي أن أصنع حاجزًا نهارًا، وكنت أقوم بتثبيته على نطاق ضيق ليلاً، أما بالنسبة لطعامي فكنت أعتمد على لبن الإبل؛ رغم أنه كان معي بعض الكاكاو، ولحم، وبسكويت، ولبن مجفف، وغير ذلك من الأشياء التي كان يتيسر حملها.

إن بدو الصحراء يعتمدون أساسًا على لبن الإبل، وفي المناسبات يأكلون لحم الإبل، ولكن لبن الأبقار لم يكن يصلح لمثل هذه الرحلات الطويلة عبر الصحراء، وحملت معي جراية مجففة، وكان هناك ناقتين من الإبل خاصتي يستخدمان للحصول على اللبن .

وصلنا حتى شانا Sanna غرب دقاقة تقع عند دائرة عرض ١٩ درجة شمالاً، وخط طول ٤٥ ٥٠ شرقا وارتفاعها تقريبا ٩٩٠ قدم، وهذه هي نقطة العبور الاستراتيجية، وأنني أشكر الظروف المناخية السخية؛ إذ أن الأمطار هطلت في نهاية العام، وقد استطعت أن أنطلق مع فريق تجدد نشاطه من الرجال ومن الدواب، كان عدد الرجال ثلاثة عشر بدويًا، وخمس دواب، والجميع في حالة جيدة مستعدين لانطلاقي عبر الصحراء.

ووجهتي التالية واتجاهي الفلكي يقول أنني متوجه إلى قطر Qatar وهي على مسافة ٣٣٠ ميل جهة الشرق قليلاً من ناحية الشمال، ولم يعد معي من الجراية غير ما يكفي خمسة عشر يوماً للمجموعة المصاحبة، وهي كمية ليست كبيرة، وإذا تباطأت في هذه الصحراء فإن هذا يعني الموت، إنه لابد أن أحافظ على صحة من معي من البدو ومن الدواب، كما أنه لابد من السير المتواصل طوال اليوم، إن خسارة في الإبل، أو مرضها واعتلال صحتها، أو أي خيانة من جانب المرشد، أو أي فرد من الفريق، أو مواجهة عدو، كل هذا قد يصنع مأساة.

إن كان متعذراً ضمان وجود مرعى للإبل، وإذا لم نعثر على مرعى فإنه من الأفضل أن نعود أدراجنا؛ حيث إن الجراية اللازمة للرجال لا تزال تكفي، وإذا لم نفعل هذا فالكارثة محدقة لا محالة، ولم يكن هناك وقت أتوقف فيه عند منتصف النهار؛ حتى أتناول طعام الغذاء، إنه في هذه الفيافي الجرداء الحل الأمثل أن نخرج منها على وجه السرعة، إن فترة ثمانٍ أو تسع ساعات فوق ظهر الدابة يوماً بعد الآخر أمر عملي.

وكان المبرر الوحيد للتباطؤ أن تجد الإبل من الأعشاب ما يكفيها، أو أن يؤدي الفريق المصاحب الصلاة المفروضة، وكانوا يواظبون عليها، وكنت كل صباح أبدأ بشرب لبن الإبل، وكان هذا هو غذائي طوال اليوم، إن الجوع والعطش كانا عاملان للتعب والإرهاق في الأيام الأولى من الرحلة، ولكن على امتداد الرحلة شهرين تعودت على تحمل الجوع والعطش، ولكن نقص وزني كثيراً.

تركنا شانا Shanna في يناير متجهين نحو الشمال كان حمد بن هادي الوحيد في الجماعة التي معي، عدا شخص آخر جديد هو طالب من قبيلة مرة Murra يعرفان الصحراء جيداً، كان مشهوراً بالإغارة

على قبيلة "سعر Sa'ar"، وقتل منهم وورث عداء الثأر مع قبيلة المناصر Manasir، وكانت علاقة والدة معهم جيدة، كان حمد فريسة مخاوف شيطانية، وفي هذه الصحاري الشمالية كان شديد الحيطة.

هناك في الأفق تلوح بعض المخاوف ومع حمد في سير حذر فإنه علينا بين الحين والآخر أن نبطئ السير في مسيرة النهار، وكان هو يزحف متقدماً، مستفيداً من غطاء الصحراء نحو أي هدف يبدو بعيداً وكأنه عدو، وينبغي الحيطة منه، إن تجمع الشجيرات على التل الرملي أدخل علينا الخوف.

وليلاً كان حمد يقوم بعملية استطلاعية باستخدام المنظار، ويسير خلف خط سير رحلتنا يتفقد آثارنا ليتأكد من عدم وجود آثار أقدام عدو يتعقبنا، ويعود بعد أن يسدل الليل ستائره، وعندما يتأكد من عدم وجود آثار من يتعقبنا (عدا الليالي القمرية) يشعر المعسكر بالاطمئنان، لقد كان من حسن الحظ أن يكون معنا واحد من مرة Murra بوضع حمد في قبيلته؛ بالإضافة إلى أنه مرشد، وبدونه أشك إن كنت أستطيع أن أسير ياردة واحدة آمنا في ديار مرة Murra .

إن البدو خير من تنجذب إليهم من الرفاق -رغم تعصبهم الديني-، وإذا دخلوا الصلاة، يدخلونها في خشوع وورع لا تجد فيهم ما يوصف بالخداع، هم صادقين يسفكون دماء العدو بلا رحمة، وأسلابهم من الإبل من الغارة يأخذونها دون أن يؤنبهم ضميرهم، ذلك أنهم يعتبرونها أسلاب حرب، ولا تدخل في حكم السرقة، وبين الأصدقاء تسود روح الألفة.

يرتدون الملابس البالية المألوفة للبدو، طعامهم لبن الإبل، وقبيلة مرة Murra في الشمال لديهم كلاب طويلة، ويصطادون الثعالب

والأرانب البرية لأكلها؛ حياتهم في خيام من وبر الإبل، ويكتفون بزوجة واحدة، وذلك لأسباب اقتصادية، حياتهم بدوية عالة على الإبل، يشعرون بالانجذاب بقطعانهم نحو المراعي، ويسعون إليها، وينتظرون قطرة ماء من السماء يتنقلون وراء الكلأ من موقع إلى آخر في دورة لا تنتهي، وعند ترحالهم إلى أماكن بعيدة يتعذر الوصول إليها، تجدهم يقسمون أنفسهم على امتداد الأرض.

وكل أسرة تعيش منعزلة على نفسها، ولكن مثلما حدث في الشتاء الماضي، عندما تكون المراعي الجيدة جنوبًا، وتعرضون لهجمات من رجال السهول المجاورة، فإن القبيلة تتحد مع بعضها لأجل الحماية والدفاع، وفي فصل الصيف حيث تزداد حاجة الإبل للماء، إن لم يكن يوميا لا يبتعدون كثيراً عن عيون الماء، أما في فصل الشتاء فقد يتحركون بعد أيام من الرعي الجيد، ومن الممكن أن يبتعدوا عن مصادر المياه مدة ما بين شهر أو شهرين؛ هنا يكمن سبب كراهية الوهابيين المتزمتين في نجد، ويعبر عنه بشكل عسكري.

ومن الجوانب التي يؤكد عليها الطهارة من الجنابة، والطهارة بصفة عامة؛ إذ أنه ينبغي في الحالة الأولى أن يغتسل الجسد قبل الصلاة، وبدون ذلك فالصلاة باطلة، وفي هذه الفيافي الجافة؛ حيث يندر وجود الماء يستبدل الرمل بالماء، هكذا تتعارض حياة البدوي مع الدين، ويصبح عرضة للعنة، وبين قبائل مرة Murra فرقتين من الوهابيين والباقي حنابلة، والحنابلة فرقة من بين أربعة فرق سنية في العقيدة الإسلامية.

أما آل الرشيد مثل غيرهم من كبار قبائل الجنوب شافعية، وهاتين القبيلتين يشغلون على التوالي الصحراوات الشمالية والجنوبية؛ علاوة على ذلك تتحدثان لهجات مختلفة من اللغة العربية، وغناءهم للأناشيد يدور في مدارس مختلفة من الشعراء.

إنه لدى البدو صفات محبوبة مرغوبة ينظر إليها الآخرون نظرته إلى نفسه، ويتمنى أن يتحلى بها لا أكثر ولا أقل، فالرجولة مفتاح شخصيته، جرئ في الحرب، ماهر في الركوب، وفي استخدام الأسلحة، صبور يتحمل الجوع والعطش، إنه رفيق مسلي، حديثة المفضل عن السلاح، وعن الإغارة، وعن الإبل، والعقيدة، وحديثه عن النساء أنهن يلبسن البرقع، وهن متاع، وحديثة عنهن ليس فيه خجل.

وبالاتجاه شمالاً خارج دقاقة دخلنا صواحب Suwahib، وهذا اسم محلي للصحراء التي تمتد حتى خط طول ٢٢ وسط هذه الفيافي، والكلمة مثل غيرها من الكلمات في الصحاري تحمل معني طبوغرافيا، وهي جمع للكلمة صاحبة Sahiba، وهذا الاسم يشير إلى حافة الصحراء، وصواحب في الحقيقة إقليم من حواف رملية متوازية ارتفاعها ما بين ٨٠ إلى١٠٠ قدم، وعدة مئات الياردات يقع بينها أجزاء من الرمل المتحجر، ومحور هذه الحواف شمالي غربي، ومن هنا فإننا سنصل إليها من طريقنا الشمالي.

وهنا ولأول مرة أقابل أول خيمة صغيرة من وبر الإبل وقطيع صغير منها، هذا ينتمي إلى قبيلة مرة Murra، وهي قبيلة مشهورة بامتلاك نوع من الإبل السوداء، رغم أن قبائل مرة لم تسر إبلها نحو الجنوب، وبدو آل الرشيد مالوا لأسباب يحتفظون بها لأنفسهم، وليست غامضة عليّ أن يصطحبوني لأشاهد معكسراتهم، وحيث سمح لي بالنزول إلى هناك، وأن أتحدث مع أهل قبيلة مرة.

وبعد أن اجتزنا صواحب Swahib دخلنا المزاريق Mazariq؛ حيث كانت رمال الصحراء هنا أقل تموجاً عن كثرة تموجاتها في الجنوب، ويظهر القياس هبوط تدريجي في الارتفاع من ٩٠٠ قدم في دقاقة Dakaka إلى ٥٥٠ قدم هنا، والأرض هنا على وجه العموم -مثلما هو الحال خلفنا وأمامنا- كذلك ترتفع إلى الغرب وتهبط نحو الشرق،

وهناك تغير في نوع النباتات، وتركنا وراءنا مراعي الإبل[١] من نبات الآبال Abal والزهار Zahar لقد دخلنا حزام من أجمة ملحية هي شجيرات الحظ Hadh، وتتميز بقدرتها على تحمل العطش عن غيرها من الأنواع في وسط الصحراء في السنوات التي يجدب فيها المطر، ومن هنا فإنه في سنوات الجفاف فإن المناطق التي يوجد فيها هذا الحظ Hadh تساعد على العيش، وهنا تعيش قبائل الصحراء إلا إذا تعرضت للطرد من الصحراء إلى أراضي السهول.

إنه في هذه الصحراوات الوسطي عثرنا على فك ثعلب الفنك، ويعتقد أن هذا وجوده جديد، وهنا جمعت بعض من بيض النسور من عشها؛ رغم أنني لسوء الحظ لم أر الطير نفسه، وهذا لا يؤكد الحقيقة، وهذا البيض قارنته مع بيض النسر الحبشي المعروف باسم Tawny ويتشابهان إلى حد كبير، هذا النسر موجود في منطقة السودان، والحبشة، والصومال، وجنوب غرب جزيرة العرب.

ويعد الثعلب والأرنب البري من الثدييات المألوفة في الصحراء؛ بالإضافة إلى الفأر الصحراوي، وكذلك القط البري، والطائر الأكثر انتشاراً على امتداد رحلتي هو الغراب، وكان الحباري -الدجاج البري- أكثر الطيور انتشاراً، ويدل عليه آثاره على الرمل، وهذا الطائر يخاف من الإنسان، ومجرد أن يقترب منه يطير بعيداً .

ولم تسعدني الظروف في هذه الرحلة أن أجمع الطيور، وهذا أمر يستحق الاعتذار عنه؛ ذلك أنني أهملت ما هو تحت إشراف Knnear، والذي بفضل اهتمامه الشخصي وبفضل تشجيعه تعلمت أن أجمع وأقدم لمتحف التاريخ الطبيعي، وبخصوص الثدييات والزواحف جمعت حوالي ٥٥٠ نوع، تفاصيلها في (الملحق رقم II) منها ٤١٤ جمعتها من جبال قرة Qara وسط الجنوب، وهناك نقطة ذات أهمية

---

(١) **الفنك:** ثعلب صغير وفير الوبر (المترجم).

كبيرة بالنسبة لهذه الأنواع ، وهي صلة القرابة بينها وبين الأنواع الأفريقية أكثر من صلتها بالأنواع الشرقية، هناك عدد (١٣٥) نوع من الربع الخالي تعود إلى العصر البلايستوسيني Palaearctic.

إن طريقنا عبر دقاقة وصواحب تغير نحو جهة الشمال الشرقي، وكان البدو المصاحبين قد وضعوا في حسابهم أنه يطوق قبائل إخوان Ikhawan الذين كانوا يعيشون جهة الشمال، فالماء وفير، ولكن لا يصلح للشرب فقد كان لونه يشبه لون البيرة، ولاذع مثل طعم الكبريت، أخذنا عينات من مياه كل العيون التي استخدمناها، وهنا في (الملحق رقم II.A) التحليل الكيميائي لها، وأنا شخصياً لم أشرب من هذه المياه إلا في حالة العطش الشديد، ذلك أنني كنت أعتمد على لبن الإبل في معظم وجباتي، ولكن في بعض الأحيان يكون لبن الإبل مالحاً؛ عندما ترعى الإبل في مراعي مالحة.

إن رجالي ودوابي بدأ يدب فيها التعب؛ خاصة وأن طريقنا المتجه شمالي شرقي تحول إلى شمالي غربي، وهذا التحول وصل بنا إلى صحراء سنام Sanam، وهنا المياه أعمق وأطيب، إن سنام هذه واحدة من أوسع صحاري حظ Hadh، ويقتصر استخدامها على قبائل Murra الواقعة عند الأطراف الشمالية، وكلمة سنام تعني ظهر الإبل، وهذا يعد المعني الأقرب، وأنت تتجه شمالا يسجل البارومتر انخفاض حوالي ٢٥٠ قدم، رغم أن هذا النزول لا تدركه الحواس.

والسنام الغربي يعرف باسم طوال Twal لأن آبارها شديدة العمق، أي ما بين ١٥ إلى ١٩ قامة[١]، وهذا على عكس عيون الماء الضحلة في صواحب Swahib - في الجنوب في حالات الرعب جرت العادة على طمر عيون الماء لأجل وضع العراقيل أمام المعتدي-، وهنا تأتي قطعان بني مرة السوداء، وفي الحقيقة رأى المرء آثار حديثة لهذه

---

(١) القامة: ستة أقدام (المترجم).

القطعان مؤدية إلى عيون ماء، وشاهد القطعان عن قرب، ولكن البدو الذين معي لم يسمحوا لي بنظرة عن قرب، إن هذا الفعل من شأنه أن يكون مصيرياً إذا شاعت الأخبار، ويسبب ذعراً أو اعتراضاً على مواصلة رحلتي.

إن الآبار العميقة في هذه الصحاري تعرض حياة البشر للخطر عند حفرها أو تنظيفها، فجوانبها تسهل الانزلاق وتقبر الصغار، ولم يكن يستخدم شيء من الأحجار لتغطية هذه الجوانب؛ بل كان الاعتماد على أغصان الأشجار، وإنه لم يكن هناك أشجار بالمعني الصحيح على طول وعرض هذه الصحراء.

وصلنا بنايان Banaiyan وهي تمثل أقصى نقطة شمال سنام Sanam وهي كذلك الحد الجنوبي والحد الشرقي لإقليمين على التوالي هما جيبان Jeban وجاؤب Jaub، وأول بئر ماء مدعوم جدرانه بالأحجار على طريقنا ببنايان، ويعتبره الأهالي أقصى نقطة في الشمال هي الرمال Ar Rimal رغم أن الحقيقة أن الصحاري تقع بشكل متقطع في الجهات الشمالية على وجه الخصوص جفورة Jafura.

ومن هنا فإن الاعتقاد السائد بأن الصحاري مناطق خالية من السكان ومن المياه اعتقاد خاطئ، إن المياه هنا متوفرة على الأقل شرق خط طول ٥١ شرقا، وهذه هي المنطقة التي سرت فيها رغم أنني قد ذكرت سابقاً أن المياه مالحة، وفي بعض الأماكن لا يمكن استعمالها حتى ولو كانت الإبل وسيلة غير مباشرة لاستخدامها، والإبل لن تشربها وفي الأماكن التي تكون فيها عيون الماء صالحة للاستخدام الآدمي، فإنه يطلق عليها أسماء أفراد معينة؛ حيث تكون هذه الآبار غير مالحة.

على سبيل المثال الصحاري المنخفضة شرق صواحب Swahib تتوفر المياه على عمق ذراع، وهنا يستطيع الذئب أن يحفر بمخالبه للوصول إليها بسهولة، وعيون الماء توصف عامة باسم خيران Khiran، ولكن مهما تكن ظروف المياه في هذه الصحاري، فإنه يستحيل أن تقوم حياة مستقرة في أي مكان على امتداد هذه الصحاري؛ بل هي حياة بدوية تعتمد على الإبل، وللمراعي أهمية كبيرة والمراعي الطبيعية لا تنتشر بشكل كاف، وهناك بقع صحراوية تخلو كلية من المراعي، وهذه تعد مقبرة لمن يدخلها.

إن العدد الحقيقي لسكان الصحاري مئات قليلة من آل الرشيد، ومن بيت الأماني Bait Imani، وأجزاء من صحراء الكثير Al Kathir في الجنوب حيث عدة مئات من قبائل المناصر Manasir والعوامر Awamir في الصحاري الشمالية الشرقية، وقد يرتفع العدد إلى الآلاف من قبيلة مرة Murra في الصحاري الشمالية والشمالية الغربية.

إن هذه القبائل -في كثير أو قليل- تتوغل في عمق الصحاري الداخلية سعياً وراء المرعى، بعد سقوط الأمطار عليها؛ حيث لا تسقط الأمطار على مناطق سكناهم عند الأطراف، وهناك سنوات كثيرة يفضل فيها البدو أماكن بعينها، وهذه الأماكن تأخذ أسماء محلية؛ مثل هذه الأسماء التي تطلق على عيون المياه فيها؛ حيث تكون المياه والإقامة طيبة متميزة.

إن عملية تسجيل ودراسة هذه الأقاليم وأسماء عيون الماء استغرقت اهتمامي ومجهودي على مدى سنوات، وجدير بالذكر أن رحلاتي الثلاث توّجتها رحلتي بعبور الصحراء الشتاء الماضي، وهذه الرحلة يسرت لي تحديد مواقعها على خريطة، والبعض منها كان

دقيقًا عندما يكون قريب أو ملاصق للطريق، وتوزيع الأقاليم وينابيع المياه الأخرى وضعته بالتقدير.

إن مهمة وضع بيانات على خريطة صماء تمثل إقليمًا مثل فرنسا وألمانيا معًا مهمة صعبة، ومما ينبغي تذكره أيضًا أن أول رد فعل يظهر على وجه البدوي عندما يسأل عن ممتلكاته البسيطة والثمينة في نفس الوقت -أسرار الماء والطرق- فإنه يخفيها، وإن الرحالة الأوروبي الذي يقوم بزيارة سريعة للجزيرة العربية، يجتاز في سرعة في طريق فيسجل ما يشاهده ولا يهتم بذكاء البدوي.

وعندما أقول هذا يسكت كل الكلام عن مدى دقة الخرائط التي وضعتها، وقد وضعت على الشكل والطريقة التي توضع بها خرائط الجزيرة العربية، ولكن الذي أؤكد عليه هو هذا العمل الذي استغرق ست سنوات حرصت فيها على انتهاز الفرص في دراسة اللهجات والتركيب النفسي لقبائل على أرض الواقع، وكنت في موضع يسر لي جمع المعلومات من مصادر متعددة -فيما يتعلق بالصحاري الشرقية-، ومنها استطعت أن أعرف أهم العوامل وأشملها.

وبغض النظر عن وضع المعلومات على الخريطة، فإنني حددت الأهداف الجغرافية لرحلتي؛ أولاً اكتشاف اتجاه الوديان في الجزء الجنوبي من الجزيرة، وهذا كان مجهولاً حتى وقتنا هذا. وثانيًا جمع الحفريات العضوية وغيرها من العينات الجيولوجية التي تشير إلى التشكيل والعصر، وأما ما يتعلق بالمكتوب على قطعة من الصخر، والتي كتب عنها د.كاميل سميث، وضعتها في (الملحق رقم II-O) أما ما يتعلق بانحدار الربع الخالي فهو موضع دراسة، والمحيط الخارجي للصحراوات -خاصة من جهتي الجنوب والشرق- يظهر في الخريطة التي رسمتها، وتتميز حافة الصحراوات الشرقية من الشمال إلى الجنوب، وارتفاعها يمثله شبه جزيرة عمان بمقدار ارتفاع ١٥٠٠

قدم، وتمتد عرضياً نحو الغرب إلى عبري Ibri؛ حيث إن ارتفاعها أقل من ١٠٠٠ قدم، وعند موجشن Mugshin ارتفاعها ٤٠٠ قدم، إن انحدار شبه الجزيرة عرضه طويل، وخط طول ٥١ شرقًا يمثل العكس، تنحدر من الجنوب إلى الشمال، وارتفع دقاقة Dakaka ٩٠٠ قدم، وحظ المزاريق Aadh Mazariq ٥٥٠ قدم فوق سطح البحر، ولكن نخل Nakhal على ارتفاع ٧٠٠ قدم فوق مستوي سطح البحر، وانحدار المحور الطويل لحدود الصحراوات الجنوبية يسير في الارتفاع من الشرق إلى الغرب، وارتفاع موجشن Mugshin ٤٠٠ قدم وتلتقي دوقة Douka مع أم الحيط Um al Hait عند ارتفاع ٧٥٠ قدم وارتفاع الضاحية Dhahiya ١١٠٠ قدم، ومن هنا ترتفع الأرض إلى جهة الغرب، وقد وجد شيزمان Cheesman أن صحراء جبرين Jabrin في الجنوب الغربي ترتفع ٦٠٠ قدم، وهذه الاعتبارات إذا وضعناها مع بعضها تشير إلى أعلى جزء من الصحراوات يقع في الجنوب الغربي من سلسلة الجبال؛ ليصل ارتفاعه إلى ٦٠٠ قدم، ووجد فليبي أن جبل صوليل Sulaiyil الذي يقع جهة الجنوب الغربي من الصحراء يصل ارتفاعه إلى ٦٠٠ قدم، وكل هذه الاعتبارات مع بعضها تشير إلى أعلى نقطة في الصحراء؛ حيث توجد في الجنوب الغربي.

ولسوف يتضح وجود منخفض في جهة الجنوب الشرقي من الصحراء، ويصل الماء إلى السطح في حميدان Hamidan، وفي موجشن Mugshin، وهذا المنخفض يقع ما بين خطي طول ٥٤-٥٥ شرقًا، ودوائر عرض ٢٠ إلى ٢٢ درجة شمالاً، وشرق هذا المنخفض يصعد المنحدر نحو الشمال الشرقي، نحو الصدع العماني Oman Massif مرتفعًا إلى أقصي ارتفاع إلى ١٠,٠٠٠ قدم، وغرب هذا المنخفض ترتفع شبه الجزيرة جهة الجنوب الغربي، وقد يصل أعلى ارتفاع للصحراء عند حدود نجران Negran، ووسط الصحراء الغربية يهبط نحو الساحل جهة الخليج الفارسي.

خرجنا من الرمال Ar Rimal في بنايان Banaiyan، ولا يزال يفصل بين البحر مسافة مائة ميل عبارة عن سلسلة من التلال الرملية، كل واحدة منها منعزلة عن الأخرى، وتشاهد سهل ملحي مخطط بأشكال شرائط وتعرف باسم Jiban، وكان من الحكمة أن أتأخر يوماً حتى أسجل ملاحظاتي؛ لأننا مجرد أن ننطلق سوف نصل إلى ديار الإخوان Ikhwan حيث مخاطر النهب، وبالتالي يجب أن نتجنب الاصطدام بهم بكل الوسائل، ولحسن الحظ أنه شهر رمضان، وهناك احتمال أن ينسحبوا إلى الواحات القريبة لأداء فريضة الصيام، وهذه عادتهم في هذا الشهر المقدس -في كنف عائلاتهم-، وكان ضرورياً أن نستعد لكل مفاجأة، ومن هنا أصبح علينا أن نتأخر نهاراً، ونواصل السير تحت جنح الليل، ولحسن الحظ لأجل إتمام الخريطة التي أرسمها، فإن هذا ثبت عدم ضرورته.

وقد واجهنا خلال الأسبوع الماضي عدة عواصف رملية شديدة القسوة، وكان البرد قارصاً، ودرجة الحرارة كانت على الأقل ٣٥ درجة، ووضع النوم يفوق العادة؛ خصوصاً أننا ننام في هذا الفضاء دون غطاء بعد رحلة طويلة على الإبل؛ بسبب هذه الرياح الرملية الطائشة، ولم نستطع النوم لعجزنا عن أن نحافظ على النار متوقدة لنستدفئ، وأخذ البدو والإبل يحتضن كل منهما الآخر للتدفئة، ووراء كل هذا كان التقدم مستحيلاً.

إن هذه العواصف الرملية في جنوب الجزيرة العربية لا تحدث الرعب الذي يألفه المرء مع مثيلاتها في الصحاري الإفريقية، إن الخسائر الوحيدة التي تحملتها هي آلة التصوير والبارومتر، وقد دخلت فيهما الرمال، ورغم أن ركام الرمل يزداد عند الليل مقدار قدم أو يزيد حتى أنه غطى السرج، وغطى الصناديق، وغير ذلك من الأشياء التي تقع في الاتجاه المضاد للرياح.

كانت منحدرات جيبان Jiban يغطيها الحصى، ومثله من الأحجار السوداء والجيش وكانت ألوانها مختلفة ما بين الأبيض والأسود، وإلي غير ذلك من الألوان، والأصداف من كل لون وشكل وحجم انظر الملحق (M. – II-٥).

هنا في هذا الإقليم القفر رأيت آثار ذئاب وضباع، لكن الوقت لم يتسع لاصطيادها وكذلك كان حال البدو الذين معي، كانت الإبل مرهقة بالإضافة إلى أن المراعي هنا في العروض الشمالية في حرام Haram وشينان Shinan ملحية عنه في مراعي الحظ Hadh، وكانت هذه الأعشاب تؤلم الإبل، وكانوا غير معتادين عليها، وبالتالي كانت الإبل تحتاج إلى الماء يوميا بسبب الملوحة، وكانت عيون الماء كثيرة في جبان الشرقية Eastern Jiban على عمق نصف ذراع، وهنا تعرف باسم عقال Aqal، ومن هنا فإن عقال جبان عكس طوال السنام Tuwal Of Sanam.

وعندما اقتربنا من شبه جزيرة قطر أخذ البارومتر يرتفع فوق مستوى سطح البحر بعد مسيرة يومين أو ثلاثة في منطقة نخاله Nahkala، وهنا في هذا الإقليم القفر وصلنا عند بحيرة ملحية تسمى سبخة العمرة Sabakhat al Amra، وهذه السبخة امتدادها سبعة أميال، وعرضها نصف ميل، وعندما سرنا عند حافتها الشمالية كان يقع حولها حزام من الصخر الملحي حوالي عشرين قدماً، وقد جمعت عينات منها، وكان يوجد خط من الجراد الميت عرضه حوالي ٦ أقدام عند حافة الماء.

وبعد أن تركنا هذه البحيرة عند ٣٠-٤٠ درجة سرنا عبر إقليم صخري منعزل فيه خط من التلال الرملية المرتفعة؛ حيث كان يوجد البحر، وتلال رملية منعزلة من الناحية الأخرى، ومضت ثلاثة أيام وكان تقدمنا بطيئاً بسبب الأمطار الشتوية، وإن كانت أمطار

خفيفة، ولكن كان تأثيرها علينا كبير، وكذلك على الإبل، ولم تتوفر أخشاب للتدفئة، ولكن دخلت علينا السعادة بالاقتراب من الدوحة Doha عاصمة قطر، وهي هدفنا، وكانت على بعد مسيرة يوم أو اثنين، لقد كانت لحظة سعادة عندما رأيت البحر -أقصد الخليج الفارسي- وقلعة المشيخة عند الأفق، ويحدونا الأمل بعد كرم عرب الصحراء، وهو نوع من الكرم لا يقارن مع الكرم العربي في أي مكان، وكانت رحلتي على وشك الانتهاء، لقد كانت في قلب الربع الخالي.



In the Qara mountains



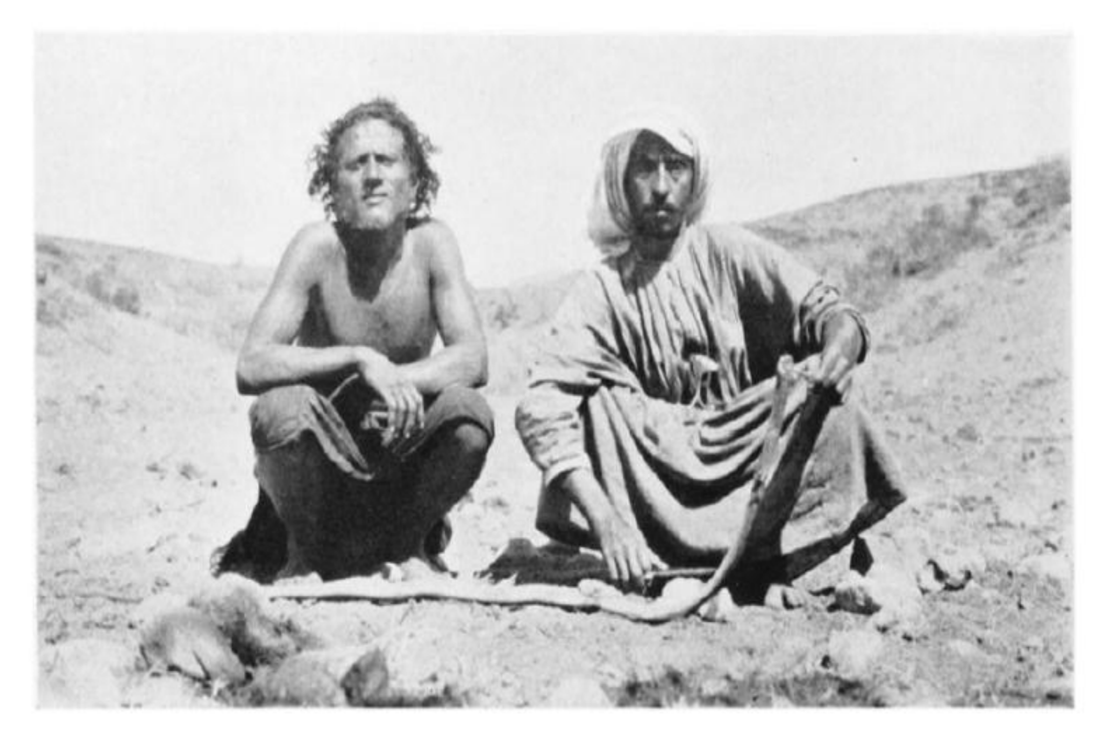
Meadows below Khiyut, Qara mountains



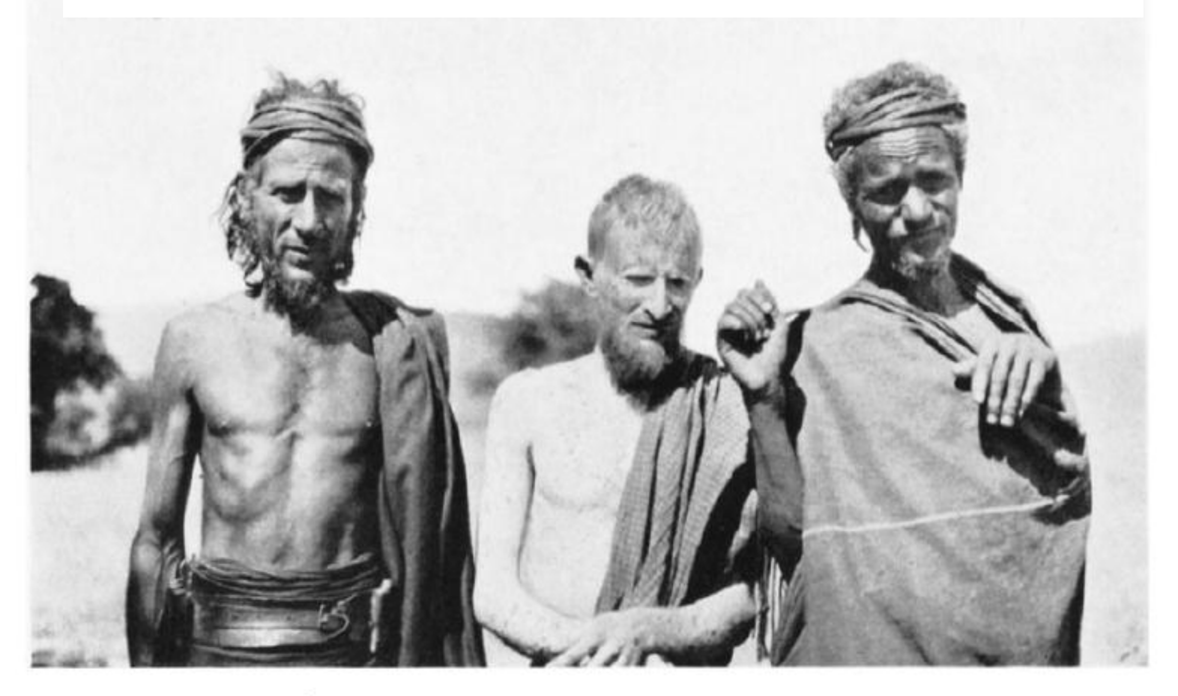
Slave dance at Dhufar



Yafi' types: Southern Arabia



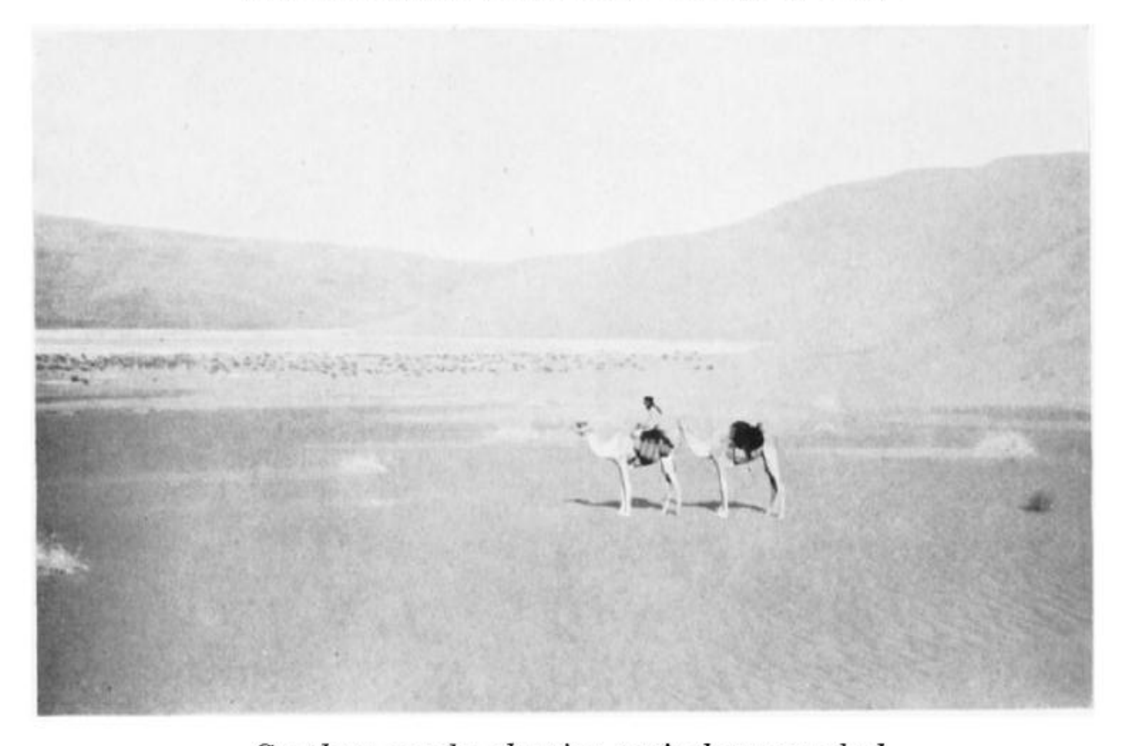
Shahari and 'Omani, with cobra



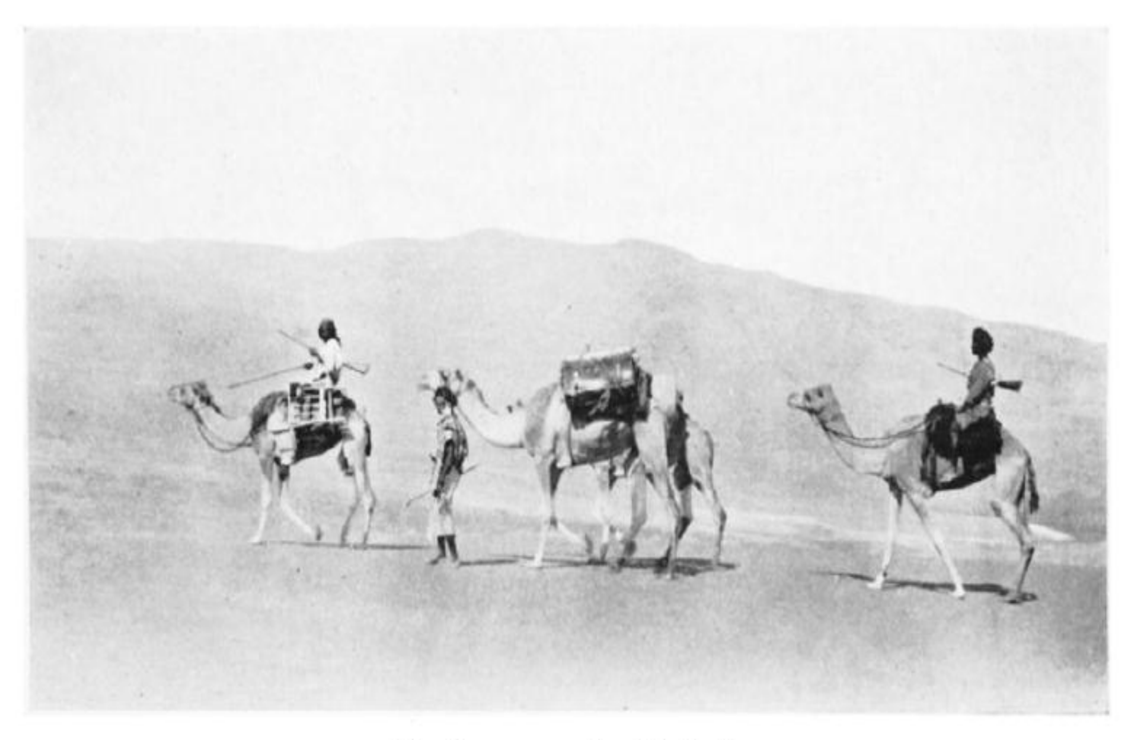
Qarowi, Shahari (Albino), and Shahari



Southern sands: camel scrub on edge of steppe



Southern sands: showing typical gypsum bed



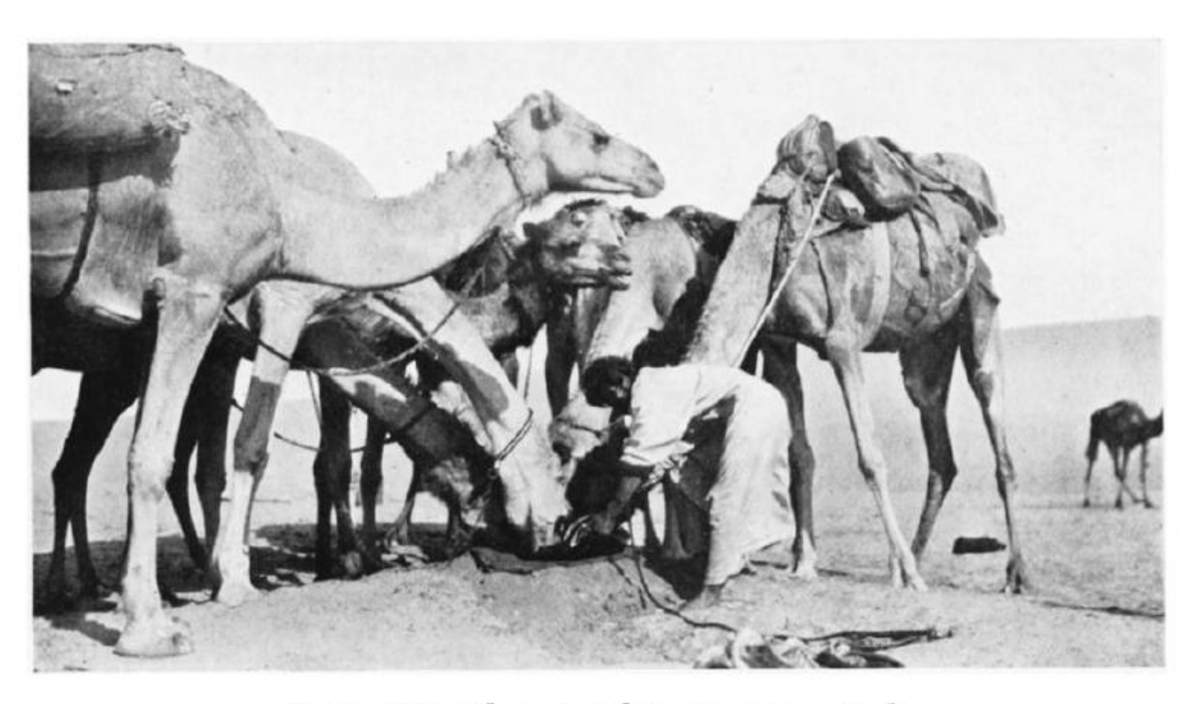
Southern sands: Dakaka



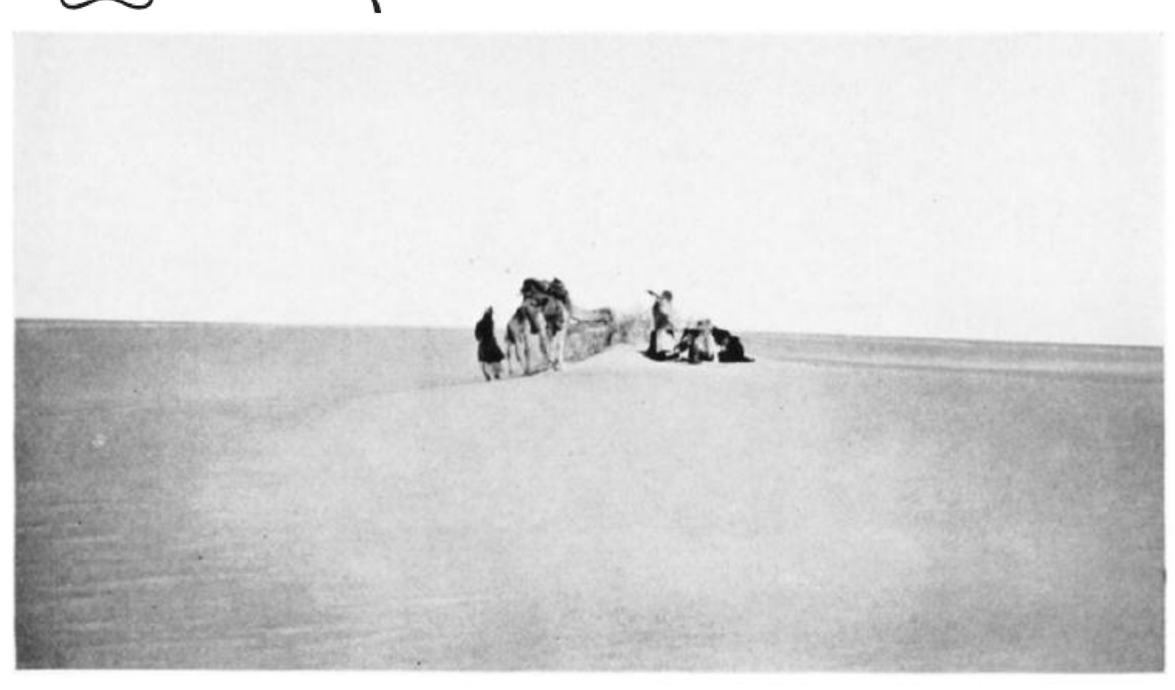
Central Southern sands: Suwahib



Central Southern sands: digging a waterhole



Central Southern sands: watering camels



Northern sands: near Banaiyan



Northern sands: dispersing in search of food



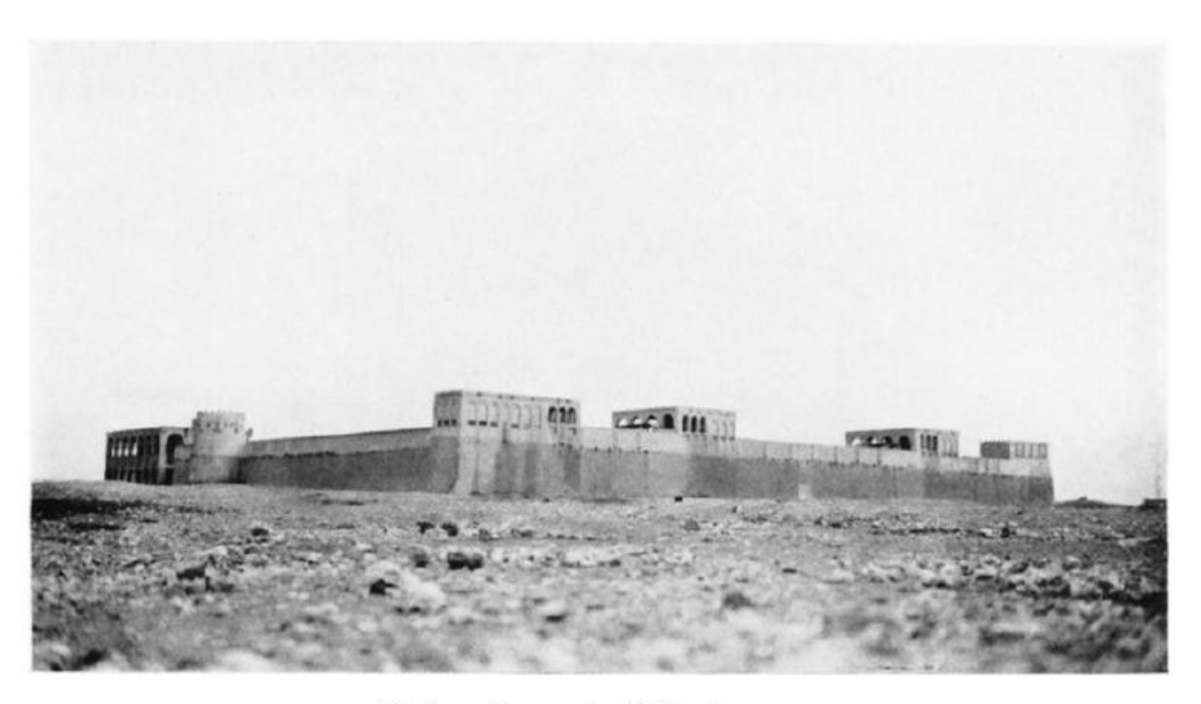
Halt for prayer: Central sands, Sanam



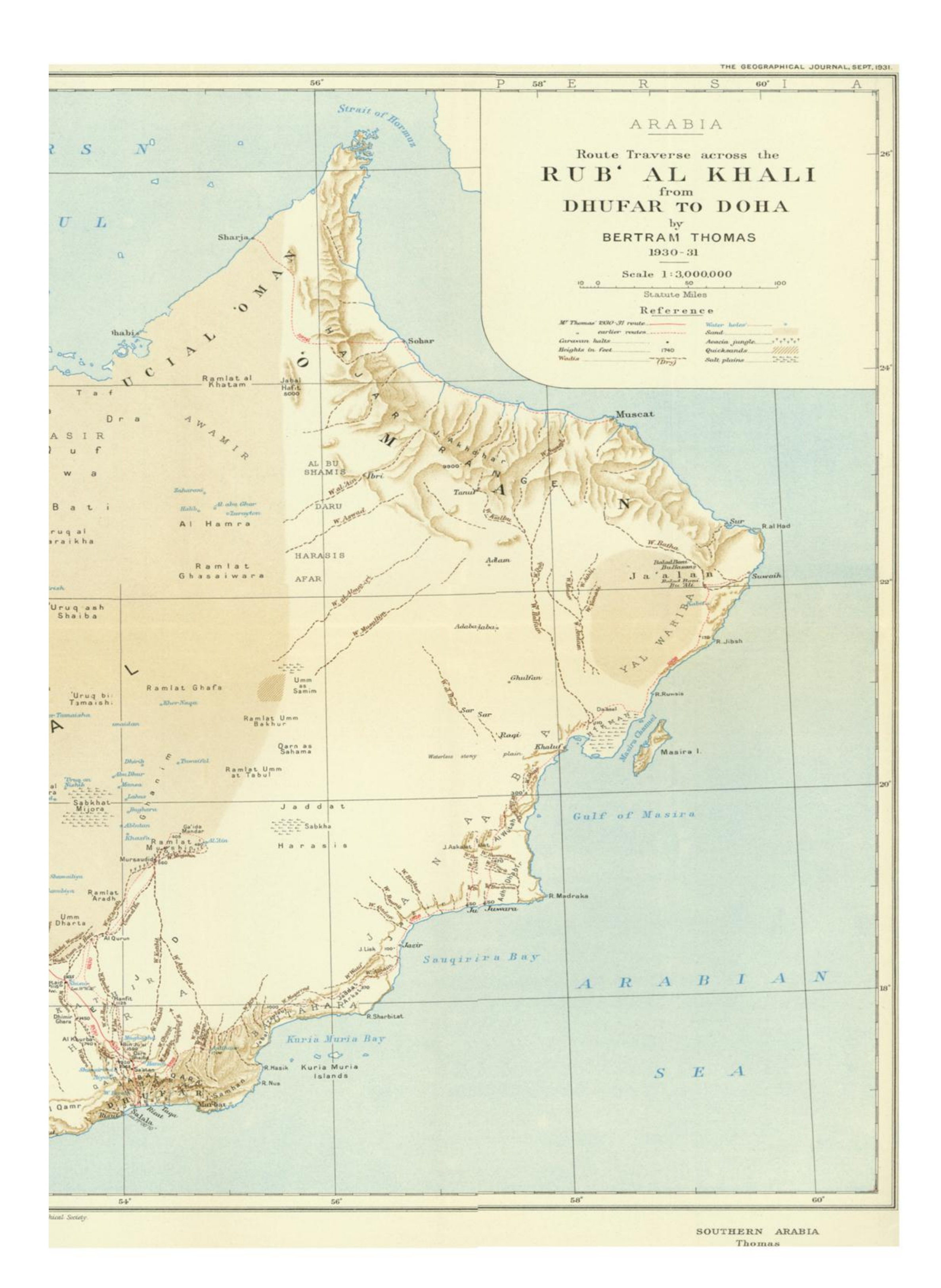
Lake Sabkhat al 'Amra: rock-salt in foreground



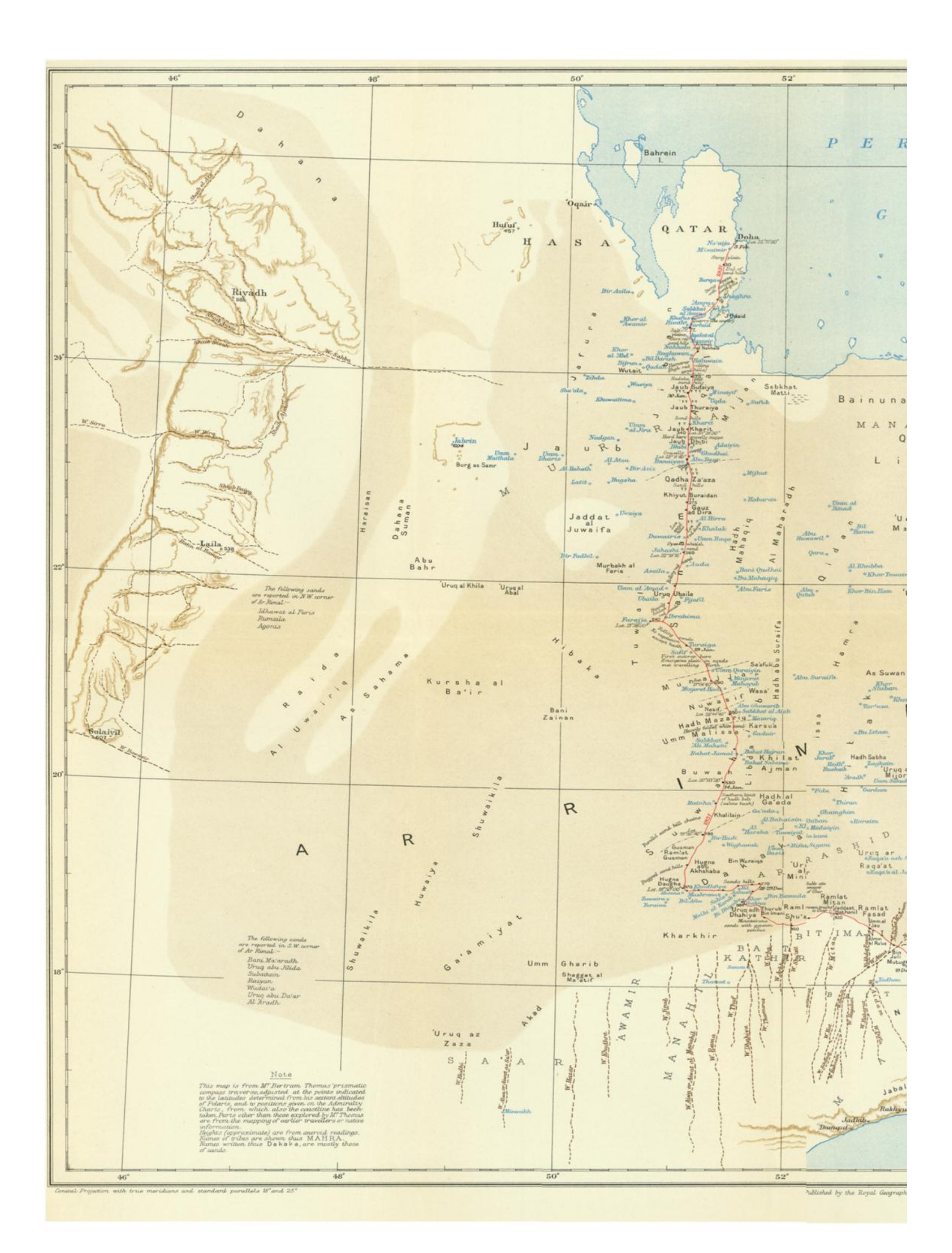
Na'aijah: first settlement on emerging from desert



Doha: the end of the journey



SOUTHERN ARABIA
Thomas



Note
This map is from Mr Bertram Thomas' prismatic compass traverse, adjusted at the points indicated to the latitudes determined from his sextant altitudes of Polaris, and to positions given on the Admiralty Charts, from which also the coastline has been taken. Parts other than those explored by Mr Thomas are from the mapping of earlier travellers or native information.
Heights (approximate) are from aneroid readings.
Names of tribes are shown thus MAHRA.
Names written thus Dakaka, are mostly those of sands.
The following sands are reported in N.W. corner of Ar Rimal:-
Idhawat al Faris
Rumaila
Agorais
The following sands are reported in S.W. corner of Ar Rimal:-
Bani Ma'aradh
Uruq abu Jilida
Subadain
Rasyan
Urug abu Da'ar
Al Aradh
Bahrein I.
QATAR
Doha
'Oqair
Hufuf
HASA
Riyadh
Jabrin
Burg as Samr
Laila
Sulaiyil
Dahana
Dahana Suman
Haraisan
Abu Bahr
'Uruq al Khila
Jaddat al Juwaifa
Kursha al Ba'ir
Bani Zainan
Umm Gharib
Shuwaikila
Huwaiya
Ga'amiyat
Raida
Al Uwairiq
As Sahama
Hibaka
Jafura
Bainuna
Sabkhat Matti
Hadh Mahaqiq
Al Maharadh
Hamra
Khilat
Ajman
Hadh al Ga'ada
Khalilain
Kharkhir
BAIT KATHIR
BIT IMANI
AWAMIR
MANAHIL
SA'AR
'Uruq az Zaza
Akad
Ramlat Mitan
Ramlat Fasad
Uruq adh Dhahiya
AR RIMAL
Conical Projection with true meridians and standard parallels 18° and 25°
Published by the Royal Geograph

الرحلة الثالثة

رحلة في الربع الخالي.

المؤلف: برترام توماس: المستشار المالي لسلطان مسقط وعمان.

المصدر: المجلة الجغرافية، المجلد٧٧ يناير ١٩٣١م.

بعد غياب عامين عن جنوب الجزيرة العربية، نزلت إلى أرض صلالة يوم الثامن من يناير، وأحمل في رأسي مشاريع رحلة بالإبل في الربع الخالي، هذه الصحراء الواسعة المجهولة، إن وصولي في صحبة جلالة سلطان مسقط أعطت لمشاريعي الاستقبال الطيب، ولولا هذا لكان الاعتراض عليها، رغم أنه في أحسن الظروف، فإن الرحالة إلى هذه المنطقة المنفرة يعيش حالة من القلق وعدم الثقة حتى لحظة قيامه بالرحلة، وبداية الموقف القبلي المحلي أمر له أهميته؛ بمعني أنه عامل لا يمكن التنبؤ به، ولو أن وصولي توافق مع اضطراب قبلي في جبال قرة Qara، فإن الطريق يصبح مسدوداً، وتضيع الآمال في تحقيق أحلام أعددتها، هناك جانب كبير من الحظ في عملية نجاح اختراق شبه الجزيرة.

وتمحورت كل آمالي حول عناصر محددة من قبيلة الكثير Al Kathir التي كان زعماؤها يحظون بحب وتأثير كبير لدى السلطان، وقد استدعوا إلى القلعة لمناقشة طرق ووسائل تحقيق الهدف، وفي عجالة توفرت مجموعة البدو المصاحبة وتوفرت الإبل، إلا أمتعة الإبل- لا يخاطر بها أحد حتى ولو مثلها من الذهب، والأمر يحتاج إلى الحصول عليها من هذه القبيلة الجبلية الفقيرة، قبيلة الشهرة Shahara، وذلك مقابل دفع إيجار مجزي، وهذه تعد مشكلة أولية من مشاكل اكتشاف الصحراء- إن صاحب الناقة لن يخاطر بشيء غير الناقة التي يستخدمها في الركوب في دروب لم تطأها قدم، وصحة هذا الحيوان معه تزيد عن مقدار أي معيار آخر للرحلة، ومن هنا إذا أراد الرحالة أن يدخل في العمق، فإن موقفه لابد أن يكون قوياً حتى يشتري قافلة قبل كل شيء، وعليه أن يتعهد بتعويض مجزي في حالات الخسارة.

انطلقنا ظهر اليوم الحادي عشر من يناير، وكان في صحبتي ثمانية وعشرون بدوياً، كل واحد منهم يركب ناقة؛ بالإضافة إلى تسعة إبل تحمل الأمتعة، ومساعدي هو رجل يدعى علي محمد Ali Mohamed، وخادمي الذي صحبني في رحلتي عبر الأطراف الصحراوية الجنوبية الشرقية عام ١٩٢٨م وإجمالي الإبل أربعون ناقة، ومدة ثلاث ساعات تكفي لاجتياز سهل ظفار الهلالي -سهل جربيب Jurbaib-، وهناك على ارتفاع ٣٠٠ قدم تحولنا إلى جرزازا Gurzaza، وهو أحد الأودية القليلة الكبيرة، ويسهل الوصول إلى جبال قرة Qara، وهذا الوادي على عكس السهل القفر، رأيناه فجأة ممتلئ بالأشجار، وهذا الوادي عبارة عن طريق ملتوٍ، وهو ينحدر تدريجياً وتكسوه أوراق الأشجار، إن الأفلاج التحتية المندفعة، والتي تندفع بقوة على أرض الوادي، تضيف لمسة جذابة إلى الآجام المحيطة بالوادي، إنه مشهد إنجليزي ولا أصدق أنه في الجزيرة، عدا ذلك فإن النباتات تنتمي إلى الفصائل الاستوائية، وأشاهد طيوراً غريبة، استغرقت رحلتنا في هذه الغابة قرابة الساعة وربع، ووصلنا عند فتحة في قاع الوادي تحتضن بركة تقع تحت منحدر صخري يستخدمها كبار المتسلقين في الصعود، وتحت هذا المنحدر الصخري يوجد كهف يتصدر عين ماء دافئة، وفي هذه البركة عاشت مجموعة من الأسماك الرقيقة، وهذه الأسماك جرت إليها حشرات اليعسوب والذباب، وعندما تحولنا جهة الشمال سرنا في طريق أكثر انحداراً عن ذي قبل، والأشجار هنا أكثر كثافة حتى تضطرنا إلى النزول عن ظهور الدواب، وعند تمام الساعة الرابعة والنصف وصلنا عند أرض معوشبة عطلت سير الدواب طيلة الليل حتى وصلنا إلى مكان يسمي Naqa، هنا ضربنا خيامنا في صباح اليوم التالي، وتركنا هذا الأشجار ومنحدرات هذا الوادي غائرة مثل الكهف، وكانت مداخل الكهوف الصخرية تسد أبوابها عناقيد صخرية متدلية تقابلها عناقيد

صخرية صاعدة من سطح مدخل الكهف، وكلاهما تراه وكأنه أنياب حيوان ضخم، عند هذا المستوى من قاع الوادي، وهناك حزم من القش أو العشب الشوكي تبرز أطرافها بحيث تتشابك وكل هذا دليل على وجود حياة بشرية هنا، وهذه هي مساكن قبائل آل كثير Al Kathir، والإبل التي يربيها هؤلاء الناس يقتاتون عليها، شاهدناها في أعداد كبيرة تسير بحثاً عن الكلأ على امتداد طريقنا، وهذه الإبل يستفيدون من ألبانها التي تعد الغذاء الأساسي لأهلها ولنقل البخور الذي يعد الإنتاج الرئيسي بالمنطقة إلى الساحل.

وبعد عدة أميال حيث أقرأ على المقياس ارتفاعنا ألف قدم، نزلنا من فوق ظهور الإبل حتى نصعد وادي جرذاذ Wadi Gurzaz على الضفة اليسرى من الوادي، وذلك باختراق ممر هازال Hazal، وعند ارتفاع قليل بعد ساعة من السير صعوداً، كانت المنحدرات المشجرة يضيق اتساعها كلما سرنا؛ حتى وصلنا إلى أرض مروج خضراء على ارتفاع ١٦٥٠ قدم، هذا المكان اسمه زفتير Zuftair؛ حيث كانت مساكن آل كثير Al Kathir، هنا شاهدنا مساكن قديمة بدائية، بنيت على شكل قباب من القش تظن أنها كومة تبن من بعيد، وهذه الكومة في العادة توضع عند باب الكهف، والـ Mistau مجموعة من هذه المساكن؛ رغم أن الكهوف قيل إنها صناعية بعكس الكهوف الطبيعية التي مررنا بها.

اللثغة الصفيرية لنطق اسم هذه القرية صفة مميزة للكلام وهي الاسم العمومي لوسط جنوب الجزيرة العربية، ولقد أشرت في موقع آخر أنه ابتداءً من خط طول ١٠ ٥١ إلى خط طول ٢٠ ٥٦ آهل بالسكان، آهل تماماً عدا عناصر قبيلة آل كثير Al Kathir؛ حيث مجموعة من القبائل لا تتحدث العربية، ولا ترتدي اللباس العربي، ولا

العادات العربية بل حتى المظهر العربي الطبيعي، وهم أصحاب تاريخ محلي قديم- أهل الحضرة Hadara.

إن وادي جرذاذ هو الحد الشرقي لعناصر الكثير في جبال قرة Qara، وتمتد ديارهم غربًا حتى ثيفا Thifa بالقرب من ريسوت Risut، وهذا يشكل مجموعة كثيرية محشورة في قلب جبال قرة، وهي مقصورة على قبيلة قرة، والتابعين المخلصين لها من أهالي الصحاحرة Sahahar ، ولهما فرعين آخرين وهما بيت كثير Baitkathir، وهي قبيلة بدوية تعيش في المنحدرات جهة الشمال الشرقي، وآل الرشيد Ar Rashid، وبيت إيماني Bait Imani في الصحاري البعيدة، وإجمالي عددهم ثمانمائة رجل جدهم الأكبر كثير Kathir، إن قلة عددهم مقارنة مع قبائل قرة Qara ليس له ثقل سياسي محلي، إن عناصر ظفار تمثل ثلث قبيلة آل كثير، والبقية منها تعيش في حضرموت؛ حيث يزعم المقيمين منهم أنهم قدموا في عصور حديثة نسبيًا، وهناك شك أن هذا الأصل ينطبق تماما على عناصر آل كثير في جبل ظفار، وذلك نظراً للتشابه الثقافي الكامل مع ثقافة الصحراء؛ ذلك أنهم من الممكن تمييزهم عن إخوانهم بدو الصحراء، وهؤلاء الآخرين من بيت كثير، وآل الرشيد، وبيت إيمان كان من بينهم خمسة وعشرين رجلاً من الفرقة المصاحبة لي، وكان الاثنين الآخرين من ربيع Rabi، اثنين من دارو Daru من عمان، وواحد كربي Karbi من حضرموت، وكانت لغة آل كثير من اللهجات العربية، وكانوا يرتدون اللباس العربي العادي عدا الدشداشة Dishdasha كانت قصيرة؛ حتى الركبتين وكانت هذه شائعة في كل جنوب الجزيرة العربية، وكان الفقراء يرتدونها قصيرة حتى درجة العري.

تقدمنا من مستو Mistau أنا والشيخ حمد، المتحدث عن أهالي آل كثير سيرا على الأقدام في منطقة معوشبة؛ حيث كانت تنعم بالرعي قطعان من الأبقار والماعز، وتأخرنا بعض الوقت عند قرية صغيرة، جلسنا فوق تل حتى نجلس بعض الوقت في موقع أعلى من المواقع البحرية بارتفاع ٢٦٠٠ قدم، كنا ننتظر وصول نوقنا، ومرة أخرى ركبنا الإبل، وسرنا عبر القطان Al Qatan، وهي تمثل السقف المعوشب لجبال قرة Qara وهي تمثل الفيصل، وتأخرنا مدة ليلة في يومنا الثاني في بومتهان Bu Matahan، وهذه النقطة هي الحد السابق الذي وصله التوغل الكشفي الأوروبي، وصلها بنتس Bents عام ١٨٩٥م وارتفاع بومتهان حوالي ٣٠٧٠ قدم، والحرارة قد تصل هبوطًا إلى ٤٥ درجة، وكان البرد قارص بعد الجو الذي تعودنا عليه في صلالة الذي كان يصل إلى ٧٠ في لياليها، وعدم رغبة البدو في السير المبكر يسر لي أن أصطاد صقراً، وهذا التصرف جعل رفاقي ينظرون إليه في ريبة عندما كنا ندرسه بدقة، ذلك أن لحمه غير مرخص به شرعا، وقام مساعدي بوضع قطن مبلل بمادة الفورمالين - ضد عمليات التسلخ- وبعد مسيرة يوم كامل كان علي Ali قد تلقى تدريبًا في جمعية التاريخ الطبيعي في بومباي Bombay Natural History Society وكان مزودًا بأدوات عمليات السلخ، وعمليات الحفظ، وكان معي أيضًا بالإضافة إلى هذه الأدوات بندقية صيد، ورباط رأس مقاس ١٦مم وكاميرا، ومثل هذا الأدوات حملتها في رحلتي السابقة، وعلاوة على ذلك بوصلة، وهيدرومتر، ومزولة Sextankt وكرونومتر، بالإضافة إلى آلة التصوير.

وعند الساعة ١٠,٤٠ صباح يوم ١٣ يناير بدأنا بعد تأخر بعض الوقت، وكان هدفنا هذه المرة العيون Aiyun، وهي عين ماء معروفة، أصحابها بيت كثير Bait Kathir عند أعلى وادي غودون Ghudun، وخلال نصف ساعة بدأ مؤشر البارومتر في الهبوط، ثم

بعد ذلك تحولنا خارج التلال إلى جهة الغرب، وهنا شاهدنا أمامنا وأسفل منا إقليم بكسوة بساط لونه أحمر، وخلوه من الأشجار عكس ما هو على التلال وما وراءها من إقليم ممتلئ بالأشجار، وفي الواقع مخبأة؛ هذا وبمعني آخر في قيعان أدوية مهجورة، وظهرت أمامنا الآن شجرة البخور، مر أمامنا اثنين من رجال بدو آل كثير ومعهم إبل محملة باللبان؛ متجهين إلى ميناء الساحل، وتبادل رفاقي من البدو المترجلين التحية مع هؤلاء على طريقتهم بملامسة الأنف بالأنف، ولكن هذا الكثيري قدم التحية إلى رفيقي من بدو دارو Daru على طريقة الأجانب بملامسة الأيدي، وهذه النقطة التي نحن عندها تمثل حدود قبائل تسكن الجبال، وأعني قبائل قرة وآل كثير وشاهرا Shahara، وهذه المنطقة تمثل الفاصل الجيولوجي، وكان أمامنا منحدر صخري قفر غير آهل بالسكان هابط إلى أسفل مسافة مسيرة ستة أيام إلى الصحراء، إنها منطقة شديدة الجفاف عدا هذا الوادي الذي يمثل شريان العشب، وهذا الطريق هو الطريق المؤدي بالتوغل نحو الداخل، وخلفنا كانت توجد طبقات صخور الوادي الحجر الجيري؛ تعود من العصر الكريتاسي الأعلى إلى عصر الأيوسيين في إقليم ظفار، والتركيب الطبوغرافي كالآتي بيانه:

١) سهل جربيب: سهل ساحلي بحري.

٢) خوتم: منحدر جبلي بحري، مشقوق بواسطة حواف وادي مشجر يربط بينها مروج خضراء نبتت في صخور.

٣) قطان Qatan: وهو عبارة عن شق متوسط ٣٠٠٠ قدم.

٤) نجد Nejd: وهو عبارة عن منحدر صخري رملي، هذه الأحزمة الأربعة تمتد في اتجاه شمال غرب.

وهكذا تختلف بعضها من الجنوب إلى الشمال، والملحق (E) يسجل الأنواع النباتية فيها.

إن نزولنا من قطان إلى نجد مر على تل بارز يجري جهة الغرب، وقاع الوادي الذي تركناه في الجهة اليسرى هو منبع وادي جرزاز Gurzaz، وهو الوادي البحري الذي وصلنا عنده، وأمامنا مباشرة تجري قيعان الوادي في الاتجاه المعاكس، وهنا توجد حافة فاصلة منخفضة تعرف باسم أم توشف Umm Tushf ملطخه ببقع بيضاء من الطفح الملحي. وعند الظهر نزلنا حتى نعبر رأس وادي فسيح منعزل هو ما يعرف باسم غودون Ghudun الوادي الجاف الكبير، وبواسطته نشق طريقنا جهة الشمال، وعبرنا ساعة أخرى حتى نبطئ السير، وعلى مسافة قصيرة من عيون Aiyun شاهدنا بعض الآثار القديمة رأيت مثلها في رحلتي السابقة، ولكن هذه الآثار خالية من النقوش، وتعبت كثيراً حتى أمنع رجالي من البدو من التباطؤ هذا اليوم على الماء، وهبط البارومتر إلى ٢٥٠٠ قدم، كما أننا أخذنا طريقنا في بدايته عند منعطف ضحل من المجاري العليا لوادي هلوف Wadi Haluf، وهو رافد كبير من غودون Ghudun، وهو منعزل تماماً إلا من بعض أشجار البخور، وهنا عبرنا سهل أحمر منبسط في اتجاه شمالي غربي، يسير نزولاً إلى منطقة وعرة حيث واجهنا فجأة شق عميق مفتوح بحوالي ٢٠٠ قدم من تحت أقدامنا، وهذا وادي آخر متدفق من وادي هلوف Haluf هو وادي زهير Wadi Dhuhair؛ حيث كان هدفنا عين ماء شويرما Shuwairima، ورأينا ستة من الإبل ترعى ووجودها يشير إلى وجود أحد، بالفعل كان هناك شخص يقف فوق صخرة، اعتقد رفاقي أنه سوف يفتح نار بندقيته نحونا، ومن جانبنا لوحنا وصحنا صيحة تشير إلى الأمان، وبالتالي ظهر الرجل، ونزلنا بهدوء، ووجدنا أن هذا الرجل من قبيلة المهرة Mahara، كانت زوجته وطفلين له يسكنون كهفاً مجاوراً، وكان هذا هو آخر مشهد بشري نواجهه حتى عودتنا إلى هذه العروض منذ شهر مضي.

خلفنا الآن بلد أشجار البخور، إنه بلد البخور المعروف، هو أعظم إقليم بلاشك في ديار الجزيرة العربية القديمة، لو أن حضرموت واليمن تمتلكان بساتين فإنها تناقصت منذ عهد طويل، وافتقرت بشكل لا يقارن عن مثيلاتها في ظفار؛ حتى أن ثراءها بدأ يتضاءل من ذاكرة الناس، وهنا الملاك الأصليين للأرض، وهم الشهارة Shahara(Saro) لا يزالون يمثلون عنصراً كبيراً بين السكان؛ رغم أنهم عنصر جار عليه الزمان؛ ذلك أن تراثهم القديم يقع اليوم في يد آل قرة Qara، وآل كثير Al Kathir سكان الجبل؛ الذين استوعبوا ثقافتهم وحضارتهم كاملة، إن وضعهم القديم بالإجماع تلاءموا عليه بفعل من سلبوهم، والأسماء الإقليمية المحلية التي يعرف بها الإقليم اليوم هي أسماء سبعة أجداد من الشهارة Shahra، لقد أخذت الأرض أسماءهم، وهم قرة Qara، فيت Faiyit، كاتي Kahti، غضب Ghadhab ، هونجلي Hungli، وعين الزغل Ain Azzughul.

إن شجرة البخور تنمو برياً: لا تزرع والبساتين من نوعين حسب المسافة، (١) مانزلا Manzila، وأشهرها في عفور Afaur، أسوج Asug، عفار Afar، جزلوت Guzilut، زوا Zuwa، عطا تنشيت Ata Tanshit، قيم Quim وأموت Amaut، حول Hawil، ومساحتها يقدر على أن يعمل عليها خمسة رجال لجمع السائل، وقد يكون العدد أقل، والشجر ينمو بشكل أجود في الأرض المرتفعة على منحدرات نجد على ارتفاع ما بين ٢٢٥٠ قدم ٢٥٠٠ قدم، وتقع هذه المنطقة عند نهاية حزام المطر الصيفي، إن حزام ظفار يعد فريداً في منطقة جنوب الجزيرة-وكان الإقليم يتمتع بهذه الخصوصية في الأزمان التاريخية المبكرة بأن أمطار مثمرة (أمطار الرياح الموسمية الجنوبية الغربية من المحيط الهندي) التي تملأ جو موغور Mughur بالرطوبة، تبدأ الشجرة الصغيرة في النضج بعد العام الثالث أو الرابع، وتبدأ العملية الإثمارية عند قطع اللحاء على ارتفاع ثلاثة أو أربعة أقدام عن سطح

الأرض (يندر أن يكون للشجرة جذع أو وسط)، يقطع اللحاء في رقاقات سطحية في أماكن مختلفة باستخدام سكين خاصة، وتترك مدة عشرة أيام، ويسيل السائل الصمغي من هذا الموقع، ويتصلب في شكل قطرات دموع لزجة، وهذه تقطع ثم تجمع، يستمر نزول السائل من هذه الثقوب مدة عشرة أيام على فترات متقطعة، وذلك على مدة خمسة أشهر. جدير بالذكر أن هذه الثقوب يتجدد فتحها ما بين الحين والآخر حسب مقتضيات الظروف، وبعد هذا تترك الشجرة حتى تسترجع حالتها، وتختلف الفترة ما بين ستة أشهر إلى عامين حسب حالتها، ويستمر جمع اللبان Liban بشكل أساسي في فصل الصيف، ويخزن في كهوف الجبال إلى أن يحل موسم الشتاء، وعندها يحمل إلى الموانئ للتصدير إلى الهند، كان المحيط الهندي غير صالح للملاحة في العواصف الطبيعية في فترة العواصف الصيفية في فترة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، وفترة التأخير هذه توفر للمحصول فرصة لكي يجف؛ رغم أنه من الطبيعي أنه يصلح للتصدير بعد ما بين عشرة وعشرين يوماً من عملية جمعه.

والبخور ثلاث أنواع: النجدي Nejdi، والشازاري Shazari، والشعابي Sha-abi وترتيب نوعيتها حسب نفس الترتيب؛ النجدي Najdi فضي اللون، وهذا من إنتاج المرتفعات الجبلية الداخلية لجبال سامبان Samban، وقرة Qara، والنوع الشازاري من إنتاج منطقة جبلية تحمل نفس الاسم في المنطقة التي تربط ما بين امتداده قرة Qara وقمر Qamar، أما النوع الثالث الشعابي Sha-Abi، فهو نوع أقل جودة من إنتاج المنطقة حول ريسوت Risut، وموانى تصدير البخور من الغرب إلى الشرق هي جذب Jadhab، راخوت Rakhut، ريسوتRisut، أوقاد Auqad، صلالة، هفا Hafa، طاقة Taqa، مرباط Murbat، سدح Sudah، وحظابَرام Hadhabaram.

وأعود إلى روايتي، تهبط الحرارة في وادي زهير Duhair إلى ما دون ٤٢ درجة بالترمومتر الجاف وإلي ٣٩ بالآخر الرطب، البرد شديد ليلاً، وقراءة البارومتر تصل إلى ٢٢٥٠ قدم عند الفجر، وإن قراري بالانطلاق المبكر أسعد البدو رفاقي، يميل رفاقي إلى التباطؤ عند عين ماء، خصوصاً لو كانت الأخرى على مسافة بعيدة، وكانت شيسور Shisur على مسافة سير ستة أيام تفرض على هؤلاء أن يصروا على هذا التأخير، وأنا شخصياً استسلمت لهذا الأمر طواعية في الأسابيع المقبلة، ومرت ساعات يملؤون القرب الجلدية وتشرب إبلهم، ولم نبدأ الرحلة قبل الساعة العاشرة وخمس دقائق، وسرنا في وادي وعر تحفه من جهتيه منحدرات صخرية لونها أحمر، تلمع كلما سرنا نحو الشمال، وأخذ الوادي يضيق تدريجيا إلى ما بين ٤٠ إلى ٥٠ قدم على امتداد ستة أميال، وهنا ينحرف وادي زهير Dhuair شرقا حتى يتصل مع وادي هلوف Wadi Haluf، وهنا نشاهد امتدادات رحبة يضلك فيه رؤية بناء براق أبيض وكأنه الباغودة[١]، وهو يعرف باسم البرج Al Burj.

يحد وادي هلوف مجموعة من التلال ذات الألوان الفاتحة على أشكال هرمية ومخروطية، وبدأت الرياح الآن، ولابد من تفسير المسافة بالسير في الوادي (السيح Sih) وبعد ذلك وعلى مدي ساعتين بعد مسيرة نصف يوم تقدمنا في اتجاه شمال - شمال غربي؛ عندما بدأت الشمس نحو الغروب، دخلنا مرة أخرى وادي هلوف Wadi Haluf حيث وجدنا مكاناً طيباً للراحة، هنا شريط من البساط الأخضر، وأغلبها من أشجار سمر السنط Samr Acacia ونخيل يعرف باسم الجدف Ghadaf يصنع البدوي من أليافه بعض من أدواته، وكانوا يقومون بهذه الصناعة ليلاً لتسلية أنفسهم، وسقط الندى

---

(١) **الباغودة:** معبد هندي أو صيني متعدد الطوابق . (المترجم) المورد – ٦٠ - .

كثيفًا وسجل المؤشر درجات ٥٠، ٥١ درجة على التوالي، وهذا يعطي التفسير لوجود حياة نباتية وحيوانية. الآن وقد شاهدنا مجموعة من الغزلان وإن رؤيتهم ورؤية أثار أقدامهم نراها طوال اليوم، وكانت هناك آثار أقدام ذئاب وضباع، والأكثر شؤما أن نرى آثار أقدام Gom- وهذا الحيوان عدو المغيرين؛ بل إنه أقدم أعداءهم، والآن نجتاز إقليم التلال ومنه تأتي المساعدة إلى السهل الأبعد؛ حيث نتعرض لهجمات المغريين، ولأجل هذا السبب بالإضافة إلى معرفتنا أن ظهور نمو الخضرة سيكون في أماكن متباعدة خلال ستة أيام دون ماء، وبالتالي باقي علينا أن تنضم القافلة إلى بعضها بقدر الإمكان، وراء آل غيار Al Ghiyar في وادي هلوف Wadi Huluf؛ حيث يوجد وادي ملئ بالمراعي، وسرنا نحو الوادي في منحدراته الغودون The Ghudun، وسرنا نحو ثلاث ساعات ونصف، وغودون Ghudun وادي آل كثير Al Kathirونصف وبهذا الوادي بيت كثير، وهذا هو الاسم الذي قاله شيخ القافلة المصاحبة، وهي منطقة جافة وشاحبة دخلنا فيها، واستمر سيرنا، ولقد كانت ملاحظاتنا مثيرة للضحك؛ حتى يذكرنا المثل العربي القائل: "حمارك أفضل من سؤال غيرك" Anes Ass is Preferable to the Borse of anotho والمعسكر على مسافة ساعة، وأخذت الدواب تشق طريقها صعوداً دون أن يجرها أحد من البدو، وأن وجود السرج فوق ظهر الدواب يغني عن استخدام الحبل لجرها وكانت عادة البدو استخدام هذه الدواب لنقل البخور، وكانت الأكياس المصنوعة من القش بديلاً عن استخدام السرج؛ توضع فوق سنام الإبل، وكانت أكياس البخور تربط فوق ظهور الدواب باستخدام حبال مصنوعة محليًا من القش، وكان لابد من توازن جهتي الأثقال فوق ظهر الدواب، ولم تكن مشكلتنا في ازدياد وثقل الأحمال؛ إذ أن الناقة تقدر على حمل أربعة من الأكياس متوازنة الوزن.

من الخربا Al Kharba انطلقنا صباح يوم ١٥ من يناير، وتركنا وادي غودون على الجانب الأيمن عبر سهل منعزل في طريق متجه شمالاً، وأخذ الطريق في البداية يتموج تموجاً خفيفاً، ثم أصبح في شكل ربوة وظهرت الأرض المرتفعة يكسوها نتوءات من الصخور الرملية في أشكال ملحية، وبالأمس شاهدنا آثار أقدام الغزلان والأرنب الجبلي، والآن تظهر آثار أقدام الظبيان لأول مرة في هذا السهل الرملي، واليوم تظهر آثار أقدام الظبيان الكبيرة، وبعد الظهر بوقت قصير، وبعد أن قضينا زمناً في قاع الوادي أصبنا واحدة منها، وقد أخذت تترنح عند جانب الوادي يطاردها أحد البدو، ولكنه لم ينجح في الحصول عليها، وواصلنا السير على أرض قفرة، وحسب معلومات البدو أن الأمطار الخفيفة التي كان متوقعاً أن تسقط على نجد Nejd لم تعد تنزل، ويقول أحد البدو معلقاً على عدم نزول الأمطار فترة أربعة عشر عاماً أن هذا غضب من الله نزل على الديرة Dira، وهذا إشارة إلى القحط، وهذه هي نفس القصة التي سمعتها في كل أنحاء جنوب شرق الجزيرة العربية -ويشمل هذا الكلام عمان-، وأنه خلال العقدين الماضيين فإن مقدار الأمطار الخفيفة زادت خفتها أو انقطعت تماماً، وأننا لا نستطيع أن نؤكد أن زيادة فترة الجفاف ستستمر، وإن كانت الأمطار الشتوية هذا العام جيدة غير العادة.

يوم السادس عشر من يناير اصطدنا أول ظبي، وذلك عند التقاء وادي غراء Ghara مع وادي غودون Ghudun، وكان في حجم البقرة، وحيث كنت شديد الاهتمام بجلد الظبي كان البدو أقل جزعاً للحصول على كرشة الحيوان، وعلى السائل في المعدة الذي شربوا منه في تلذذ، أما عن الأشياء الصلبة فقد عالجوها لأجل إبلهم التي يرتفع أصواتها احتجاجاً، إن الفائدة من هذه الأحشاء موضوع الكلام؛ سواء في البشر أم في الدواب، لا يساويها شيء آخر في الصحراء، وهذه ليست إلا اثنين من فضائل البدو ذات صلة بالظباء، لحومها

أطيب من لحوم الحيوانات الأخرى -لا أستطيع أن أقول بنفس وجهة النظر-، وهو حكم أعتقد أنه يقوم على أساس مقارنة ما يحدث من تأثير بعد تناول لحم الكرشه على معدة خالية، والاعتدال في تناول وجبة اقتصادية أمر غير معلوم، وكان الطلب على الأدوية المعالجة من صندوقي بعد ليلة هرج وبعد إجهاد، وإن هذه الليلة أودع فيها رؤية شجر الأكاكيا، ولسوف انتقل لرؤية أشجار الصفصاف، رغم أن الخضرة السائدة التي يعتمد عليها الإبل في غذائها، في هذه العروض الوسطى من أعشاب الـHardhai والـSalom التي تحدث عنها شعراء العرب، وهنا كان ظمير غرباض Dhimir Ghurbadh، وهذا المكان علامة عندما يتحول الزجزاج، وهنا يأخذ مجرى وادي غودون Ghudun بدايته من الجبال التي تسقط منها إلى امتداد الوادي، أعني وادي أم حياة Umm Hiait.

وحتى ذلك اليوم لا يزال اتجاهنا شمالي غربي، ومن هنا لابد أن نتحول جهة الشمال الشرقي إن الوادي المفروش بالحصى والذي كان منحدراً بين صدوع عميقة في مراحله الأولى أشاهده الآن، وقد أصبح شبه حصوي، وتختلط الرمال بالحصى بشكل أكبر، والانحدارات التي ارتفع مستواها حتى أصبحت مجرد ضفتين وتناثرت الأعشاب الخضراء من عروض تهبط تدريجياً، وبعد مسافة أشاهد حوضاً غسلته عوامل التعرية في وادي رملي فسيح لا تكاد تميز له ملامح، وبين الحين والآخر يتفرع قاع الوادي عند جزر صخرية رملية، وتظهر نتوءات من الأرض ذات أسماء معروفة، ومن بين هذه الأسماء نافت Nafit، وناوفت Nawafit، ويتجمع في هذه المنطقة أنواع من الحشرات والزواحف من بينها السحالي والفراش، والجراد، ولم أشاهد من الطيور إلا عصفور الصحاري الملون بين الحين والحين، وكانت بندقيتي فارغة، وتركنا قاع وادي غودون Ghudun عند الساعة الواحدة والربع؛ حيث التقينا بصخرة تسمي راضنا

Radna، وسرنا في اتجاه شمال شرقي عبر وادي تغطيه صخور الصوان السوداء خلفيته من بحيرات السراب، وهدفنا هذه المرحلة إلى شيسور Shisur، وعندها أقرب عين ماء في هذه الصحراء الواسعة، وهي أول عين ماء بعد أن تركنا شو ويرما Shua Uairmia، ولا يزال أمامنا ستة أيام، وقد كان الوقوف قليلاً عند شيسور لابد منه لأجل إبلنا؛ حيث كان المكان القريب خالي من المراعي.

كان الاقتراب من عين ماء يتم في حذر شديد، لو أن هذه العين في يد أحد من الأعداء فإنه كان لابد من الانسحاب السريع، ويتحمل المرء العطش والهروب في خوف، أو أن يدخل في معركة للحصول على الماء، والبدو المصاحبين لي تحملوا الكثير في -غودون Ghudun على يد قبائل سعر Sa-ar وقبائل نهاد Nahad في حضرموت أغاروا على هذه القبائل عند التخوم الغربية-، والكلام كثير عن أعمال النهب التي قام بها بني مرة Murra والعوامر Awamir، والآن تجري عملية مسح حذر للأرض بحثًا عن آثار حديثة لـ Agom، ولا تظهر أية آثار فالأمور مريحة، وتدل على أننا وصلنا عند عين الماء، وقرب الماء خالية تمامًا، وقضينا الليلة في معسكر عند موتوجاتايج Mutugataig على مسافة أميال من عين الماء؛ حيث قتل في هذا المكان اثنين من السحالي، وأفعى صالحة للأكل طولها ثلاث أقدام، وعند هذا المكان تقدم فريق من ثلاث أفراد لتفتيش الموقع، والكشف عن بئر الماء استعداداً للتزود بالماء في الصباح، وهذا أمر طبيعي في الصحراء أن تقوم بردم عين الماء بعد التزود منه وعند الرحيل، وهذه عملية تعطل المسافر وتضطره أن يعيد الحفر بنفسه، وهنا فعلت الطبيعة ذلك لخدمتك، ذلك أن عين الماء لشيسور Shisur تقع عند مدخل كهف يقع على عمق ٥٠ قدمًا عن سطح الوادي، وعندما يمر عليها الوقت تردم تلقائيًا بكثبان الرمال.

إن يوم الأحد التاسع عشر من الشهر يوم مصيري، لقد وصلنا بعد مسيرة يوم في صحراء واسعة تقع إلى الشمال، ولكن أصحابي أوضحوا لي أنهم يعترضون على أي مشروع أحمق في هذه الصحراء، وبكل صراحة الآن قالوا إن شيسور Shshur كانت هي الحد الذي فرضته أعمالهم، وبررته حكمتهم، واستعد فريق منهم أن يحصل على تموين من الماء لمدة أربعة أيام في شيسور، ويقوم بعملية هجوم خفيف في الصحراء في نفس العروض والعودة مرة أخرى، وأكدوا أن غير ذلك كان أمراً مستحيلاً، وهالت فكرة الوصول إلى وسط صحراء رملة حباك Ramlait Hibak، وقيل إنها على مسافة مسيرة عشرة أيام من شمال شيسور Shishur، ولكن الفكرة لم تنل الترحيب، السبب الأول: أنه لا توجد عيون ماء في الصحراء المؤدية من هذا الاتجاه، وثانياً: كانت عناصر آل الرشيد هم العنصر الوحيد في قلب الرملة Ar Ramla والسبب الثالث: أن معظم الإبل كانت في هذا الوقت غير مؤهلة لمثل هذه الرحلة الصحراوية، ولا تستطيع أن تقطع الطريق فيها، وكان لابد أن أعرف أن العامل الثالث هو أقوى هذه العوامل؛ ذلك أن الناقة التي ولدت وتربت في بيئة الجبل لا فائدة من استخدامها في منطقة رمال ناعمة، وكأنها سفينة بدون مجاديف في عرض البحر، بالإضافة إلى أن هذه الإبل تغيرت أحوالها إلى الأسوأ بسبب تغير نوع العشب، وهناك أربعة إبل تحمل أمتعتنا ينطبق عليها هذا الوصف، وأصبحت الرحلة القادمة أكثر مشقة عليها، ولا تقدر على تحملها، ولابد من تغيير الخطة، وطرأت لي فكرة رحلة على الإطار الهامشي للصحراء امتدادها مائة ميل للكشف عن وادي أم الحيط Umm Al Hiat الذي يجري جهة الشمال الشرقي من شيسور Shishur إلى واحة موجشين Mugshin ومن هنا (هذا تحفظ فكري) تقوم بعملية دخول إلى قلب الصحراء، وهذا الاقتراح أثار موجة من الاحتجاج على أساس عدم قدرة الإبل على أن تقوم

برحلة امتدادها ستة أيام على أرض خالية من عيون الماء؛ بالإضافة إلى أن شهر رمضان كان يقترب، ولابد أن يؤدي المسلمين الصيام وسط أهليهم، ومر اليوم في جو من التوتر، ولكن بأسلوب الحكمة، اقتنع ثلاث رجال من كبار هذه المجموعة أن يؤيدوني، وبواسطتهم مال الآخرون، وقامت خطتي على التخلص من الإبل المشكوك في قدرتها، وبالتالي اضطررت إلى التخلص من ستة رجال من آل الرشيد، ومن بيت إيماني Bait Imani الذين في صحبتي، وأعدت إلى ظفار أربعة دواب قليلة الكفاءة كانت تحملو الأمتعة.

هذا معناه تخفيف أمتعتي، ووضعت ضمن خيمتي كل ما هو ضروري من مخزون الطعام، وصندوق جمع أشياء التاريخ الطبيعي بالإضافة إلى صندوق الإسعافات الأولية؛ الإبل الراحلة عنا ودعناها، وركبنا إبلنا، ويممنا وجوهنا نحو الشرق عبر الوادي إلى شيسور Shisur، وصلنا عند مكان يعرف باسم جدة Jadda، وهي مكان منبسط عجيب تقع ما بين حافتين من الحجر الرملي ثم يتلوه آخر، ووراءه شاهدت صخرة رملية حجرية مربعة الشكل يتوجها آثار قلعة قديمة، وكانت هذه هي شيسور Shisur هنا شاهدت فتحة عميقة طبيعية في شكل شبه دائري في الجزء الأدنى من التل تؤدي إلى شق في قاعدة التل اتساعها بالكاد يكفي أن ندخل فيه ذراع آدمي حتى تصل إلى الماء تحته، وقمت بأخذ عينة من الماء، وحملتها بكل عناية إلى مسقط؛ حيث تخلص منها أحد الخدم دون قصد منه، ويقال أن الذي قام ببناء قلعة شيسور رجل يدعي بدر بن تواريج Badar Bin Tuwarig في ماضٍ سحيق، وأكد البدو أنه في الوادي المجاور مباشرة توجد بعض الآثار لتجعدات خطوط في الأرض، وكأنها يوماً ما عرفت المحراث والزراعة، وهناك بعيداً في هذا السهل العاري شاهدت أيكة مشجرة صغيرة هي حلة الشيسور Hilat as shisur وهنا مكثنا ليلة، نحن الآن على ارتفاع ١٢٠ قدم، ومقياس الحرارة الآن يسجل درجة ٥٥ درجة،

وفقدت طريقي إلى خيمتي ليلاً، وبعد ذلك انطلقنا في وقت متأخر، وسرنا جهة الشمال الغربي حتى نتجنب حافة عالية عبر سهل رملي منبسط، وأمامنا الآن حافتين وهما بير نيفيس Bir Nifis والأصبوا Al Usbu، والأخيرة تواجه صخرة تقف على شكل إصبع، ويغطي قاع وادي غودون Ghudun الذي وصلنا عنده؛ حيث يوجد منخفض ضحل، وهو منخفض رملي خالي من الحصى؛ حيث توجد شجرات تسمى الأشخرة -عند العمانيين-؛ حيث شاهدناها لأول مرة، نحن الآن على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، وعند هذه النقطة تظهر الحواف الجنوبية للصحراء ترتفع عند الأفق الشمالي، كان المشهد بالنسبة لي محفزًا، وفي نفس الوقت أخذت المجموعة المصاحبة لي تتباطأ عند بعض من أشجار الطرفاء مسافة حوالي ميل في المؤخرة، وجاء ظهر اليوم التالي حتى وصل رفاقي، وكنت في هذا الوقت متعبًا بسبب مجهود ليلة، وهم شجعوني على مواصلة السير حتى لا ينفذ علف الإبل، إن الرحالة في هذه الصحاري الواسعة يكتشف مدي اهتمام البدوي بناقته، وأن الذي يقرر انطلاقه البدو، أو تأخره عبر الصحراء تتوقف على نوع العشب، والعلف أهم من الماء، وتقدر الناقة على أن تحمل أثقالاً مدة أسبوع دون التزود بالماء، ولكنه لا يستغني عن العلف يومًا واحدًا، وأن الأوربي قد اعتاد أن ينسق وقته؛ حيث وقت للرحيل، ووقت يقف فيه، ووقت يتناول طعامه، ويصنع لنفسه متوسط سير يومي بالميل.

إن الرجل المولود في هذه الأصقاع الجرداء، يخضع كل شيء لذاته، حتى أنت ليستطيع التنقل، صحة ناقته، وأن يتوقف عند مراعي طيبة، وعند مياه تشجعانه ألا يبرحها، وعندما يصل إلى شجيرات عند الظهيرة رغم شدة حرارة الشمس يقف عند هذه الشجيرات مدة طويلة، ويصل عندما يأتي الليل، وقد قضي يومه فوق ناقته، وإذا لم يجد مرعي خصبة يصر على مواصلة الرحلة دون أن يهتم بقدرتك على التحمل.

واليوم وبعد ساعتين من غروب الشمس توقفنا قليلاً، نحن الآن عند التقاء وادي غودون Ghudun عند أم الحياة Umm al Hiat، وعند الغروب هبت عاصفة رملية شديدة، وازدادت حدتها حتى أصابت عيوننا وآذاننا، وأفسدت الطعام. إن هذه الرياح هبت على الصحراء، وظهر أنها تشكل الرمال Ar Rimal الجنوبية، وتأثيرها محلي على أقل تقدير، وهي تهب على هذا السطح المفكك من السهل، والذي يقرر ذلك تحليل العينات التي جمعتها من هذه الرمال.

بدأنا في وقت مبكر وانطلق الصباح، وظهر أن علف الإبل من الأعشاب قليلاً، وفي العادة كان يسبقنا ثلاثة رجال من البدو يشجعها حب المال لكي يجمعوا أشياء للمتحف، هذه أرض مشاعة الملكية، إن وادي غودون Ghudun إلى شيسور Shisur هي منطقة سكنى بيت آل كثير Bit kathir، ومن يظهر هنا في هذا المكان يكون موضع شك، كما أنه قد يكون عدواً، وأخذ البدو رفاقي يدققون في السماء بعض الوقت، فبحثهم عن الغزلان والظبيان على مسافات بعيدة أمر غير عادي، والتدقيق في الرمال عن آثار أقدام إبل الأعداء المغيرين، ولقد كنت شديد الاهتمام أن أستمع إلى تفاصيل غارة، وقد قضيت عامين أهتم بجمع هذه القصص عندما كنت أجتاز في رحلة الأطراف الجنوبية الشرقية، وهي نماذج حياة المجازفة في الصحراء، وأنه خلال أسبوعين من وصولي إلى أندور Andhaur عام ١٩٢٨م، فإن جماعة من خمس وعشرين مغيراً من قبائل سعر Sa-ar وكرب Karab، وكانوا يقطنون الجهة الشمالية الغربية من حضرموت، فقاموا بالإغارة على جماعة من المهرة Mahara بالقرب من عين الماء التي وصلت عندها، وأخذوا أربعين من إبلهم، وهذا جعل دستة البدو رفاقي يستغنون عن إشعال النار في المعسكر، والآن عرفت أنه في رحلة العودة في هذا الفريق المغير قاطع طريقهم فريق إغارة آخر، وهم عبارة عن خمس وثلاثين رجلا من المهرة؛ بالإضافة إلى

خمسة رجال من آل كثير، والتقى الفريقين عند حلة الشيسور Hilat Ashisur؛ حيث كان امتلاك عين الماء مسألة حياة أو موت، وأخذت الغنائم من المغيرين من مأرب Maarab(١)، وفقدوا خمسة من إبلهم، وهرب من نجا بحياته منهم؛ حيث كان كل اثنين يركبون ناقة، وفي خلال أربعة وعشرين ساعة ظهر فريق إغارة آخر يتألف من خمسة وعشرين من آل مأرب، والتقوا مع عدد من جماعة بيت كثير Bait Kathir عند دفن Difin، وقتل سبعة رجال في هذا الالتحام بينهم شيخ كل قبيلة منهما، وتبادل الطرفان سلب خمسة وعشرين ناقة بينهما، وكان أفراد المجموعة التي معي قد حضروا الغارتين، ويا للسعادة أن حل السلام بين قبيلتي سعر Sa-ar، وكثير Kathir منذ ذلك الحين، ولكن قبيلة نهد Nahad، وقبيلة كرب Karab، وقبيلة عبيدة Abida استمروا في قتال متواصل مع رفاقي من آل كثير Kathir، وهؤلاء أمضوا وقتًا طويلاً يناقشون الخوف من الإغارات وآمالهم في الإغارة، وهنا أيضا أذكر وجود آل كرب Karb في الفريق الذي معي.

على مدى الأيام القادمة بات علينا أن نمر بحواف متموجة من هذه الصحراء الواسعة على الجهة اليسري من سينا، أما على الجهة اليمنى نمر على مسافة قصيرة من مسطح مستوٍ نقصد به نجد Naged، إلى الشمال الشرقي مباشرة من الوادي الرئيسي الذي يقوم بفصلهما عن بعضهما، ومن المعالم الجيوليوجية الجديرة بالانتباه رؤية أعداد كبيرة من البقايا الحيوانية، وقد استطاعت عوامل التعرية أن تعطيها

---

(١) مارب Ma,arab – Mishgas تستخدم هذه الأسماء في جنوب الجزيرة العربية أسماء إقليمية للمناطق الواقعة شرق وغرب ظفار على التوالي، واسم أهل المأرب يمثل قبائل صقر، وكرب، ونهد، وعوامر، والمناهل .... وغيرها، أهل المشجاس (The Ganaba)، آل وهابي Yalwahiba، وبني بو على. والحراسيس Harasis يستخدمون هذه الكلمة مشجاس لتعني عمان، وهذا يشير إلى أن التعريف اعتباطي، والكلمات تشير إلي معنى.

شكل بيضاوي، وذات لون أبيض، وهي بقايا عضوية مسامية خفيفة، تغطي سطح الصحراء، هنا نزلنا من فوق ظهور الدواب مدة ثلاث ساعات وسط النهار؛ حيث وجدنا أرض مليئة بالعشب للرعي، لقد رحبت بهذه الفترة من الراحة بسبب شدة لهيب حرارة الشمس؛ بالإضافة إلى أن البدو في الصباح أحضروا اثنين من القنافذ الصحراوية، وانتهزت الفرصة لسلخها كما أحضروا عقرب أسود كبير.

ورغم خطورة عضة العقرب أخذ البدو يتلهون به في أيديهم دون قفاز يحميهم من خطورته، أما القنافذ التي يقترب شكل رأسها من شكل رأس الخنزير وجسدها المملوء بالأشواك حاولت الهرب دون جدوى. إن هذه الأنواع غريبة في لونها الرملي على عكس النوع الأسود المنتشر في عمان Omman يقال أن هذه القنافذ تهاجم وتأكل الحيات، ولكنها تهرب خوفًا من نسر الرخم Rukhum؛ عندما يقترب منها ترخي نفسها، وتهيئ نفسها للدفاع.

وبدأنا الرحلة، واجتزنا نقطة عندها وادي يسمي وادي دوكا Dauka، وهو أدنى من وادي غودون Wadi Ghudun، ويتصل بوادي أم الحياة Umm Al Hiait من جهة الجنوب، ويسجل البارومتر الآن ارتفاع ٩٦٠ قدم، وواصلنا السير جهة الشمال الشرقي حيث توقفنا مدة ساعة قبل الغروب، وتصادف أن اصطدنا ظبيًا، استخدمت قرون الظبي آلة فلوت موسيقية، وهي الآلة الموسيقية الوحيدة التي تعرفها الفتيات من قبائل جنوب الجزيرة العربية، يطربون هذه الموسيقي في المناسبات السعيدة عند الزواج وعند الختان، ويظهر في الصورة القرون الطويلة المستقيمة للظبي وكأنها قرن واحد، ويبدو أن هذا الحيوان هو صاحب الإلهام في أسطورة الحيوان الخرافي وحيد القرن.

مرت ليلة غير ملائمة بسبب رياح رملية شديدة وصلت إلى درجة رياح الهاريكين، ولم يحمنا منها إلا اتخاذ شجيرات المرخ Markh ستاراً؛ حيث تكومت الرمال عند جذور هذه الشجيرات، ولم يعد في هذه الحالة فائدة من استخدام الترمومتر، أو الآلة السداسية Sextant لقياس ارتفاع الأجرام السماوية، وأخذ البرق يحول عتمة الليل إلى نهار، وتواصل طوال اليوم مصحوباً بالرعد، وكنت أجلس في الهودج، والساعة الآن السادسة وخمس وثلاثون دقيقة صباحاً، ونحن نتجه الآن شرقاً، ووصلنا عند وادي على الجانب الأيمن مكون من ثلاثة جروف واضحة تسمى القرون Al Qurun، وهي بداية حي يسكنه ابن جوردان Bin gurdan، واصلنا سيرنا نحو الشمال الغربي نحو منحدر رملي، ويميز الوادي من السهل شجيرات قصيرة، فهو هنا على مستوى أدنى من السهل تحت حافة الصحراء، وهنا ينحني نحو الشمال، ثم يتراجع تدريجياً، وعند هذه النقطة أشاهد كثبان رملي يعرف باسم موساريف Musairif؛ حيث يمثل نقطة يتوقف عندها استخدام اسم وادي أم الحياة Umm Al Hiat، ويستخدم اسم الأرض Al Ardh، ويعرف بهذا الاسم لكثرة التواءاته.

اشتم رفاقي من البشر والدواب رائحة الماء، وانتشرت بين الجميع حالة من الهياج، لأن المطر للبدوي في قيمة الذهب للباحث عنه، وانقسمنا ثلاث فرق، وأخذنا ننشر أنفسنا نتحرك في هيئة مروحة بحثاً عن تجمعات المطر في الوادي، كانت آخر مرة نتزود فيها بالماء منذ أربعة أيام مضت، والماء الذي معنا بدأ يتناقص، وأخذ يفسد بسبب الخض في القرب من طول السير، وأصبح غير كاف، وكانت مسافة الكشف لا تتعدى مدى طلقة من بندقية، والفريق الذي كنت معه أخذ يتحول، وتقدم في هذا الاتجاه حتى التقينا مع رفاقنا يستمتعون برؤية القليل من الماء الذي تجمع على سطح منخفضات عرفوها باسم سفاسف Sifasif.

عند التزود بالماء هنا شاهدنا أكبر سحلية تعرفها هذه الأماكن، ووقفنا بعض الوقت عند ماسيلا Masila في وادي آخر، يعرف باسم وادي بن خوتار Bin Khutar، وبعد ذلك بوقت قصير بدأنا نواجه متاعب؛ إذ أن الجو أصبح مشبعًا بالرمال، وظهرت سحب منخفضة، ولم أعد أقدر على استخدام الأدوات الفلكية، وصباح اليوم التالي ٢٥ يناير كان شديد البرودة، وتقدمنا نحو الشمال الشرقي، والرياح الشديدة تلفح وجوهنا، والشمس يحجبها طبقة كثيفة من الرمال، وبات التصوير شديد الصعوبة، وكانت هناك محاولة مؤقتة لالتقاط الصور، شجعت البدو على أن يقفوا بعض الوقت عند أيكة مشجرة صغيرة في الاتجاه المقابل، وحيث كان الجو شديد البرودة تجمعوا حول نار أشعلوها في المعسكر. ولم يقدروا على التحرك بعد أن شجع بعضهم البعض الآخر، ثم تحولنا أكثر جهة الشمال وتحركنا عبر ابن خوتار Bin Khautar، وغيرت الرياح اتجاهها عند الغروب لتهب بشدة من جهة الجنوب، وغيرت اتجاهها أكثر من مرة في الصباح حتى تواجهنا ونحن نتقدم في اتجاه الشمال الشرقي، ومرت ساعة كان السير خلالها ركوبًا يحمل الكثير من المشقة؛ حيث كنا نسير على طبقة من الرمال مقشودة من فوق سطح السهل مثل طبقة من الدخان، ووصلنا أخيراً عند كثبان رملي مرتفع يقع على الجهة اليسري، وهذا يعرف باسم مترجات Mahtirgat، ثم وصلنا عند مكان فسيح يكسوه أشجار ألغاف Ghaf Acacia في اتجاه من الجنوب إلى الجنوب الشرقي، ثم يتفرع هذا المكان إلى مجاري دلتاوية، وهذه الدلتاوات تمثل رأس وادي كاتبت Wadi Katibit، وفي الغالب هو أهم وادي في المكان؛ حيث يهبط إلى الأرض Al Aradh، وهنا تحولنا جهة الشمال، ودخلنا منطقة تلال رملية متراصة في ارتفاع يكاد يكون موحداً رمالها شديدة النعومة، أخذت الإبل -التي لم تعتد على مثل هذا النوع من الرمال- تتخبط وتغوص أرجلها حتى المفصل؛ بل إن بعض

الإبل رفض السير إلا إذا نزلنا من فوقها حتى تستطيع أن تنهض، وكل هذا كان على النقيض من ناقة خفيفة يركبه واحد من آل الرشيد، وقد تربى في هذا النوع من الرمال واستطاع أن شق طريقه، وكان هذا الجزء من الرحلة غير مريح عبر رملة أم الحناش Ramlat Umm al Hanash، وفجأة تحسن الطريق، ولأول مرة خلال الأيام العشرة الماضية من رحلة في منحدرات شديدة، نجد أن الانحدار أصبح خفيفاً والنزول سهلاً، وفي مواجهتنا مجموعة من أشجار ألغاف العملاقة، هنا وصلنا وادي موجشنMogshin، ووراء هذا المكان محيط من الرمال، وهنا اثنين من الكثبان الرملية، وهما برسا Mursauded, Birse يقفان وكأنهما أعمدة هرقل.

وقبل أن أواصل الكلام عن رحلتي، **فإنه من المناسب هنا أن نتحدث عن:**

أ) نظام وادي أم الحياة Umm Al Hiat وقد تحدثت عن جزء منه،

ب) الإقليم الجبلي في نطاقه الواقع غرب أطراف حضرموت، وباختصار أن نقوم بإلقاء نظرة على الأطراف الجنوبية من الصحراء الكبرى، ونظرة على قبائلها.

إن نظرة إلى خريطة جنوب الجزيرة العربية بين خطي طول ٥١,٤٠ ـ ٥٤,٤٠ درجة نواجه أربعة سلاسل جبلية أسماؤها فتك شاغوات Fatk–Shaghuwaut، جبل قمرJabel Qmar، جبل قرة Jabal Qara، جبل سمحان Jabal Samhn، وهذه المجموعة تشكل سلسلة ساحلية، وباستثناء الحديث عن رحلتي عام ١٩٢٨م عندما سرت من جعلان Ja-alan التي تقع وراء سلاسل سمحان في الجهة اليسري، لم يدخل أوربي واحد إلى ما وراء هذه السلاسل، ورحلتي الحالية - وهي موضوع هذه الأطروحه - كشفت عن وادي يجري وسط هذه

الامتدادات الجبلية الأربعة في الداخل على منحدر من الصخر الرملي هبوطًا من الجنوب إلى الشمال، ومن الغرب إلى الشرق.

وهذا النظام يتألف من ستة أودية فرعية رئيسية مجاريها متوازية في بعض أو كثير من الأحيان، شمال الامتداد الساحلي تحاذي الصحاري حتى تتصل بالمجرى الرئيسي للوادي، ويسير المجرى الرئيسي للوادي مع امتداد الصحراء في اتجاه شمال شرقي حتى نقطة يتحول عندها ويغيب عند دائرة عرض ١٩,٣٥ درجة، وخط طول ٥٤,٥٠ درجة، وهنا توجد عدد من الواحات في موجشن Mugshin.. والأودية الستة يجري امتدادها مسيرة ثلاثة أيام من الساحل، وترتفع إلى مقدار ٣٠٠٠ قدم، ومن الغرب إلى الشرق تعرف بالأسماء كاتبت Katibit، دوكا Duka، غودون Ghudun، إيدام Aidam، شاهين Shihin، وحات Hat، وأطوالها تسير على نفس الترتيب تختلف ما بين ثمانية أيام في وادي Katibit، وأربعة أيام في حات، والوادي الرئيسي توجد فيه خمسة أقسام أسماؤها: حات، شاهين، أم الحياة، الأرض، وموجشن، في اتجاه من الجنوب إلى الغرب، وإلي الشمال إلى الشرق، ولكن النظام كله من الممكن أن نسميه أم الحياة Umm al Hiat، وهذا الاسم يشير إلى مفهوم مقطعي.

والأودية الفرعية تمثل نظامًا في ذاتها؛ مثل: وادي كاتبت Katibit، وله عدة رافد منها أنضور Andhaur، ضهبون Dhahbun، أنجودان Jangoudan، غزال Gozal، وراكبيت Rakibit، وهي تصب عند الجزء الشرقي من جبال قرة، والجزء الشرقي من جبال سمحان، والحد الشرقي من أنضور Andhour، والذي يرتفع تقريبًا شمال مرباط Murbat اسمه البديل على الخريطة باسم جبل دوعان غير معروف للسكان؛ حيث يسمونه زياروتونZiarutun، ويرتفع جبلا وادي دوكا Jabla Du, an شمال صلالة Salalah، ويلتقي مع الحوف Al-

Houf وزعارفت Dha-Arfit، وإستا Ista، ويرتفع وادي غودون تدريجيا نحو الغرب من دوكا Duka؛ حيث يلتقي مع حلة Hila، ظهير Dhuahir، وحلوف على الجهة اليمني من غراء Ghra على يساره، ويرتفع وادي آيدم Aidm عند راخيوت Rakhut مع أكبر رافدين له، وهما دفن Difin، وحبروط Habarut، ويرتفعان على التوالي شمال جادبت Jadbit، ودامكوت Damkut يجريان في كل أنحاء جبل قمر Qamar، أما عن وادي شاهين Shihin، ووادي حات Wadi Hat قصيران، ويجريان شرق وغرب أطراف فتح شاغوات Fath Shaghuaut.

وإلي جهتي الشمال والغرب من الوادي الرئيسي تمتد الصحراء جهة الشمال حتى الخليج الفارسي، وغربًا حتى تخوم الدواسر ونجران Dawaser and Nagran، وفي الحقيقة أن الطرف الجنوبي من الصحراء يرتفع فوق الجزء الرئيسي من الوادي عند موجشن Mugshin، والأرض Al-Ardh، ويتصل مع أم الحياة Umm Hiat، ويهبط على امتداد مسيرة يومين شمال شاهين Shihin، ويومين شمال حات Hat، ومن هنا فإنه يتجه غربي، جنوبي غربي نحو حضرموت؛ حيث مسيرة يوم تفصله الجبال عن الصحراء، أما عن السهول الواقعة بين الجبال عند التخوم الجنوبية تأخذ شكل الوتد؛ حيث تضيق جهة الغرب، وحسب قول رفاقي -الذين اعتادوا السير في هذه القوافي- ينحدر في نفس الاتجاه أيضًا، وهذا يؤيده ما يقوله البارومتر، متحرك شرقًا نحو شيسور.

وتقطعه عدة أودية منعزلة ومتوازية تجري شمالاً؛ حيث تختفي عند حافة الصحراء، وأهم هذه الأودية يسير غربا من حات Hat، وهي شعات Sha-at، أرخوت Arkhut، عرابة Vrba، الضاحية Dhahia، الرمة Rama، عيوات Aiuat، المناهل Manahil، جناب Jenab، هرضة

Harda، خضر Kahdraho، حزر Hizar، وأخيرا عبوات Aiwat لبني سعر Sa-ar، ويتصادف وفي وجود عيون ماء منها سنوه Sinua في وادي الضاحية، ثمود Thamud في وادي جناب، شينغام Shingham في وادي حيزار Hizar، ومينوخ Minuwukh في وادي عوات الصخر Aiwat لبني سعر Sa-ar.

والطريق الذي يسلكه المغيرين شرقًا وغربًا محاط بالقناطر، وفي منابع الجبال في بعض الأحيان تجري المياه في الأودية، على سبيل المثال وادي أنضور Andihour، ووادي حبروت Habarout، ولكن المجاري الدنيا لهذه الأودية، ويعد وادي غودون نموذجًا منها، شديدة الجفاف، كلها تشكلت على طبيعة واحدة، منحدرة وممرات ضيقة والقاع حصوي من منبع الوادي، وهذه الأودية تتسع، وتصبح ضحلة ورملية مع اتجاهها نحو الشمال؛ إلى أن تصبح ضحلة قريبة إلى الاستواء كلما اقتربت من الصحراء؛ حيث يصبح الخط الذي تسير فيه واضح بوجود خط من الشجيرات، إن المشهد يوحي بالجدب والانعزال، وحيث إن الأودية تصبح قصيرة في غرب نجد، فإنها تصبح فسيحة، وأعظمها وادي الرمة Rama، ويقال: إنه أكبر من وادي أنضور Andhour ثلاث مرات.

هذا السهل الواسع من جنوب الصحراء قادر على إعالة كيان رعوي متقلقل للبدو الرحل، ففي فصل الصيف يطردهم الجدب إلى أودية الجبال حول عيون المياه؛ أنضور Andhour، حنون Hanun، شوويريما Shuwairima، عين Aiyn، وحبروت Hobrut، (كل هذه العيون في عروض أم الحياة)، وبعد أن تسقط الأمطار يعودون مرة أخرى، وشتاءً قد يستقرون مدة شهر، أو اثنين في أماكن مفضلة، ويسترشدون في تحركاتهم بظهور ألسنة النيران؛ حيث يسيرون في اتجاه الضوء، إن قلة مصادر الطعام والماء، أو بمعنى آخر الجوع

والعطش، يدفعهم صيفًا إلى المكان المفضل، وهو حدائق أشجار البخور؛ خاصة في فصل الصيف ينتظرون مكافآت ثمينة بالحصول على بندقية، أو ذخيرة، أو ملابس، أو البن، أو حتى الأرز في بعض الأحيان، إن البدوي يحتقر كل شيء إلا البساطة في العيش، إنه يعتمد في غذائه على لبن الإبل، ويعيش حياة تقشف، وإن أعمال الإغارة بالنسبة لهذه القبائل نوع من متع الحياة، نادرًا أن تجد واحدًا من الرجال المرافقين لي لم يشترك في إغارة على ديار حضرموت، ولم يتعرض هو لغارة، إن أعمال الإغارة هي موضوع الحديث المتبادل بينهم، وبعضهم حظي بالاهتمام على جسارة أفعاله، وأول الاعتبارات التي يهتم بها هي بندقيته، وذخيرته، وناقة صحيحة البدن؛ حيث هنا عداء الدم متوارث، وتقسم القبائل "القوة حق Might is Right"، والرجل يسير، وهو خائف على حياته وماله.

إن القبائل الكبيرة العظيمة تعيش عند هذه التخوم الصحراوية الجنوبية، وترتيبها من الشرق إلى الغرب هو: بيت كثير، المهرة، المناهل، العوامر، صقر، نهادة، وكرب، والمهرة هم أكثرهم عددًا - بينهم حضر Hadhar وبحارة- وهم بالآلاف في تعدادهم، أما نهاد وكرب، فهما أصغر هذه القبائل عددًا، عددهم مائة أو مائتين على التوالي، وتوزيع القبائل كالآتي: منطقة أم الحياة سكنى قبيلتين، المهرة، وبيت كثير، وهؤلاء أيضا يمتدون نحو الغرب، امتدادات الوادي الأدنى عند دوكا Douka، وغودون Ghudun، وإيدام Aidam، وحات Hat تخص بيت كثير؛ رغم أنه ليس هناك عائق يمنع المهرة من استخدامها، والمنابع العليا من الوادي، -عدا غودون Ghudun- في يد المهرة على وجه الخصوص حبروت Habarut، غزل Gzal، إنجودان Ingudan، وظبون Dhahibun، وكذلك الأودية المنعزلة إلى جهة الغرب مباشرة، وينتشر في وسط المهرة، وبيت كثير أعدادًا صغيرة من قبائل حضرة Hadara، ولم يتبقّ قبائل عربية نذكرها.

ومن هنا فإنه إلى الغرب من حات Hat في مجاريه الدنيا توجد البلحاف Balhaf، وهذه قبيلة من الصعب وصفها غير متحالفة مع أحد إلا المهرة، ويميز ملابسهم أنهم يحملون السكين بدلاً من الخنجر معلقة في الحزام، وهؤلاء لا يقومون بإغارات، ولا يتوقعون إلا غارة عليهم؛ مثل السابوب Sabub في نجد Niged، وهم ربع Rabi لكل واحد، وهم يقومون على خدمة ضريح جوهري Jowhari (أم الطباخ Um al Tabbakh) حيث يأتي المهرة للزيارة وتقديم النذور، وفي الطرف الآخر من أم الحيط Umm Al Hait؛ حيث وادي أنضور Andhour ممتلكات بيت بوهرا Bauahara (Bit Aohor) رغم أن المهرة هم العنصر الأساسي الذي يؤكد الدليل هنا، فإن بيت بوهرا Baouahara هم الآن يسكنون في مرتبة أقل ولهم لغتهم، وذات اليوم كان معروفًا أنهم أصحاب كل السهول الشرقية ابتداء من وادي غودون Ghudun إلى وادي قدن Qadan (غودون؟) أما السهول الغربية عرف أنها تنتمي إلى ابن ظربوت Bin Dhurbut، وهناك قبيلة صغيرة هم العفر Afar، ويعيش جزء منهم في حبروت Habarut مع المهرة، ولغتهم تختلف عن لغة المهرة، وتعرف باسم أفروت Aforit، وهي نفس اللغة التي يتحدثها الحراسيس Harrassis، ولا تزال هناك قبيلة أخرى مجهولة هم بيت الشيخ Bait As Shikh، ولغتهم الشحارية Shahari، وهم يشغلون وادي أنجودان Jngudan، وعين ماء حنون Hanun، ويعتقد أن بيت الشيخ حلفاء الشهرة Shahara، وأنهم شاركوهم سكن الميناء الكبيرة، وهذا الميناء اليوم عبارة عن كومة من الآثار القديمة، الرباط Ar Rubat (Arigot)، ومن هنا فإنه في كل المنطقة القبيلة الوحيدة التي تتحدث العربية هم بيت كثير Bait Kathir، ويتفق مع كل ذلك قبيلة تزعم أنها قبيلة الهناني Hanani.

لقد لوحظ أن هذه التطبيقات السياسية في عمان تنتسب إلى قبيلتي الهناني والغافري هو نفسه ممتداً في سهول جنوب جزيرة العرب؛ حيث يمثلهم القحطاني Qahtani، والنزاري Nizary على التوالي، أو ربما في حالة قبيلة الغافري Gafri يمثل كل شيء عدا الهناني Hanani ، وإلي الغرب من وادي الرمة Rama يوجد الخط الفاصل ما بين المهرة Mahara ، والمناهل Manahil (والمناهل هي اليوم الهنائي، ولكن في الأصل غفاري) تمتد غربا حتى وادي الجوف Wadi Al Jauf؛ حيث تبدأ ديار العوامر Awamir (قبيلة الغافري) ويسكن العوامر الوديان غرب وادي خضره Khadhara؛ حيث تبدأ ديار قبيلة سعر Sa-ar (الغافري) وكنت حريصاً أن أعرف من رفاقي ومن المهرة الذين التقيت بهم معلومات عن بئر برهوت Bir Burhut، ويعتقد أنه عن نشاط بركاني، وهذا البئر هو الوحيد في قلب الجزيرة العربية، وهو مكان يعرفه الجميع معرفة جيدة، وتحدث عنه الدكتور هوجارث Hagarth؛ حيث يقول: "البئر الكبيرة لعنة علي Ali بسبب خزعبلات الجان Jihan عن قاع الوادي؛ حيث توجد البئر، والرواية الأكثر انتشاراً أنه مكان عاشت فيه الأرواح الشريرة لمن رحلوا عن الحياة، ولذلك لا يجرؤ أي حي أن يدخل المكان ليلاً، وهذا المكان باعتباره نوع من أنواع جهنم Hell يعتقد أن النشاط البركاني رمز له أهميته، والأثر الأثري الوحيد الذي شد اهتمامي والذي شاهدته في الشمال من هذا التقسيم يتمثل في أثر ثلاثي أشرت إليه، ولكن ليس هناك واحد بينهم يحمل صفات أثيوبية؛ مثل هذه الآثار التي شاهدتها في وادي ذي قار Dhikur، وهنا نقطة تشد الاهتمام إن القبائل هنا تشير إلى هذه الآثار أنها تعود إلى بيت أبو غسان Bit Abo Ghassan، ومن هنا يظهر أنها ذات صلة بالغساسنة Ghassanitae في عهد البطالمة، ومن المؤكد أنه كانت هناك أسرة غسانية في ظفار Dhufar قبل الإسلام، ولكن الآثار الثلاثية من خلال

النقوش قبل ظهور النقوش العربية تفيد عدم صلتها بالإسلام، وأن هذه تعود إلى عصر الجاهلية.

إن حياة البدو في هذه السهول في أقصي درجات البدائية مما لوحظ أن القحط والخوف من الإغارات تدفع القبائل للاعتماد على المياه في الجبال، ولكن في قلب الصحراء اشتد ارتباطهم بكيانهم البدوي، وعندما تسقط الأمطار يندفعون مع قطعانهم إلى الصحراء سعيا وراء كل قاع صخري ضحل جمع ماء المطر.

جدير بالذكر أن كل مكان منها ارتبط في أذهانهم بذكريات توارثوها، وعند هذا المكان يسكنون في فترة إلى أن يهاجمهم خطر القحط، ويحل الجوع فيطرهم، لا يوجد من الماء ما يكفي لحياة الجياد ولا الكلاب، هنا لم نر آثاراً لخيام، ولا مساكن كانوا يعيشون تحت أشجار سنط الأكاكيا في هذه الصحراء، أو كهف يعثرون عليه في هذه الفيافي، الكل كانوا جهلاء، وهناك عدد قليل يعرف شيئاً من القرآن الكريم، وكانوا يؤدون الصلاة في خشوع، يعظمون الأشراف Shurafa، وهم من أصحاب المذهب الشافعي Shafi، وكان المعتاد أن يتزوج الرجل امرأتين، ومن النادر أن نجد بدوي في عصمته أكثر من زوجتين في أي وقت، وكثرة النسل أمر مرغوب.

عرب جنوب الجزيرة مدمنين لاستخدام الغليون الشعبي، اعتادوا أن يصنعوه من عبوة الذخيرة عيار ٣٠٣؛ حيث ينزعون غطاء العبوة بشفط الدخان منها، كل فرد يتمتع بشهق عميق من الدخان، ثم ينفثه في الهواء على الحاضرين حوله حتى يثمل، وهناك قانون يحكم عمليات تقسيم الميراث، والزواج، والمهر، وهذه أمور تعم كل أنحاء الجزيرة العربية ينفذها حكم الحظ Hukm al Hauz، والسرقة فساد، وهي تختلف عن الإغارة؛ حيث يكون القتل والغنائم من أعمال البطولة، وفي حالات الإهانة المبرحة يحتاج الأمر أن يقسم الجاني

بجلال وعظمة صاحب أحد الأضرحة، ولكن في حالات القتل فإن الامتحان بالنار كانت وسيلة يلجأون إليها، وآلام الجسد يلجأون إلى شفائها بالأعشاب البرية (الملحق هـ) باستخدام قضيب حديد ساخن، والرقية، واستخدام السائل من معدة الحيوان، واستخدام بول الإبل، أو صغار الأبقار، وكانت العادة الشائعة بين ذكور شباب المهرة أن يعلق في الأذن اليمني حلق، وكان الصبيان يستخدمون العقدة Top–Knot والتي تعود إلى عقدة حورس، ويزيد الحديث عن أن المرأة لا تحلب الناقة، ولكن عليها أن تحلب الماعز، وكان النسوة يجملن أنفسهن باستخدام أصباغ النيلة.

أما عن الغطاء النباتي في هذه السهول فكان يختلف حسب خطوط الطول ودوائر العرض (الملحق هـ) التربة الرملية يجود فيها ظهور أشجار الغاف Gahaf في العروض الشرقية الدنيا على ارتفاع حوالي ٥٠٠ قدم، أما عن أشجار السمر Samr، فإنه يجود ظهوره في التربة الصخرية على ارتفاع ١٢٠٠ قدم، وهاتين الشجرتين الغذاء المفضل لدي الإبل، بالإضافة إلى الهاردية Hardhia(السالام) والمارخ Markh وهما أقل أهمية، وهذه الأنواع تجود في العروض الوسطي، أما في المناطق الخالية من مصادر المياه فيندر وجود نباتات، وهنا يكفي الإبل أن تجد الآبالا Abala الزهرة Zahara، الكزاسيا Qasisa والبريكانا Brikana وكل ما شابه ذلك.

أما عن حيوانات جنوب الجزيرة العربية فهي من النوع الذي يتحمل العطش، أو تقول إن بيئة سكناها نادرة الأمطار، وأنها قد تعتمد على قطرات الندى للحصول على القليل من الماء لقد استطعت أن أجمع سبع ثدييات، وعدد ٣٦ من الزواحف، و١٥ من الطيور، ٦٤ من الحشرات (انظر الملحق و)، وكان الظبيان والغزلان والضباع من الحيوانات الشائعة في وسط وأطراف الوديان التي تجري شمال

الصحراء، وكان الثعلب قليل الانتشار، والريم Rim والغزال الأبيض يبدو أنه انقرض؛ رغم أنني حصلت على اثنين من الظبيان، والنعام انقرض إلا في أقصى الجنوب الغربي عند ديار آل سعر sa-ar حيث كانت ذات يوم كثيرة، ولا يزال بعضها يشاهد بين الحين والآخر، وتنتشر أنواع السحالي، ومن بينها ثلاث أنواع كبيرة صالحة للأكل(حصلت على هذه العينات)، وهناك أعداد متنوعة من الأشكال صغيرة الحجم عند أطراف الصحراء، وكانت توجد عن الأطراف أنواع من الأرانب البرية والفئران، وهناك خمسة أنواع من الأفاعي حصلت على ثلاث عينات منها، وأعداد كبيرة من العقارب، ومن الجراد، ومن الفراش، ومن النمل، وغيرها من الحشرات الرملية الصغيرة والطيور نادرة، الغراب أكثر الطيور انتشاراً في الجبال الشمالية، وإن كان وجوده نادر، ومن الأنواع التي حصلت عليها النوع الأسود، وهناك نوع نادر الوجود صاحب حلقه من الرسين الأبيض حول الرقبة، لم أشاهد واحداً من النسور، وكنت أتوقع أن أشاهدهم هنا في الصحراء في أي مكان عدا الجبال؛ حيث تزداد أعدادها، وكان النسر الأسود يظهر، ولكن في حالة غير مرضية عند الأطراف الصحراوية عند أم الحا Umm Al Ha، وشاهدت الحباري-الدجاج البري- بالقرب من موجشن.

وحتى أواصل الحديث كانت ليلة ٢٧ يناير ليلة شديدة البرودة، وكان المعسكر في وادي موجشن بين اثنين من الكثبان الرملية؛ أحدهما يعرف باسم بيرسا Birsa، والآخر باسم مورسيدد Mursauded، وبسبب حالتي المزاجية لم أستخدم ذلك الترمومتر؛ لأنني اكتشفت أن الكرونومتر الذي اعتمدت عليه على امتداد رحلتي انكسر، وأعتقد أن هذا وقع بسبب ارتطامه بأرض الكثبان، وعند الفجر تسلقت قمة الكثبان المعروف باسم مورسيدد Mursaudid، وذلك حتى ألقي نظرة فاحصة على المنطقة، وتحديد الاتجاهات، ولكن

بمجرد ارتقائي أخذ رفاقي العرب يصيحون لينبهوني أن تكون رأسي لأسفل، ولا تظهر، وألا يعرف المغيرون مكان وجودنا، وكان المشهد جدير بالملاحظة؛ إذ إنه يوجد في الأسفل خط من أشجار ألغاف ملتوي يشبه الأفعى، وتحيط به الرمال من كل اتجاه، وبعيداً جهة الجنوب الغربي توجد الأرض Al Aradh، وأسفل منا على مدى البصر عند خط السماء يوجد وادي موجشن Wadi Mugshin، وهو فرع يسير جهة اليمين حتى يختفي في الرمال الواقعة جهة الشمال، وهذا الوادي فيه غابة واسعة من الأشجار (يصل اتساعه إلى ١٠,٠٠٠) فإننا نستطيع أن نصف موجشين بأنها أميرة أودية الجنوب الشرقي من الجزيرة، وفي جهتي الشمال والغرب رأينا محيطاً ساكناً من الرمال المتموجة، وإلى الجنوب يوجد سهل أصغر، وبين الحين والحين كثبان رملية ممتدة في غير نسق، والكثبان المعروفة باسم مورسدد Mursouded امتدادها حوالي نصف ميل وأقصى ارتفاع لها ١٠٠ قدم، ومثل غيرها من الكثبان على امتداد البصر، لها محور شرقي وآخر غربي، موجشن وما يجاورها كان لابد أن أعرف أن البدو يعتبرونها منطقة غزو الجن، قام أحد رجالي من البدو باقتلاع فرع من الأبال Abal؛ مما ينمو على المنحدرات المنخفضة على مورسدد Mursoucaded بقصد أن يطعم به ناقته، وكان البدو يعتادون على فعل هذا، ولكن زملاءه نصحوه ألا يفعل؛ لأن هذا قد يعرضه لعقاب قاس، والفكرة هنا أن الناقة التي تطعم باليد ولا تجمع العشب لنفسها مصيرها الموت، ونقصد موتاً يدمر الحياة في الموقع، على سبيل المثال الضبع والغزال، سوف تطاردهما العلل البدنية، وهذا ينعكس على نشاطي في جمع التاريخ الطبيعي.

نزلنا إلى المعكسر وركبنا الإبل، وتحركنا في تمام الساعة ٨,٢٠ صباحاً واتخذنا طريقاً شرقياً، والفرع الشرقي من موجشن كان قاعه رملي ناعم، خالٍ من الحصى، وهذا جعل السير صعباً، وحتى نتجنب

هذه المشكلة تحولنا نحو الحافة السهلية في اتجاه جرف صخري أبيض منخفض من نوجورNugur، واستمر سيرنا حوالي ساعتين، وتواصل سيرنا حتى الساعة ١,١٥ ثم عدنا إلى الوادي مرة أخرى حيث الأشجار كثيفة، جدير بالذكر أن ثلاث رجال من بدو مجموعتي جاءوا إلى موجشين من قبل خلال العشرين عام الماضية، وهؤلاء ساروا أمامنا مرشدين، وبغرض أن يكتشفوا وجود آثار أقدام مغيرين، وحتى نتفادى مفاجأة ما يسمي جوم Gom يقف عند عين الماء، أخذنا نعدو في تباطؤ، وقمت أربط حزاماً حول رأسي؛ حيث توقعت أن نبقى هنا هذه الليلة، وكنت أريد أن أصل إلى العين Al-Ain وهي عين ماء قريبة من السطح في طرف موجشن، وقد وضعت نصب عيني أن الطعام الذي معنا على وشك النفاذ بسبب تباطؤ التخطيط الذي خدعني لآخر محاولة للتوغل في الصحراء والذي كنت أصبوا إليه.

إن أحاديث البدو أظهرت رفاقي وكأنهم لا معدة لهم في الصحراء، إبلهم سوف تموت جوعاً، لقد نزل رفاقي من فوق ظهور الإبل، ووجدت نفسي أتقدمهم بمسافة ثلاثة أميال، وتعجبت أنهم كانوا يتبعونني، إن المكان مشهور أنه شؤم قتل، والفرد وحده في هذه الغابة الكثيفة لا يجد الأمان خوفاً من انبعاث موجة من نيران بندقية من مخابئ قريبة، ولحسن الحظ أن أربعة رجال أقوياء شجعان غيروا رأيهم وجاءوا يهرولون، وأخذنا نشق طريقنا شمالاً حول هذه الحافة من حزام الأشجار، واتساعه هنا حوالي ميلين وعند الساعة ٣,١٥ وصلنا عند نهايته، وكان أمامنا سهل رملي واسع محاط بنصف دائرة من الأشجار الصغيرة وخلفيته من حافة صحراء من الصحاري الكبرى، واقترب وقت المساء عندما دخلنا وادي ملئ بأشجار الغاف، وكان القسم الأكبر من القافلة في المؤخرة ومعهم طعامنا، وأدوات الفراش والمعدات بعيداً عن العين، وأشعر أنهم متعطشون للماء، ولا أدري إن كانوا يقدرون على مواصلة مسافة ثلاثين ميلاً لهذا اليوم،

والآن وقد تحولنا شمالاً، وفجأة تحت غطاء سميك من الحشائش أفزعنا أحد الضباع، وثار ضدنا ذئب، وعند الغسق فوجئنا برؤية بقعة فيها نخيل بري؛ يا لها من مفاجأة !! إنه في الربع الخالي بقعة نخيل، إن هذا النخيل لم ينمُ على الشكل المعهود في حدائق عمان أو العراق، ولكن نبتت بشكل فوضوي على ضفاف تخوم بركة ماء تسربت إليها المياه من عين مجاورة، وأعتقد أن أصل هذا النخيل هو عدد من النوى ألقاه المسافرون أو المغيرون، بعد أن أكلوا الثمار الطيبة، والثمار في هذا النخيل غير كاملة النضج والطعم، وذلك لأنه لم يقم أي واحد بتلقيح النخيل للإثمار، والمحصول مشاع الملكية لأي واحد يصل إلى موجشن في شهر يوليو أو حوله، والمحصول لا يجمع عادة؛ لأن هذا المكان موجشن على مسافة ستة أيام من أقرب عين ماء، وهذه نقطة تؤكد أن جامع المحصول قد يقضي فصل الصيف هنا، ونزل رفيقي من آل الرشيد من فوق ناقته ليفحص هذا التمر، ولم يظهر أي أثر لعدو عند عين الماء وتقدمنا ببطء.

وعند وصولنا إلى العين Al-Ain (أو Ainian) خاب أملي وأخذت أسأل نفسي: أين كان الجدول الصافي الذي كنت أتوقع أن أشاهده ؟ إن البئر كانت عين ماء ضحلة خضراء قطرها حوالي ياردة أو يزيد، ويميزها في المكان مجموعة من الحشرات المتسلقة وقليل من حشرة اليعسوب، وعلى بعد مسافة ياردات قليلة بعض أعشاب السمار؛ حيث تنمو حول عين ماء أخرى تتسع مكونة بركة ضحلة، والبدوي مخلص لناقته، يوردها الماء ويقدمها على نفسه؛ حتى أنه يستعمل قذارتها للاستخدام الآدمي، ورغم إحساسي بالعطش الشديد قيدتني رغبة في شرب فنجان قهوة، وبعد أن انتهت عملية السقاية، حل الظلام عندما تركنا وسط أشجار الغاف حتى نبحث عن مكان رحب نقيم فيه معسكرنا الليلي بعد يوم شاق استمر المجهود فيه تسع ساعات على

ظهور الدواب نواصل تسلق كثبان مورسدد Mursouded، وبعد انقضاء ساعتين انضم الفريق إلى مكان نومي، ولحسن الحظ أن أول شيء في رحلة الراحة كانت حشرة، وذهبت في نوم عميق، واستيقظت على صوت البومة، وكان هذا أمر طبيعي طوال الليل؛ رغم أنه اختار زاوية أخرى، واعتزل في مكان بعيد نسبياً، وكانت أشجار الغاف هي السائدة في المكان من هذه الواحة، وكان عشب الثورميد Thurmid الأخضر سائداً في المنطقة، وكانت شجيرات الطرفاء ونخيل التمر على ضفتي الوادي، وكانت الحياة الحشرية ووجود الطيور قليل، وكل صباح يأتي إلى هذا الماء اثنين من أسراب القطا Sandgrouse يتألف من ١٥٠ واحدة، وجمعت منها عينات بالإضافة إلى واحد من طائر الزغرة، وطائر الحميراء، ولاحظت أيضا انتشار الغربان.

إن قصص الجن كانت تسيطر على الكل؛ عدا رجلين من رفاقي البدو؛ أحدهما من آل الرشيد، والآخر من آل كرب، وهما خرجا معي للصيد، وكان لغزاً أن الرجلين عزما وأصرا على الخروج؛ أحدهما مصاب ببتر في الكاحل، وهذه إصابة منتشرة بينهم، والآخر يعاني من الحمى منذ ثلاثة أيام، وكلاهما خضع للعلاج بالتعويذة رعبة حمرا Ra Abou Hamra، وذلك على يد رفاقهم من بني كثير، لعنات بلغة الصحراء الجبلية، رفع وخفض الأجساد، والبصق على الجروح، وقد تحدثت عن كل ذلك في موضع آخر، ففي شيسور لاحظت أن الإجراءات تنتهي بطلق ناري في الفضاء، وهذا الإجراء ضد عين الحسود Evil Eyes كان ينصرف به هذا الشجاع، وفي حالة عدم الشفاء يتبعه آخر في اليوم التالي، بالحبل Habil، وهذا نوع من الكهانة والاستعطاف، يجلس الممارس والحبل في يده على بعد مسافة ثلاث أذرع من المريض، ويستدعي فريق ثالث يمسك بطرف الحبل، تأخذ من طول الحبل جزءاً حول الإبهام والسبابة، ويقوم الرجل الممارس بقياس الجزء الباقي الممتد منه باستخدام يده الخالية

بطول الذراع، وعرض كفه اليد والإصبع، ويكرر هذه العملية ثلاث مرات، وفي كل مرة يسكت ويتمتم، وقد أحنى رأسه على الحبل ويهزها، ويحدث صوت تمتمة غير مفهومة، ثم يأخذ حفنة من الرمال، وينثرها فوق وأسفل الحبل، وفي النهاية ينظر إلى مريضه، ويقول له هذه الوصفة: "عند غروب الشمس خذ من التمر عدداً وبعض من السمن Samn خذها وألقها بعيداً وسط الصحراء".

صباح كل يوم اعتدت أن آخذ بندقيتي، وشبكة اصطياد الفراش عند العين Al Ain، وكنت أعود دون أن أصطاد شيء، وفي كثير من الأحيان وإلي الشرق من الأيكة كانت توجد بركة امتدادها حوالي مائة ياردة، واتساعها حوالي خمسة عشر، معظمها مستنقع تغطيه طبقة كثيفة من الأعشاب والطحالب، أما في جهتي الشمال والغرب كانت تمتد رمال الرملة Ar Rimla، وهنا تشاهد حافة متموجة، أما جهة الشرق تشاهد سهول رملية، بالإضافة إلى محاصيل تل منخفض أبيض.

إن البدو رفاقي كان يخيفهم المغيرين، فتمنوا الرحيل عن موجشن بني مرة، والمناصر Minasir، والعوامر Awamir(في عمان)، والجنابي Janabi، والمهرة Mahara، وسعر Sa-ar تركوا أمواتهم هنا، قتل العرب Al Arab في موجشن. هكذا قالها أحد رفاقي: هذه مقبرة المسلمين كانت اللغة مبالغة، ذلك لأن المكان مهجور، وهذا توقعناه، ولا توجد أية آثار تدل على رحالة زاره، وهذه الشهرة مشكوك في صحتها؛ رغم وجود هذه المياه الوفيرة، ورغم وجود هذه المراعي الرائعة، وأي بدو لم يستخدموا المكان إلا للعبور فقط، والآن كل رفاقي من البدو كانوا غرباء، وكانت جرايتهم من الطعام ما بين أن تكفي أو لا تكفي، وشهر رمضان قادم على الأبواب، وبعد صبر أخذت مشورة نفسي وقررت أن أصطحب مجموعة صغيرة،

وأقوم برحلة مدة يومين في الصحراء، وبالفعل أخذت سبعة إبل، ورجال، وغيرت راحلتي، ومع مرشد من آل الرشيد انطلقنا في الصحراء في العين Al Ain في طريق شمالي غربي، ثم مرة أخرى في مورسدد Murasuded؛ حيث بقية الفريق من المفروض أن يعود باستخدام آثارنا القديمة وينتظرنا.

وفي تمام الساعة التاسعة صباحًا أوردنا الإبل إلى الماء لتتزود منه، والبارومتر يسجل ارتفاع ٣٨٠ قدم، ومن هنا انطلقنا عند درجة ٣٠٥ ورحلنا عن غابة الغاف، وتركناها وراءانا، ودخلنا رملة الموجشي Ramlat al Mugshi، وإلي الشمال كانت تتابع رمال حمراء منخفضة بعدها تأتي حواف أعلى من الكثبان وصلناها بعد مسيرة ساعتين، وكانت الأعشاب قليلة متناثرة؛ خاصة عشب الآبال Abal، والثرمد Thurmid، وكان الطائر الوحيد الذي شاهدته هو طائر الزغرة، وقد اصطدته وهذه المنطقة تعرف باسم أم الدسيس Umm Al dasis، وحسب رأي المرشد كانت توجد هنا عين ماء مطمورة في الرمال، وكان يوجد هنا Gom من أربعين رجلاً، ومن الآيل مدة سبعة أيام لو أن عدو جعل العين Al Ain، ووراء أم دسيس Umdasis عند درجة ٢٩٠ كان يوجد كثبان كثيرة من نوع أكبر، سطح كل واحد منها يعلوه عدد من الكثبان الأصغر، واحدة تلو الأخرى؛ دون نظام يبين بعضها، ولكن كانت متقنة الاستدارة بشكل طبيعي، كان كل ما حولنا يمثل محيطًا واسعًا من رمال متموجة تتدرج عالية في بعض الأماكن، ثم نجدها ترتفع فجأة في وجه المسافر، والشمس فوق رأسك في هذه العروض المدارية ولا شيء له ظل يحميك وأول انطباع أن ترى المشهد شديد الشفافية، وفي بعض الأركان تنحدر الصحراء انحدارًا شديدًا يضطرك أن تنزل من فوق ظهر راحلتك، والناقة تشق طريقها بصعوبة بالغة صاعدة هذه المنحدرات وتنزلق حيث لا تؤمن وضع قدمها، والوصول إلى القاع يحتاج إلى قوة

تساعده في المنحدر الصاعد التالي، وسطح الصحراء شديد النعومة على مسافات مخططة بعوارض خفيفة متوازية في قليل أو كثير، وكأنها موجات خفيفة على بحر الرمال، والذي نراه عن بعد؛ إنه صفحة بيضاء ناصعة اللون، عندما يقترب منها تومض وميضًا أخضر وذهبي مختلط، وتهب نسمة خفيفة من جهة الشمال تقوم بكنس الجزء الناعم من فوق سطح الصحراء وتحمله وتكومه فوق القمة، ومع مرور الوقت تبنى حافة مسطحة مستوية عند حواف الصحراء في الجانب المواجه للرياح، والنتيجة يتكون شكل خوذة جندي، ولكن من مسافة ترى سلاسل هذه الكثبان وكأنها أسوار حول مدينة فوق تل.

عند غروب الشمس توقفنا عند كثبان مرتفع يعرف باسم جعيدة مندور Gaida Mandor، وهبطت الحرارة إلى ٤١ درجة جافة أي ٣٦ درجة رطبة عندما استيقظت في منتصف الليل؛ حتى أرى أن النجم نعيم الجنوب Southern Cross هبط عند قدماي، وأن النجم سهيل Conopos اختفى والنجم العقرب Scorpio ظهر وذيله يظهر في الأفق، وفي اليوم التالي كان طريقنا في الساعة الأولى من الانطلاق ٢٩٥ درجة ثم نزل إلى ٢٧٠ درجة، ونزل إلى ٢١٥ درجة، وهكذا استمر في النزول بقية اليوم، توقفنا مدة ساعتين ونصف، منها ساعة ضاعت في اصطياد غراب، وهو الطائر الوحيد الذي شاهدته، وظهوره علامة على الصفاء، وتناولنا وجبه من التمور، وكل الحياة النباتية هنا ذهبت بها عوامل التعرية، وجفت عيدانها لدرجة أن البدو عندما يضربونها على سطح جامد تعكر الجو بشيء يشبه الدقيق يسقط على الرمال في هدوء.

وعندما تحركنا نحو الجنوب الغربي ظهرت أشجار الغاف بصورة أكثر كثافة، وظهرت فروع الفرع الشمالي من موجشن، وبدأت

حرارة النهار تشتد، وعندما اقتربت الشمس من الغروب لم يعد لكثبان موسدد أية أثر، وهذه الكثبان علامة على وجود معسكرنا، وصاح أحد رجالنا عندما شاهد هلال مطلع شهر رمضان، شهر الصيام المقدس، وهي فرصة ينتهزها رفاقي ليغرسوا أمامي أهمية الشهر، وعلى الفور هيئوا كل مصادر الراحة لإبلهم، ونكسوا بنادقهم في الرمال، وأخذوا يصلون في خشوع، وأكثر من مرة نحاول السير، وكانت الساعة الآن ٦,٣٠ وهذه هي الساعة التاسعة فوق الناقة، وقد هيأنا أنفسنا لمعسكر الليل، وتعالت صيحاتنا لأجل اكتشاف اتجاه بقية المجموعة في مورسدد Mursoudid وحتى نطمئن لعدم اقتراب أي عدو، وكنت أستخدم المصباح الكهربائي للكشف عن البعيد والمرشد، وقد أخذت أشك في دقة ملاحظاته، وأخذ يبرئ موقفه في بساطة، عندما أخذنا نفتش المكان حول معسكرنا.

والآن نترك رواية رحلتنا حتى نتحدث عن الحدود الشرقية لبحر الرمال العظيم، وأسماء الأماكن الصحراوية وتوزيع القبائل، والمعلومات التي حصلت عليها من رحلتي الأولى، والتي زادت من خلال اثنين من رفاقي Rabi الذين جاءوا من عمان من هذا الطريق.

لقد رأينا أن الحافة الجنوبية للصحراء تسير في اتجاه عام جنوبي - غربي من موجشن إلى أم الحياة Umm Al Hait، ثم اتجاه غربي- جنوبي-غربي إلى نقطة تبعد حوالي مسيرة يوم شمال جبال حضرموت، ثم تتجه صعوداً شمالي غربي إلى الحدود الغربية من نجران.

ووصف الحد الغربي من الصحراء كالآتي:.. شرقي موجشن تستمر في اتجاه عام شمالي -شمال- شرقي على امتداد مسيرة أربعة أيام حتى قرن Qarn عند ساحمة Sahama، ثم عندها تتجه شمالاً، وتستمر كذلك مسيرة يوم حتى عبري Ibri، وتسير موازية للحد

الغربي من جبل حفيت Jabal Hafit، وتدخل في شبه جزيرة عمان إلى ظهير الساحل المهادن Trucial coast، وعبرت هذا الجزء في حلة من صحار Sahar إلى الشارقة Sharja عام ١٩٢٦م.

إن الصحراء الممتدة عبر شبه الجزيرة إلى الشمال والغرب من هذه الحدود المذكورة تعرف على وجه العموم باسم الرمل Al-Raml أو الرملة Ar Ramala، أما عن القبائل التي تسكنها، فإن هذه الأجزاء من الصحراء تأخذ أسماء محلية، أما عن حدودها فإن الوديان توصلها بالجبال الساحلية، والصحراوات المجاورة تأخذ أسماء الأودية، رملة موجشن، رملة أم الحياة، وهكذا في قائمة تضم الأودية الجنوبية التي ذكرناها من قبل في هذه الورقة. وجهة الشمال على امتداد الحافة الشرقية، فإن الحافة الشرقية من الصحراء تشمل رملة سحمة Ramlat Sahama، رملة قرن Ramlat Qarn ؛ مثل سحمة رملة أم الطبول Ramlat Um Al Tabul، رملة أم البخور Ramlat Un Al Bokhur، رملة غور بانيات Ramlat Ghurbaniat، رملة غسياور Ramlat Ghusaiwara، ورملة خطم Ramlat Khtam، وهذه الصحراوات كلها صغيرة ومحلية يستخدمها البدو في فصول معينة، وهؤلاء البدو لا يستخدمون الصحراء الداخلية الواسعة.

إن هذه الصحراء الداخلية الواسعة تتألف من أحزمة يقال إنها توازي بعضها الآخر في اتجاه جنوبي غربي شمالي شرقي، إذا بدأنا من موجشن فإن هذه الأحزمة الكبيرة تمتد حسب الترتيب غنيم Ghanim، حباك Hebak، دكاكا Dakaka، صواحب Swahib، وأخيرا الجفرة Jafurao، وفي جهة الشمال يقال أنها ترتكز على حزام كبير يعرف باسم قدان Qidan مرتكزًا من ناحيتي الجنوب والغرب على لوا Liwa، وفي الجنوب ترتكز على صحاري خرخير Kharkhir، أم الغريب Umm Al Gahribe، وقوسمان Qusman، وكلها داخل حدود

الصحراء، وتحمل أسماء الأودية، وانحدار هذه الصحراء يقال إنه يرتفع نحو الجنوب الغربي، ويقال إن المياه هنا تتجمد شتاءً.

والقبائل الساكنة في هذه الصحراء الواسعة هي:

(١) **مرة:** في المنطقة من الشرق إلى الغرب،

(٢) **العوامر:** وهم يحتلون المنطقة من الشمال إلى الشرق،

(٣) **آل الرشيد وبيت إيمان** Aait Iman: وهم فروع من آل كثير، وهم في وسط الجنوب، وهؤلاء يعيشون في الصحاري على امتداد العام، ويستخدمون خيام من وبر الإبل السوداء.

أما القبائل التي تعيش على أطراف الصحراء هي: المناصير Manasir، الميزارية Mizariya دارو Daru، آل بوشمس Hal Al Bu Shams، الحراسيس Harasis، وعفار Afar في الشرق، بيت كثير والمهرة، والمناهل، والعوامل، وصقر، وكرب في الجنوب، هذه القبائل تهتم أن تكون هناك مسافة أمن لآبار المياه التي يمتلكونها. (إن الأجزاء الصحراوية المخصصة لهذه القبائل والأماكن التي يترددون عليها ذكرت في الملحق رقم ث).

أما عن حالة المطر، فيقال أنه يسقط أحيانًا في فصل الصيف، وكذلك في الشتاء في مواقع معينة، أما عن المناطق الواسعة في الصحاري لا تعرف المطر، وخالية من عيون الماء ولا يدخلها أحد، وعيون الماء تختلف من حيث مقدار ما تعطيه من المياه، ومن حيث نوعيتها، ولكن على وجه العموم فإن مياه الصحاري مالح، وهناك نوع من المياه لا يستطيع البدو صنع القهوة منه، وقيل إن مياه العيون في شيسور، وفي موجشن طيبة إذا قورنت بغيرها، والمياه المالحة معروفة في غانم Ghanim على عمق قدم أو اثنين بعد الطبقة الرملية السطحية، وفي خرخير Kharkhir يوجد الماء على مسافة

ذارعين، وعلى مسافة ثلاثة أذرع في حباك Hibak، وعلى مسافة ما بين ٤ إلى ٦ أذرع في صواحب Swahib، وعلى مسافة ٦ أذرع في الجفرة Jafura، وفي الصحاري الغربية عيون الماء يقال إنها على أعماق غير عادية.

متوسط الملكية للرجل البدوي العادي ما بين عشرة إلى خمسة عشر من الإبل (البوش Bosh تميزاً لها عن الركب Rekab المؤهلة للركوب)، والشيخ يمتلك حوالي خمسين ناقة، في فصل الصيف يرابطون بالقرب من عين الماء، يسقون الإبل كل يومين، وفي حالة انتظار المطر قد يغيب الماء خمسة أيام، وفي فصل الصيف يتوافر المطر وتزدهر المراعي، وهذا أمر غير عادي، قد يتنقلون بين الأماكن على مدى شهرين بعيداً عن عين الماء العادية، ويعتمد الإنسان على لبن الإبل مصدراً لغذائه، ولكن في العادة يسقون إبلهم المدرة للبن كل عشرة أيام، أو قريبا من هذه الفترة.

وتعرف قوافل الصحراء نوعين من الهودج؛ الأول هو الهودج ذو العصا المزدوجة فوق سنام الجمل، أو يسمى شداد Shadad، والهودج العادي وهو الأكثر شيوعًا في كل أنحاء الجزيرة، وهذا النوع يستخدمه بني مرة Murra، وسعر Sa-ar، وكرب Karb، وبين بقية قبائل جنوب شرق الجزيرة؛ خاصة في عمان يستخدم هودج يسمي زانا Zana، وهو نوع خفيف دون عصا، وفي الناحيتين من الهودج توجد أكياس أمتعة من الصوف، ويجلس الراكب على قطعة من جلد الماعز، وهذا النوع يوضع في خلفية السنام؛ حيث يجلس البدوي في وضع الركوع والقدمان تلاصقان الفخذين، وحتى يستمر مسافة طويلة في عمليات الإغارة، ويحمل صاحبه مدة عشرة أيام، ويحمل زاده من الماء، وحتى يتحمل الجوع مسافات طويلة يربط الإبل، ويعيش البدوي حياة خفيفة المأكل على الخبز والفواكهة.

شرق تخوم الصحاري الواسعة توجد أرض وعرة عند خط طول ٥٤ درجة شرقًا، وتقع شرق هذا الخط سهول إلى خط ٥٨ درجة، ثم تظهر جزيرة رملية عبارة عن مثلث هي منطقة جعلان Ja Alan، والتي سرت فيها عام ١٩٢٨م.

إن مسمي الربع الخالي المشار إليه على الخريطة لا يعني أن المنطقة كلها صحراوية، ومسمي الرمل Ar Ramla، والذي يعني حرفيًا الرمال، ويمكن أن نطبقه على كل المنطقة برمتها، ولكن هذه المسميات لها مفهوم عربي محلي حرفي، وبالتالي له معنى محدود، ومن هنا فإن الربع الخالي يعني هذه الأجزاء من الصحاري، والسهول التي لا تيسر أسباب الحياة، وأن الرمال Ar Remal حيث توجد ومدى إمكانياتها للعيش، إن استخدامنا لمفهوم الربع الخالي؛ حتى يشير إلى هذا الجزء الواسع من الصحراء الجنوبية باعتباره إقليم جيولوجي لا يفهم لسكانه.

إن مشكلة التركيب الطبيعي لجنوب شرق الجزيرة العربية لغة الغموض، وإن مجموعة الاكتشافات التالية قد تلقي الضوء على الموضوع، إن التخوم الشرقية من الصحاري في شبه الجزيرة العمانية عثرت عليها على ارتفاع ١٢٠٠ قدم، وإلي جهة الغرب من جبل حفيت حوالي ١٠٠٠ قدم ويقال إن عبري Ibri ارتفاعها ١٦٠٠ قدم، ومن هنا فإن حافة الصحراء في هذه العروض تحمل في تحديد موقعها وادي العين Wadi Al Ain، وهي منطقة منخفضة، وارتفاع الصحاري في موجشن حوالي ٤٩٠٠ قدم، ومن هنا فإن الحافة الشرقية من الصحاري تهبط تدريجيًا من الشمال إلى الجنوب.

وشرق هذا من الحجار Hajzr الكبرى، وهي العمود الفقري لعمان؛ حيث تصب أدوية عمان وادي العين Al Ain، وادي الأسود Al Asuad، والعميري Al Amairi، وآخر مسلم Musallim تسير في اتجاه

متوازي جنوبي غربي؛ حتى تختفي في الحدود الشرقية من الصحاري، وإلي الجنوب الشرقي يوجد موجشن، وهو سهل آخر ليس له انحدار واضح يقال إن جانبه الشمالي الشرقي تحيطه حافة معزولة من جبل حوجف Jabal Hugb، وعلى جهته الجنوبية الشرقية وادي قادان Qadan (غوردن)، ووادي رونب Raunib، ووادي حياتم Hitam (عبرت هذه الأودية عند مستوي سطح البحر عام ١٩٢٨م)، وكلها تصب في اتجاه جنوب شرقي في خليج صوقره Saugira Bay.

ويقع على جهته الجنوبية الغربية، جدة الحراسيس حيث يجري فروع وادي عرا Ara؛ حيث الصرف الداخلي للامتداد الشمالي لجبل سمحان Jabal Samhan، وقد عبرته مستخدمًا روافده في رحلتي السابقة، ورؤوس الأودية تجري في اتجاه شمال- شرقي، وكانت قراءة البارومتر تختلف ما بين ١١٠٠ قدم شرقا ١٤٠٠ قدم غربا، وإلي جهة الشرق من جبل هوجف Hugf تجد الأودية الرئيسية هي حلفين Halfain، واندام Anam، وهي تسقط من جبال حجر عمان الشرقية، وتجري نحو الجنوب، ويصب جزء منها في خليج مصيره.

إن هذه الاعتبارات تلقي الضوء على التركيب الطبيعي الآتي: هناك حوض كبير عند الطرف الجنوبي الشرقي من الصحراء الواسعة، وهذا الحوض يمثل دهليزًا على محور شمال غربي؛ متجها جنوبي شرقي مارًا بجدة الحراسيس؛ حتى ساحل خليج صوقره Suqira، وشمال هذا الدهليز يسير الانحدار العلوي نحو الشمال، والشمال الشرقي، أما جنوب هذا الدهليز يسير الانحدار نحو الجنوب الغربي والغرب.

وهنا نقطة لها أهمية جغرافية بوجود الرمال المتحركة عند الطرف الشمالي من الدهليز؛ حيث يلتقي مع الرمال Ar Arimal امتداد أم السميم Umm As Samim، وهو الاسم الذي يطلق على

المنطقة، يقال إن هناك طريقين يسيران في أي اتجاه في مظهره عبارة عن صفحة واسعة من سهل ملح، وبهذا الشكل ليس فيه أية إشارة تحذر المسافرين فيه من أي خروق فخية يقع فيها سيء الحظ، لقد هلك عدد كبير في هذه المنطقة، والذي يعرف أسرار الممرات على هذه الصفحة الواسعة هم بدو دارو Daru، وهم يدخلون هذه الأرض لجمع الملح، ويقال إنه إلى جانب هؤلاء البدو، فإن المغيرين يعرفون كيف يتجنبون الوقوع في الخطر.

قام جندي بافاري يدعي فون فيرر Von Verde عام ١٨٣٤م بالتوغل في منطقة حضرموت متخفياً في زي مسلم، وقد سجل لنا هذه الظاهرة، واسم المكان بحر الصافي Bahar As Safi يقول فون فيرد أنه سار ناحية واحدة من هذه البقع البيضاء حاملاً فادن[١] طوله ستون ذراعًا، ويقول في حذر شديد اقتربت من حدود هذه البقعة بغرض فحص الرمال وجدت أنها عبارة عن نوع من البودرة التي ليس لها مثيل، وألقيت بالفادان أقصى استطاعتي، وعلى الفور غاصت، وتناقصت سرعة حركة الفادان، وفي مدة خمس دقائق اختفى طرف الحبل في قبر لا قرار له.

رغبة مني أن أستعرض محاولة بجلريف Palgrave لبحث المكان، من الضروري أن أشير إلى أن معظم البدو المرافقين قاموا بعمليات إغارات في الصحاري الواقعة شمال حضرموت، وفي الحقيقة أن آل كرب Karb جاؤوا من هذه المنطقة، ولكن لم يسمع أحد منهم عن بحر الصافي Bhar Safi، وكلهم أكدوا أن الظاهرة المذكورة توجد فقط في منطقة أم السميم Umm As Asmim الواقعة بين الصحراء والسهل شمال وشرق موجشن وجنوب وغرب عبري Ibri.

---

(١) **الفادان:** أداة مولفة من خيط في طرفه قطعة صاحب لسبر أغوار المياه أو استقامة جدار. (المترجم) المورد.

عودة إلى مرسدد Mursauded ورحلة العودة إلى الديار: اليوم الأول من فبراير، وكانت ليلة شديدة البرودة لم تمر بي مثلها في حياتي، لقد هبطت الحرارة إلى ما دون التجمد إلى ٣٨ درجة جافة إلى ٣٥ رطبة، تركنا برصا Birsa على الجهة اليسير من سيرنا، وسرنا في طريق ٢٤٥ درجة اجتزنا طريقًا كثباني منخفض، وهنا رأيت دجاجة برية -الحباري-، وكانت هذه هي المرة الوحيدة على امتداد الرحلة، ولكن لم أقدر على اصطيادها، وفي تمام الساعة ١١ صباحا توقفنا للراحة، وتلك الراحة تفيد الإبل، وحين كنت أسجل مذكراتي في ظل شجرة من أشجار الأكاكيا كان رفاقي من البدو في نوم هادئ، وكان كل رجل يضع بندقيته تحت رأسه يتوسدها؛ ذلك لأنه لا يقدر أي رجل في هذه الصحراء أن ينام وبندقيته بعيدة عنه، وظهرت الأكاكيا رقيقة وكنا نخلعها، حاملين الرمال على الجهتين وأجتزنا كثبانًا كبيراً هو يفل Yighal على يسارنا؛ حيث توقفنا بعض الوقت مسافة الليل؛ حيث لا يزال هناك ميلين لنهاية هذه الأيكة؛ حيث وصلنا عند أم مرح Umm Marah، وهنا وجدنا مرعى في وادي الأرض Aradh، ويقع على مسافة ١٥ ميل غربا، ولكن الرمال هنا تجعل السير شاقًا، وكنا نتوقع العثور على الماء، بقايا أمطار في السهل إلى الجنوب، وقرر الفريق المصاحب أن يتخذ طريقًا آخر.

لقد كان اليومين التاليين بائسين، هنا سهل رملي، شديد الحرارة وشمس متوهجة، والأرض مكشوفة هنا وهناك تتناثر رقاع صغيرة من أنقاض لونها أحمر ولامعة، وفي المراحل الأولى، تظهر نتوءات رملية، نادراً أن نظن أنها من كثبان منخفضة، هيمنت على طريقنا، والظواهر التضاريسية التي شكلت علامات على الطريق حملت أسماء من بينها الحدبة Alhadba، والراكب Arakib إن رحلة العودة إلى ديارنا كانت شاقة عن رحلة الشمال لأن الشمس كانت في مواجهتنا،

وفي هذا اليوم -على غير عادتي- وجدت أن الراحة وقت الظهيرة، ووقتا من النوم أمر ضروري؛ رغم أن مصدر الظل الوحيد في هذا السهل العادي يعتمد على أن نستخدمهم سرج الناقة تستظل به، إن الخطوط المتعارضة في خريطتي أظهرت لنا اقترابنا من نقطة حصلنا منها على ماء من برك المطر عندما سرنا شمالاً، وهنا وصلنا عند وادي ضيق هو وادي أم الحا Umm Alha بين ضفتيه ما يشبه المعجون اللامع.

لقد خاب أمل البدو لعدم حصولهم على الماء الذي وضعوا كل تقديراتهم عليه، وكان لزاماً عليهم أن يواصلوا السير ليله كاملة، والوضع لابد من مواجهته ذلك أنهم يصومون نهاراً ولا يشربون الماء إلا ما يحتاجه الليل، وكانت أقرب عين على مسافة مسير يوم، وتستطيع النوق أن تواصل الرحلة عدة أيام دون ماء، ولكن البدو يرى أن مؤونة يوم ونصف أقصى ما يمكن أن يتحمله، ومن هنا حيث عسكرت المجموعة الرئيسية من الرفاق عند أم الحياة Umm Al Ahit قام الشيخ سلطان زعيم فرع الماسان Masan من بيت كثير Bait Kathir، ومعه ثلاثة من رفاقه، واندفعوا حاملين معظم قرب الماء الخالية إلى شيسور Shisur، وكانت الخطة تقوم على الجماعة الأساسية تتقدم في الصباح على أثارهم، ويتوقفون عند حله بلرزاز Hailt Bil Rizaz على مسافة ١٢ ميل تقريباً شرق شيسور، والجماعة التي كلفت بإحضار الماء سوف تعود لمقابلتنا هنا حاملين القرب ممتلئة، وبدأنا عند شروق الشمس، ولزاماً عليّ أن أتحمل العطش؛ لأن الماء المتوفر يكفي لصنع العصيدة، كان الرفاق العرب في ورطة لأنهم صائمين نهاراً والماء الموجود يكاد يسد رمقهم ليلاً، وعلى مدى ساعة من الركوب وصلنا عند رأس وادي دوكا Dauka، وهنا تحولنا إلى الجنوب الغربي، وواصلنا السير طوال اليوم نجتاز سهلاً خالياً والشمس الحارقة تلفح وجوهنا، تأثرت بحرارة الشمس في الأيام

القليلة الماضية حتى أن شفتاي وأنفي انسلخ عنهما الجلد، وهنا قدرت قيمة طيات القماش التي يلفها العرب حول رؤوسهم لتحميهم من حرارة الشمس ومن برودة الليل.

وبعد مضي أربع ساعات من السير وصلنا عند جزء من السهل يعرف باسم بلوكش Bil Lukish الأرضية مفروشة بالحصى من الحجر الرملي، وتتناثر بقع من الصوان الصغير الأسود، وعلى امتداد البصر يظهر سراب متلألئ يجعل خط السماء غامض للبصر، ويصيب العطشان بالخداع كلما اقترب منه، هنا لا أثر لحياة، والتحرك الوحيد في هذا الفضاء القفر لا يأتي إلا من تحركات الرمال التي ترتفع في شكل حلزوني إلى أعلى وتحس بها في نسمة هواء، لا أثر لنبات رأيته حتى جاء المساء، إلى أن وصلنا عند حوض ملتوي مثل الأفعي فيه قليل من الشجيرات، والبدو عظموا من شأن هذا الحوض باسم صوليل Sulaiyil وتوقفنا لأداء صلاة الظهر، وواصلنا السير حتى الغروب، عندما ظهر قرن بلرزاز Horn Of Bil Rizaz عند خط الأفق، هي عبارة عن شيء بارز في هذا السهل المسطح، ووجدنا شجيرات الحرزي Hardhar؛ حيث أقمنا معسكر المساء، وحان وقت صلاة العشاء عندما قام الفريق المصاحب بجمع الأعشاب لإشعال نار إشارة على وجود المعسكر أو عدو متخفي، زحفنا في المعسكر بعد أحد عشر ساعة من السفر، وكان الرجال صائمين لا طعام ولا شراب، ولم يصل حتى الآن الفريق المكلف بإحضار الماء، وأعتقد أنهم ضلوا طريقهم في ظلمة الليل، ومن هنا لابد من استخدام بندقيتي واستخدام المصباح الكهربائي، وإن كان استخدامهما فيه خطورة لكن لابد منه، ووصل الرجال بعد ثلاث ساعات، وظهرت بشائر الفجر، وبدأت رياح شمالية شرقية شديدة واستمرت طوال اليوم، وانطلق الرجال والإبل في وقت مبكر؛ لأجل التزود بالماء، وهنا تباطأوا معظم اليوم حسب رغبتهم.

تقرر رحيلنا في صباح اليوم التالي، ولكن تأخرنا بسبب مرض أصاب أحد رجالي من البدو باضطراب في المعدة، وشُفي الرجل بعد إجراء عملية كي بالنار، ذلك أنهم جاءوا بمسمار بندقية، وجعلوه في النار حتى تحول لونه إلى الأبيض من شدة الحرارة ثم وضعوه في سبعة أماكن عقب القدم اليسرى، وعقب القدم اليمنى وراء الأذنين، ووسط الجبهة عند منبت الشعر، سمت الرأس وفوق السرة، وهذه العملية يعرفونها باسم غويرة Ghuwaira، وفي صباح اليوم التالي تزودت الإبل بالماء أكثر من مرة، وبعد الظهر تحركنا عدة أميال نزولاً عند نهاية أيكة أشجار استعداداً لانطلاقة جديدة في الصباح، افتقدنا ناقتين، وحيث إن البدو تعودوا على استخدام حدسهم، توقعوا أين تكون الإبل، وعندما عثرنا عليها سرنا في خط مستقيم غير معوج إلى الجبال تحت الأفق.

عرضت اقتراحاً أن نعود من موجشن عن طريق قتبتKatibit وأنضور Andhour ولكن رجالي من البدو رفضوا بشدة، وعدت إلى خطتهم بالعودة عن طريق غودون Ghudun هنا في دوكا Dauka إلى الوادي الذي كنا نعود عن طريقه، وكان نزولي عند رأيهم بمثابة تسوية، إن الطريق الذي سرنا فيه تجاه الجنوب الشرقي عندما رحلنا عن حلة بلرزاز Hilat Bil Rizaz طريق سهلي من الرمل الحصوي، وحيث لم أعد أهتم بمعداتي، نستطيع الآن أن نسرع حسب رغبتنا، عبرنا حوض وادي الحوف Wadi Al Houf، وهو فرع يدخل في دوكا Dokua إلى الشمال، وصلنا عند حافة منخفضة هي علامة لمجرى الوادي الرئيسي، وعلى عمق حوالي نصف الميل في وادي مليء بالشجيرات المزهرة باللون الأصفر كان خلفنا حواف من الحجر الرملي ذات اللون الأصفر والأحمر، وتظهر أمامنا تلال هرمية الشكل مستوية السطح، وهنا في حنفيت Hanfit دخلنا وادي دوكا Douka حيث يتحول ليسير جهة الشمال الغربي، وطريقنا في صباح

اليوم التالي في اتجاه الجنوب، وعند الرحيل عن معسكر دوكا Douka كان يتصل به رافدين، وهما زعفريت Dha Afrit وايستا Ista، وبعد ساعة ونصف تركنا الوادي وقطعنا واحدة من انحناءاته وعبرنا الوادي الصخري جدة النعامة Jaddat Naama، وهنا عثرت على الأفعى المختلفة الثالثة.

كانت هناك ربوتين خلفنا تحتهما تتجمع مياه الأمطار، ويعظمها البدو بتسميتها أخابوج Akhabug، وأم أراك Umm Arak وليس هناك أي إشارة على وجود مياه؛ رغم أن السطح الرملي للآكام قريب جداً من جذور الأشجار، واكتسح في طريقه الأشياء البسيطة أمام مجرى المطر، وتأكيداً على ذلك شاهدنا على مرمى البصر قطيع من الإبل والأغنام المدرة للألبان، وشاهدت أوكار من محار كبير من الحجر الرملي، وكانت كلها تقريباً من نوع واحد، وفي موقع واحد شاهدت عشرين واحدة إلى جانب بعضها؛ يغطيها تقريباً رمال شديدة النعومة من قاع الوادي، وظهرت كأنها على سطح محيط، وظهرت ثلاث أفاعي من نوع واحد تقريباً، ويطلقون عليها أبو صياح Abu Saihah، وهي سامة وتحدث أزيزاً، وشاهدت أثنين آخرين من الزواحف-السحالي-، اعتقدت أنها حرباء لتغير لونها، وحصلت عليهما، كانتا كبيرتين، ولكن غير صالحتين للأكل، وتعرف باسم شويرة الشمس Shuwaira Ash Soms؛ لأنها الوحيدة بين الحيوانات الصحراوية تهرب من الشمس، ويقال إنها تفرح كثيراً بمقابلة الأشياء البارزة اللامعة المواجهة للشمس؛ حيث تخفي رؤوسها، لونها أزرق، وتغير من لونها إلى اللون الفضي عند الوفاة، وذيلها لونه أحمر ناعم مثل ذيل الفأر.

وفيما وراء أدواب Aduwab دخلنا إقليم وادي من التلال المنخفضة، ويرتوي من موغاغا Mughagha، وهو عبارة عن بئر ماء

المطر حفره البدو الذين يفدون إليه بإبلهم في وقت قريب، وقد قابلناهم، وتحول هؤلاء إلى بيت كثير Bait Kathir الذين جذبتهم الأمطار التي نزلت قريباً، ومن هذه الإبل حصلنا على ألبان وفيرة، وكان سكان هذه المنطقة من الشماليين الذين قابلناهم هنا في هذه الصحراء، وفي هذا المكان قررنا أن نقضي الليلة، والمكان يعرف باسم بن جوعيا Bin Ju'ai، كانت ليلة شديدة البرودة نزلت الحرارة إلى ٤٧ درجة، ثم بدأنا الرحلة في الصباح الباكر، في بداية اليوم تسلقنا السهل وشاهدنا تغيراً في الحياة النباتية، وأخذت في الزيادة، وكان النبات السائد في وادي دوكا Douka في اليوم السابق على ارتفاع ١٠٠٠ قدم السلام Salam والمرخ Markh، واليوم على ارتفاع ١٥٠٠ قدم النبات السائد أكاكيا السمر، والنخيل الجميل؛ مثل أساف Asaf (غداف Ghadaf)، وعلى مدى ثلاث ساعات في الطريق المتجه نحو الجنوب الشرقي على أرض مرتفعة وعرة وصلت بنا إلى تل مخروطي كبير، يعرف باسم حمراء مسكاد Hamra Miskad عند قدم هذا التل سجل البارومتر ارتفاع ١٧٥٠ قدم، ومن هذا المكان أخذنا نتسلق بشكل أكثر انحداراً وسط منحدرات وادي مفروش بجمر بركاني أسود حصوي، ومن هنا وصلنا عند نقطة مرتفعة تسيطر وتطل على منطقة واسعة من التلال المخروطية والهرمية في كل اتجاه، وهي عبارة عن سلاسل مررنا بها بالأمس، ولا تزال أمامنا اليوم، ومن هنا عبر منخفض ذو جوانب منخفضة حمراء اللون خلفه عدد من التلال لونها أحمر خفيف، ولهذه واحدة من مصادر وادي دوكا Wadi Dauka، وصلنا عند سهل صغير صاعد، وهنا كانت تتناثر بعض أشجار البخور إلى جانب بعض الآثار، وهذا أكثر ما شاهدناه في وادي دوكا Wadi Dauka، والأهم زيادة في أشكال الحياة الحيوانية، ومن بينها الضباع، والنسور، وطائر القطا الصحراوي.

طرحنا الخوف من جيمان Jiman وراء ظهورنا، وفي اليوم التالي أنا وثلاث من رفاقي تركنا الريق في قرن شيبا Qrn Shiba، وتقدمنا نحو الشرق لنتزود بالماء من عين حنون Hanun، وندخل وادي معروف باسم باموسكياف Wadi Ba Musqaiyif وهذا الوادي المذكور يبشر بالوصول إلى آثار تريلث Trilith، وعندما سلكنا طريقًا شرقيًا عبر طريق سطحه تملأه تلال متفرقة، ينتشر على سطحه الصوان الأسود، وبعد ساعتين من السير وصلنا عند تل حلزوني، كان قرن حنون على ناحية، وعلى الناحية الأخرى كان يوجد تل بنفس الشكل، ولكنه ثلاثي النظام، وهو أرداف Ardaf.

خلفه مباشرة وصلنا إلى مشهد كبير، تتفرع الأرض فجأة لتشكل حرف V، وهو عبارة عن شق من صخر بلوري يهبط في شقوق تعطي وميض أبيض، تصل إلى أرضية وادي تكسوه الخضرة على انخفاض ١٥٠ قدم، والطبيعة العليا كثيرة التغير: وأقصي القاع عبارة عن أجزاء عملت فيها عوامل التعرية، وشكلت فيها كهوف ضحلة طويلة، هذه المنطقة تسمي غبرتان Ghabartan، وهو عبارة عن وادي رقيق الانحناء، ويتصل على مدى النظر بالراكبت Rakibit وهو بهذا مصدر الكاتبت Katibit، وهنا عند طرف مصدره تطل على بركة خضراء هي حنون Hanun في قاعه، إن العثور على عين الماء حررنا من خيبة الأمل عندما تذكرت قصص البدو في الثناء عليها - الثناء المدرك بالعقل في الأرض المتعطشة للماء-؛ حيث لا تجد على امتداد مسيرة طويلة في منطقة أم الحياة Umm Al Hait سبعة عيون ماء فقط، ونعتقد أن عينات الماء لذيذة لدى أهلها، وهي كانت ملحية، ولا يمكن أن تكون أحسن من مياه موجشن، ولكن لحسن الحظ أن الأمطار الأخيرة غيرت من إلحاحنا على الماء هنا، ومن بين الأشياء التي شدت اهتمامي هنا حفرية سليمة، ورؤية طائر البلبل، وصخرة زرقاء أخذت شكل حمامة، أما عن با موسكيا في Ba Musqiayif، وهي

مدخل إلى غابرتان Ghabartan؛ حيث تكثر الآثار التي وصلت عند التواءات الوادي، ولم يوجد منها أخر واحد يحمل نقشًا، وربما يعود السبب إلى عوامل التعرية التي نحتت الأشجار التي كانت عليها هذه النقوش، وفي منطقة قريبة توجد بقايا مبني عفى عليه الزمن يتألف من ثمانية خلايا طويلة ضيقة بالإضافة إلى مقبرة إسلامية داخل هذا المبني.

ركبنا مرة ثانية مساءً وسرنا في طريق يقع جنوب الطريق الذي سرنا فيه صباحًا، ودخلنا في حدائق من أشجار البخور، ووصلنا إلى سعطانSa-atan؛ حيث قضينا الليلة، حيث تقدم الفريق مباشرة، وهنا يوجد أحد مصادر وادي دوكا Dauka، وورد رجال القبائل من بني كثير، ومن بيت الشيخ Bait Ash Shikh، ومعهم قطعانهم ومواشيهم لتناول طعام العشاء مع رفاقي الذين اختاروا كهوف التل يقضوا فيها ليلتهم، وأشعلوا النار باستخدام عيدان أشجار البخور؛ حتى يتحدوا البرد والحرارة توقفت عند ٤٣ ف، في الصباح، وكان الارتفاع ٢٠٠٠ قدم، وفي طريقنا يوجد جبل فهد Jabal Fahad، وعنده اتجهنا جنوب غرب إلى وادي الحلة Hila، وهو يمثل جزءً من حلوف Haluf، وواصلنا السير مدة ساعة؛ حيث ظهر منحدر على ارتفاع ١٣٠ قدم، وقد عملت عوامل التعرية، وجعلت شكله وكأنه صدفه تمثل مسكنًا في ميدان حرب، والمنحدرات السفلى غطتها صخور سوداء مرقشه ببقع بيضاء، وتسلقنا عن طريق ممر على الجهة اليسرى من مدخل إلى وادي له رافد صغير يسمى سيج حوار Saig Hawar، وهنا توقفت قليلاً لاصطياد طائر الحجل الجبلي؛ متقدمًا إلى أعلى في اتجاه جنوبي غربي؛ حتى وصلنا عند مفترق القطان Al Qatan.

وفجأة وجدت أعدادًا كبيرة من الطيور، وروابي صفراء، وأغنام ترعى وأرض مكسوة بالعشب، والمشهد العام يفيد أن الصحراء

أصبحت وراءنا، وأخذت أسير في بطء في غابة تيشجوت Tishgaut؛ حتى أجمع طائر الكردان، وواصل الفريق الذي يصاحبني السير، ولم يصبروا على رغبتي، انشغل معظمهم بأخبار قتل أحد رجال الكثيري على يد أحد رجال المهرة في فترة غيابنا -وهذا ثأر قديم- ولاحت نذر الحرب في الأفق، ووقفنا بعض الوقت في وادي أخضر مثمر، أم جبعد Umm Gaba-ad في منطقة تسمي جرثونت Gurthunut؛ حيث رأيتها بقعة تبهر النظر، ولا يختلف جمالها عن وادي في غرب إنجلترا، والاختلاف الوحيد في نوع العشب، كانت الحرارة ليلاً ٥٤ درجة، هذه ليلة من ليالي نصف شهر رمضان، وضوء القمر قوي، وهُيِّئت لي الفرصة أن أسجل هذه المعلومة بدون الاعتماد على الكشاف الكهربائي، وظهر ثعلب في هذا المشهد بالإضافة إلى مشهد القتل ليلة أمس، ولكني امتنعت عن أن أوجه له بندقيتي واضعا في اعتباري أهالي قرة Qara (بيت قطان Bait Qutun) الذي يسكنون الكهوف فوق أخدود مقابل، وجاءت ريح تحمل سحب بيضاء من ناحية البحر، وهبط مستواها عندنا، ومن فوق تل صغير قريب ظهر أمامنا مشهد رائع خلاب هو سهل ظفار[1]، وقد يكون هو المكان الذي يعرف باسم أوفير Ophir يقع عند حافة المحيط الهندي، وأخذ اللون الشاحب لـخطمة The Khutim يطل، وأخذت أتجول قليلاً في القرى القريبة.

نحن الآن عند ديرة قرة Dira Qara هنا أكبر قبائل الرعاة في جنوب الجزيرة، وهي حرفتهم الوحيدة؛ نظرا لعدم استخدامهم للناقة Camel Wasm يشير إلى أنهم جاؤا عن طريق البحر، رغم أن روايتهم أنهم جاءوا شرقًا في وقت في صحبة المهرة، وتحركاتهم في الجبال-لم يظهروا أبدا في نجد-محدودة على أجزاء مسكونة في

---

(١) أوفير Ophir: أرض غنية بالذهب وردت في التوراة (المترجم).

الكهوف، إنهم ليسوا بدوا بالمعني الدقيق للكلمة، ومعهم من جلبوهم ومن حملوهم الأدنى وهم الشهرة Shahra، ذات يوم هم أصحاب الأرض بلا منازع، ولا تزال لغتهم هي لغة أهل الجبال، وعددهم اليوم لا يزيد عن ١٠٠٠ نسمة، وبعض منهم يظهر للأجنبي بشكل لا يستطيع أن يفرق بينه وبين جيرانهم من قرة Qara، وهم جنس نقي لدرجة أن أصحاب القبائل الأخرى لا يدخلون معهم في علاقات زواج مثل الحال للبياصرة Baiyasara في عمان.

إن طريقنا نحو الجنوب يجري عند مفترق أودية كثيفة الأشجار ومفروشة بالحصى الأبيض، وانطلقت حاملاً بندقيتي في واحدة من هذه الأودية، وتركت الإبل تسير في دروب لينة عند أطراف أطول، وفي نفس المكان كانت قطعان الأبقار ترعى في المنحدرات المقابلة، وعندما نزلنا إلى ١٠٠٠ قدم، شاهدنا هذه الأبقار تشرب الماء من عين تسمى فوروم Furum، والوادي يحمل أسم رافد وادي نهاز Wadi Nihaz، والذي اتخذناه طريقا إلى السهل، وعند القاعدة توجد ركيزة يعلوها نباتات طفيلية، وعشب يعرف باسم شعر الجن، والطيور حول المكان، ومن بينها طائر شبيه بآخر في بروسيا رأسه يكسوه اللون الأزرق، وهذه الطيور ملأت الوادي بألحانها، إن الأعشاب الكثيفة التحتية غطت كل شيء إلا المناظر القصيرة، وحيث أنني أهرب من الرقم ثمانية، فإن عيناتي زادت عن ذلك حتى فاقت أي قيمة علمية، ونحن ننزل من هذا الوادي ازدادت الأعشاب، كثافة تغطي الأرض، ووسطها ظهرت أشجار التين والجميز، مطرزة بجبال من زهور الياسمين، وكانت القيعان المفروشة بالحصى ينتشر عليها بين الحين والحين جلاميد من الصخر، وسرنا في طريق يرتفع عند الضفة اليسري، ويأخذ الوادي في الهبوط تدريجياً، وكان يصحبني شيخ قرة Qara من بيت قطان Qutun، وهو صاحب المكان، وكان والده مرشد هذا الحقل، كان شهر رمضان، وكان أهل قرة Qara حريصين على أداء فروض رمضان.

وأسفل منا كانت غاية متموجة، ومن فوقنا نفس الشيء؛ بالإضافة إلى وجود حافة تكسوها الأعشاب الخضراء، وخفت كثافة الأشجار، وسرنا في منحدر صخري مفتوح، واصطدت صقراً (الهار-الباز) وإلي الأسفل بحوالي ٣٠٠ قدم عن التقاء فوروم Furum منه نهاز Nihaz، شاهدت بركة مرقشة بالأعشاب الخضراء مع وجود بقع تشبه التبن، وفي مجملها تشبه مساكن قرة Qara، إنها صورة مختلفة بعد هذا القفر الذي ألفناه في الصحراء، هذا على وجه التحديد ما يعرف باسم بلاد اليمن Arabia Flix، نزلنا عند بواتا Bauta، وهنا يسمي الوادي بهذا الاسم، وقد وصل بقية الفريق إلى هنا، وبعد عشرة أميال وصلنا عند كهف ساحور Sahour، وهو عبارة عن جيب نفق أسود، وتراه من جانب التل فوقنا، وهنا سمعنا صوت النمر (الكوجر) في هذه الليلة، وأخبرنا الأهالي أن هذا النمر قتل ناقة منذ وقت قريب، وهذا حادث غريب، وصعوداً ٢٥٠ قدم بعد الفجر، وعندما انفلق شفق الصباح وصلنا عند كهف شبه دائري اتساعه حوالي ١٠٠ قدم، وارتفاعه حوالي ٤٠ قدم عند الباب، وسقفه نظام من الحليمات المتدلية تآكلت بفعل عوامل التعرية تعوق دخول أي فرد، وتقول الأسطورة إن هذا الكهف يسير أميال داخل جبال قرة Qara؛ حيث يعيش الجان مع الأفاعي والعقارب، وعند الباب من جهة اليسار توجد فتحة تسمح لك بالدخول زاحفاً، وبعد مسافة عشرة أقدام وصلنا إلى حجرة داخلية واسعة شكلها غريب، ثم حجرة مريحة، ويتقاطر الماء من عدد لا يحصى من الحليمات المتدلية بتدرج لونها إلى الأسود، وترتفع من أرضية الكهف حليمات، وشاهدت عموداً عملاقاً ملحق به ما يشبه الحوض على تجويف دقيق، وكأنه يمثل نصف الكرة، وقطره حوالي ثلاث أقدام، وهذه الحجرة تؤدي إلى أخرى، ومدخلها شديد الضيق تكاد تنفذ منه بصعوبة، وهنا توقفت حوالي نصف الساعة أفحص المكان، وكان هناك دليل أن الكهف تأوي إليه الخفافيش، وقد جمعت عينه منها، واستيقظت من غفوة البحث على أصوات رفاقي الذين نفذ صبرهم من

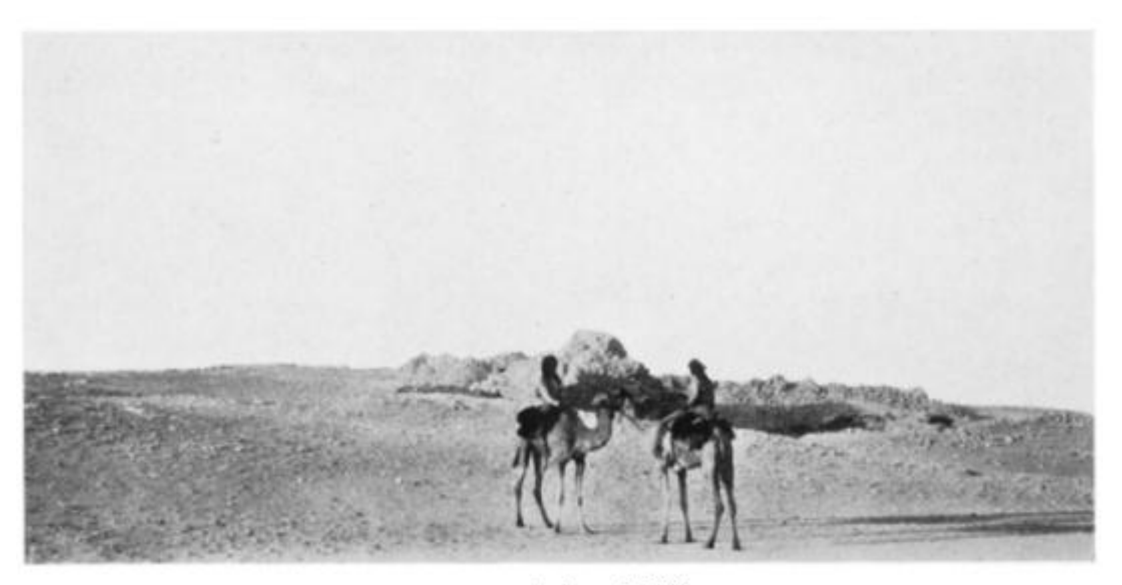
طول الانتظار، ووصلت المعسكر، وركبنا الإبل قاصدين البحر حيث الساحل.

وكانت معلوماتي قليلة، أنني أفتقد الظاهرة المشهورة في غور فوزل Ghour Fuzl وهو عبارة عن فجوة تحت قاع الوادي تحت ساحور Sahour قام بنت Benit بالتطابق بينها وبين ما هو منسوب إلى بطليموسي باسم Diana Qraclilum (عمود ديانا)، وبعد نصف ساعة وصلنا إلى مروج خضراء عند طرف معسكر على مسافة ميل غربا؛ حيث وادي نهاز Wadi Nihaz، وعلى مسافة تظهر مدينة صلالة بين حدائق نخيل جوز الهند؛ حيث كانت بداية ونهاية الرحلة.

أقدم شكري واعترافي بدين كبير لصاحب الجلالة سلطان مسقط وعمان السيد تيمور بن فيصل، من خلال علاقاته مع القبائل التي يسرت لي سبل الرحلة، وأشكر الكولونيل دوف Dove الذي قام بفحص معداتي الفلكية، ومعلوماته التي قدمها لي، وإلى مساعدي على محمد الذي قام بعملية سلخ الطيور، وحفظ غيرها من الأنواع على وضعها الطبيعي بعد رحلة يوم.



Trilith monument near Aiyun, Wadi Ghudun



The waterhole of Shisur



The foothills of the Nejd, Wadi Hila



Looking towards Wadi al 'Aradh from the top of the great Mursaudid sand dune



The Wadi Mugshin



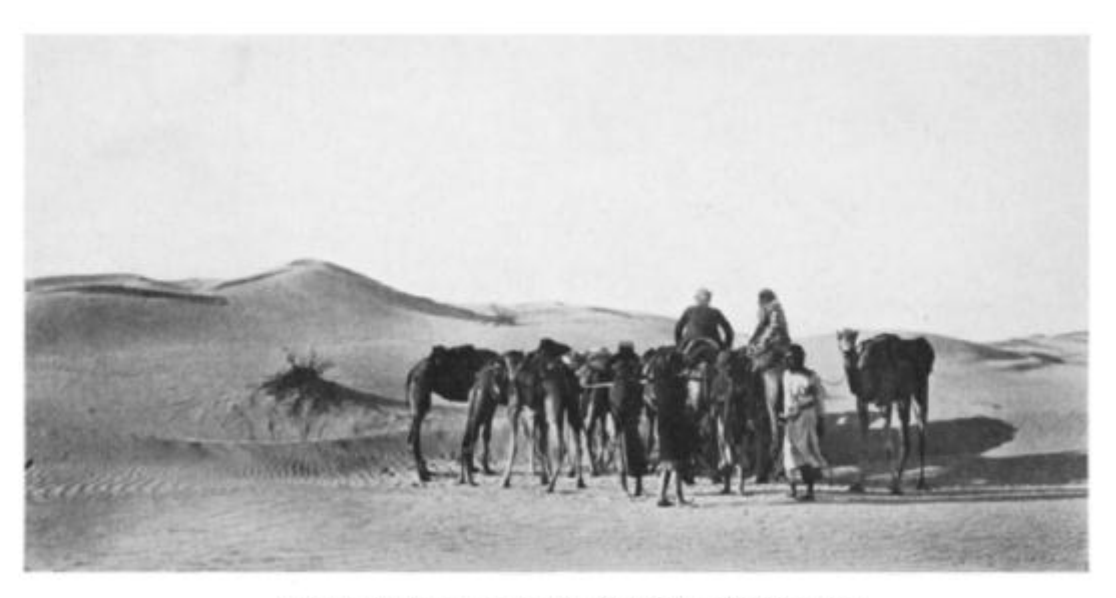
The pool of Al 'Ain



A son of the Sands: Sahail the Rashidi



The ridged dunes of Ramlat al Mugshin



A halt in the sands of Ramlat al Mugshin



The waterhole of Hanun, Wadi Ghabartan

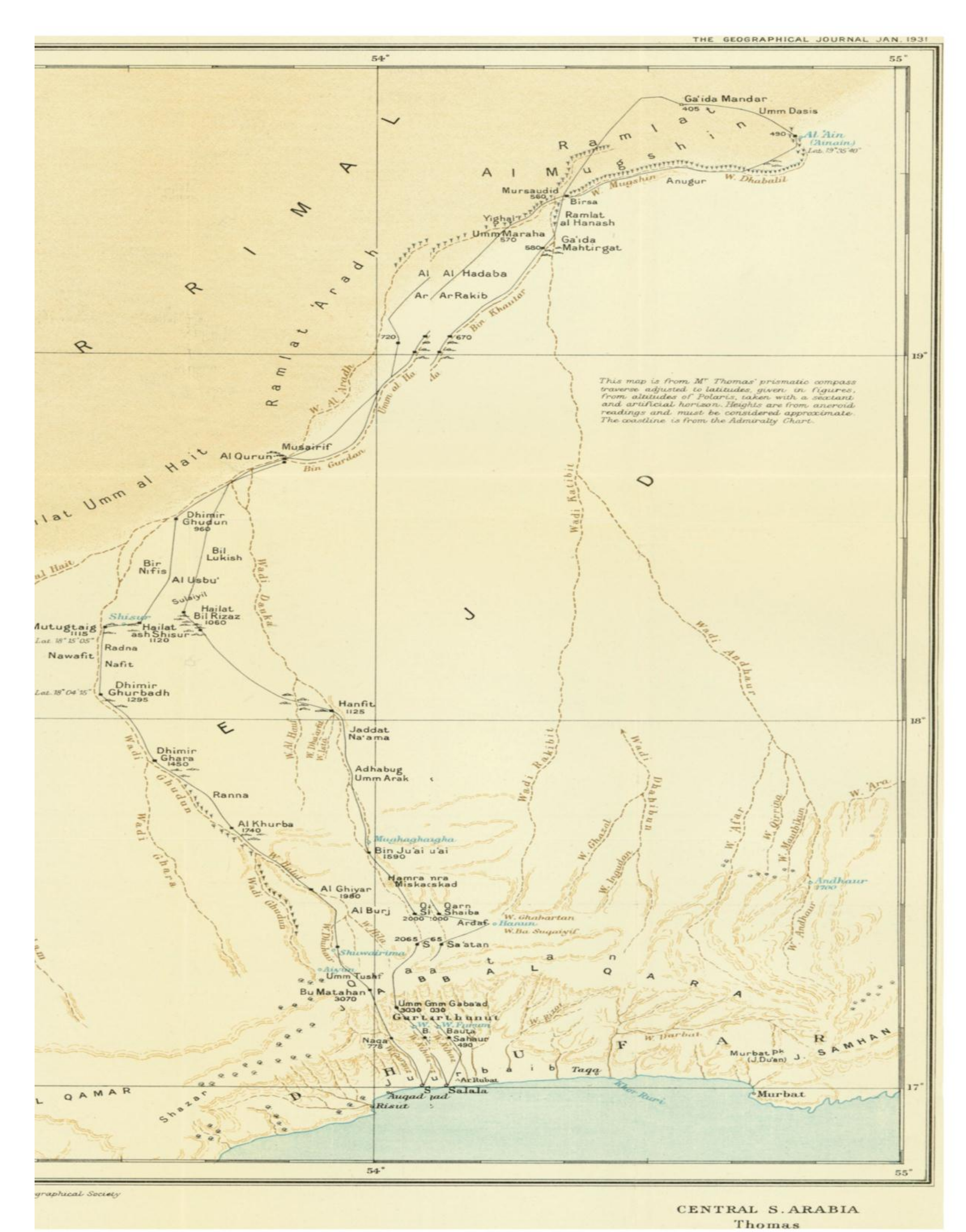




A Bait Imani



The spring of Al ʻAin


THE GEOGRAPHICAL JOURNAL JAN. 1931
This map is from Mr Thomas' prismatic compass traverse adjusted to latitudes, given in figures, from altitudes of Polaris, taken with a sextant and artificial horizon. Heights are from aneroid readings and must be considered approximate. The coastline is from the Admiralty Chart.
Ramlat Umm al Hait
Ramlat 'Aradh
Ramlat al Mugshin
Ga'ida Mandar
Umm Dasis
Al 'Ain
Mursaudid
Birsa
Ramlat al Hanash
Umm Maraha
Ga'ida Mahtirgat
Al Hadaba
Ar Rakib
Al Qurun
Musairif
Dhimir Ghudun
Bil Lukish
Bir Nifis
Al Usbu'
Hailat Bil Rizaz
Hailat ash Shisur
Mutugtaig
Radna
Nawafit
Nafit
Dhimir Ghurbadh
Hanfit
Jaddat Na'ama
Dhimir Ghara
Adhabug
Umm Arak
Ranna
Al Khurba
Bin Ju'ai u'ai
Hamra nra
Miskacskad
Al Ghiyar
Al Burj
Qarn Shaiba
Ardaf
Sa'atan
Umm Tushf
Bu Matahan
Umm Gaba'ad
Gurtarthunut
Bauta
Sahaur
Naqa
Taqa
Salala
Risut
Murbat
Khor Ruri
Wadi Katibit
Wadi Rakibit
Wadi Andhaur
Wadi Dhahibun
Wadi Dauka
Wadi Ghudun
Wadi Ghara
W. Dhabalil
W. Mugshin
Anugur
Al Qara
Dhufar
J. Samhan
Al Qamar
CENTRAL S. ARABIA
Thomas

Part of
CENTRAL SOUTH ARABIA
from a route traverse
by
BERTRAM THOMAS
1930

Scale 1: 1,000,000

10 0 10 20 30
Statute Miles

Reference

Author's routes
Caravan halts
Heights in feet 1740
Wadis (Dry)
Water holes
Sand
Acacia jungle
Scrub
Frankincense

ARABIA
Sketch map to illustrate Drainage
and distribution of
SANDS AND TRIBES
in the
EASTERN PART OF RUB' AL KHALI
Scale 1:5,000,000

50 0 50 100
Statute Miles

Reference

Author's routes
Heights in feet 450
Wadis (Dry)
Water holes
Sand
Salt plains
Quicksands
Tribes that enter sands AFAR
Other Tribes Qara

Published by the Royal Geo

الرحلـــة الرابعـــة

رحلـــة فـــي حضرمـــوت

المؤلـف : ليو هـــرش

المصدر: الصحيفة الجغرافية - مارس ١٨٩٤م ص ١٩٦ - ص ٢٥

عقدت النية على اكتشاف حضرموت منذ زمن، ولقد حاولت أن أنفذ هذه الفكرة في عام ١٨٨٨م، عندما ذهبت إلى عدن لهذا الغرض، ولكن الذي جعلني أتراجع عن الفكرة أمرين، هما ضآلة المعلومات، وعدم الثقة في نجاح الفكرة، وهذا الذي جعلني أعرض عنها، وبدلاً من ذلك وجهت رحلتي شطر الصومال؛ حيث أقمت مدة ثلاثة أشهر في بلحار Bulhar؛ حيث ركزت كل جهودي في تعلم اللغة الصومالية، وبعد عودتي إلى أوربا، دخلت في علاقة طيبة مع عربي فطن في عدن، هو عبد القادر مكاوي، تعرفت عليه في فترة إقامتي هناك، ولقد حققت من خلال هذه العلاقة ميزة عظيمة، والبيانات والمعلومات التي حصلت عليها من صديقي العربي شجعني أن أحقق خطتي السابقة، وأحاول القيام بها للمرة الثانية، وحصلت على كل مساعدة أحتاجها، خاصة مجموعة من الرسائل، تسهل الدخول على شيوخ Mukalla شجر Sheher، وكشن Kishin من المقيم البريطاني، الجنرال جوب Jopp، ومساعده المقيم الوطني محمد صالح جعفر، وفي منتصف يناير ١٨٩٣م رحلت على ظهر سفينة تجارية صغيرة، إلى شحر Sheher، واستغرفت الرحلة ثمانية وثلاثين ساعة، وتقدر المسافة ثلاثة مائة وعشرين ميلاً جغرافيًا، هنا استقبلني الحكمدار [الجمادار Jemadar] حسين بن عبد الله بن عمر بن عوض القعيطي Jem-Adar HUSEIN bin Abdalla bin Omar bin Audh Elka-Aity وهنا خصص لي منزل للإقامة، ولكن لم أحصل على أي مساعدة تفيد في رحلتي، وفي يوم ٤ فبراير رحلت في قارب صغير إلى سيحوت Seihut، وهو ميناء على ساحل المهرة Mahra، وعند مخرج الوادي الكبير الذي يعرف باسم ماسلا Masila، وبعد السير في مجراه الذي يسير في كل حضرموت يدخل البحر على مسافة حوالي ساعتين من المكان المذكور، وأن الأمل الذي في صدري بالتوغل

نحو الداخل باستخدام هذا الوادي، بدأ يضعف؛ لأن السلطات المحلية المتمثلة في أخوين؛ الشيخ عبد الله والشيخ عبد الرحمن با قريط Abdalla and Abdder Ralman ba Karit؛ بينما كان البدو من قبيلة بيت زياد Bet Ziyad يعارضون توغلي نحو الداخل، عندما أعددت لرحلة صغيرة إلى مكان يعرف باسم رياضة الكبيرة Raidt– el– Kebira، والذي يقع على مسافة ثلاث ساعات شمال سيحوت Seihut في وادي جميل يحمل الاسم، وكان في صحبتي شاب صغير، ذلك لأن الكبار رفضوا اصطحابي خوفا من البدو-كانوا مندهشين وخاف الشيوخ من أفعال العنف، ومن هنا أقنعوني بشدة إلى الرحيل، وبالتالي غادرت كيشن Kishin، وهنا في كشن استقبلني السلطان على بن عبد الله بن عزيز أحسن استقبال، ولكن لم أحصل منه على المساعدة المطلوبة لنفس الأسباب التي ذكرتها سابقًا، وعدت إلى مكلا Makalla؛ حيث توقعت أن أحقق نجاحًا أجود، وبعد أن أعطيت رسائلي إلى الحاكم عبد القادر بن علماس، وهو رجل نشيط، والمعين من قبل الحكمدار (جامدار) Gamadars، بات في ظني أن كلامه معي قريب جداً من هدفي، ولكنه علقني حتى ضاق صبري، واعتقدت أنه يحاول أن يسترضيني لأن يعدني بزيارة وادي خربة Wadi Khirba؛ بالإضافة إلى أنه يوفر لي صحبة طيبة، وعدت إلى عدن في قارب صغير دون استئذان عبد الخالق، وقدمت شكواي إلى المقيم البريطاني عن هذا الإهمال الذي تلقاه للتوصيات البريطانية، وطلبت في نفس الوقت رسالة جديدة تحمل تأثيراً أكبر إلى مكلا Makalla، وهذه أعتبرها أحسن نقطة أبدأ منها هذه المهمة، وحصلت على ما أريد، وبعد عدة أيام من الرحلة أنتظر وصول سفينة تجارية، وكانت الرياح غير مناسبة لاستخدام قارب صغير، وبالفعل أبحرت يوم ٢٥ مايو للمرة الثانية من مكلا Makalla، وهي على مسافة حوالي مائتين وثمانون ميلاً جغرافياً عن عدن.

إن رسالتي الثانية كانت طيبة في جانب إلا أن سوء النية لن يدعمها، وتأخرت ثانية لعدة أيام لأسباب مختلطة، ولكن في نهاية الأمر بدأت في تنفيذ وجهتي، كان برفقتي بدوي من قبيلة حايجي Haigy، وهي واحدة من قبائل صيبان Saiban، وكان مكلفًا بالسير معي، أي أنه كان مرشداً مضمونًا، وسلموني حارس من الأرخاء في صحبتي إلى هجرن Hajarn في وادي دون Doan، وهو جهتي الثانية؛ بالإضافة إلى هذا حصلت على رسائل من عبد الخالق Abdul Khali، ومن الحكمدار Gemader حسين في شحر Shehr للسلطات في هجرن وشيبان Shibam، وهذه الأماكن الداخلية وغيرها في يد القعايطة Ka-Aitys، ورحلت في اليوم الأول من يوليو، ومعي ناقتين، والرجال المذكورين، بالإضافة إلى خادمي العربي، والذي حصلت عليه من عدن، وفي بداية الأمر عسكرنا خارج باب المدينة عند شاطئ البحر، وعندما حانت الساعة العاشرة والنصف ظهر القمر من فوق الجبل، وقد ألقى بعباءته الفضية فوق الأرض، ووضعنا الأحمال فوق الإبل، وسرنا [بسم الله]، لقد خلعت ملابسي الأوربية في مكلا Makalla، وتحولت إلى واحد من أبناء العرب، رغم أنني لست مسلماً، وجدير بالذكر أن معرفتي لبعض آيات القرآن الكريم، واللغة العربية منحاني وضعًا في نظر الناس، وهؤلاء الناس يرون أن علوم الدنيا انعكاس ضعيف لعلوم الدين.

وأنني بصدد أن أسجل وصفًا موجزًا للطريق الذي سلكته، والصورة قد تكون غير كاملة؛ رغم سيطرة التفاصيل التي من الممكن رؤية جزء منها، في بداية الرحلة سرنا غربًا على امتداد البحر، وبعد مدة ربع الساعة وصلنا إلى عيجاء Aiga، وهو وادي طويل قادم من جهة الشمال، تتجمع فيه المياه الزائدة من مجموعة أودية صغيرة وخصبة تسير نحو البحر، وهناك منخفض يقع بين امتداد الجبال، وهنا في هذه المنطقة في فصل الخريف من كل عام

ترتفع مياه البحر، وتدخل إلى الأرض، ولذلك توجد هنا مياه مالحة تزداد وتقل حسب الموسم، والأرض حيث تجف تجدها وقد تشبعت بالملح؛ حيث كان من الممكن الحصول على الملح في هذه الأماكن في العصور القديمة بحفر عيون في الأرض يرتفع فيها الماء الذي يتبخر بفعل حرارة الشمس، وتترك وراءها محصولاً عظيماً، دخلنا وادي عيجاء ملتزمين بالجانب الأيسر الذي كانت تحفه امتدادات صخرية ذات لونين الأحمر والأصفر، وفي كل الإقليم حولنا، مثلما هو الحال في الداخل، فإن المرتفعات التي تحتضنه يعلوها قلعة [حصن]، أو قد يكون سرجا مربعا [كوت]، ولكن وقت السلم كانت هذه الأماكن خالية من الجند.

إن الأرض آخذة في الارتفاع التدريجي، وتوجهنا نحو الشمال الشرقي، وسرنا في مزارع مناور Manaura، وأخذنا الاتجاه نحو بجرن Bagren التي تقع على مسافة حوالي ساعة من مكلا Makalla، ونحن لم نستطع أن نتعرف عليها في الليل؛ سوى أنني جئت إلى هنا من قبل، بجرن هذه عبارة عن خمسين بيتًا من الطين، ومجموعة من الأكواخ التي صنعت من عيدان النخيل، ويطل عليها حصن بادحمان Ba Dehman الذي يقع فوق جانب التل، وتعد بجرن أفضل مكان يأتي إليه الأهالي من مكلا Makalla، ويذهبون إلى هذا المكان أكثرة من مرة في اليوم، والحكمدار Gemadar لا يمنع من الرياضة والاستجمام، وبالقرب من هذه القرية عند قاع وادي صغير شديد الانحدار يجري جدول ماء، ومن الملاحظ أن ضفتي هذا الوادي تغطيها أشجار النخيل، وغير ذلك من أشكال النباتات مثل الموز والتبغ، وغيرها من كل نوع، وتسيل عيون الماء تحت الصخور هنا وهناك، ويسير الماء في قنوات شقها الإنسان تروي جنبات المكان، وفي طرف هذه المزارع أشاهد حصن غزي Ghowzi فوق صخرة أسفلها مجوف، والمنظر فيه انطباع غريب لرأس مرفوعة.

وبالقرب من بجرن Begren بعد مسافة حوالي ربع ساعة يوجد مكان أصغر يحمل نفس الاسم تقريبًا، وهو باجرين Bageren يبرز نفس الاسم تقريبا، وهو باجرين Bageren يبرز على الجهة اليسري، وعن الآن فوق أرض صخرية متسعة من وادي صدد Wadi Sadid الذي يجري أمامنا من الجبال ويتحول هنا في منحنى إلى عيجاء Aiga، وهنا أيضًا معسكرنا الذي أقمناه عند جانب سقاية -جدول ماء صغير- عند منتصف الليل تقريبا، وفي صباح اليوم التالي، وفي تمام الساعة الرابعة والنصف رحلنا عن المكان، وكان في صحبتنا أكثر من قافلة مرت من المكان ليلاً، وتقدمنا عبر وادي صدد Wadi Sided الذي يتصل بوادي براجات W. Beragat الذي يأتي من الجهة اليمني لجبل براجات J. Beragat، ونحن الآن لا نستطيع أن نحدد اتجاهنا، إنه يتغير باستمرار، ومن الممكن أن نشاهد جبل مواز Mawaz في جهة الشمال، وهو عبارة عن امتداد جبلي متوسط الارتفاع يسير في المياه من الغرب إلى الشرق، ويهبط وادي مواز W. Mawaz من هذا الجبل، ويدخل في وادي صدد W. sided، ويوسعه إلى حد ما، وفي تمام الساعة السادسة والنصف جهة الشرق أصبحنا نرى حرشيت Harshiyat جهة الشرق؛ حيث توجد أشجار النخيل، وبعض أبراج المراقبة على التلال المحيطة بالمكان، في الوادي الواسع الذي يحمل نفس الاسم، والذي ينزل من الجبال الشمالية، ويسير في اتجاه جنوبي شرقي نحو البحر، ووراء حرشيت Harshiyat سرنا نحو الشرق، ثم بعد ذلك اتجهنا شمالاً، وجهة الشمال الشرقي، ومن هنا شاهدنا على التوالي كل من الهيوا El Hauwa، وجوايات Jewahiyat، ودكداك Dkdak، وبير صالح Bir selah، وكلها مواقع صغيرة توجد فيها مزارع صغيرة وبعد سيرنا ساعة نزلنا وادي الحطة W. Hathba، واتساعها حوالي ثلاثمائة قدم، وأقمنا المعسكر في قاع المكان في تمام الساعة الثامنة مساءً.

واصلنا طريقنا في تمام الساعة الثالثة والنصف، واتخذنا طريقا شمال شرقي فوق أرض تسير نحو الارتفاع، ثم وصلنا عند سهل صخري، تحيطه امتدادات من التلال المنخفضة، مع رؤية جبال عالية تلوح للعيان جهة الغرب، وهذه تسمى في مجموعها هيادنوما Haido-Nuima، ولم يتغير اتجاه سيرنا وفي الساعة الخامسة وقع بصرنا على امتداد جبلي آخر جهة اليسار، وهي جبال باجموج Ba-Gembog، وبعد حوالي ربع ساعة نزلنا منحدر شديد، والآن أمام الإبل مهمة شاقة، يوصلنا إلى سهل فسيح تغطية صخور سوداء، ثم بعد ساعة وصلنا عند قاع صخري من وادي ريان Wadi Riyan، وهو يقع على الجانب الجنوبي، إن هذا الجبل يعد امتدادا للجبال الشمالية، وعرفت أنه بعد سقوط الأمطار الغزيرة تصل مياهه إلى البحر، وفي الساعة السادسة والنصف أقمنا معسكرنا عند فرع من هذا الوادي.

ورحلنا في صباح اليوم التالي في الساعة الثالثة والنصف، وسرنا على امتداد وادي الريان، ووصلنا عند سلسلة جبال توخم Takhm، وبعد أن وصلنا أقصى ارتفاع نزلنا قليلاً، وفي الساعة الخامسة مساءً سرنا على أرض خشنة بين كتل صخرية سوداء، ما بين شفا جرف في الجهة الشمالية الغربية يقع بين امتداد بين الجبال من جهة اليسار جبال توخم Tokhm، ومن جهة اليمن جبال غيل با وزير Ghail Ba Vezir.

وبعد ساعة وصلنا عند وادي واسع هو وادي أرشهنت Wadi Ershenit؛ حيث توجد في قاعة قرية صغيرة، وحولها مجموعة صغيرة من أشجار النخيل، ويزرع الأهالي بعض النباتات، وفي الساعة السابعة مساءً كان على يسارنا وادي هورا يسير في اتجاه غربي، وعلى الجهة اليسرى من طريقنا شمالي - شمالي شرقي إلى الجنوب

جنوبي غربي توجد سلسلة جبلية صغيرة باسم جبران Geran، وتشكل معقلا قدرت ارتفاعها بحوالي ألفين قدم فوق الوادي.

وفي اليوم التالي وقد انطلقنا في اتجاه غربي، على وجه التحديد شمال غرب، بعد ساعة عبرنا وادي رحبة، وهو رافد من وادي هور Wadi Hawera من جهة اليسار وبعد هذا السهل، ويرتفع وراءه سلسلة جبلية منحدرة هي شيضبا Shedhba وهي تقع في اتجاه جنوبي غربي، وبعد اجتياز عدد من الأودية الصغيرة أقمنا المعسكر في وادي عيبوت Wadi Abut، وعند الظهر فوجئنا بعاصفة برق مصحوبة بأمطار غزيرة استمرت طوال الليل.

وفي صباح اليوم التالي رحلنا في الساعة السابعة صباحًا، بعد اجتياز عدد من الأودية الصغيرة، سرنا شمالا، وسرنا وسط سهل تحيط به عدد من التلال الصغيرة، وإلى جهة الشرق توجد سلسلة جبلية تسمي سرحان Serhan، وصلنا بالقرب من وادي هورا من جهة اليسار، ونزلنا إلى قاع الوادي، جانبي الوادي تحدهما جدران منحدرة من الجير الرملي الأخضر، وهناك قطع كبيرة من هذه الأحجار مبعثرة في مجرى الوادي، ويجري في هذا الوادي عدد من جداول الماء الصغيرة، وكلها تتجه نحو الغرب، وهنا عسكرنا في وادي هوا حتى الساعة الثالثة مساءً، وكان على جهة اليمين جبل كرموم Jebel Kermum الذي يرتفع حوالي ١٢٠٠ قدم فوق سطح الوادي، ثم تظهر أمامنا سلسلة جبال عالية تسير من الجنوب إلى الشمال، وهي جبال كور صيبان Kor Saiben، وهو مسافة قصيرة جهة اليسار جبل هور Jebel Hower الذي يرتفع حوالي ١٨٠٠ قدم فوق مستوي الوادي، وناحية الجنوب جبل عرام Jebel Aram الذي يرتفع حوالي ٣٠٠ قدم في اتجاه جنوبي غرب، وعسكرنا في وادي سمور W.Smur الذي يدخل وادي هور W. Hourra من جهة اليسار.

وفي اليوم التالي انطلقنا في الساعة الثالثة والنصف صباحا في اتجاه شمالي غربي، وحيث وصلنا جبل عالي أمامنا هو كارن مندوب J. Karm Mondub، ثم تحولنا شمالا وجعلنا هذا الجبل على جهة اليمين من سيرنا، وبعد ذلك أخذنا الطريق بالتناول في اتجاه شمالي وشمالي غربي، وفي الساعة الخامسة، وعلى جهة اليمين من سيرنا رأينا سلسلة منحدرة من الجبال الصخرية، أعلى قمة بينها هما شدبا Shedba، ويعرا Yaara، وبعد مسافة قصيرة سرنا مسافة في اتجاه سلسلة جبلية وعرة هي جبال حجا J. Hegga، وعند نهاية وادي هور حجا الكبير W. Hegga وهو المدخل الأخير لوادي هور W. Howera، على الجهة الشمالية منه بالقرب من جبل هوسا J. Hesusa، وهو ارتفاع منفرد يمثل شكل زاوية بارزة في كل المنطقة من الواديين، وجهة الشرق، وعند ارتفاع معتدل؛ حيث يوجد مكان بسيط، جرويد Girwid؛ حيث أشجار النخيل تظهر أمامنا.

أما عن إقليم وادي حجا W. Hegga يقول البدو إنه يحتوي على الذهب والرصاص، وأنني لا أستطيع أن أؤيدها، هذا وإنني أرى أن داخل الصخرة، قشرتها الخارجية عبارة عن صخر رملي، وأنه نوع من الكوارتز الشفاف، وأن الرمل الناعم الذي يغطي أرض الوادي على اتساعه هو نتيجة لعملية التفسخ، وفي الظهيرة سرنا في وادي هورا W.Howra؛ حيث اتجاهنا متبادل ما بين الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي شاهدنا أمامنا جبل حلفا J. Halfa وهو عبارة عن سلسلة جبلية منحدره تأخذنا في اتجاه الشمال الغربي بعدئذ على جهة اليمين جبل غيل G. Ghail، وهو يسير في اتجاه شمالي أيضاً، والأرض هنا ترتفع تدريجياً، وعند الساعة السادسة بعد الظهر أقمنا معسكرنا عند وادي هورا W. Howera وسط أشجار النخيل في غيل حلقة Ghail Halaka، وهنا ترتفع ضفته اليمني في أشكال مشربيات

ذات ارتفاع معتدل، وعلى الجهة اليسري أشاهد جدران عمودية الانحدار من الحجر الرملي الناعم.

وفي اليوم التالي بدأنا في النزول من عقبة الغيل Akaba of Ghail من وادي هورا W.Howera، وهنا الوادي ضيق جداً، يقع بين كتل صخرية عملاقة، وعلى امتداد الطريق تصاحبنا أشجار نخيل الغيل Ghail مدة حوالي نصف الساعة، ويأخذنا الطريق في أن يتعرج مرتفعاً في زجزاج متواصل، والجبال العالية تحتضن الوادي من جهتين وهما جبال باطح Battih، أو بارطحGartih، وعند الساعة السادسة أقمنا معسكرنا عند منطقة مستوية تحيطها من كل الجوانب جدران جبلية منحدرة، والبارومتر يسجل درجة ٤٢,٨٢ درجة، ومن معسكرنا في جبل حجه J. Hegga، والذي يقع على الشرق عند ١٠٣ درجة يقع الكور Kor الصغير جهة الجنوب الشرقي على جانب الوادي وخلفه، ويعلوه في الجنوب الغربي ٢٠٠-٢٥٠ جدار كور صبيان Saiban إن هذه المنطقة الجبلية عند المجري العلوي من وادي هورا W. Howera تعرف باسم غيل Ghail، وحلقه W. Halaka، وبعد الظهر واصلنا المسيرة في وادي هورا W. Howera في اتجاه غربي وكان أمامنا كور Kower، وصبيان Kor Sabian، وبعد مسيرة ساعة أصبح أمامنا جبل باطح، وقد سرنا في فرع منه يسير نحو الشمال الغربي، وبعد ما يزيد عن ساعة وصلنا باطح Battih، وهي قرية صغيرة عبارة عن عشرين منزلاً، ويوجد بها بعض النخيل وقلعتين، ويسير الوادي نحو الشمال، وعلى الجانب الأيسر منه، جبل بطاح Bettah، وإلي اليسار جبل طابا J. Tabah، وهو ينتمي لنفس التركيب.

وفي اليوم التالي انطلقنا في الساعة الرابعة صباحاً، وسرنا في اتجاه شمالي، في بداية الأمر نزلنا من جبل باطح J. Battih على

الجانب الأيسر من وادي هور W.Howera، والذي اتجاهه شمال غربي، وبعد مسيرة ساعة شاهدنا جهة اليمين وادي ريما W. Riyma يتصل به، وهذا الوادي قادم من اتجاه شمال - شمالي شرقي، نزلنا عند قاع وادي هورا W. Howera، والآن نسير على الأحجار والحصى التي تغطي القاع، ويختلط بهما قشور صخرية بيضاء صنعتها المياه، وعلى واحدة من ضفافه التي تسير باستمرار من جانب إلى الآخر، وفي الساعة السابعة والنصف صعدنا آخر ضرب صاعد، ووصلنا إلى الهضبة الكبيرة التي تسمي جل Jal أو ماجاد Magad، محاطة بقوس واسع من التلال، وهذه التلال تتوجها في جهة الجنوب الشرقي سلسلة كور صبيان Kor Saibian، وسطح هذه الهضبة في مجملها عبارة عن طبقات سميكة من بلورات الحجر الجيري، عبارة عن عدة طبقات تعلوا بعضها، وترتكز على صخر أحمر يعود إلى الأصل البركاني، ويظهر في بعض الأماكن تأثير المياه التي أزالت الطبقات العليا؛ حيث شقت المياه طريقًا لنفسها، وهذه الهضبة تمثل الحد الفاصل بين الأودية التي تتدفق جنوبًا نحو البحر، وهذه الأودية التي تسير شمالاً، وتلقي بمياهها في وادي ماسلا W. Masial أن عدد الأودية التي تجري هنا كبير، وأسماء هذه الأودية عرفناها على امتداد طريقنا، وهناك بعض الأمور الغريبة التي يمكن أن تتحدث عنها بالتفصيل، وتظهر في كتاب من مطبعة في ليدن، وهي Mr. EJ. Brill، وجل Jol عبارة عن عدد من التلال التي تشكل رصيف وهذه عند النزول من عليها توحي إليك بفكرة قصة أخرى، وسرنا فوق هذا الوادي الواسع، وهو في مجمله يعطيك إحساس بالعزلة عن العالم بسبب ندرة النبات، وقفر الحياة، وفي غالب الأحيان يسير في اتجاه شمال غربي، وفي بعض الأجزاء في اتجاه غربي، وعند المساء وصلنا إلى اليوم الثالث؛ حيث وصلنا قرب وادي دون W. Doan.

لو أن هناك شيء لا يجعلني أشك أن فرد Frede توغل في هذه الجهات، ولكنه أعطانا معلومات جمعها من الأهالي، وقدم لنا وصف بسيط عن وادي دون W. Doan من فوق جبل جل Jol، ونزلنا من الجهة اليمني حيث وادي مشرج W. Mishergi، وهو عبارة عن وادي ضيق شديد الانحدار تغطي أرضه جلاميد الصخر، ولا يسمح لأي شيء يمر من فوقه إلا الماء، ووصلنا وادي دون W. Doan مقابل سيف، وهي مدينة يسكنها شيوخ العمودي Amudi، وهذا هو نفس المكان الذي نشك أن فرد Frede، ودخله واضطر للعودة حيث دار الشك حوله أنه جاسوس.

وفي صباح اليوم التالي انطلقنا في الساعة الخامسة صباحاً بعد أن انشغلنا في ضمان المزيد من الأمان بضم اثنين من البدو أحدهما من قبيلة العمودي Amudi، والآخر من قبيلة ساري Sari، وعلى امتداد الأرض الخصبة في وادي دون W. Doan الذي تغطية مزارع النخيل والدوم Rhammus Nabeca – Dom، وبعد سيرنا نصف ساعة على يسارنا، وادي غيدني W. Gaiudn الذي تكسوه المزارع على امتداد عدة أميال، وهناك مدينة تحمل نفس الاسم، ولكنها تختفي وسط المزارع، وفي هذه المكان قبر أول شيوخ قبيلة العمودي Amudi سيد بن عيسي العمودي، وهناك أودية أخرى على الجانبين، على وجه العموم تكسوها مزارع، وتقع في وسطها مدن صغيرة عند مداخلها، وباختصار بعد الساعة الثامنة صباحا عسكرنا عند وادي عرسما Arsima، ومن هذا المكان شاهدنا صخور الحجارن Hagren جهة الشمال مباشرة، وعند الظهر عاودنا السير مرة أخرى في وادي دون W. Doan حتى وصلنا آخر مزارع الحجارن بعد مسيرة ساعتين، والمدينة تقع على جانب من جبل يدعى جبل منصور Munseur، ويقع حصن المدينة على منحدر صخري يطل على وادي غبر W.Ghbr الذي يسير في اتجاه شمالي غربي، ويتصل بوادي دون .W

Doan قبل أن يصل إلى مشهد على Meshhed Ali، والذي يقع على مسافة ثلاث ساعات من هذا المكان في اتجاه شمالي - شمالي شرقي.

سلمت رسائلي من مكلا Makalla إلى نجيب عبد الله عمبرك، وهو أحد أفراد أسرة القعاطي Kaaity حيث أحسن استقبالي وضيافتي، وبعد أن استرحت يومًا جهزت رحلتي إلى مشهد على Mehhed Ali، وهذه ملك أسرة سيد الحدن Hadun، ومن أبناء هذه الأسرة السيد حسين بن عمر الذي يعيش بالقرب من حجارن Hagaren، ويعد من الأولياء الصالحين، والذي أحسن استقبالي، وسرنا في وادي غبر Ghabr، ودون Doan وبعد ساعتين، وعند الطرف اليسار من جبل نعام Naam وصلنا عند مجموعة من آثار مدينة قديمة؛ حيث شاهدنا بعض جدران المنازل، وقد استخدمت كتل من الصخر المنحوت في بنائها، وكانت الجدران في حالة جيدة، ولم أشهد أي نقوش هنا، وشاهدت المزيد من هذه الجدران القديمة، وقد استخدمت حجارة صفراء في بنائها، وهذا يبرر أنها أقل في القدم الزمني، وعندما اقتربنا من مشهد على Meshhed Ali وصلنا عند بناء تعلوه قباب، وبداخله قبور الأولياء على بن حسن وولده حدن Hadun، وإلي جانبهما ضريح شيخ أقل منهما، واسم المدينة مأخوذ من اسم السيد على، ويأتي إلى قبره عدد كبير من الزوار كل عام، وحتى أشاهد الآثار في غيابين Ghaibun التي ذكرها فرد Wrede اصطحبني أحد الأسياد داخل المكان ويتصل وادي غيابين Ghaibun مع وادي مخ Mikh، ولكن لا يصل إلى وادي دون W. Doan، والأرض التي تغطيها بقايا البيوت المبنية الاتساع، وهذا يشير إلى وجود مدينة كبيرة، وأنها إما أن تعرضت للدمار أو أن أهلها تركوها، ولم أعثر على المقابر الملكية التي تحدث عنها فرد Wrede، ولم أر منزلاً كاملاً، ولكن الذي رأيته مجموعة من الجدران في حالة جيدة، وبعض قطع من الحجارة لا تختلف عن الحميرية Himyaritie؛ رغم أن كل هذا

لا يعطي معنى متكامل، وأخذت مجموعة من هذه القطع، ونقلتها إلى برلين، ولاشك أن عمليات البحث المتواصل سوف توصل إلى نتائج قيمة.

عدت إلى حجارن Hagaren وفي نفس الليلة، وانطلقت نحو شبام Shibam في اليوم التالي بعد هذه الرحلة، واجتزت مشهد على Meshhed Ali في وقت لاحق، لكن دون توقف وبعد مشهد Meshhed كانت هناك مجموعة من بقايا المساكن القديمة، ولكن الأحجار التي استخدمت لا تشير إلى أنها كبيرة الحجم، أو أنها قديمة مقطوعة؛ بل هي كما حصل عليها العرب، ويسير وادي دون W. Doan على الجانب الأيسر من امتداد الجبل، ويسير وادي العين W. Alin على الجانب الأيمن في شكل منحني كبير، وبعد ساعة على مسافة من يسار غبدن Ghabden حيث توجد مزارع، وفي تمام الساعة العاشرة صباحا نزلنا منزل الشيخ أبو فزر Ba Vezir، وهو مكان بسيط في إدب Adib في وادي يحمل نفس الاسم.

وفي الساعة الثالثة مساءً واصلنا السير في وادي العين w. Alin في اتجاه شمالي، شمالي غربي، وهنا تجري ثلاث أودية في نفس الأرض، وموازية لبعضها، وهي وادي دون w. Doan، وادي إدب W. Edib، ووادي العين W. alin، وبعد حوالي ثلاث أرباع الساعة يدخل وادي إدب W. Adib في وادي العين W. Alin، ثم دخلنا في الوادي الأخير، وعلى جهة اليمين مصب وادي جمل W.Jemal؛ حيث مدينة الروضة Rodah وعدد من مزارع النخيل، ومرت قافلتنا على عدد من المدن في الجهة اليمني، وكانت حولها مزارع واسعة منها سيدبا Sedba، قيراني Kerany، بدر Bedra، وبالقرب من هذا المكان وادي عمد W. Amd الذي يبدأ من جهة اليسار من الامتداد الجبلي، ويتصل مع وادي دون W. Doan في جهة الشمال من موقعنا، وظهرت أمامنا

مزارع أخرى، ومجرد أن دخلنا وادي حرة W. Hora، الذي يسير موازيا لوادي العين W. Alin وصلنا عند مدينة حرة Hora؛ حيث يوجد حصن كبير فوق منحدر الجبل، ونزلنا في بيت خاص، وجاء لاستقبالنا زعيم المنطقة ليرحب بنا إن حرة وشبام هما الآن من ممتلكات قبيلة القعاطين Kaaitys.

ولقد حظيت باستقبال طيب ولابد أن أرحل ومن حرة تقدمت نحو حوتا Hota، وهو اسم المدينة، وهذه الميدنة في العادة يشار إليها باسم القاطن Elkatn، ويسير الاسم على المكان الذي تقع فيه حوتا Hota، وهي منطقة أرضها خصبة، وتنتج كل أنواع الخضراوات، والحبوب، وفيها أنواع من الأشجار، ويزرع فيها حتى القمح، وأرض هذه المزارع ترويها مياه الآبار، وتجري قنوات الري في كل اتجاه، وهنا التقيت مع الحكمدار Jemadar صالح بن محمد بن عمر القعاطي، الذي أحسن استقبالي وضيافتي، وهنا معه قضيت يوماً، وتقدمت قاصداً شبام Shibam، وهي عاصمة إقليم حضروموت، عدد سكانها حوالي ٦٠٠٠ نسمة، وتقع بين أحضان منطقة زراعية، وشبام مدينة صغيرة عدد مبانيها قليلة، مساكنها كبيرة والشوارع غير نظيفة، ويحيطها سور من الطوب اللبن، وبالقرب من شبام يوجد أرض آل كثير Kathris، وهم ألد أعداء قبيلة القعاطي Kaaity، ولأجل أن أسير من المنطقة حيث قبيلة القعاطي، لابد من وصول مرشد من قبيلة آل كثير، وبعد وصول الرجل ومعه ناقتين تقدم صوب سيون Saiun، وترم Terim، وهي المدن الرئيسية لدي آل كثير، وسرنا نحو الشرق حيث اتخذنا طريق وادي ماسلا Masila، وهنا يعرف باسم Serr-Masila، وهنا وادي كبير وهو وادي السر W. Serr يدخل من جهة الشمال بين الحطا El Hata وشبام Shibam، وأنه لا فائدة من أن أذكر الأسماء فقط وباختصار وصلت إلى سيون Saiun وهي مدينة تمتد على أرض الوادي من جهة اليمين وتكثر بها

الحدائق وعدد لا يحصي من المساجد وحولها أرض زراعية واسعة قطعنا فيها حوالي أربعة ساعات، ووجهت لي الدعوة لمقابلة السلطان منصور بن غالب بن محسن الكثيري حاكم البلاد، وشقيقة محسن، الذي لم يسعدني مقابلته يعيش في ترم Terim، وأحسن السلطان استقبالي رغم أن الاستقبال لم يكن حاراً، وبناء على طلبي أعطاني واحداً من الرقيق في صحبتي إلى ترم، وتقدمت صور طربة Tariba، واستقبلني الشيخ أبو بكر الزبيدي في قصره وكانت معاملته طيبة، وتقع طربة Tariba على بعد أربعة ساعات عن سيون Saiun، والمنطقة كلها أرض خصبة وكلها مزروعة، ومن طربة تحولت نحو ترم، التي وصلتها بعد أربعة ساعات ونصف، وسهل لي الشيخ بو بكر الدخول إلى السيد حسن بن علوي بن صباح في تارم، وهو رجل مستنير عاش زمنا في يافا Java، ولقد أحسن استقبالي ولكن أقلقه شقيقة السيد الذي هدد بتدمير ملكه إذا لم يطرد الكافر -يقصدني- والرجل لا يريد أن يفعل هذا، ولكن عندما وجدت إن السلطان لا حول له ولا قوة، وأنه لا يميل إلى حمايتي ضد هؤلاء السادة، فكرت أن أرحل على الفور، ولكن هذا لن يحدث قبل أن أعرف من السيد معلومات عن المدينة، وأعرف عنها معلومات جيدة، وعن الذي حولها، وعدت في نفس اليوم إلى طربه Tariba، وفي اليوم التالي إلى شيبام حيث استقبلت للمرة الثانية استقبالا حسنا.

إن عودتي إلى مكلا كانت عن طريق وادي بن على W.Bin Ali ذهبت إلى مصناط Mesanat، ومن هناك عن طريق عقبة الحرما Akabat Al Herma إلى الجول The Jol، ومرة أخرى من هنا عن طريق عقبة جروسا Akabat Gerosa، وأودوم Odym، وهنا شاهدت مباني قديمة، ولم أشاهد نقوش، ثم على امتداد وادي أودم Odym، وهو وادي زراعي خصب إلى صاح Sah؛ حيث عرفنا كثير من السير من الهموم Hamumis، وهؤلاء فرع من قبائل مرعي Mari، وقبائل

مرعي واحدة من قبائل يمين Yememi، وواصلنا السير في وادي أوديم حتى وصلنا، ونزلنا عند عقبة جبل الغوز Gebel El Ghoz، ومرة أخرى وصلنا إلى الـ The Jol، وهنا نجد نفس الصفات، ووصلنا عند جبل فجرا Figra، وهو عبارة عن سلسلة جبلية من أسماء كثيرة، وهنا واجهنا عدد من العقبات، وأخيراً بعد عملية نزول شاق ضللنا الطريق في أحد الأودية المسدودة.

وأخيراً خرجنا من هذه المشكلة ووصلنا إلى نجا Nega، وهي مدينة صغيرة كثيرة الزراعة، وهنا كان الحكمدار Jema-Dar يبحث عن الفحم في وادي ريان W. Riyan على عمق ١٣٠ قدم، وبالفعل تم الحصول على نوع من الفحم الرديء. والطريق من نجا إلى غيل با وزير Ghail Ba Vezir حوالي ساعة ونصف وسط أشجار النخيل في أرض يكسوها أنواع من النباتات، وتعطي إنتاجاً وفيراً من المحاصيل، والتبغ الذي يزرع هنا، مرتفع القيمة ومن الغيل Ghail في الصباح الباكر، وقضيت الليلة في وادي هرشيات Harshiyat، وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي وصلنا إلى مكلا، دخلتها عندما كان السلطان منصور يتخذ مجلسه، وخرجت منها على دقات طبول التحية، وتصحبني حاشيته حتى أصل إلى بجرن Bagren.

A ROUTE IN

HADRAMAUT

by L. Hirsch,

1893

Scale; 1:2,000,000.

Statute Miles

0 10 20 30 40

G. Philip & Son

الرحلـــة الخامســـة

رحلـــة إلـــى اليمـــن

الكاتبان: هوج سكوتي، إيفرارد ب. بريتون

المصدر: المجلة الجغرافية، فبراير ١٩٣٩م

ألقيت في أمسية الجمعية ١٢ ديسمبر ١٩٣٨م.

هذه المحاضرة تتناول رواية المتحف البريطاني -التاريخ الطبيعي- بعثة جنوب غرب الجزيرة العربية من أغسطس ١٩٣٧م إلى مارس ١٩٣٨م، والمنطقة التي تخضع للدراسة هي الطرف الجنوبي الغربي من شبه الجزيرة العربية؛ أي القسم الغربي من محمية عدن شمالها اليمن، وهذا ركن تناولته روايات حديثة جرت في الجمعية؛ سواء أرض شيبا Land Of Shiba التي تقع مباشرة جهة الشمال الشرق أو حضرموت.

وكان هدف البعثة الأول أن تقارن الحياة الجغرافية والنباتية؛ بالإضافة إلى الحشرات في مرتفعات جنوب غرب الجزيرة العربية بنظيرتها في مرتفعات الحبشة عبر البحر الأحمر، ففي عام ١٩٢٦-١٩٢٧م قمت برحلة استغرقت حوالي ستة أشهر في جنوب وسط الحبشة، وفي عام ١٩٣٥م كانت هناك بعثة حبشية أخرى؛ كان هدفها أن تزور جبال الحبشة الشمالية، ولكن لم يكتمل مشروع هذه المهمة بسبب قيام الحرب العالمية، عندئذ حولت اهتمامي إلى جنوب غرب الجزيرة العربية؛ حيث توجد هضبة مرتفعة، وسلاسل جبلية انفصلت جغرافيًا عن نظيراتها في الحبشة وإريتريا، وجرت المقارنة بين النباتات، والحيوانات الأكبر في هاتين الكتلتين المرتفعتين؛ حيث هناك مقابلة بين الحياة الحيوانية والنباتية الاستوائية مع هذه الشمالية، وإلي مدى قليل مع أنواع شرقية، وهناك أدلة على أن هذه المرتفعات ساعدت على انتشار كائنات معينة تجمعها خواص واحدة في هذه الأقاليم الكبيرة الثلاث، ولكن من خلال البحث في الحشرات، والحيوانات اللا فقرية على وجه العموم كانت في غالب الأحيان على أرض بكر، والضوء الذي تلقيه الدراسات على مشكلات الجغرافيا الحيوية Bio Geographical Problems سوف تظهر في العديد من آلاف الأنواع التي درسها الخبراء، وأن اهتمامي لن يركز على العمل العلمي؛ بل سوف ينصب على البلد نفسه على السكان، وعلى خبراتنا

الشخصية، ولسوف تكون هناك بعض الإشارات التاريخية والحضارية القديمة للأرض؛ حتى نجعل من الرواية موضوعًا مشوقًا.

لقد سافرت إلى عدن مع إفرارد ب. بريوتون Evererd B. Britton، وهو زميل في قسم الحشرات في المتحف البريطاني، ويعود الفضل الكبير إلى حماسته في كل الذي قمنا بجمعه، ومن عدن ضم فريقنا ثلاثة أشخاص صوماليين، كانوا في الأيام الأولى من تواجدنا في عدن معنا، واستمروا معنا على امتداد الرحلة، هؤلاء بالإضافة إلى قيامهم بأعمال الخدمة، كانوا مترجمين وتحولوا إلى أن أصبحوا هواة جمع ممتازين، وأن رغبتهم الشديدة وإحساسهم الفعال ساهما في نجاحنا، واعترف في هذا المقام بالمعاملة الودية من أهالي البلاد، على وجه الخصوص الجند والحرس القبلي الذين حصلنا عليهم من الزعماء، ومن الحكام العرب في الأقاليم التي كانت محل الدراسة.

إن الصحاري العربية لم تكن موضوع دراستنا، وأننا مجرد أن اجتزنا الحزام الساحلي للصحراء، وشبه الصحراوي للأقاليم المعروفة باسم تهامة Tihama؛ حتى نصل إلى هدفنا، نقصد الهضبة الكبيرة، والجبال التي تستقبل الأمطار الضعيفة التي تحمل معها الخصوبة، ولقد حددنا زمن رحلتنا بالدخول إلى هذه المرتفعات قبل نهاية الأمطار الصيفية؛ حتى نجني الفترة التي تليها مباشرة، وكان هذا نتيجة لخبرة اكتسبتها من خلال تواجدي في الحبشة، ولسوف تقوم روايتي والصور الفوتوجرافية التي أعرضها بإلقاء الضوء على هذه المرتفعات من أرض عرفت باسم بلاد العرب السعيد Arabia Felix، وبالتالي نستثني هذا الجزء بعيداً عن كل الظروف الصحراوية؛ رغم أنه لا يمكن أن نزعم بتحقيق اكتشافات جغرافية، فإننا سافرنا على أرض بلد يقع وسط مرتفعات اليمن عند عروض يزيد ارتفاعها عن ٩٠٠٠ قدم، وفي بعض الأحيان تصل إلى ١٠,٠٠٠ قدم،

ولا يعرفها إلا عدد قليل من الأوربيين وحفنة من البريطانيين الذين هم لا يزالون على قيد الحياة، وأن أقصى نقطة وصلناها جهة الشمال كانت على بعد ١٧ ميل شمال صنعاء، وأكثر من ٢٠٠ ميل عن عدن.

The Western Aden Protectorated

الجـزء الغربـي مـن محميـة عـدن

إن اليمن بلد مغلق، لا يدخله الأوربي إلا بتصريح من الحكام، ومضي بعض الوقت قبل أن نحصل على التصريح اللازم من الحاكم في عدن، وبالتالي قضينا أكثر من شهرين داخل المحمية، عدنا إلى عدن ثم بدأنا من جديد باستخدام طريق آخر، قبل أن نعبر الحدود اليمنية، وهذا لا يحتاج أن تعتذر عنه؛ لأن المرتفعات في الجزء الغربي من المحمية حصلنا منه على جزء كبير من الأشياء التي جمعناها، إن هذه المرتفعات وسكانها حياتهم هي حياة نفس سكان اليمن الجنوبي، والأمر يحتاج إلى سرد التفاصيل.

إن المنطقة التي وقع عليها الاختيار منطقة العميرية Amiri حول ضلة Dhala وضلة هذه تقع على بعد ٦٥ ميلاً شمال عدن، وعلى ارتفاع ٤٨٠٠ قدم فوق مستوي سطح البحر، والمنطقة المحيطة بها، خاصة الصدع الكبير في جبل جحاف J. Jibal يسرت لنا فرص إقامة المعسكرات، وفرص العمل في أماكن ترتفع عن سطح البحر أكثر من ٧٠٠٠ قدم، علاوة على ذلك فإن قبائل العميرية Amiris في ضلة Dhala الأب والابن عبروا عن ترحيبهم بالزوار البريطانيين، ونحن ندين بالمعاملة الحسنة لهؤلاء الرجال، الأمير ناصر بن شايف وابنه الأمير حيدر Haidara.

وبعد أسبوع في عدن انشغلنا في الاستعدادات في أجمل فترات موسم الصيف؛ حيث كانت الحرارة داخل المساكن تصل أحيانا إلى

١٠٠ ف وكاد الماء أن يتجمد في الصنبور، وانطلقنا إلى ضلة Dhala يوم ١٠ من سبتمبر، وكان الموكب يتألف من سيارة صغيرة، ولوري مربوط عليه الخيام والمعدات، ومؤن الطريق كان أملنا أن نقطع في اليوم الواحد تسعين ميلا بالسيارة، ولكن في حقيقة الأمر أن هذه المسافة احتاجت إلى يومين.

وأنني سوف أتناول الطريق بشكل عاجل، من نقطة انطلاقنا في خور مكسر Khor-Maksar فوق عنق سطح يربط شبه جزيرة عدن بالإقليم، وهناك طريق يؤدي إلى ضاحية الشيخ عثمان التي تبعد حوالي عشرة أميال عن عدن، وشمال هذه المنطقة توجد مراكز الشرطة، وتوجد حواجز علامة على مدخل سلطنة لحج، وهناك آثار طريق تؤدي إلى مدينة لحج عاصمة سلاطين العبدلية Abdali، وهي تقع على بعد مسافة ٢٧ ميل شمال عدن، والمدينة مساكنها جميلة وهي الأكثر حداثة بين مدن العرب، وهي مقر إقامة السلطان وأسرته، وهذه المساكن تختلف عن مساكن السوق Sups، ومساكن طبقة العامة.

وإلي الشمال من لحج يمتد طريق منبسط يسير في أرض خصبة مزروعة بالذرة بين فرعي وادي طيبان Tiban في الحسين توجد مجموعة من الإقاطاعيات الخصبة يمتلكها أفراد الأسرة الحاكمة، وهذه المزارع تنتج أنواع من المحاصيل الشرقية، وعلى جانبي الطريق أشجار الترمناليا Terminalia، ووراءها مجموعة من المزارع حيث الموز وحوله أشجار البيبوPaupaw(١)؛ بالإضافة إلى أشجار النخيل، وهنا تنتشر أشجار المانجو، ونخيل جوز الهند، والتفاح، والحمضيات، والرمان، وقصب السكر، والزهور، والخيزران، وبعد شهرين قضينا في هذا الموقع أسبوعين؛ حيث كان معسكرنا في منزل

---

(١) **البيو** : أشجار مثمرة ذات زهور وردية، المترجم (المورد).

شقيق السلطان، وأخذت أجمع الحشرات من حول الزهور البرية والمزروعة، وكانت حولنا حياة من أنواع الطيور في الواحات، آكل النحل الأخضر والبلشون الأبيض، اللقلق الأبيض، واللقلق الأسود.

وبعد ارتداد رملي قصير دخلنا عند منقطة تلال صخرية يفصلها عن بعضها شجريات قصيرة، وعلى امتداد رافد وادي بله W. Bilih آثار قادمة من وادي طيبان W. Tiban على الماء المتدفق إلى وادي حله W. Hilah، وهنا تكثر الجبال الصخرية، وقضينا الظهيرة حتى منتصف الليل في الحلة Alhilah؛ لإصلاح عطل السيارة اللوري، وهذا المكان في مساكن من الطوب اللبن ومن الحجارة (قضينا الليلة في واحد من هذه المساكن) ومساكن الأهالي عبارة عن أكواخ صغيرة من عيدان الحطب والقش، والقرية عليها سمات أصحاب الملكليات الصغيرة. إننا نخشى السير الآن؛ لأن السحب تتراكم فوق الجبال الداخلية، ويأتي الماء من الوديان، وفي اليوم التالي تذكرنا هذه الأحداث عندما مررنا على سيارة مهجورة أصابها الدمار بسبب الفيضان المفاجئ.

وقضينا اليوم الثاني من الرحلة نسير على أرض رملية تنتشر عليها الصخور على أرضية وادي حاردابا W. Hardaba بين جبال صخرية يزداد ارتفاعها، والمياه الجارية أخذت تغرينا بالتباطؤ أكثر من مرة نجمع الحشرات، هنا الفراش الأفريقي التي تطير بين أشجار الطرفاء، والشجيرات الصغيرة التي تقع عند حافة الوادي، وطائر أبو قرن يطير بين الأشجار، وهذه المرة أصاب محرك السيارة الصغيرة، عطل ويلزم أن تتركها هنا في طرف وادي حاردابا Hardaba، واستخدمنا السيارة اللوري بقية الرحلة، ومن عند رأس الوادي نزلنا إلى هضبة ضلة Dhala عن طريق ممر صخري هو ممر الخريبية Al Khureiba، وسرنا في طريق ممهد أقامه البريطانيون في الفترة بين

عامي ١٩٠٤ - ١٩٠٧م عند ترسيم الحدود ما بين المحمية البريطانية واليمن التركي، وبالتالي فإن رحلتنا إلى ضلة Dhala استغرقت خمسة وثلاثون ساعة، ولكن بعد شهرين كانت رحلة العودة إلى عدن في خمس ساعات.

شاهدنا منحدر هضبة ضلة Dhala في منتصف شهر سبتمبر تغطيها أنواع المحاصيل، وأهمها الذرة، وتظهر وسط هذه المشاهد تلال صخرية تغطيها أنواع من النباتات المقاومة للجفاف، ومن بينها أنواع الصبار، وهناك تلال أعلى فوقها قرى آهلة بالسكان، والهضبة في مجملها تحيطها جبال تقع عروضها ما بين ٦٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ قدم وهي ذات أشكال مختلفة حسب ألوان الصخور، وحسب نوع الغطاء النباتي السائد.

إن هذه المنطقة الريفية تحتوي على بقع غنية خصبة، وهناك صدوع صخرية ضيقة، وأفلاج حيث إن هذه الصدوع مصدر الظل معظم اليوم، وتجري بينها المياه التي تروي الأشجار الضخمة، وعلى سبيل المثال وادي دريجة W.Dareja، والذي يوجد على بعد عدة أميال شمال غرب ضلة Dhala على درب قديم لا تزال تسير فيه قوافل الإبل من وإلي عدن، ومن الممكن الوصول إليه عن طريق غابة تنتشر فيها أشجار الزيزفون، التي تشبه الزيتون، حتى إذا اقتربت منها تعرف أنها شوكية، وهناك بعض من أنواع التوت، ووراء هذه الغابة يوجد فلج حافتيه ينمو بها أشجار مساكن لقرود البابون، وهذه تشقها فلج مفاجئ، والفلج السفلي تصله عن طريق ممر زجزاجي؛ بالإضافة إلى وجود حافة صخرية وقاع الوادي تأتي إليه القوافل، وفي جانب يوجد ممر ضيق؛ حيث يجري الماء مندفعاً إلى بركة حولها أشجار التين، جذورها تمتد في أشكال وكأنها أفاعي وتتعمق في الصخور، وحول البحيرة أشكال من الشجيرات، ومن

النباتات، وتمتد هذه النباتات إلى المنحدرات حتى تصل إلى فلج سفلي.

تقع مدين ضلة Dhala التي ليس لها سور عند قاعدة صخرية منحدرة يعلوها قلعة العميرية Amiria هنا في القرى المحيطة بالمدينة مساكنها واسعة تشبه البرج عبارة عن طابقين أو ثلاث، وجدرانها تميل ميلاً خفيفًا إلى الداخل، هذه المساكن بنيت من كتل صخرية سوداء، أما الأبواب والشبابيك صبغت بالجير الأبيض، والطابق الأرضي من هذه المساكن عبارة عن مخازن وحظائر الحيوانات، والزائر يصعد إلى الطابق العلوي باستخدام سلم منحني في الصعود، وفي غالب الأحيان يكون مظلمًا لا يصله الضوء، وحجرات النوم والمعيشة في الطابق العلوي، وبعض المساكن مزخرفة من الخارج برؤوس أقواس مستديرة في شكل متناسق، وهي لا تختلف عن العمارة الرومانية، ولكن هنا لم أشاهد مسكن متقن الزخرفة في مدن اليمن، عدا أننا نرى مساكن بنفس الطراز؛ رغم اختلاف المواد المحلية المستخدمة في البناء على امتداد رحلتنا.

والمسجد في ضلة Dhala من المباني البسيطة زخارفه قليلة، أما المساجد في قرى التلال فهي أصغر في الحجم والمساحة بناؤها مربع الشكل، والسقف مسطح ويوجد برج بسيط في كل ركن، دون مآذن، وحولها سور.

وفي يوم ١٦ من سبتمبر رحلنا عن ضله Dhala؛ حيث أقمنا معسكرنا في جبل جحاف J. Jihaf على ارتفاع ٧١٠٠ قدم، حملت أدواتنا الحمير والإبل، ونحن سرنا وراءها فوق ظهور الخيل التي قدمها لنا الأمير، وبعد السير سبعة أميال في طريق جبلي لم نواجه أية صعوبة في أخاديد منحدرة من صخور عارية قرب القمة، وأخيراً اعتدنا على الركوب، أو النزول مدة ساعتين ونصف، مقابل ساعة ونصف قطعها

الأمير الصغير حيدرا Haidara قلعة الأمير الصغير، فوق الجبل (وهي تختلف عن القلعة في ضلة Dhala) أقيمت فوق أعلى جزء مخروطي منحدر، وعند قاعدتها استقبلنا الأمير حيدرا فوق جواده، وكان في صحبته ستة حراس من القبيلة مترجلين، وأخذنا إلى قلعته، وبعد استقبال طيب نزلنا من الجانب الأطول لتل القلعة، وأقمنا معسكرنا في مكان مستوي من الأرض، هذا المكان من ناحية جزء من جبانة مهجورة، وعند حوالي الساعة الرابعة بدأت أمطار رعدية مفزعة.

إن جبل جحاف J. Jihaf عندما تشاهده من الجانب الجنوبي الشرقي من ضحلة تجده صاف خال، ونفس المنظر عندما رأيناه من جهة الشمال الغربي؛ حيث ترتفع جدرانه شديدة التحدر إلى حوالي ٣٠٠٠ قدم من وادي طيبان Tiban، إنه جبل منفرد أقل من كتلة صخرية هائلة تمتد حوالي ١٥ ميلاً من جهة الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، وقمته تأخذ شكل سلطانية، مطوقة بتلال صخرية أحد هذه التلال جهة الشمال الشرقي، وهي أعلى نقطة ٧٨٠٠ قدم، وهذه الهضبة مزروعة، ورأيت مشربيات الحقول فوق هذا المنحدر في كل مكان ممكن، والعديد من القرى الصغيرة تنتشر فوق النتوءات الصخرية وفوق جوانب التلال، وعند القمة تشاهد شقا يلتوي إلى أسفل من جهة الطرف الشمالي الشرقي من الجبل، عليه مشربيات الواحدة فوق الأخرى، عليها تزرع الذرة، وتمتد هذه المزارع فوق الجوانب شديدة الانحدار إلى مسافة حوالي ١٠٠٠ قدم أو يزيد، وتشاهد سلسلة من منازل شبه القلاع تتوجها مصطبة، وفوقها مصطبة أخرى من هذه الحواف الغير منتظمة.

ولاحظت أن كل مكان غير خصب تغطية قطع صخرية ذات حواف حادة، وعلى امتداد المساحة تجد بقعًا من نبات الصبار، وشجيرات

شوكية، وأعشاب وبقع من الحشائش، ولاحظت أن هذا الموسم كانت هناك الكثير من الزهور والحشرات، وأن كثرة النباتات الشوكية والحجارة الحادة الأطراف جعلت السير عليها أمراً شديد الصعوبة، وجدير بالملاحظة أن هذه البقع التي لم تلفحها حرارة الشمس وتحتوي على نسبة رطوبة عالية في الجهة الشمالية الغربية شديدة التحدر، وقرب القمة، تنمو فيها النباتات الجبلية، منها النباتات الزاحفة ذات زهور على شكل الجرس، وغيرها من النباتات الزهرية الجميلة، وفي الأماكن الأقل ظلاً تنمو نباتات بدون ساق، وقد شاهدت مثل هذه الأنواع في أماكن أخرى من رحلتي ما بين عروض ٨٠٠٠ إلى ٩٠٠٠ قدم، وبين أنواع النباتات العادية في الأماكن الجرداء كانت الشجيرات الشوكية ذات الزهور التي على شكل البوق، وفي أماكن تجد نباتات عطرية الرائحة أرجوانية الألوان، وفي غيرها نباتات في لون الخوخ، ونباتات خبازية الفصيلة، ذات زهور قرمزية الألوان، وأوراق سميكة على رؤوسها زهور ما بين الأصفر والبرتقالي، وشجيرات تتسلق فوق غيرها من النباتات قد يصل ارتفاعها إلى حوالي ثمانية أقدام، والنوعين الأخيرين لا تظهر الزهور فيها إلا بعد نهاية موسم الأمطار.

إن وادي لج W. Lege الذي يقع في الجزء الجنوبي الغربي من الجبل شديد الانحدار، شديد الالتواء، عميق وضيق وظليل معظم النهار، وعند الجزء العلوي منه يوجد جدول ماء يأخذ ماؤه من روافد شلالات، ولاحظت أنه في الجزء العلوي من تدفق المياه أشجار الصفصاف مع مجموعات من أزهار الربيع ذات اللون الأصفر الفاتح، وكلما نزلت إلى الوادي تجده يميل نحو الضيق؛ حتى يصل إلى ٢٠ قدما، مع وجود منحدرات رأسية ويتوقف هذا الانحدار العمودي عند مئات الأقدام للأرضية، أعضاء الفريق المصاحب نزلوا إلى هذا المكان باستخدام حبل، والذي نجحوا فيه هو الاقتراب من صخرة صعب

الاقتراب منها، وللوصول إلى الجزء الأدنى والأوسع من الوادي، في يوم تالي احتاج الأمر إلى مجهود أكثر، انتهى بالنزول حوالي ٨٠٠ قدم للوقوف على صخرة شديدة التحدر تغطي أجزاء منها شجيرات ذات أوراق فضية اللون، مليئة بالزهور على شكل بوق، ولكن رأس الجزء الأدنى من الوادي، والذي على عمق ٥٦٠٠ قدم، تكثر فيه الشلالات التي تصب في الجزء الأدنى من المنحدر، وتنجذب إليها الطيور المغردة التي يزينها ريش تلمع عليه ألوان قوس قزح، تعطي وميضا في عينيك وهي تنتقل بين الشجيرات.

نحن الآن في نهاية شهر سبتمبر، وهنا رأيت رجال القبائل في الجبل -جبل جحاف J.Jihaf- مشغولين في جمع الذرة جماعات من العمال، يربطون الحزام حول الوسط، وهم يجمعون ثمار الذرة من العيدان، وصدى الصوت يملأ المكان بالغناء، وكأن الغناء يسير على نوتة موسيقية، وكان هذا أيضًا موسم حصاد القمح والشعير الذي يربط في حزم، ويوضع على صخره ملساء، ويضربون هذه الحزم باستخدام عصا معقوفة ثم يذري وذلك بوضع جزء من المحصول في إناء ويرتفع إلى مستوي فوق الرأس ويصب على الأرض يتعرض للهواء الذي يفصل التبن عن الحبوب في الهواء بعيداً، وبعد جمع الذرة تؤخذ العيدان، وتربط في حزم علفاً للماشية، أو أي استخدامات أخرى، ثم تبدأ عملية حرث الأرض باستخدام الثور والمحراث، وتسير النسوة العاملات في أعقاب الحرث وتقمن بعملية عزق الأرض بالمعول، أما عن الماء في جبل جحاف فهناك المئات من آبار المياه (يقال أن في الجبل مئات من الآبار) ويسيل الماء طوال اليوم يروي مناطق البصل، وغيره من المحاصيل، ويستخدم الثور في سحب المياه من البئر، وذلك عن طريق ربط الإناء الجلدي بحبل يجره الثور، وهو ينزل إلى مكان منخفض قليلاً وتتكرر هذه العملية ليتدفق الماء.

كانت هذه هي عمليات الزراعة التي شاهدتها، ولحسن حظنا أن شاهدنا أول عرض للزراعة في محمية عدن، ونتمنى أن يتكرر المشهد أمامنا، ولقد رأينا هذا في ضلة Dhala يوم ٢٤ سبتمبر، وهذا جانب من مشاهد أثناء زيارتنا لحاكم المنطقة، وصحب هذه المشاهد عرض عسكري لقوة الأمير مع الألعاب الرياضية، وجمع أيضًا عددًا كبيرًا من رجال القبيلة؛ مع وجود الحراس غير النظاميين يطلقون الأعيرة النارية في الهواء، مع رقصات قبائلية في الليل على ضوء النار.

وفي يوم ١٩ من أكتوبر تركنا جبل جحاف J. Jihaf، وأقمنا معسرنا بالقرب من المرياح Al-Muriah في وادي طيبان W. Tiban؛ حيث نزلنا من عند حافة جدار جبلي هائل، في منطقة استغرقت من رحلتنا شهرًا كاملاً، أكثر من ارتفاع ٣٠٠٠ قدم في هوة واسعة كبيرة وراءها ترتفع أشد متاريس مرتفعات اليمن مناعة، إن طريق القافلة تحت المنحدر الشمالي الغربي الشديد يواجه الجبل شديد التحدر في شكل زجزاجي، فيه منحدرات صخرية ذات أشكال برجية على الجانبين، ورغم هذه الصعوبة نجح في أحد عشر واحدًا من الإبل، وأربعة من الحمير؛ بالإضافة إلى عشرة رجال حمالين، كلهم يحملون أمتعتنا ومخزون طعامنا في السير فيه، ولكن خيول الأمير رفضت أن تحملنا واضطررنا أن ننزل سيرًا على الأقدام (لا تستطيع البغال أن تسير في هذه المنطقة؛ رغم أنه في مرتفعات اليمن الشمالية تستخدم على نطاق واسع في الركوب، ونقل الأمتعة) إن التأخر في إقامة معسكرنا، والأحمال التي حملتها الإبل على جبل جحاف J. Jihaf جعلتنا نتأخر عن الوصول إلى قاعدة الجبل عند الغسق، ولكن عندما عدونا مسرعين عند الفروع السفلية وقواعد التلال، وسرنا في طريق ملئ بالأعشاب الشوكية، ولحسن الحظ أن ضوء القمر كان ساطعًا قويًا، أخيرًا وصلنا عند قرية، وعندها قضينا الليلة.

كانـت المريـاح Al Muriah غير مريحـة إذا قارناها بجبل جحـاف J. Jihaf، إنه بدلاً من هذا الجو المنعش فوق قمة الجبل - حيث تكون متوسط بدرجة الحرارة ليلاً ما بين ٥ إلى ٥١ ومعدل درجة الحرارة في الخيام كان يصل أحيانا إلى ٩٠ - عانينا من الحرارة الشديدة ومن الرياح الشديدة المحملة بالرمال من جهة الجنوب الشرقي، والمناطق المجاورة أصبحت قفرًا وصخرية، وهناك أشتات من بقع تنمو فيها أشجار قصيرة، وشجريات كلها سقطت أوراقها، وتنمو هنا وهناك أشجار ضخمة الجذور منتفخة ارتفاعها لا يزيد عن ثمانية أقدام سقطت أوراقها، ولكن تزخرفها أزهار قرمزية؛ رغم كل هذه الظروف الظمآنة لم تنجُ من خطر بعوضة الملاريا، تصل إلينا من حفر رطبة، أرضية هذه الحفر خصبة، وفيها رقاع من الأعشاب والشجيرات، إن الملاريا منتشرة هنا، وأهالي القبائل هنا وجوههم تدل على اعتلال الصحة عن سكان الجبل، مساكنهم منخفضة ومظهرها رديء ولكن قرية المرياح Al-Muriah يوجد فيها مسجد منقوش بالجير الأبيض وله قبة، إنه منظر غريب في هذا المحيط، والمسجد على مسافة قصيرة، في هذا المسجد ضريح أحد أولياء الإسماعيلية، وهو ولي مشهور السمعة محليًا، وهذا الضريح يأتي إليه الزوار.

يقع المرياح عند نهر طوبان Tiban تقع في وادي تحيطه المنحدرات، وكانت المياه في شهر أكتوبر تجري في النهر سريعة وضحلة، على أرضية قاع صخري وضفتي النهر تغطيها الأعشاب الطويلة، وبالإضافة إلى النخيل والطرفاء، وغير ذلك، وقد حصلت منها على أشياء كثيرة جمعتها، ولكن لم نفلح في التعرف على ذبابة تسي تسي الإفريقية التي سجلت في أماكن خارج قارة أفريقيا؛ سواء من هذا المكان، أو من أماكن أخرى في جنوب شرق المحمية منذ ثلاثين عامًا مضت.

يوم ٢٣ من أكتوبر تحركنا ووصلنا عند بداية جبل حرير J. Harir رغم أن هذا الجبل يقع على مسافة عشرة أميال من ضحلة Dhalal في اتجاه شمالي شرقي، فإن الرحلة من مرياح Muriah كانت تزيد عن ٢٠ ميل على امتداد الوادي الكبير ، حول الطرف الشرقي من جبل جحاف J. Jihaf، وصاعداً في وادي ضيق في الجبال الشرقية، وفي الفجوة ما بين جبل جحاف J. Jihaf، وهذه المتاريس الشرقية كلها أرض وادي قفر صخري، وهو وادي طيبان W. Tiban، وطبيعة الأرض هنا صالحة لزراعة الذرة، والمكان الآن حرثه الفلاحون في وقت قريب، وهناك بقع من أشجار الإلب Ilb وتأخرنا بعض الوقت بسبب عمليات ربط وإعادة تحميل أمتعتنا على الإبل؛ بالإضافة إلى جدل وحوار بين الحرس من القبائل وبين أصحاب الإبل، ومن هنا تأخر رحيلنا، ولذلك قضينا الليلة، والرحلة في الظلام، ولم يساعدنا نور القمر، ولكن باستخدام الحمير استطاعت أن تحملنا في هدوء على أرض وعرة، وقضينا وقت النوم فوق سطح منزل منعزل لأحد الفلاحين، عند طرف الجبل، وكانت هناك بقرة تسند ظهرها على جدار السقف الذي ننام عليه، ووصل ركب المتاع في وقت متأخر، وسقطت أمطار خفيفة، واستدعى الأمر أن نحمي مكان نومنا من هذه الأمطار التي لم تسقط منذ أسابيع.

إن جبل حرير J. Harir وهو عبارة عن كتلة من الصخر الرملي، يختلف عن جبل جحاف J. Jihaf جوانبه شديدة الانحدار وقمته عبارة عن كتلة مسطحة واسعة الميل، والإبل لا تقدر على أن تنزل هذا المنحدر بالأثقال التي تحملها؛ حيث إن المنحدر يسير في أرض وعرة، ورغم هذا فإن قمة جبل حرير J. Harir التي ترتفع ما بين ٧٠٠٠ - ٧٩٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، يعيش في خيراته عدد كبير من الناس، المياه قليلة (وواجهنا بركة كبيرة حولها النباتات السرخسية وأشجار الصفصاف عند منحدر صخري)، والتربة الخصبة

الصالحة في حقول صغيرة تحيطها أسوار صخرية، وهناك بعض القرى الكبيرة من المساكن الحجرية العالية.

وبسبب مشقة ومشكلات التنقل قررنا أن نقيم المعسكر في قاع الوادي، وعلى مدى أسبوعين جرى عملنا على المنحدرات، وفي الأودية العميقة التي تنبثق من طرف الجبل، وحيث كان الماء يجري، والحياة النباتية وفيرة، ولمرتين صعدنا حوالي ٢٠٠٠ قدم من معسكرنا عند ٥٢٠٠ قدم إلى الحافة الغربية من القمة، بعدئذ سرنا بعكس هضبة الصخرة المنحدرة إلى الأعلى حتى القمة، ارتفاعها حوالي ٦٠٠ قدم، وفوق رأسها مسجد وضريح لأحد الأولياء، تصل إليه عند الحافة الشرقية، وبعدئذ من حافة صخرة ضخمة شديدة الانحدار شاهدت منظر لا يُنسى عبارة عن خليط من الحواف الجبلية، فوق إقليم حلمن Halmin نحو أعالي يافا Yafa، وهنا إقليم دخلناه بصعوبة جبل حرير J. Harir، يقع على هامشه الحدود الشرعية لأمير ضحلة Dahla، والقبائل وراءه لم تعرف بعد الأربعة الحراس من القبيلة الذين استمروا معنا طوال الأسابيع الستة الماضية، وصلت لهم تعزيزات جديدة مكونة من عشرة حراس بناءً على أوامر الأمير، من عقلاء القرى من الليالي وصلت جماعتان وتجادلا بصوت مرتفع، ولكن هذا الأمر لم يقلقنا، وعدنا إلى ضحلة Dhala انطلقنا على عدن Aden.

The Yemen

اليمـــن

توقف تصريح دخولنا اليمن بعض الوقت بعد عودتنا إلى عدن Aden، عندما تسلمت الحكومة موافقة الإمام على زيارتنا تعز Taizz عاصمة الجنوب، والدعوة لزيارة العاصمة صنعاء وصلتنا بعد وجودنا في تعز Taizz عدة أيام.

إن اليوم لا يزال غير معروف إلى حد ما، ووصفه أمر ضروري لأجل أن نقدم بقية الرواية بشكل متقن واضح، بالمعنى الحرفي تقع البلد "في جهة اليمين"، واليوم يحدد بأنه يقع ما بين دائرتي عرض ١٢ وحوالي ١٨ شمالا، وأقصى اتساع له من الشيخ سيد Sheikh Said على ساحل البحر الأحمر مقابل جزيرة بريم Perim إلى الحدود الجنوبية في عسير في المملكة العربية السعودية، تمتد حوالي ٣٠٠ ميل، وتقدر مساحته تقريباً حوالي ٧٤,٠٠٠ ميل٢ (تقريباً حوالي ٨/٥ من مساحة بريطانيا العظمى)، وسكانه ما بين ثلاثة ملايين ونصف إلى ما يزيد عن أربعة ملايين، حاكمها يتقلد وظيفة قديمة بصفته أمام Imam، أو زعيم روحي، لطائفة الزيدية الشيعية، ومعقلهم الكبير في الهضبة الكبرى، وضواحي الجبال حول صنعاء San-a وهو يتمتع، بعد انسحاب الأتراك بعد الحرب العالمية، بالسلطة الروحية والزمنية على كل البلاد، وفيهم أهل السنة من المدرسة الشافعية، وغيرها من القبائل والفرق، وسلطة الإمام تسير على هذه العناصر المتجانسة، ورغم ذلك فإن تأخر البلاد في عدد من النواحي، ودرجة تواجد السلم الداخلي والنظام تأثرت كثيراً بهذا النظام القائم.

رغم كل ذلك كان اليمن مركزاً لحضارة قديمة، امتدت تأثيراتها إلى ما وراء الحدود الحالية للدولة، وأنه من الضروري أن نكرس بعض الوقت للحديث عن هذا الموضوع، ذلك لأن عملنا الذي

نحن بصدده يأخذنا إلى مواقع معينة كانت مراكز لهذه الحضارة، وأن هناك من المدن القديمة ما استخدمناه قاعدة، وإنني أذكر على وجه التحديد حضارات معين Miaain، وسبأ Sabaa، وحمير Himyaritic والأخيرة من اسم حمير Hemyar، وهو الجد الأكبر لقطان Katan وهو المعروف تقليدياً باسم Joktan المذكور اسمه في الفصل العاشر من سفر التكوين Genesis بأنه الجد الأكبر لسام Sham، ففي الحوقة Huqqa شمال صنعاء آثار معبد الشمس، وفي مكان آخر بالقرب من المدينة العاصمة توجد بعض الأحجار التي تحمل نقوش وكتابات تعود إلى هذه الفترة، وقد استخدمها العرب في بناء مساكنهم، وهذه الأحجار صنعت بشكل جيد، وهي من نوع جيد من الحجر الجيري، أحضرها العرب من أماكن قريبة جهة الشمال، وهي أحجار واضحة متميزة للعيان عن قرب، وبياض لونها يختلف عن نوع الأحجار ذات اللون الأسود من صخور أخرى، وتم التعامل معها محلياً، ثم استخدمت في بنايات تالية، إن أفضل الأشياء التي اكتشفت وتعود إلى ما قبل الإسلام هي اليوم أساس المتحف الذي أعدته الحكومة في صنعاء.

دخلت اليهودية إلى البلاد خلال الفترة الأخيرة من دولة حمير، ويقال إن الملك الحميري تبنى هذه العقيدة في القرن الخامس الميلادي (انظر صـ ١١٩) وحتى يومنا هذا هناك عدد كبير من اليهود من سكان اليمن، ثم دخلت المسيحية، دخلت تقريباً في القرن الثالث أو القرن الرابع، وفرضها الأحباش بالقوة، بعد أن غزوا البلاد وأطاحوا بالأسرة الحميرية في مطلع القرن السادس، نقرأ في التاريخ عن نجران Nejran معقل المسيحية، وكان لها أسقف، ولكن لا توجد أية آثار مسيحية، والأوربيين هم المسيحيين الوحيدين في اليمن، ولا يسمح بشعائر مسيحية عمومية، وانتهت السيادة الحبشية في نهاية

القرن السادس بقدوم الغزو الفارسي، والحكم الفارسي نفسه راح قبل الغزو الإسلامي.

يعد ظهور فرقة الزيدية من بين التغيرات التي تعرضت لها اليمن مؤخراً، والاسم من زيد من نسل على صهر الرسول ﷺ، ومن بين معتقدات هذه الجماعة، ينبغي أن نؤكد أنها تختلف عن فرق الشيعة الأخرى في رؤيتها للأسباب التي تؤيد لعلى الخلافة، ولكن أسلوب الزيدية للإسلام عبر عن نفسه في كثير من النواحي، في التقاليد وفي العمارة وفي الفنون، وهذه لا تزال موجودة وحية، وهي تختلف عنها في أجزاء أخرى من الجزيرة العربية.

يعرف رئيس فرقة الزيدية باسم الإمام Imam منذ أيام الهادي يحيى، وهو الجيل الثامن من فاطمة وعلى -صهر الرسول ﷺ-، ومن هنا فإنه منذ بداية القرن العاشر الميلادي، خضعت السلطة الزمنية لتأثير أسرات شرقية، إمام تلو الآخر، أقام الأئمة الأوائل في مدينة صعدا Sada الشمالية، والأئمة الأخيرين هم اليوم في العاصمة صنعاء San-a، والإمامة الآن لا تقوم على الوراثة؛ رغم أن حاملها كان يقع عليه الاختيار من أسرة الأشراف Saiyids، والمرشح لابد أن تتوفر فيه شروط من بينها الخلو من العيب الجسدي.

كانت اليمن ولاية عثمانية، يعين عليها باشا تركي في صنعاء، منذ عام ١٥٣٨م، ثم مرة أخرى عام ١٨٧٢م حتى عام ١٩١٨م، والفترة الأخيرة من السيطرة التركية تركت بصماتها في هيئة منشآت حكومية كبيرة في صنعاء وفي أماكن أخرى؛ حيث كان بعض المسئولين السابقين في الجيش التركي، وغيرهم من الأتراك يلتقون في العاصمة.

خرجنا من عدن يوم ٨ من ديسمبر في رحلة إلى تعز Taizz امتدادها ١٣٠ ميل بالسيارة واللوري، حملنا خيامنا، وكان من بين

أهدافنا زيارة عين الماء الكبريتية في هومي Huwemi على الحدود مع المحمية، بعد هذا ولأول مرة في اليمن كان طريقنا مرسوم لنا، وفي كل مكان نذهب إلى استراحات حكومية مخصصة، أو إلى مساكن أخرى رتبت لها الحكومة.

ولأجل البحث عن هومي Huwemi عسكرنا مدة ليلتين في كرش Kirsh عند صخرة بارزة جرداء وسط أرض قفر واسعة تحيط بها الجبال، والمبنى الوحيد الذي على مدى البصر هو نقطة عسكرية تابعة لسلطان لحج Lahij؛ حيث قدم لنا حارساً، وفي هومي Huwemi نفسها، وهي على بعد عدة أميال؛ حيث عيون الماء الساخن عند منحدر قريب، على أرض فضاء واسعة تحيط بها نباتات كثيفة تختلف عن بعضها بوجود مزارع وأشجار نخيل (العروض هنا حوالي ٢٢٠٠٠ قدم) وحرارة الماء عند المصدر كانت ١٥٢ ف، وهذا أمر شديد الصعوبة على الحياة، ولكن على مسافة ١٠٠ يارده في الجدول شاهدت حشرات في الماء عند درجة حرارة ١٢٠فـ، وشاهدت حشرات أخرى في بركة على درجة حرارة ٩٤ فـ والمنطقة غنية بالأشياء التي جمعتها.

يوم العاشر من ديسمبر عبرنا الحدود اليمنية عند جزء ضيق من وادي نطد W. Natid، هنا يوجد برج حدودي حجري عند الحدود عند منحدر على الجهة اليسرى، نزلنا عند هضبة ومنطقة تلال، وعبرنا نهراً، وظهرت أمامنا تعز Taizz عند قاعدة جبل صابر Sabir.

تعز Taizz أجمل مدن اليمن، وكانت مركز عملياتنا على مدى ثلاثة أسابيع، وهي تقع على ارتفاع ٤٥٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، تقع عند أدنى جزء من المنحدر الشمالي لجبل عظيم يرتفع ٩٨٠٠ قدم، والأسوار القديمة تحيط المدينة من ثلاث جهات، وتقع نهايتها عند منحدر الجبل الذي يشكل المتراس الذي يحمي المدينة من ناحية الجنوب، وعند صخرة شديدة الانحدار منفصلة، يعلوها قلعة

تسيطر وتشرف على المدينة، ويمكن الدخول لهذه القلعة من بوابتين، واحدة عند الطرف النهائي من السور الشمالي والمآذن البيضاء لكل المساجد تعلو فوق كل المباني، وهذه المآذن تختلف عمارتها عن مساجد محمية عدن، وعن مساجد إب Ibb، ويارم Yarim، وعنها في صنعاء San-a مآذنها ذات خواص، الطبقات العليا متعددة الأضلاع، ويزخرفها مجموعة من المقرنصات، وفي هذه المدينة عرفنا بشكل عادي وجود منازل من طابقين وثلاث وأربعة طوابق، ونوافذها العليا لها مشربيات، والحجرات في الطوابق العليا جيدة الزخارف، وهناك دار ضيافة في وسط المدينة بناها العامل Amil (حاكم المدينة).

إن تعز اليوم أقل ازدهاراً عن عصرها السابق، عددها اليوم يقدر بحوالي ألف نسمة ومساحة واسعة داخل الأسوار والمساجد تشير إلى إهمال الصيانة والإصلاح، وهناك أضرحة صغيرة، ومساجد الأضرحة؛ رغم جمالها فإنها في غالب الأحيان متداعية، وهناك عدد من الحدائق التي تقع بين المباني؛ حيث يزرع الموز وأشجار البيو، وغيرها من الأشجار التي تزدهر رغم برودة الجو (ليلا سجلنا الحرارة ٤٥ درجة في يوم ١٤ من ديسمبر) والجداول بأعداد كبيرة، وكلها قادمة من جبل صابر J. Sabir، تجري داخل المدينة وبالقرب منها، ودخلت المياه إلى المدينة بصنع قنوات أسمنتية، وخزنت في خزانات، وكلها في الغالب تعود إلى عهد قديم في إنشائها، ولسوء الحظ أن المكان فيه وباء الملاريا، وفي ديسمبر تقل خطورتها؛ حيث شاهدنا عدداً قليلاً من البعوض، ولا توجد بعوضة الأنوفيلس، ولكن هذا لا يمنعنا من أخذ الاحتياطات، ولسوء حظ رفيقي أن تعرض للدغة الأنوفليس، وأصيب بالملاريا، وأخذت حالته تسوء في الطريق إلى صنعاء.

إن مدينة تعز الحالية تعود إلى عدة قرون، وعند المنحدر الشمالي من جبل صابر J. Sabir جهة الشرق توجد بقايا سور قديم، ولم يسمح لنا بدراسته عن قرب، وقرأنا فقط عبارة "تعز القديمة".

وكل جزء صالح للزراعة في جبل صابر عبارة عن مشربيات، ويزرع بالقات Qat يعتقد أن هذا النبات جاء من الحبشة، وممارسة مضغ أوراقه دمار على أهل هذا الإقليم من الجزيرة العربية، والمادة المخدرة التي يحتوي عليها النبات في بداية الأمر لها مفعول ولكن بعد أن يتعود عليها الجسم تصبح أمر عادي، ولكن في حالة الجرعة الكبيرة يكون لها مفعول المخدر الكحولي (الملحق P صـ ١٢١).

إن منحدرات جبل صابر تنتشر عليها الأبراج، وأشكال من الأبراج مربعة الشكل في رسم المنازل وفي واحدة من الفروع ارتفاعها حوالي ١٥٠٠ قدم فوق مستوي المدينة يظهر المبني الأبيض الذي هو مسكن الحاكم لليمن الجنوبي، أمير تعز الذي يوزع وقته ما بين هذا المقر العلوي - دار النصر-، والمقر السفلي في الأردي Al Urdi، والذي يقع على بعد ميل خارج المدينة، وقابلناه مرتين في المقر السفلي في الأردي، ومرتين في مبنى النصر، وهذا المبني العلوي ركبنا له بطريق زجزاجي على ظهور البغال، وفي صحبتنا جنود يرتدون قمصان بيضاء تصل حتى الركبة، وعلى الرأس عمامة، وهؤلاء المحاربين في الغالب لابد أن يكونوا على خلق، وهم رفاقنا في كل وقت، في كل رحلة من الآن فصاعداً.

الأمير سيد على بن الوزير كان رجلاً ذكيًا، كان ودودًا يكرر عبارات التحية والإجلال عند مفاتحة الكلام، ويرغب دائما أن يناقش آخر المستجدات السياسية التي تصله من الإذاعة، وكان يقضي وقتًا قصيراً في الكلام عن مهمتنا، وهذه عرضت على عامل Amil المدينة،

وبشأن مراقبة تحركاتنا كان الأمير يعمل بناءً على تعليمات من صنعاء.

كان محظوراً الوصول إلى الأجزاء العليا من جبل صابر، سوي أننا دخلنا اثنين من منحنيات الأودية في الواجهة الشمالية منه، الأقرب منها وادي ثاباد Thabad دخلنا أكثر من مرة في أعياد الميلاد، وكل جزئية من منحدراته هي مشربيات لزراعة القات، وتنتشر المباني في كل مكان، ونشاهد خليطًا من الزهور البرية البيضاء، في الغالب كانت مزهرة من قبل والنباتات المتسلقة، وزهور في لون الكريمة، وغير ذلك من الشجيرات، ومن الأشجار تغطي كل مكان قفر، والوادي الثاني وادي صابر، وهو مكان منعزل، وسكانه نوع من الأرانب البرية، وله جوانب صخرية متحدرة تغطيها الأعشاب، وهذه صعدناها إلى ارتفاع ٦٠٠٠ قدم.

بغض النظر عن الجبل فإن المنطقة حول تعز تتكون من حواف صخرية تنتشر فيها بقع من نبات الصبار، وهذه المناطق لم نجمع منها أي شيء في شهر ديسمبر، والبقع المزروعة فيها أجزاء خصبة مثل أوسيافيرا Usiafira، وهي تقع على مسافة ميل من المدينة، وهنا يرتفع برج قديم إلى جانب مبنى قديم عبارة عن جانب برج مربع قديم -عبارة عن خزان له جدران ممتلئ بالماء- وتُظلل جزء منه بعض الأشجار، وعلى مسافة قريبة توجد حقول البصل، والطماطم، والخردل، وغير ذلك من المحاصيل، وتنتشر الخضراوات، وأشكال من النباتات الزهرية في كل مكان قفر؛ حتى في قلب الفصل الجاف، يعج بالحشرات يظهر أصغرها والخامل منها بوجود أشكال من الفراش.

إن طلبنا بزيارة صنعاء قدمه الأمير إلى الأمام تلغرافيًا، وتم التصديق عليه، وعلينا أن نسافر براً عبر المرتفعات عن طريق أب

Ibb، ويارم Yarim، وذمار Dhamar والأيام الستة من الرحلة من يوم ٣٠ ديسمبر حتى يوم ٤ يناير، حملت ذكريات لا تنسي، انطلقنا من تعز بالسيارة مسافة حوالي ٢٢ ميل إلى سعياني Saiyani، هنا الأرض متدرجة ومليئة بالشجيرات العصارية، والأشجار الصبارية من كل نوع، تختلف فيما بينها في الأطوال، في سياني Saiyani نقلت أمتعتنا على ظهور الإبل، أما عند استخدامنا البغال مسافة حوالي عشرة أميال صعوداً في وادي مخرس Makhris بارتفاع حوالي ٨٠٠٠ قدم مروراً إلى أب Ibb، وسرنا في طريق جبلي ملتوي ممهد باستخدام كتل حجرية قديمة، وهذا الطريق يؤدي إلى مدرج جبلي تكثر فيه منحدرات المشربيات، وأغرانا على الوقوف وجود ثروة من أشكال النباتات، وجداول الماء المتدفقة، والأشجار العالية التي تذكرك بالأنواع الأفريقية، ونباتات زهرية باللونين البرتقالي والأصفر، وعند طرف الممر شاهدت أخاديد من الأرض تربتها حمراء، تقطعها جداول الماء، فيها بقع من النباتات الزهرية، وفي الجانب الآخر من الجندل جدول على جانبيه نباتات من الفصيلة الحوذانية، وأعشاب يواطنطية طويلة صفراء، صنعت شريطًا وسط منحدرات التربة، وعندما تطلعنا إلى هذا الوادي الواسع كانت نظرتنا الأولى عن إب Ibb أنها مدينة بيضاء، ولا تزال بعيدة، جاثمة فوق فرع من الجبل وظاهرة في ضوء الغسق عند المساء، وتغطيها غيوم كثيفة، وعندما اقتربنا في وقت شديد البرودة وشديد الظلمة قابلنا رجال الأمير حاملين المشاعل.

مدينة أب Ibb مدينة متميزة تقع على ارتفاع ٦٧٠٠ قدم عند فرع بارز جهة الشرق من جبل شماح J.Shemahe ويصل ارتفاع هذه المنطقة حوالي ٨٠٠٠ قدم، وإلي جانبها جبل بادان J. Badan، ومدينة أب Ibb تختلف عن تعز Taizz عدد سكانها أكبر، وفي الغالب فإن كل المنطقة داخل الأسوار القديمة تعج بالمباني، هي منازل عالية

يفصلها عن بعضها حواري ملتوية ضيقة، وهناك سوق مزدحم، والمساجد كثيرة، وقليل منها له مآذن، ولذلك فإنها لا تأخذ مظهر صنعاء في ارتفاع المآذن، وعندما تدخل المدينة والجدول الذي ينقل مياه الشرب داخلها من التلال الواقعة خارج الأسوار إلى جهة الشرق، وهنا يزاحمنا جمهور الناس لدرجة أن العساكر حراسنا يشقون الطريق أمامنا بالقوة، إما أن يدفعونهم بالعصي الطويلة، أو يرشقونهم بالتراب، في أول زيارة إلى الأمير سيد يحيى بن محمد شرحنا الغرض من مهمتنا، وحضرنا بعد ذلك صلوات يوم الجمعة، وعدنا من المسجد في صحبتنا كبار الرجال، وحملة البنادق على أقدامهم، وعند الباب كان استقباله من قبل زعماء المدينة يرتدون أحسن الملابس والأردية، والشال غطاء الكتف، والعمامات من كل الألوان.

في اليوم الأول من يناير ١٩٣٨م ركبنا البغال مسافة ٢٨ ميل، ووصلنا عند منزل سومارا Menzil Sumeara عند قاعدة ممر سومارا، ووصلنا عند مخاضر Makhadar نصف المسافة التي قطعناها، وحيث كنا نعجل السير لتقصير الوقت لجمع العينات عند العروض العليا، ومن أب Ibb كان الدرب ينزل بحده، ثم أدى بنا إلى منطقة متدرجة على امتداد وادي واسع بين حقول خصبة، وشاهدنا التلال الصخرية تغطيها نباتات صبارية وشجيرات قصيرة والعصافير الذهبية اللون تطير بين الأشجار، ولحسن حظنا أن شاهدنا سوق في نصف المسافة إلى مخاضر Makhadar، ويعرف باسم سوق السبت، ولقد رأينا هذا السوق المنطقة في أحسن صوره، وكانت الحركة مستمرة من أهالي القبائل ذاهبين وعائدين على الطرق، ووراء مخاضر Makhadar تحولنا جنوبا (أي اتجاه شرقي) على امتداد قاع وادي جاف ملتوي، تحيطه الأشجار المزهرة، وفيه حدائق ومزارع البن، وعند قمته وصلنا عند قرية جبلية هي منزل سمارا، على ارتفاع

٨٠٠٠ قدم، وهنا قضينا ليلتين في منزل العاقل The Aqil، ومعظم السلطة في يد والدته، وهي سيدة عجوز تدعي "جميلة"، وقد زخرفت جدران الحجرة التي جلسنا فيها بأشكال بدائية بسيطة، كانت الحجرة منخفضة رطبة خالية من الشبابيك، وكنا سعداء أن ننام خارجها على السقف للدور السفلي، وفي اليوم التالي قضيناه في جمع العينات عند نهاية الممر عند ارتفاع ٩٢٠٠ قدم، وهنا مشهد جبلي رائع في كل الاتجاهات بالقرب من منزل سومارا رقعة واسعة من قوس قزح مع أشكال من الزهور البيضاء تغطي مشهداً رائعاً في هذا الفصل، وقد زرع الناس الجذور عند قبور في أرض المقبرة، والغرض أن نزرع النباتات البرية الأخرى في مقابر القرية.

يوم ٣ من يناير بدأنا رحلة امتدادها ١٦ ميلا إلى يارم في صباح مبكر، حتى ننتهز كل فرصة لجمع العينات فوق الممر المرتفع، انطلقت قافلة الأمتعة في الساعة ٤,٣٠ صباحاً، وأعلن عن قيامها صوت الأجراس التي في رقاب الإبل، وكانت الظلمة لا تزال موجودة والنجوم لامعة، وسرنا وراء البغال في الساعة السادسة والنصف، وانفلق الصبح، وعندما أرسلت الشمس أشعتها على كتلة قاعدة جبل سومارا على ارتفاع ١٠,٠٠٠ قدم، وعلى امتداد الممر الملتوي نحو الشرق، على امتداد كتفي الجبل وراء الفرجة الضيقة، جاءت موجة من الهواء البارد الطيب التي تنفسناها.

كانت أعلى نقطة في الطريق على ارتفاع ٩٧٠٠ قدم، وكانت الحياة النباتية على الجبل جافة وذابلة بسبب الصقيع، أما الحشرات والمحار فلا تزال موجودة تحت الصخور، وتحت النباتات الملتفة الملتوية على بعضها، وبعد هذه النقطة نزل الركب إلى سهل عند ارتفاع حوالي ٩٠٠٠ قدم، والأرض هنا محروثة حديثًا ولونها أسود، ومنذ هذه اللحظة فصاعداً تركنا وراءنا أرض اليمن المخضوضرة،

ولم نعد نرى شيئًا ينافس البلاد التي تركناها حتى مضي شهرين لاحقا، عندما تركنا اليمن العليا بشكل ما فيها من أدوية خصبة تسير غربًا نحو البحر الأحمر.

استقبلنا عامل يارم بحفاوة في المبنى الحكومي "الحكومة"، وزارنا في هذا المساء بعض الرجال على درجة من التعليم، وأخذنا نسأل عن روايات الأقدمين في يارم، وعن وفاة الدكتور فور سكال Dr. Forskal عام ١٧٦٣م عالم النباتات وتلميذ لينيوس Linnaeus، وكان عضواً في فريق نيابور Neibuhr الكشفي، ولكن الزوار لم يسمعوا عن هذا الرجل، إذ عاش الرجل حياة طيبة في يارم، قد يصل عمره الثمانين عامًا، ولكن ليس هنا من أحد يتذكر ما حدث ما قبل مائة وخمسين عامًا.

في يوم الرابع من يناير رحلة الثمانين ميلاً بين يارم وصنعاء قطعناها بالسيارة في مدة أحد عشر ساعة، لقد أظهر السائق براعته في التعامل مع الطريق الصخري والأماكن الرملية، وضفاف قنوات الري الجافة التي تسير في طريق السير، وقد تحملنا وصبرنا، ومعنا الرجال الصوماليين الثلاثة، وأمتعتنا في صندوق سيارة فورد أرسلوها لنا، وتركنا الأمتعة الثقيلة تحملها الإبل في مدة أربعة أيام، وذلك تحت رعاية شاويش Shaush العساكر الذي كان في صحبتنا من تعز، والجزء الأكبر من رحلتنا هو هضبة بنية ارتفاعها ما بين ٨٠٠٠، ٩٠٠٠ قدم فوق مستوى البحر، والفقر البين كان سببه الموسم وأحواله؛ لأن معظم هذه الأرض صالحة للزراعة، وعن ملبس أهل المنطقة عبارة عن قميص من جلد الماعز بدون أكمام مع قطعة من الصوف، وكانوا مشغولين في الحرث الشتوي باستخدام الثور والإبل تجر المحراث، ولكن هذه التلال والجبال ترتفع فوق المستوي العام هي صخور بركانية، وتشكل كتلة أرض معتمة، وكانت توجد

خزانات مياه من الأسمنت يفصل بينها أجزاء من الأرض؛ حيث يتجمع الأهالي هنا، ومعهم إبلهم وحميرهم وبغالهم لتشرب، وكان بعض هؤلاء من الأهالي في منطقة زمار شبة عراه وكانوا مختلفين عن الأهالي من سكان التلال الواقعة في الصحراء شرق الطريق، زامار Zamar ليس لها سور، وتقع ما بين وهدين المسافة بينهما حوالي ميل، وفي جهة الشرق جبل هامام ألسي J. Hammam Alsi ارتفاعه حوالي ١٠,٠٠٠ قدم، وهنا تنبعث رائحة الكبريت من شقوق، أما جهة الشمال الشرقي منه يقع جبل الحيدرية Haidarlesi، وهنا توجد عين ماء حارة وحمامات.

شمال مدينة صغيرة هي المعبر Mabar يوجد طريق طويل ممتد يقطعه طريق سيارات جديد، وطريق القوافل عند ممر نقل إسلا Naqil Isla (حوالي ٩٦٠٠ قدم) بين مرتفعات جبل المرياط J. Al-Meriat من جهة الشرق وجبل جلال J. Jelal من جهة الغرب، وارتفاعها حوالي ١٠,٠٠٠ قدم إنه بسبب صلابة هذه الجبال نادراً أن تنتشر عليها النباتات من الشجيرات والنباتات القصيرة، نزلنا هذا الممر في يناير في الغسق والبرد، وكانت رحلة العودة في مارس؛ حيث توقفنا عدة ساعات في شمس الصباح نجمع العينات بين الشجيرات، وعند أطراف التلال، الطريق من نقل أسلا Naqil Isla ينزل الطريق، ثم يرتفع عند سهل صنعاء إلى ارتفاع ١٠٠٠ قدم أقل من الهضبة القريبة من يارم.

بعد استراحة قصيرة في الظلام وبعد مشادة كلامية مع الحارس عند باب الخوزمي Bab Al Khasemeh سمح لنا بدخول المدينة، ومنحنا الإقامة في مسكن حكومي صغير في حي بير العزب Bir Al Azab، ولم نخرج مدة ثلاثة أيام، وهذه عادة العرب في الكرم باستضافة الأوربي التي انتهت في مساء اليوم الثالث، وبعد ذلك

استضافنا الدكتور ب. و. بيتر وزوجته، وكلاهما طبيبان، وهما عضوين في جمعية مسيحية اسكتلندية، والبعثة في مدينة الشيخ عثمان (عدن)، وهما وابنهما والسيدة كوي Cowie ممرضة البعثة هما الوحيدون المقيمون في صنعاء، وبعد أن أخذني الدكتور بيتر في زيارات لازمة، أخذنا الإذن أن ننتقل إلى منزله الكائن في حديقة حولها سور في بير العزب، وأصبح هذا المكان قاعدة لنا فترة شهرين، ونحن ندين بالعرفان للدكتور وزوجته لحسن رعايتهما، وأصبح الطبيب بيتر من هواة جمع العينات، وكان يصحبنا في كل جولاتنا قدر استطاعته.

صنعاء أكبر مدينة في جنوب الجزيرة العربية، يقدر عدد سكانها ما بين ٤٠,٠٠٠ إلى ٥٠,٠٠٠ نسمة، وهي تقع فوق سهل ارتفاعه حوالي ٧٩٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، والمدينة تمتد حوالي ميلين ونصف في اتجاه شرقي جنوبي من جهة الغرب، وهي قسمين يربط بينهما حزام ضيق، والرسم التوضيحي للمدينة يشبه هذا الفاصل العدد ثمانية (٨) جهة الشرق تقع المدينة العربية القديمة، أسوارها القديمة مدعومة بعدد من الحصون شبه دائرية، ولها بوابة جنوبية، وأخرى شرقية يربط بينهما أبراج مستديرة، والبوابات تؤدي إلى خارج المدينة، وعند الطرف الشرقي توجد بوابة تدخل منها إلى القلعة، قلعة القصر Al Qasr التي تقع فوق جزء من جبل نوكوم J. Nuqum، وهناك بوابة أخرى تؤدي إلى خارج المدينة، والبوابة الأخيرة القديمة بابها باب الصباح Bab As Sabah جهة الغرب، وهذه البوابة ليس لها وجود، والاسم عرفت به بوابة حديثة لها صلة بالقسم الغربي، وهناك بوابتان شمال وجنوب في السور الخارجي من الحزام الضيق تربط بين القسمين.

القسم الغربي يغطي مساحة قد تكون أكبر من مساحة المدينة العربية، وهو محاط بأسوار، وفيه حصون على مسافات أوسع عن الموجودة في صنعاء القديمة، وفيها ثلاث بوابات، والمدينة في مجملها من الممكن الدخول إليها نهاراً من سبع أو ثمان نقاط إذا أضفنا القلعة، والقسم الغربي يتألف من حديقة في حي بيير العزب، ولكن في الطرف الغربي يوجد حي اليهود يفصله عن بير العزب سور عليه بوابة عليها برج، وعند الطرف الغربي يقع حي اليهود Ka'a-al Yahud، وهذا الحي ينفصل عن بير العزب بسور تنفذ له ببوابة، والبوابة مجهزة ببرج وحجرة للحراس، ومن هنا فإن صنعاء تعرف بأنها عبارة عن ثلاثة أجزاء، رغم أن الرسم الأرضي يفيد أنها جزأين، والضواحي التي يوجد بها قصر الإمام المتوكل، تقع مباشرة غرب المدينة العربية، في هذا الجزء الأوسط الضيق الذي يربطها مع باب العزب، وهذه تقع داخل سور خاص بها، وهناك عدد من المساكن، وعدد من المباني تنتشر الثكنات خارج هذا السور على وجه الخصوص، بالإضافة إلى عدد من المباني التركية التي تعود إلى القرن التاسع عشر جنوب المدينة العربية خارج باب اليمن.

إن الآثار الباقية عن حصن يعود إلى ما قبل الإسلام (الدولة السبئية)، والمعروف باسم جومدان Gomdan يعتقد أنها تقع تحت القلعة الحالية، وتحت جزء من المدينة العربية، وصنعاء نفسها لم تظهر إلى الصدارة في الأهمية حتى القرون الأولى من العصر المسيحي، وذلك بعد انهيار سد مأرب أي بعد انهيار السد المشهور مباشرة، ولقد مر التاريخ التالي لصنعاء بعدد من المراحل ما بين الدمار وإعادة البناء، ومن هنا فإن معظم ما نراه اليوم يعود تاريخه إلى الأربعة أو الخمسة قرون الماضية.

إن صنعاء القديمة، في فترات انتظارنا ما بين جولات جمع العينات؛ حيث دخلنا في غالب الأحيان كل جزء من المنطقة داخل الأسوار التي تأثرت بعوامل التعرية، والتي بنيت من الطوب اللبن، وحيث توجد قناة ماء يعلوها جسر من الحجر لا يستخدم إلا وقت الفيضان، وشرق هذا يوجد منطقة فضاء بسيطة، ومعظم الأرض تشغلها مباني شاهقة ومساكن، وعدد صغير من الحدائق، وكلها داخل أسوار عالية، والحواري الضيقة الغير ممهدة تشكل متاهة عبارة عن التواءات شديدة، في غالب الأحيان هذه الالتواءات في زاوية جهة اليمين، وفي غالب الأحيان هي عبارة عن زقاق مغلقة، وهنا يشاهد المكتشف أشكالاً هندسية غربية، وعلى خلاف المساكن الحجرية التي شاهدناها في القرى الجبلية، فإن هذه المساكن بنيت بالحجارة فقط عند الأدوار السفلي، والأدوار العليا بنيت من الطوب اللبن المحلي - هذا الطوب يجفف في الشمس ثم يحرق- والمادة يصنع منها هذا الطوب من رواسب الرياح التي تشكل سهل صنعاء، وهذه المساكن تدل على ثراء في وجود زخارف بارزة، وقد استخدمت مادة النقش باللون الأبيض بشكل منتظم يبرز اللون عن اللونين الأحمر والبني في الطوب المستعمل، والسوق في وسط المدينة يتألف من عدد من المحلات ذات طابق واحد، أما عن دور السكن فإنها تتألف من ثلاثة أو أربعة طوابق أو يزيد، ولكن في الغالب تظهر أقل عندما تشاهد الشبابيك من الخارج، أما عن الحجرات العليا المضاءة، فتدخلها من دهليز مظلم، وعدد من درجات السلم، وفي غالب الأحيان هذه المساكن فيها شبابيك عددها أقل، ليس لها زجاج ومزودة بمزالج لأحكام إغلاقها؛ مثل هذه التي على الأرض، ثم تجد مجموعة من الشبابيك ذات الزجاج تأخذ شكل القوس، مزودة بعدد من المشربيات بأشكال مختلفة ومزودة بالزجاج، وبعض هذه الشبابيك ذات المشربيات قد تكون مزدوجة، فيها مجموعتين من المشربيات، بأشكال مختلفة أحدها يبرز

عن الآخر، وفي حالة وجود أشكال بارزة على الجدران وهذه تكون عبارة عن مجموعة من المقرنصات والأقواس الصغيرة، وهنا أنواع جيدة من السجاد، تجعل هذه الحجرات جميلة، تذكرنا بالعمارة في نهاية عصر القوط، وتخلق نوع من الجدل حول التفاعل بين العمارة الأوربية والعمارة الشرقية في العصور الوسطي، وأن عملية بناء هذه المساكن المزخرفة لا تخرج عن أنها فن حي يتسم بالتقدم، تقابل الحرفيين اليهود في الشوارع وهم يصنعون هذه الشبابيك من الجص، ولم يستخدم الزجاج لها بعد، والأبواب مزخرفة بمسامير، وطوارق على الأبواب من كل الأشكال، وغير ذلك من التفاصيل التي يصعب سردها، ومقابل هذه الرحابة والجمال لا ننسى الحديث عن ترتيبات الصرف الصحي البسيطة للمنازل؛ حيث يسير الصرف الصحي في قنوات نحو الأسوار الخارجية.

في صنعاء حوالي أربعين مسجداً، وكلها تقريباً في الحي القديم، وإذا نظرت إلى المدينة من الخارج؛ خاصة من طرف جبل نوقوم J. Nuqum تجد ما يزيد عن عشرين مئذنة، عدد منها في زخارف ثرية مع أشكال بارزة، وهذه الزخارف باللون الأبيض مقابل أرضية من الطوب الأسود اللون، ويختلف الأمر بين المساجد، وقاعدة المئذنة مربعة، وكل مئذنة إما أن تكون دائرية، أو أن تكون مزدوجة حتى تصل إلى بهو بارز، فوق هذا البهو ما بين ستة إلى ثمانية قباب صغيرة؛ رغم أن دخول هذه المساجد محرم على غير المسلمين، هناك عدد من المساجد بعيد عن المباني الأخرى، سقوفها المقببة وجمالها وتنوعها لا يمكن أن يوصف، نذكر على سبيل المثال مسجد صلاح الدين؛ حيث المئذنة يعلوها ديك بدلا من الهلال، وهذه تعد من أقدم المآذن، وهناك نماذج أخرى منها مسجد البيك The Bakilye، ويعود إلى الأتراك في القرن السادس عشر أو مطلع القرن السابع عشر، والجامع الكبير Jami–Al– Kabir (يصلى فيه شعائر الجمعة)؛ رغم

أنه صغير وله مئذنتان كبيرتان، فإن له فناء واسع يتوسطه بناء مكعب الشكل يشبه الكعبة المشرفة في مكة، إن آثار مبني يعود إلى ما قبل الإسلام من الممكن أن تكون دخلت في بناء هذا المسجد، ويعتقد أن المسجد بُني على أنقاض كنيسة بناها الغزاة الأحباش في القرن السادس، ولكن حسب رأي كل من رتجنز Rathjens، وفون وسمان Von Wissmann، فإن مخطط الجامع الكبير الذي لا يختلف عن غيره من المساجد في العصر الإسلامي المبكر، تظهر إشارات لاقتباس من معابد الشمس التي كشفت عنها الحفريات في الحقة Huqqa، هناك عشرة أبواب مستخدمة، فإن هذا المسجد الكبير فيها بابين كبيرين؛ أحدهم قرب الطرف الشمالي الغربي من السور، وعلى جانبي هذين البابين يوجد حجر عليه نقوش تأثرت بعوامل التعرية، عبارة عن طيور وزهور، ولا نعرف على وجه التحديد أن هذه الحجارة تعود إلى عصر ما قبل الإسلام في مباني قديمة، وعلى أية حال فإن رسوم الطيور، والأسماك، والنباتات تظهر في النقوش الداخلية والخارجية لهذه المباني أنها قديمة، وفي نفس الوقت جديدة، في عدد من الأماكن التي زرناها.

مهما كتبنا من التفاصيل فإنها لن تعطي الانطباع الذي أهدف له عن صنعاء القديمة، إن الصور تظل عالقة في الذهن ككل، وكأنك تراها عن قرب؛ حيث اختفت كل المناظر القذرة، خاصة مشاهير من فوق سطح المنزل في بير العزب، في أمسية سحابية، فيها تصبح التفاصيل الصعبة سهلة واضحة، والمدينة العربية القديمة مع جبل نوقوم Nuqum تشكل منظراً رائعاً.

وعلى عكس صنعاء القديمة ببير العزب -في الركن الغربي- تقارن بما فيها من بيوت كثيرة تقف منعزلة داخل حدائق كبيرة ذات سور، والجزء الغربي يتكون من سوق حدائق مع قليل من المباني،

وكل ما هو حول المنازل لابد أن يكون مزروعًا، وليس شرطا أن يزرعها أصحابها؛ بل في العادة يقوم بالزراعة مزارعون متخصصون، وهذه الحدائق التي داخل السور يزرع فيها الغصصة، والجزر، والبصل، وغير ذلك من المحاصيل؛ بالإضافة لأشجار الفاكهة، وفي باب العزب شارعين كبيرين يبدآن من باب الصباح، والشارعين يربطانها بالمدينة العربية من جهة الشرق، ويسير الشارعين نحو البوابات الشمالية والجنوبية الغربية، والباقي عبارة عن عدد من الحارات توجد فيها أماكن خالية جرداء، وتستخدم هذه المناطق الخلاء أرضًا للعرض أمام باب الصباح، والمساكن إما على الطراز العربي أو الطراز التركي، والأخير أكثر، ومن الميراث التركي أيضًا أشجار السرو، وهناك واحدة من هذه الأماكن الخالية استغلت في الزراعة، وهذه المزارع مستعمرة تعيش فيها الخفافيش، والخفافيش الطيارة، حصلنا على عينات منها من الدكتور أمليو دوبيوس Dr. Emilio Doppiosi طبيب الإمام، ونسجل هنا تقديرنا لكرمه.

عندما أخذنا الدكتور بيتر Peter لزيارة عامل صنعاء السيد حسين عبد القادر، وهو عمدة أو حاكم العاصمة استقبلنا في حديقة منزله في بير العزب، وهنا جلسنا وتناولنا القهوة وأخذ الرجل يشرح لنا معنى مسمى بير العزب، وأن الاسم يعني غير المتزوج، وأنه يأتي إليه السكان من كل صوب -وهناك تفسير آخر أن الاسم يعني بئر ماء حلوة- وأنه يغريني أن آخذ بالتفسير أن الاسم يعني بير الأزل Bir Al Azal؛ بمعني المدينة الأزلية القديمة ونقصد صنعاء، وهذا الاسم يتطابق مع الاسم الوارد في سفر التكوين "أزل Uzal" (الفصل العاشر)، وهو ابن جوكتان Joktan (قطحان) سليل سام؛ مهما يكن أصل الاسم، فإن بير العزب حي تحصل منه صنعاء على معظم ما تحتاج من مياه، ويقع بين حدائقه وبين مزارعة عدد كبير من آبار

المياه، اتساعها حوالي ١٥ قدم، وعمقه يصل إلى ٦٠ قدم، والماء هنا لا ينقطع الحصول عليه بواسطة الحيوانات؛ حيث يربط الإناء الذي يملأ بالماء من البئر، وتقوم الدابة بجره نزولاً من على منحدر، والمنحدر قد يحفر بعمق في الأرض، أو قد يبني عند فتحة البئر، وتستخدم الإبل والحمير والثيران؛ سواء كانت فردية أو زوجية باستخدام النير، وفي كثير من الأحيان يستخدم أكثر من حيوان في صف واحد في جر أواني الماء من البئر الذي يصب في خزان يقع بجانب فتحة البئر، وتبدأ عملية تخزين الماء منذ الفجر حتى المساء، أو على ضوء القمر ليلاً، مع فترات توقف قصيرة يقوم خلالها الصبية بتقديم العلف للحيوانات من الجزر أو غير ذلك، ويتزامن صوت الأداة الخشبية مع أصوات النورس مع غناء الصبيان، وهذه أمور عادية في بير العزب، وهذه الأصوات تدخل البهجة، ولم أكن أصدق أن أنسى ذكريات هذه الأصوات.

في حي اليهود الذي يقع في الطرف الغربي من المدينة المنازل من طابقين، وزخارفها الخارجية قليلة، والمشربيات التي في الشبابيك العربية يحل محلها فتحة مستديرة مغطاة بطبقة من المرمر، ولم يحرم اليهود من بناء معبد لهم، وأماكن العبادة لليهود منخفضة وبسيطة؛ حتى أنه من الصعب أن تتعرف عليها دون أن تسمع أصوات القداس، دخلنا واحداً من معابد اليهود، وهو عبارة عن حجرة صغيرة تدخلها بعد أن تجتاز فناء صغير، وفتح أمامي دولاب؛ حيث شاهدت بعض الأشياء التي يغطيها قطعة من قماش الحرير المطرز، وكشفوا لنا عنها؛ حيث وجدنا أنها صناديق طويلة جزء منها مضلع في ألوان زاهية، وكل صندوق منها يحتوي على رقاع مكتوب عليها الأناجيل، وكل واحدة مربوطة من طرفها حول عود طرفه تغطية قطعة فضية مزخرفة.

إن اليهود في جنوب غرب الجزيرة العربية الذين قابلناهم في مدينة وقرية قريبة من ضلة Dhala يختلفون في ملامح الوجه عن غيرهم من رجال قبائل الجزيرة، غني عن الذكر ضفائر الشعر الطويل الذي يتدلى على الجانبين من الوجه، وترتدي النسوة ملابس مختلفة، ويهود صنعاء تعرفهم بشكل أوضح عن يهود المناطق المجاورة لها، وهم حرفيون يسيطرون على الحرف الأساسية، مثل الصناعات الفضية المعقدة في صنعاء، وكذلك خيوط التطريز من الفضة، وبعض البيوت اليهودية في صنعاء كانت نظيفة، ولكن هذا لا يعرف عن يهود الأحياء في القرى والمدن والمجاورة.

وحتى يتسع الحديث عن العادات وعن عرف الناس فإنه لا مجال للحديث عنه، ولكن لابد أن نتحدث ولو قليلاً عن "العيد الكبير Great Iid" حضرت هذا العيد عام ١٩٣٨م، يتوافق زمنيا مع موسم الحج في مكة، ويستمر مدة أسبوع في شهر فبراير، يظهر أهل المدينة في ملابس جديدة، يرتدون قمصان طويلة، وشال يتدلى على الكتفين من وعمائم من كل لون، وطاقية مزخرفة بخيوط من الفضة وحزام، وفي اليوم الأخير من العيد، وكان يوافق يوم الثلاثاء العاشر من فبراير، جاء الإمام في موكب حتى يؤم الصلاة في المشهد Mashaed، والمشهد عبارة عن مسجد كبير واسع له جدران عالية وليس له سقف، وهو يقع خارج المدينة العربية في جهة الشمال الشرقي، ويستخدم سنوياً لأجل هذا الغرض، والطريق من باب الشيد جاف Bab As Shegadf، يلاحق القصر حتى المشهد، كان على الصفين جنود مشاة، وفرق تلعب ألعاباً للتسلية والعروض، وكان يتقدم الموكب جنود، ولكن الإمام كان يتقدمه بعض الحراس حاملين الخناجر، ويأتي الملك راكباً عربة مزخرفة، وقد اعتاد أن يسير بها داخل المدينة، وهذه العربة يجرها زوجين من الخيول، ويسير رجل إلى جانب الخيول، ويحمل في يده شمسية كبيرة مساحتها حوالي ثمانية

أقدام، في لونين البرتقالي والأبيض، ويقوم الرجل بألعاب بهذه الشمسية، ثم بعد ذلك يأتي موكب الجنود، وعددهم حوالي ألف، ثم فرق من طلبة المدارس يرتدون ملابس جديدة، وطواقي مزخرفة وأحزمة، ثم الأطفال اليتامى من المدارس حيث يتلقون تعليم مجاني في نفقة الحكومة، وكل فرقة كانت تسير رافعة العلم الوطني، وهو عبارة عن السيف الأبيض وخمسة نجوم لامعة، على أرضية قرمزية اللون.

وبعد هذا يقف الإمام يستقبل جمهوره، وبعد يومين يستدعي الرجال الأوربيين في صنعاء لمقابلة خاصة في الساعة التاسعة، كان عددنا سبعة عشر رجلاً من أربعة جنسيات، صعدنا سلم ملتوي واسع ثم دخلنا دهليز في الجزء الأسفل من القصر، وهذا المكان منفصل عن المبنى ذو الطوابق الستة، جلسنا على كراسي حول جوانب القاعة المزخرفة، في طرف هذه القاعة مقعد الإمام، وهو مقعد عليه نقوش، ويجلس إلى جانبه رئيس وزرائه عند الباب، وكانت الإجراءات محددة بالمجاملة وقليل من إشارات الترحيب من جانب الإمام.

وكانت مقابلتنا الخاصة في الساعة الرابعة مساءً، في اليوم التالي في المقام الشريف The Maqam Sharif وهي حجرة صغيرة، طويلة وضيقة، تفتح على الدهليز المذكور سابقًا، وكان استقبالنا بالشكل العادي للبلاد، وخلعنا النعال، ونضع غطاء الرأس من الجلد يعرفه الناس هنا باسم كالبكس Kalpaks، ويرتديه الأوربيون، وجلسنا في مكان مقابل مقعد الإمام، والإمام هنا لم يلبس الرداء الأبيض المطرز الذي يلبسه في العيد، ولكن يرتدي جلباباً أبيض مقلم، وسيف معلق على الحائط، يحمله في المناسبات فقط، ورغم أن الإمام ليس طويلاً، وهو الإمام يحيى Yahya، وهو في شخصه لم يكن لشخصيته تأثير على الحاضرين الزوار، كان جاداً في عمله، وهو اليوم عمره سبعين

عامًا، ولا يزال يجتهد في عمله، ويقوم شخصيًا بالإشراف على أبسط الأمور، وكان يجلس على يمينه رئيس وزراءه، وإلى جانبه مجموعة من الأوراق مختلفة الأحجام والأشكال، كان الإمام يطلع عليها ويوقعها في عجالة، ويلقي بها إلى جانبه ليتلقاها مجموعة من الكتبة يجلسون على الأرض في وسط الحجرة، يقوم هؤلاء الكتبة بالتصديق على هذه الوثائق بالأختام من كل نوع؛ منها أختام مستديرة وأخرى مربعة، وكان بعضها يختم باللون الأسود وأخرى باللون الأحمر، وتحدث عملية تشميع هذه المكاتبات، وتفسير هذه العادات أنها تمثل رمزًا لخلافة الإمام على العرش لأمراء الحميرية، وكان علمهم باللون الأحمر، وكان الإمام في بعض الأحيان يتوقف عن العمل، ويوجه إلينا أسئلة حول هدفنا من الزيارة، وعن الفائدة من وراء عملنا في بلاده، وكان يسأل عن العينات التي نجمعها، وعن الأجهزة التي معنا، وهنا في هذا المقام عرضنا عليه الصعوبات التي كانت تواجهنا حتى تكون معروفة لديه، وحاولنا شد اهتمامه إلى هذه الفوائد الحقيقة التي وراء العمل العلمي، وهذا جرنا إلى الكلام عن الحجر الناري الذي يشفي من لدغة الأفعي، وكان الإمام يعود إلى عمله، ولقد حذرني وزير خارجيته -الذي كان يقوم بالترجمة- أن أكون سريعًا في التعبير عن العرفان والشكر، وأن تكون مطالبي محددة.

وفي هذا المقام أوجه تقديري وشكري إلى الوزيرين المذكورين، رئيس الوزراء القاضي عبد الله العميري، وهو رجل عربي له حضور شخصي، يعبر عن تقديره واهتمامه، بتاريخ وسيرة بلاده، والذي استقبلنا عدة مرات في منزله ليناقش الترتيبات، وهذه الزيارات حدثت في الساعة الثامنة صباحًا أو مبكرًا؛ لأن الوزير يعمل بجد؛ حيث إن سيده يحضر إلى القصر مبكرًا، ووزير الخارجية القاضي محمد رجب -هو تركي، وعضو سابق هيئة الدبلوماسية التركية-

يتحدث الفرنسية بلباقة، ومن هنا فإن اللغة لم تمثل عقبة في قيام الصداقة والمودة بيننا.

لقد انتهي أشد أوقات الشتاء برودة، ولم يعد هناك صقيع عندما وصلنا إلى صنعاء، وكانت أدنى درجة حرارة سجلت ما بين ٤ يناير و٨ مارس بلغت ٣٣ ف درجة في الأيام الصافية من فصل جاف، تصبح الحرارة أعلى، وتحدث في بعض الأحيان أمطار رعدية بعد الظهر، وفي يوم ١٩ يناير عندما فاجأنا صباح معتم السحب، خلفته أمطار بعض الظهر، وهذه أول أمطار حقيقية قابلناها منذ يوم جميل في تعز يوم ١٥ من ديسمبر وتتناوب أشكال الربيع وراء بعضها سريعة، وفي الحدائق شاهدت أشجار البرقوق، وسقطت أوراقها، وكانت مزهرة في نهاية شهر يناير وكاملة الأوراق، تثمر بعد مضي شهر، وأشجار التين نبتت أوراقها صغيرة في أول فبراير، أما الرمان واللوز فكانا على وشك الإثمار، أما عن أشجار الجوز فكانت عارية الأوراق في مطلع مارس، وفي هذه الظروف اشتغلنا وانتهزنا كل فرصة، حتى داخل أسوار بير العزب؛ حيث يوجد جدول صغير تحفه أشجار الصفصاف التي ترويها الحقول، وكان القمح لا يزال أخضر في أواخر فبراير، وكانت الأراضي المحيطة بصنعاء محروثة؛ عدا المزروع والمروي منها، وكان الحراث الذي يحرث الأرض يتبعه ثلاثة رجال حاملين معاول حديد ثقيلة، أحد الرجال الثلاثة يستخدم هذا المعول من خلال يد خشبية طويلة، والآخران يقومان بسحبه عن طريق حبل مربوط في اليد الخشبية، والمعول يرتفع بين الحين والحين، ثم يغرس في الأرض ويجر من خلال الحبل، وذلك لأجل تقسيم الأرض إلى خطوط.

وخلال اليوم زرنا أماكن كثيرة من هذه التي لا تحتاج إلى تصريح؛ مثل الأودية في بيت بوس Bait Baus، العصر Alaasr ووادي

ضهر W. Dhar في التلال الصخرية الجرداء إلى الجنوب، والقرى بالشمال الغربي؛ حيث توجد عيون الماء التي تنمو حولها القرى والحدائق، وفي بيت بوس Bait Baus توجد قرية مثيرة للانتباه حولها سور تقع على صخرة بركانية منعزلة، وهي جزء من سلسلة بقع قديمة تنتصب على صخور رملية تعود إلى العصر الكريتاسي، وتنتشر على مساحة كبيرة حول صنعاء، وجدير بالذكر أن شوارع بيت بوس Bait Baus صنعت من أحجار جديدة، والأسوار الخارجية بنيت عبارة عن حافة رأسية، والوادي فوق وتحت قرية العصر Alaasr تشرف على جبل نوقوم Nuqum وعلى صنعاء، وتحيطها حدائق اللوز والبرقوق؛ ذلك مع القرية العليا التي تقف على صخرة بارزة جهة اليمين، ومن عند رؤوس جداول الماء التي تنبع مياهها عند نهاية منحدر قفر، تسير مياهها نحو أرض خصبة في قنوات معروشة تدخل في بعض الأحيان إلى عرائش دائرية، ويقال إن صاحب هذه الفكرة حميري، أما وادي ضهر Dhahr، والذي يقع على مسافة ستة أميال شمال غرب صنعاء، هو عبارة عن وادي كثير الالتواءات، مفتوحة جهة الشمال الشرقي ما بين حافة جرداء لونها أحمر من الحجر الجيري الذي يعود إلى العصر الكريتاسي مع جبل فضي Fiddi، وهو عبارة عن عنق أجرد في شكل برج جهة الجنوب، وأرض الوادي المسطحة تغطيها حدائق حولها أسوار تزرع فيها الفاكهة وأشجار القات؛ ذلك مع مجموعة من المباني بينها بيت للإمام عبارة عن ثلاثة طوابق قابع على صخرة منعزلة.

أما عن الجهات التي زرناها بعد الحصول على تصريح من الأمام هي بلاد حمدان Bilad Hamdan؛ حيث هي مختلفة الشكل، وفيها نقطتنا الشمالية، أعني جبل كحل J. Kahl وهو يقع على بعد ١٥ ميلاً عن صنعاء، ويقع إلى الغرب قليلاً، رغم أنه لا يبعد أكثر من ١٧ ميلا عن العاصمة، فإن رحلاتنا اليومية (من ٣١ يناير إلى ٥ من فبراير)

ارتبطت بطبيعة الأرض والحاجة إلى الظل، وكان الأمر شاقًا، كانت القافلة تتألف من خمسة عشر رجلا، واثني عشر من البغال خصص منها عدد لحمل هذه الأمتعة (في كل رحلة) من حقائب وفيها ريالات نقدية (دولارات ماريا تريزا) التي صنعت في أوربا، وكذلك العملات البرونزية التي سكت محليا وهي البخشاش و Bukhshas ونصف القيمة، وصلنا حقه Huqqa في اليوم الأول، وهي مدينة صغيرة عند الحافة الجنوبية من كتلة صخرية بركانية في إقليم أرحب Arhab، وبالقرب منها أرض من تربة اللافا البركانية الخصبة النادرة، وهذه المركبات البركانية أصغر بكثير عن مصب هذه البقعة المذكورة سابقًا، إن أحدث عملية تفتت للصخر البركاني لابد وأنها حدثت في العصر البلوستوسيني، واستمرت عملية التفتت في أطوار متعاقبة على مدار التاريخ، لقد كانت حقة Huqqa تمثل كتلة بركانية من اللافا، وتراها من الأفق، وكأنها حلية شبكية مزخرفة، وكانت حقة هذه مركز للحفريات الأثرية عام ١٩٢٨م، والتي قام بها الدكتور رانجنز في معبد قديم لإله الشمس بادان Ba. Dan، ودمر هذا المعبد في خلال القرون المسيحية الأولى بسبب انفجار بركاني، وتظهر سلسلة من مباني منخفضة سوداء؛ بالإضافة إلى وجود خزان تحت المعبد؛ مع وجود بقايا من حجر أبيض عليه نقش استخدم في بناء مسكن في حقة Huqqa، إن شيئًا قليلاً من الممكن أن يميز في هذا النظام المعقد من المباني، ومن بينها هذا الفناء المريع الواسع، والذي تكثر فيه الممرات المملوءة بالأعمدة حول ثلاثة جوانب، كشفت عنه خريطة الأرض، وأن بعضًا من الأعمال الحجرية قد استخدمت محليًا، والأشياء الأكثر قيمة نقلت إلى صنعاء.

إن جبل كحل Kahl عبارة عن فوهة بركانية على مسافة ٤ إلى ٥ ميل إلى الشمال الغربي من حقة Huqqa لم يزره أوربي من قبل، وهو لا يمثل فوهة بركانية بالمعني الدقيق؛ مثل خاولات الهري

Kaulat al Hauri، والذي يقع على بعد عدة أميال جنوباً، وحيث إن جانبه الغربي غير معروف، فإن التل يشكل حدوة فرس واسعة لها حافة ضيقة في أعلاها، وهو يقع عند ارتفاع ٩٠٠٠ قدم، ويرتفع إلى ٩٥٠٠ قدم، والإقليم المهجور شمالي - شمالي شرقي، وشمالي غربي، وهو عبارة عن تلال بركانية حمراء، وقمم بركانية تتناقض مع آكام سوداء وحواف من اللافا، وتنتهي شرقاً إلى الحجر الرملي وتنتهي جنوباً بسهل صنعاء بمدنه وقراه، وبين الأحجار الحمراء من جبل كحل تنمو نباتات مزهرة؛ منها الأعشاب الزهرية، ونباتات عطرية تتدلى في عناقيد تملأها زهور صفراء صغيرة، وفي موجة شغفنا أن تنزل جبل كحل قام بعض من أعضاء الفريق بالاعتداء على الشاويش Shaush؛ حيث كانت أوامره شديدة، وبالفعل أسرعت لاستدعاء الضابط الذي كان ينزل المنحدر وراء هاربين يحمل بندقيته في يد، ويحمل شمسية في يده الأخرى.

وفي رحلة ١٥ ميل غرباً إلى حظ Haz حوالي ثلاثة أميال من نقطة البداية تقع بركة قا- رقا Birkat Qa-Raqqa، وهي عبارة عن عين ماء مستديرة تعود إلى عصر ما قبل الإسلام، حوافها غير منحدرة، ولكن تنزل بشكل عمودي حتى المياه، ومعظم خطوط الماء الأسمنتية حل محلها بناء جدر من الأحجار، وأربعة درجات سلم، توصل إلى مستوى الماء، وهذا الخزان كان مليئاً بأعداد من أنواع العينات المائية، ووراء هذا المكان وعلى مسافة ١٣٠٠ قدم تصل إلى ممر الكبرى AlKabar (٩٣٠٠ قدم)، وينزل الدرب حوالي ١٠٠ قدم خلال مسافة ثمانية أو تسعة أميال إلى حظ Haz، وعند الجانب الغربي من الممرات كانت الأخاديد مزخرفة باللون الأخضر؛ حيث نبتت بعض الحبوب.

إن حظ مدينة ذات سور وكلها مثبتة من الحجر، وفيها آثار قصر Qasr، والأجزاء السفلى من السور، ومن القصر تعود إلى عصر ما قبل الإسلام، وهي تتألف من كتل من الحجر الأسود، أما الحجر الحميري الأبيض فإنه كثير جداً في هذا السور وغيره من المباني، وجنوب المدينة حي اليهود؛ حيث أقمنا ثلاثة أيام في الطابق الأول من منزل. حجرتنا كانت غير صحيحة مليئة بسوس الحبوب التي كانت معدة للزراعة، ونظفت الحجرة على عجل، وخضعنا لحب استطلاع اليهود وكانوا يراقبوننا من الشبابيك من الجنسين، حتى بعد أن نغلق الأبواب بالمزلاج، وكانت النسوة تراقبنا من خلال فتحات من الجدار، ولكننا وضعنا قماش شبكة البعوض -الناموسية- لإغلاق هذه الفتحات.

كانت المنطقة ثرية بالعينات التي نريد جمعها؛ خاصة حواف بركة البر Birkat Al Bur، وبعض البرك الواسعة التي تقع في حدود ميل شمالاً، وفي العصور القديمة كانت هناك إنشاءات وذلك بسد الوادي، وتوجد جدران مبنية في أجزاء، وفي أماكن أخرى كانت محاطة بقطع ضخمة من الصخور، ومن فروع العشب الأخضر، وهناك موقع يعود إلى ما قبل الإسلام، وهو الإيرين Al Errien فوق تل مرتفع شمال هذه البرك على ارتفاع ١٠٠ قدم فوق مستوي المدينة، وفوق قمته تتبعثر كتل من الصخر الأسود، وشاهدت عمود ارتفاعه حوالي ٤ أقدام بين الأعشاب، وعند تل يعرف باسم قلة العساكر Kaulat Al Asakeir بجوار قرية بيت القفر Bait Al Gofr، توجد منحدر قفر أسود من صخر بركاني تنتشر عليه رقاع من الأعشاب؛ خاصة زهرة الجرب الزاحفة، وغيرها من الأعشاب التي لم نرها من قبل.

خلال رحلة إلى بلاد سنحان Blad Senhan (يوم ١٦-١٨ فبراير) انتقل مركزنا إلى مدينة غيمان Ghaiman، وهي مدينة صغيرة على

تل تقع على مسافة ١٣ ميل على الطريق جنوب شرق صنعاء، إنها تقبع على جرف صخري منحدر ارتفاعه عدة مئات الأميال، ويصل إلى عروض ٨٨٠٠ قدم، ويطل على منظر طبيعي جميل لوادي خصيب حيث تنتشر مزارع الطرفاء، والمشربيات، وجبال قاحلة ما بين اللونين الأصفر والبني، وهنا استقبلنا الزعيم العجوز في حفاوة، وكان يتمتع بكامل الصحة، وأعطانا حجرة في الطابق الثاني، شبابيكها قليلة وبسيطة، مبنية بالطوب البسيط، وتقع غيمان Ghaiman، بالقرب من موقع تاريخي هنا عام ١٩٣١م تم الكشف الأثري عن مقبرة واحدا من عظماء ملوك حمير، طوبا أسعد كامل Tubba، وحسب الروايات اليهودية هو أول طوبا يعتنق اليهودية، وذلك قبل نهاية القرن الرابع، وهذه الرواية يدحضها العرب، ويقولون أن هذا الطوبا Tubba لم يعتنق اليهودية، ولكن الذي اعتنقها واحد من خلفائه، ويعتقد أنه ذو نواس Dhu Nowas الذي سحقه الغزو الحبشي في القرن السادس -وهذه الرواية تعتمد على معلومات أخذتها من الدكتور راتجنز Dr Rathjens-، وشاهدت خزان معان قديم جدرانه من الحجر المكسي جيد الصنع يسمى مجال الأسد Magjal al Asaad، وقد أعيد بناءه تحت إشراف الابن الأكبر للإمام، فيه قليل من الماء نزلنا إلى الخزان عن طريق عدد من الحجارة البارزة لأجل جمع عينات بين أشكال الأعشاب الموجودة، وإن البحث عن الحشرات، وعن النباتات جرنا إلى ارتفاع ٩٢٠٠ قدم على المنحدرات الصخرية من جبل جروان J. Girwan وهو يمثل نموذجاً لمنحدر تتناوب فيه الطبقات الناعمة والصلبة، ومن الواضح أنه ينتمي إلى سلسلة البقع القديمة، وشكل منحدرات وجرف صخري يصل ارتفاعه إلى ١٠,٠٠٠ قدم أو يزيد.

إن الخبرات التي اكتسبتها في هذه المرتفعات تعود إلى طول الإقامة، وإن قصة رحلتنا إلى الحديدة Al Hodiyda لابد أن أختصرها، إن قرار الإمام أن نسافر باستخدام طريق السيارة عن

طريق مدينة العبد Mdi al Abid، ولا نسير باستخدام طريق البغال الجبلي القديم عن طريق المناخة Manakha، وكان استخدامنا للسيارة عاملاً مشجعاً أن نقوم بالرحلة، غادرنا صنعاء يوم ٨ مارس؛ حيث قضينا ليلتين في المعبر Maabar، وفي يوم ٩ مارس جعلته لجمع عينات من جبل مصنح Masnah على بعد عدة أميال جهة الجنوب الغربي عند ارتفاع ٨٤٠٠ قدم، وهذا مكان يطبع في الذاكرة مشاهد رائعة في وادي مصنح W. Masnah، والحصول على العديد من العينات من العتة السوداء، وفي يوم ١٠ من مارس نزلنا من وادي مصنح إلى حمام علي Hamman Ali، وهنا شاهدت عدداً من العيون الماء الحار، وعدد قليل من المساكن الحجرية يأتي إليها زوار عيون الماء بين الحين والحين للاستحمام، وهنا احتشد عدد من الناس، وجاء إلى هنا من أبناء الإمام أربعة عشر صبياً لأجل الاستفتاء، إن انتعاش المناخ هنا في المرتفعات من ورائنا، وعندما عجلنا النزول إلى الوادي، وهبوط درجة الحرارة عند ارتفاع ٥٦٠٠ قدم، جلسنا تحت ظل شجرة تين ضخمة بجوار حقول الذرة، والحشائش التي حول جدول ماء جاري، تذكرنا من خلال الحرارة، وانتشار الفراش الجو الاستوائي.

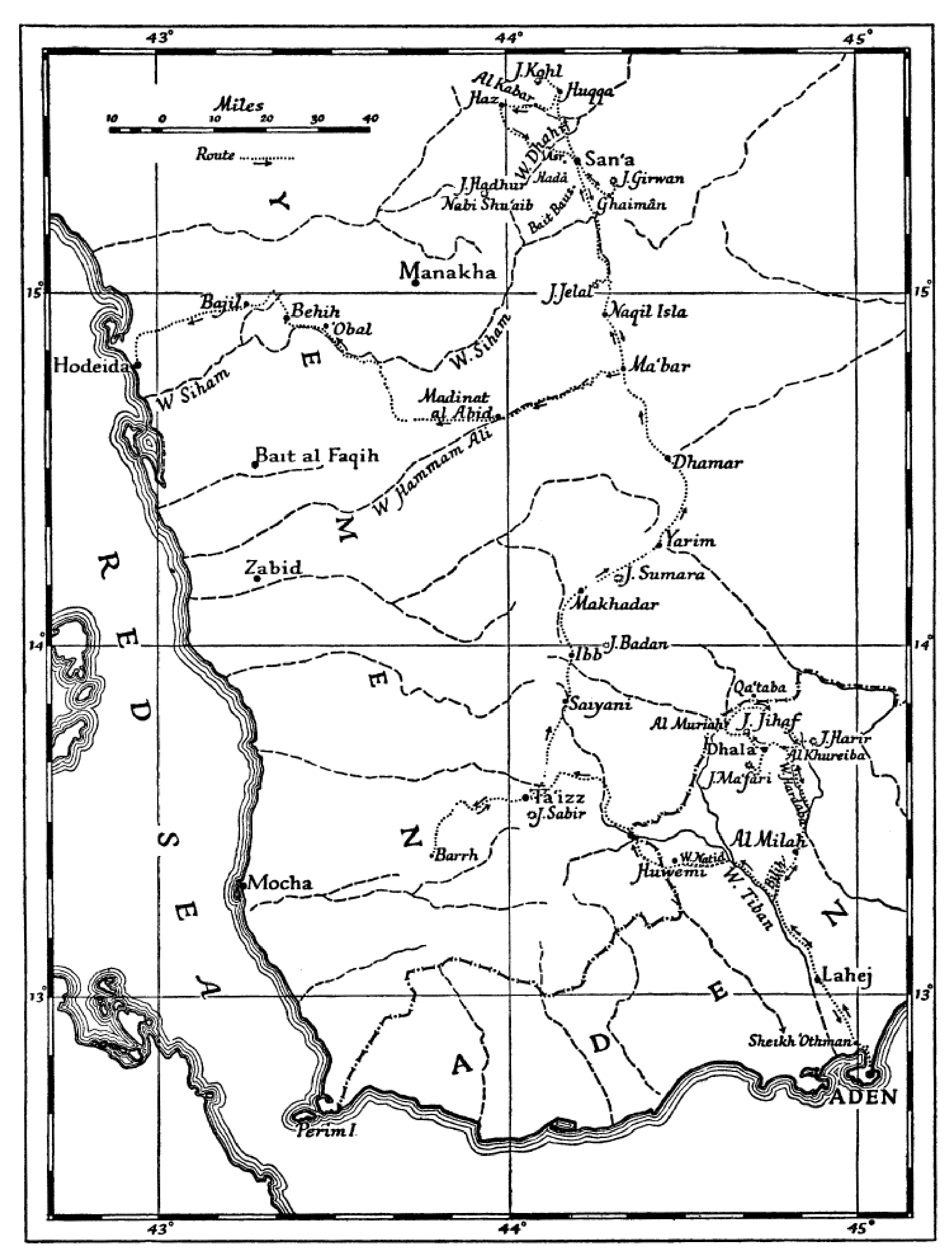
وادي العبيد أرضه خصبة وتنتشر بعض البقع من أشجار الغابة الضخمة، وحوله جبال صخرية، وهذا المكان تنتشر فيه بعوضة الملاريا، والطريق هنا يسير بك جهة الشمال الغربي عن طريق وادي قفر يعرف باسم وادي جارية W. Jaira على ارتفاع ٣٠٠٠ قدم، ومن هنا إلى غالما Ghaulima على ارتفاع ٢٢٠٠ قدم، وهنا نصبنا المعسكر على أرض صخرية جافة تنتشر عليها أشجار السنط، وقد سقطت أوراقها في هذا الوقت، وفي اليوم التالي ١١ مارس نزلنا أرض منخفضة بين قبائل تهامة Tihama، وهم يختلفون كثيراً عن سكان الجبال في المظهر والملابس؛ خاصة أن النسوة يضعن قبعة من القش

فوق رؤوسهن، وهنا وصلنا وادي سحم Siham، وهو وادي واسع وتحيطه الجبال وغموض الطرق فيه أصبحت سهلة بفضل الشبورة والغيوم، ومررت بكل من أوبال Obal، بحيح Behih، وباجيل Bajil، وتركنا وراءنا فروع من التلال والدروب يقع في حزام صحراء تهامة Tihama، وهناك بقع من الشجيرات القصيرة، كل شجرة منها في كومة من تراكم الفروع التي قذفتها الرياح الرملية، وأخيراً فإن النباتات هنا تأخذ شكل النباتات الساحلية، والآن اقتربنا من البحر، وإن مسيرة نحو الجنوب على امتداد الساحل تنتهي بالرحلة عند الحديدة.

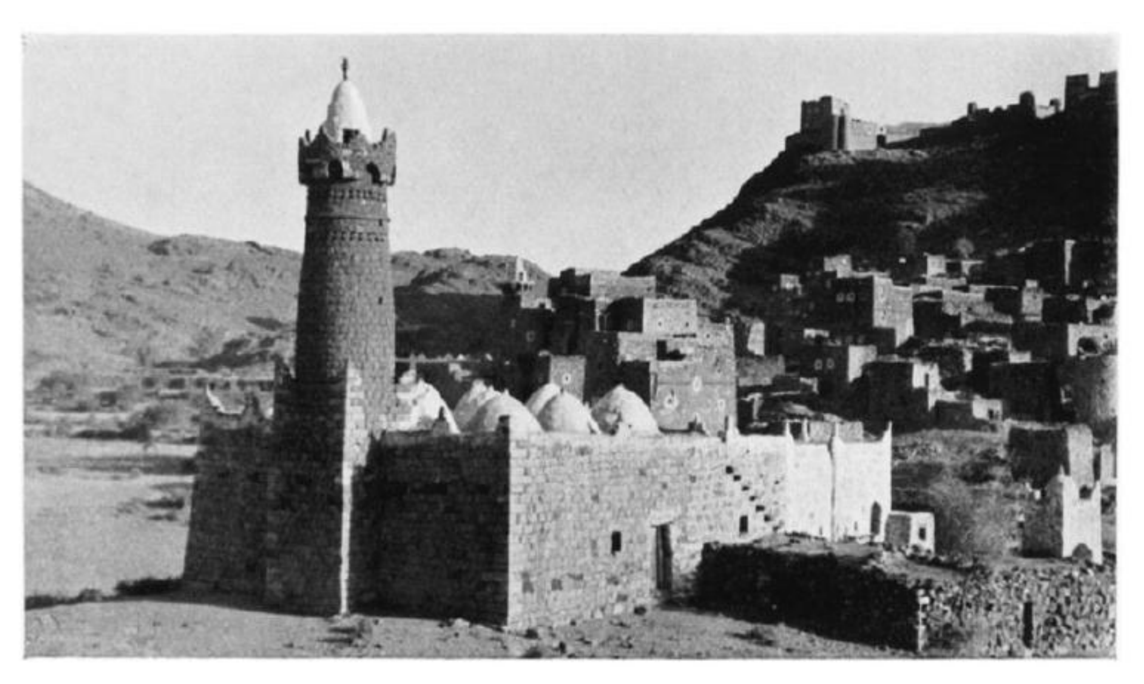
إنه ميناء يمني هام، وهو مكان يختلف عن كل الذي زرناه، هنا قضينا أربعة ليالي، استمتعنا بحفاوة الضيافة في بيت من بيوت الحكومة يطل على البحر، ولكن كانت هناك عيون تراقب تحركاتنا، الأمير سيد عبد الله، ابن الوزير رجل محترم، ولكن كان يشك في أمرنا، وبالتالي لم يوافق على ترحالنا بالطريق المنخفض إلى تعز Taizz، وكانت قلة المواصلات سبباً من الأسباب، وكان من الصعب أن نصل إلى إنجلترا في حدود الأجازة المسموح لنا بها، وبالتالي انتهزنا فرصة العودة إلى عدن باستخدام السفينة التجارية لويد تريستبو، ويوم ١٥ من مارس تركنا الحديدة في قارب صغير، وبعد ساعتين بالقرب من الساحل نزلنا على ظهر السفينة التجارية بعد عدة أميال، وبعد مرور السفينة على عصب Asab، وعلى جيبوتي Djibouti وصلت السفينة إلى عدن يوم ١٩ مارس، ثم رحلنا على سفينة البريد البريطانية إلى مرسيليا يوم ٢٣ مارس.

إنه من الضروري أن أقدم تقريري على هذه المساعدات لأجل إنجاز مشروعي هذا، منحتني سلطات المتحف البريطاني أجازة بالإضافة إلى مساهمات مالية لي، وكذلك لبريتون، وأقدم شكري

إلى سلطات مؤسسة ليفر هولم البحثية أن سجلت اسمي في زمالة البحث Reasher Fellow، وقدمت لي مساعدات مادية، وتلقيت منحاً من الجمعية الملكية، ومن سلطات جومان المالية Gudman Fund، وأحب أن أعبر عن أنني مدين لحكومة عدن، والرعاية التي تلقيتها من سير برنارد ريلي -ممثل الحكومة-، وكرم الكولونيل سي ليك، المفوض السياسي الذي كان يمثل الحكومة خلال الفترة التي قضيناها في الجزيرة، وكان يساعدنا ويرشدنا باستمرار كابتن سيجر -ضابط الحدود- الذي أقمنا في منزله خلال فترة وجودنا في عدن، وفي مرتفعات ضحلة بفضل الكابتن هاملتون، المفوض الثاني للشئون السياسية، وقبل أن أترك إنجلترا، استفدت من معلومات جمعها القائد كريفورد، وفي اليمن استضافتنا الحكومة خلال فترات من وجودنا، وأعترف أنني مدين لصاحب الجلالة الإمام للاستقبال الطيب، وأشكر بعض الوزراء وبعض الحكام الذين وردت أسماؤهم، والشكر موصول إلى الدكتور السيد بتري في صنعاء، والدكتور كارل رنجن الذي التقيت به في تعز، والذي ساعدنا في الحصول على تصريح لدخول صنعاء، وهناك عدد كبير من الشخصيات التي لا أقدر على ذكر أسماؤهم كلهم ساعدوا في نجاح هذه الرحلة إلى غرب محمية عدن وإلي اليمن.



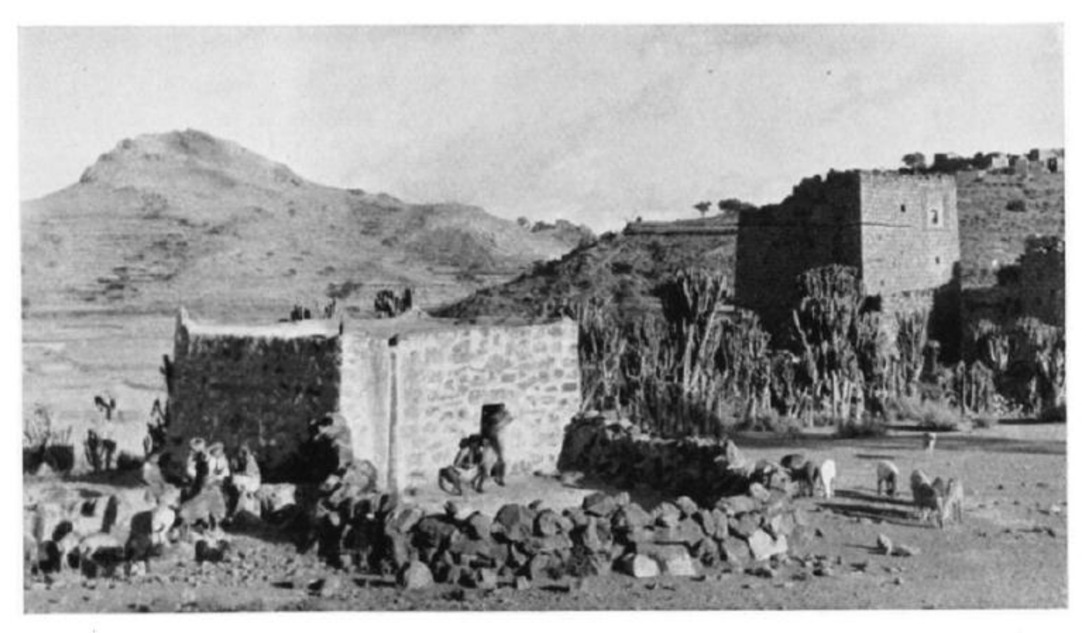
Part of Aden Protectorate and Yemen, showing the author's route



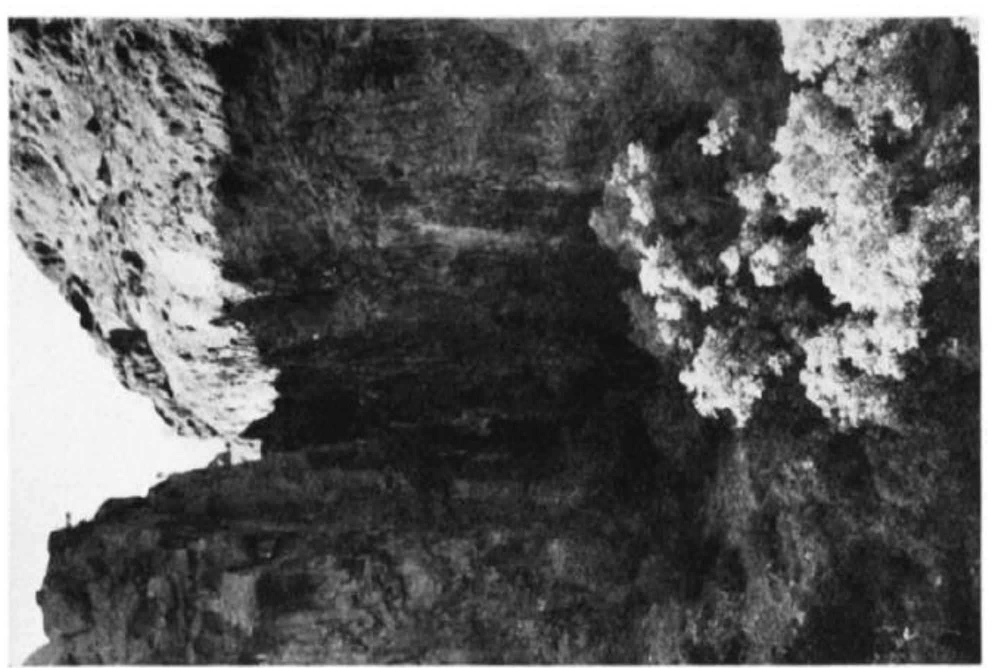
Dhala: principal mosque, part of town, and castle



View north-east from summit of Jebel Jihaf, showing terraced cultivation of dhurra



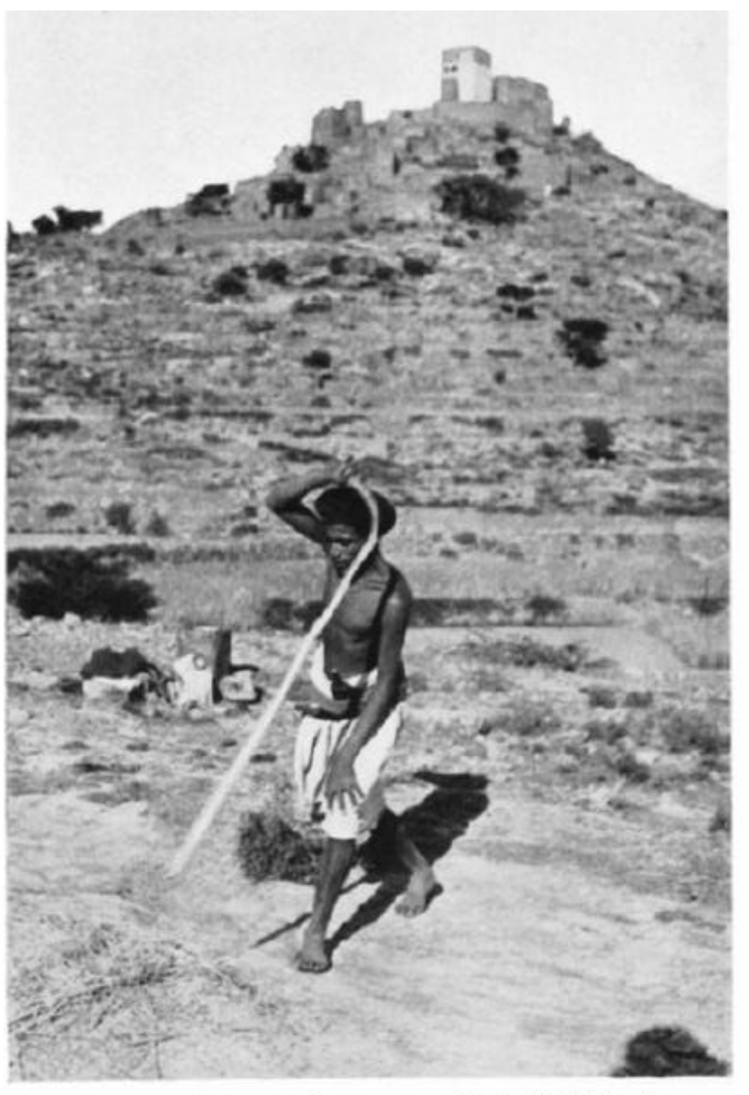
Jebel Jihaf: village mosque with tree-euphorbias and houses to the right



The head of the lower gorge in Wadi Leje



Waterfall in Wadi Dareija



Threshing wheat on Jebel Jihaf

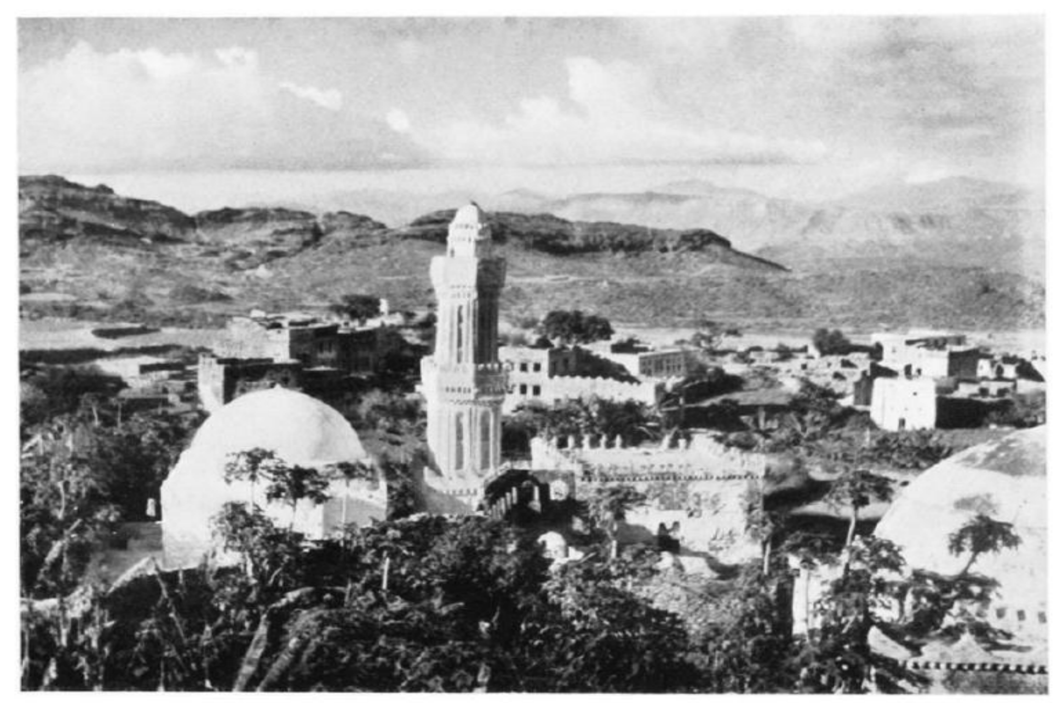




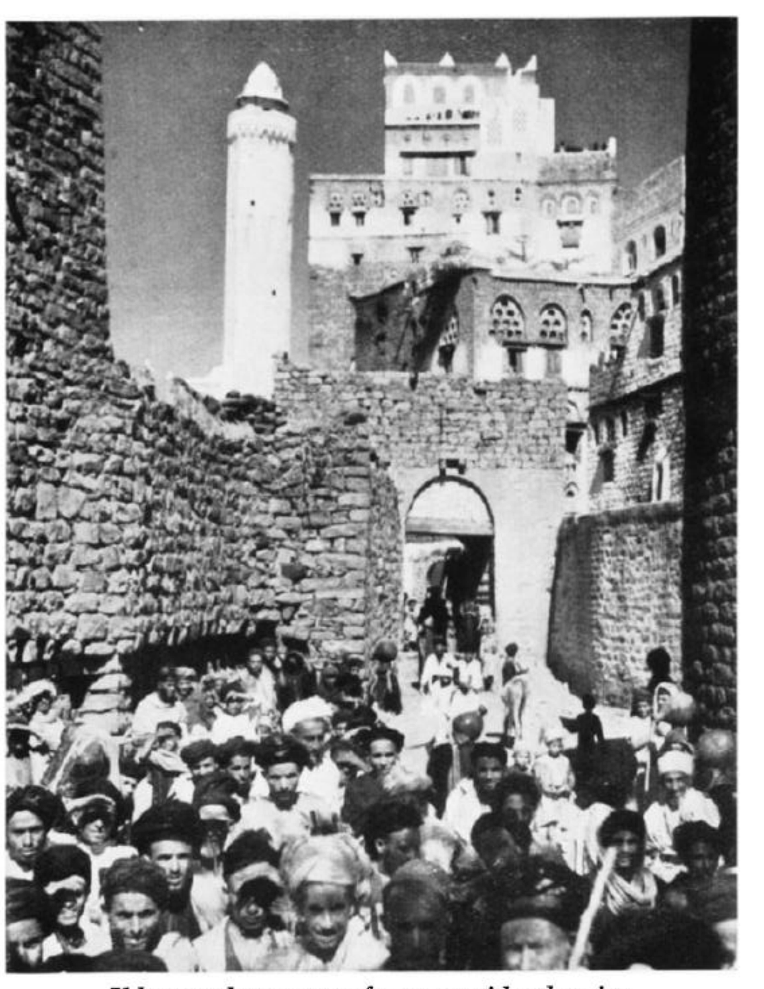
Drawing water from a well at Dhala: humped oxen descending an inclined plane, and water being directed from a hide bucket into a channel



View from the eastern edge of the top of Jebel Harir, 7700 feet



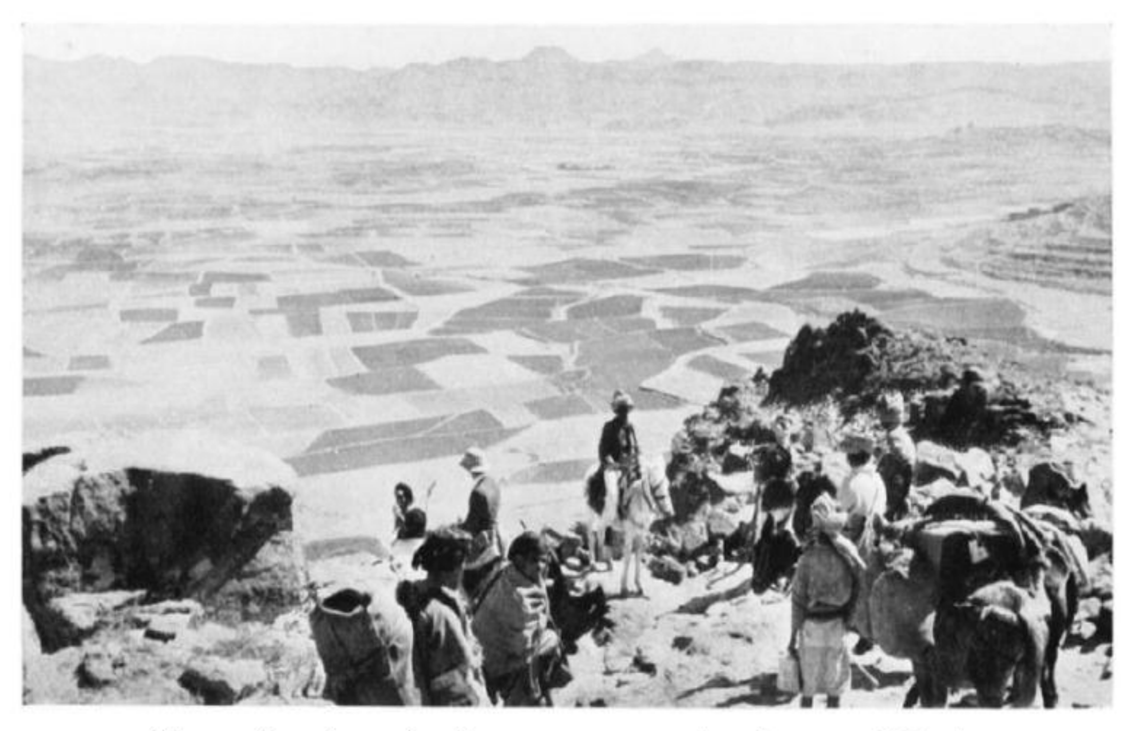
Ta'izz, looking north from guest-house; pawpaw trees in front of mosque



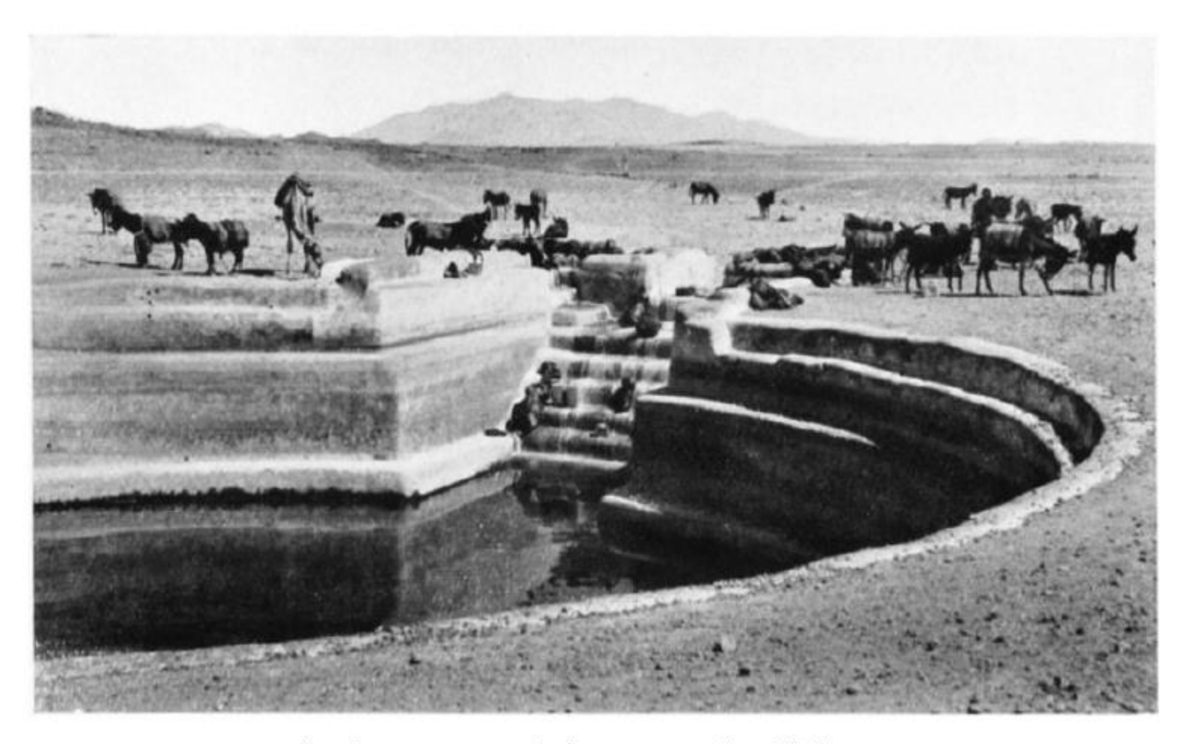
Ibb: southern gate from outside the city



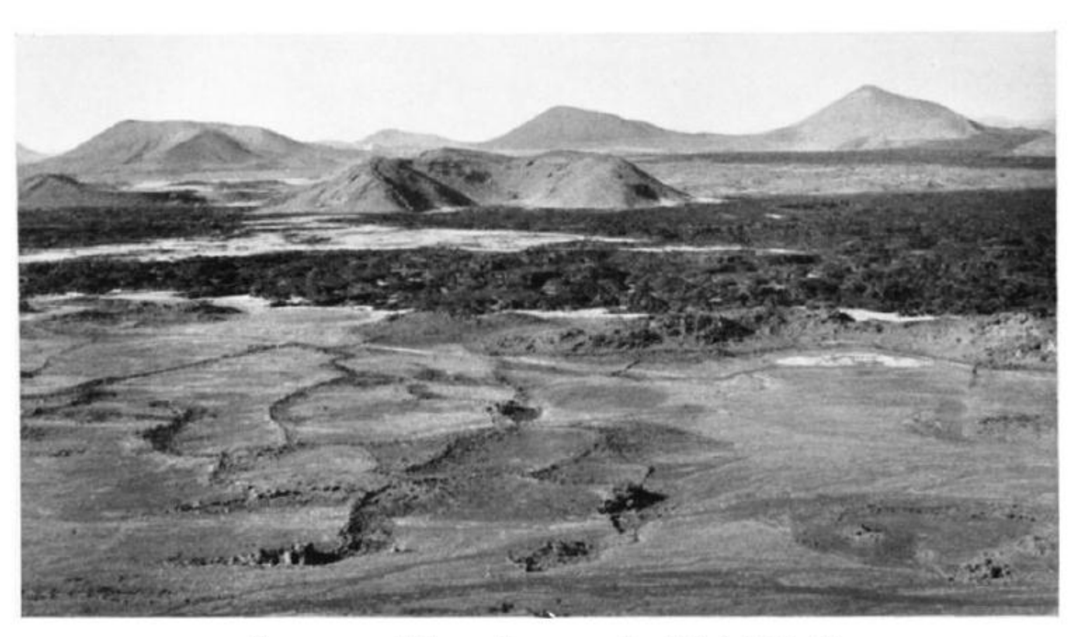
Menzil Sumara (right foreground) from the pass at 9200 feet



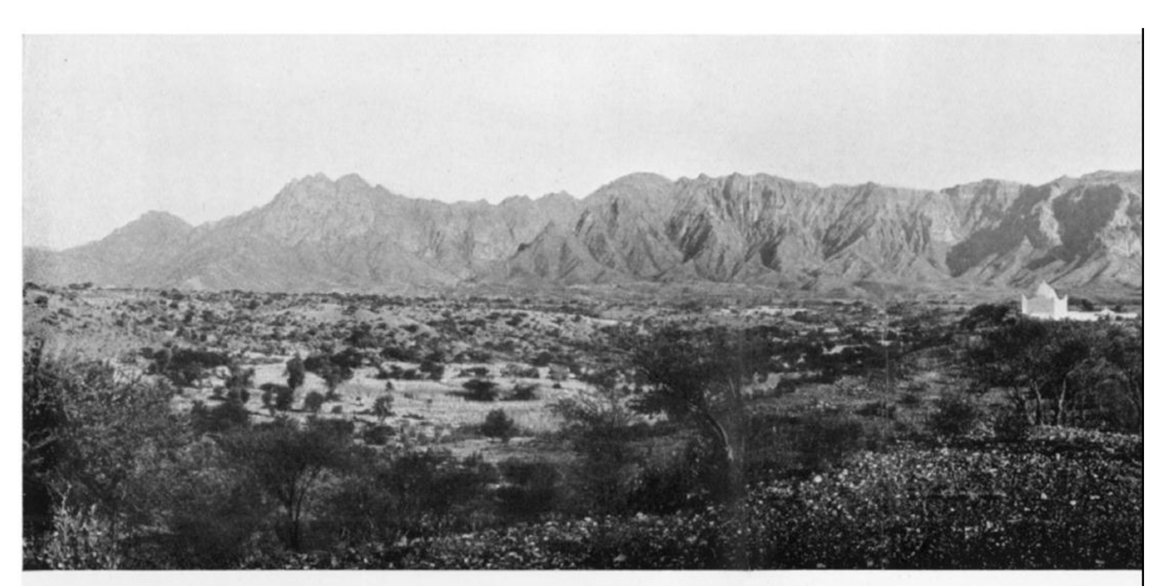
Descending from the Sumara pass to the plateau of Yarim



Ancient cemented cistern south of Dhamar



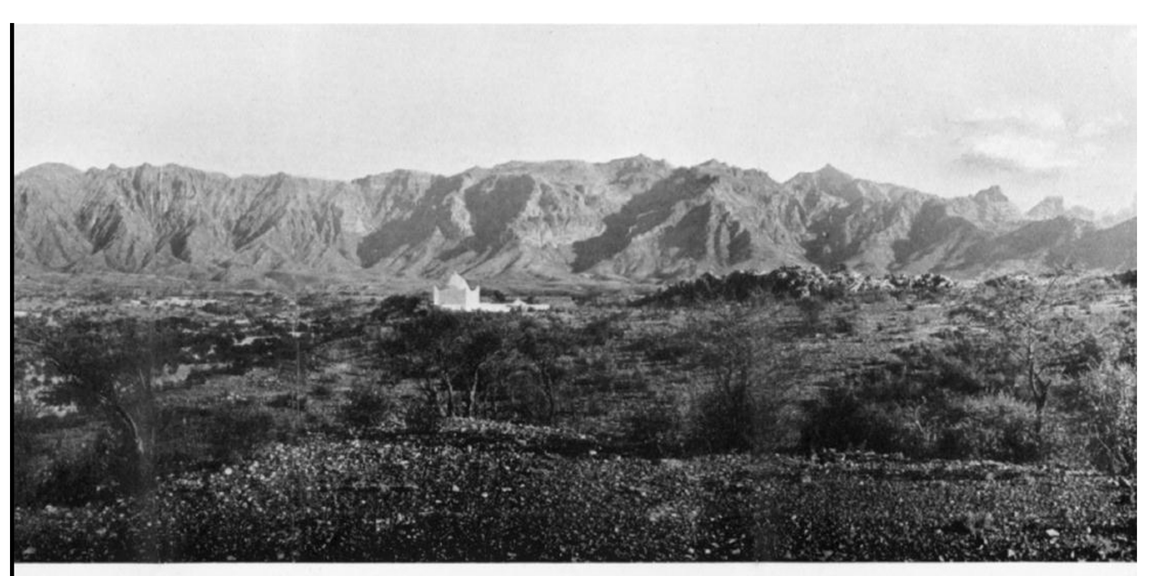
Craters and lava-flows north of Jebel Kohl



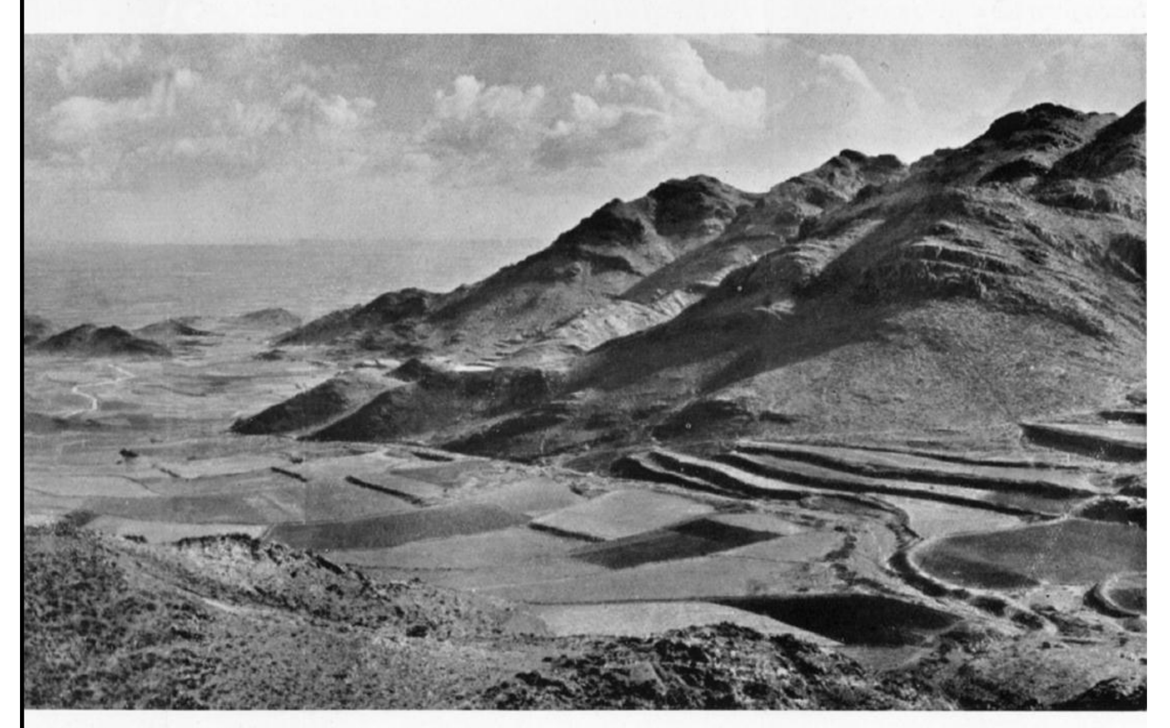
North-west face of Jebel Jihaf, from Al Muriah in Wadi Tiban. The highest point, 7800 feet, is the rounded sur lies in the middle distance



View southwards towards Ma'bar from the Naqil Isla pass, 9



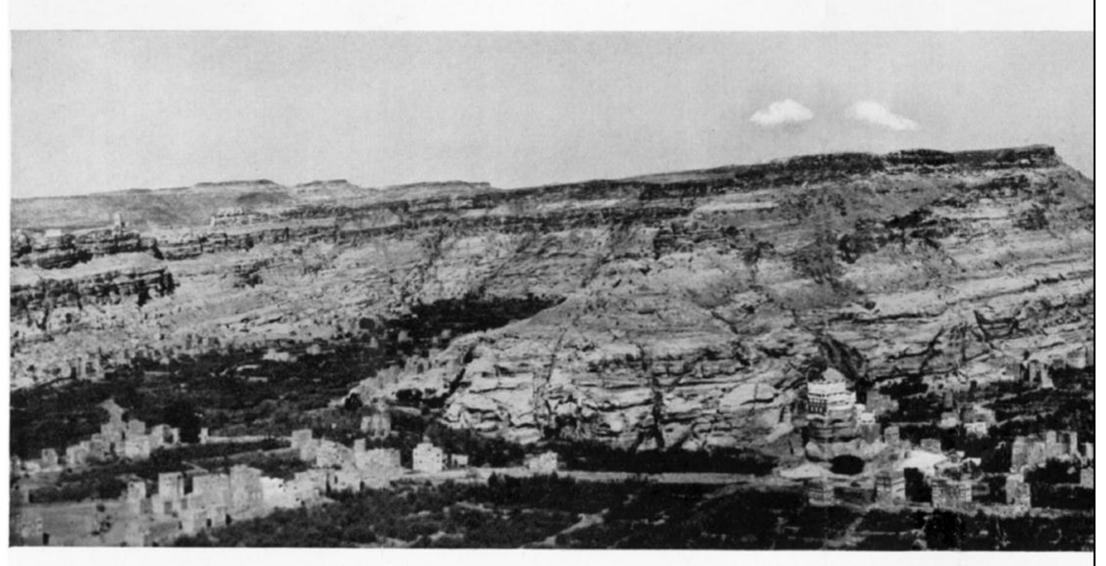
Tiban. The highest point, 7800 feet, is the rounded summit to the left of centre; the tomb-mosque of Weli Isma'il



uthwards towards Ma'bar from the Naqil Isla pass, 9600 feet



San'a from the east. In the foreground is the white dome of the Bakiliye mosque, with the minaret of Salah the city lies in the background to the right



Wadi Dhahr from the south. In the centre on a detached crag is the



ıe of the Bakiliye mosque, with the minaret of Salah ad Din immediately to its right; the western division of

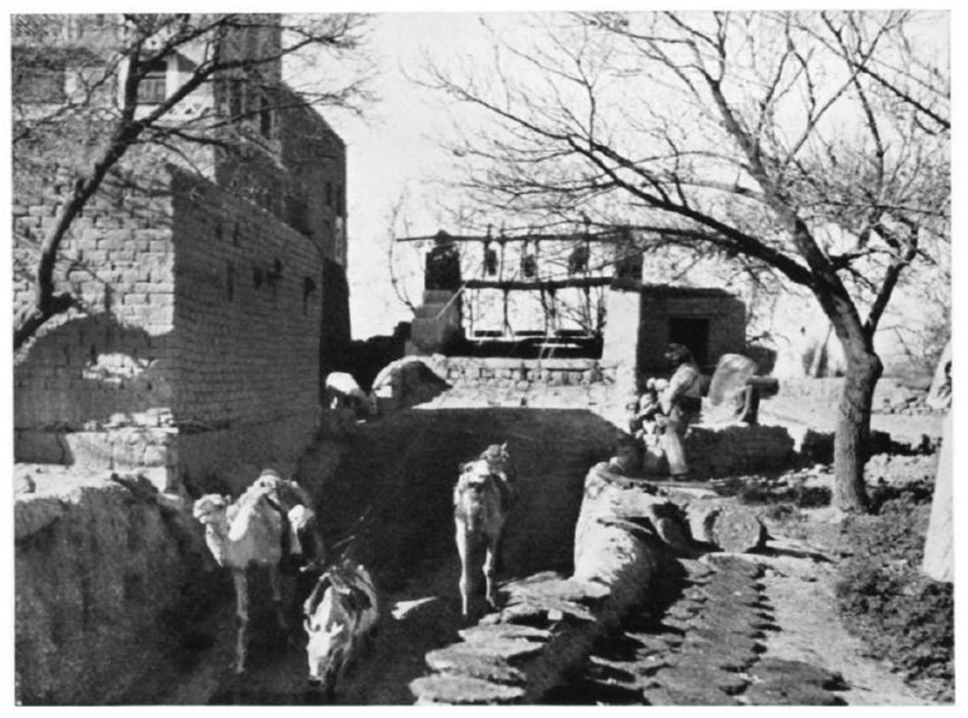


rom the south. In the centre on a detached crag is the Imam's house

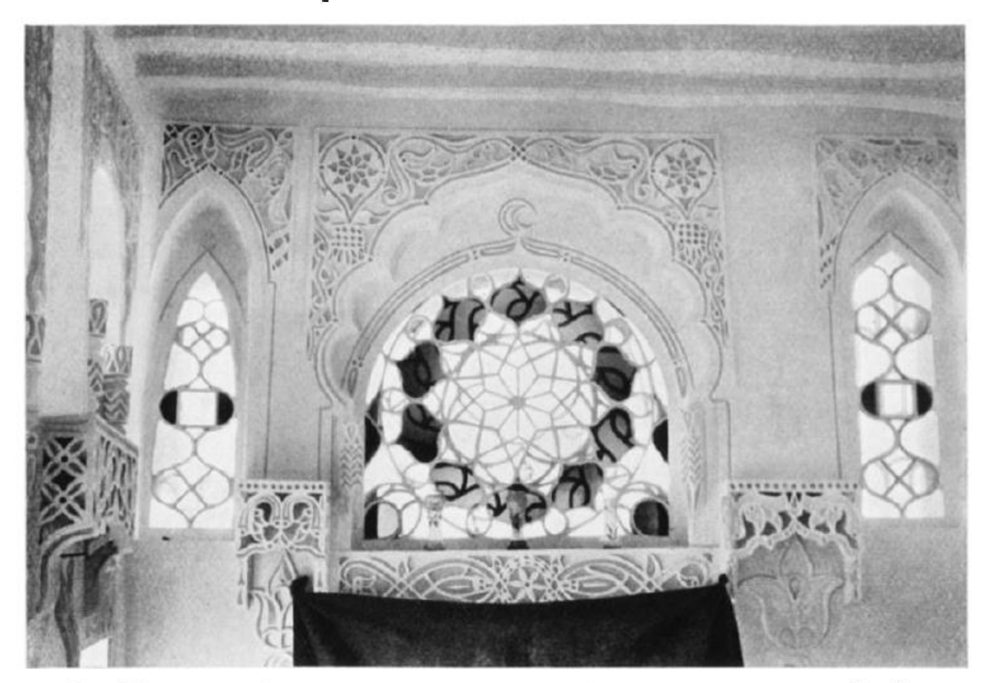
Plan of San'a, adapted from Rathjens and von Wissmann



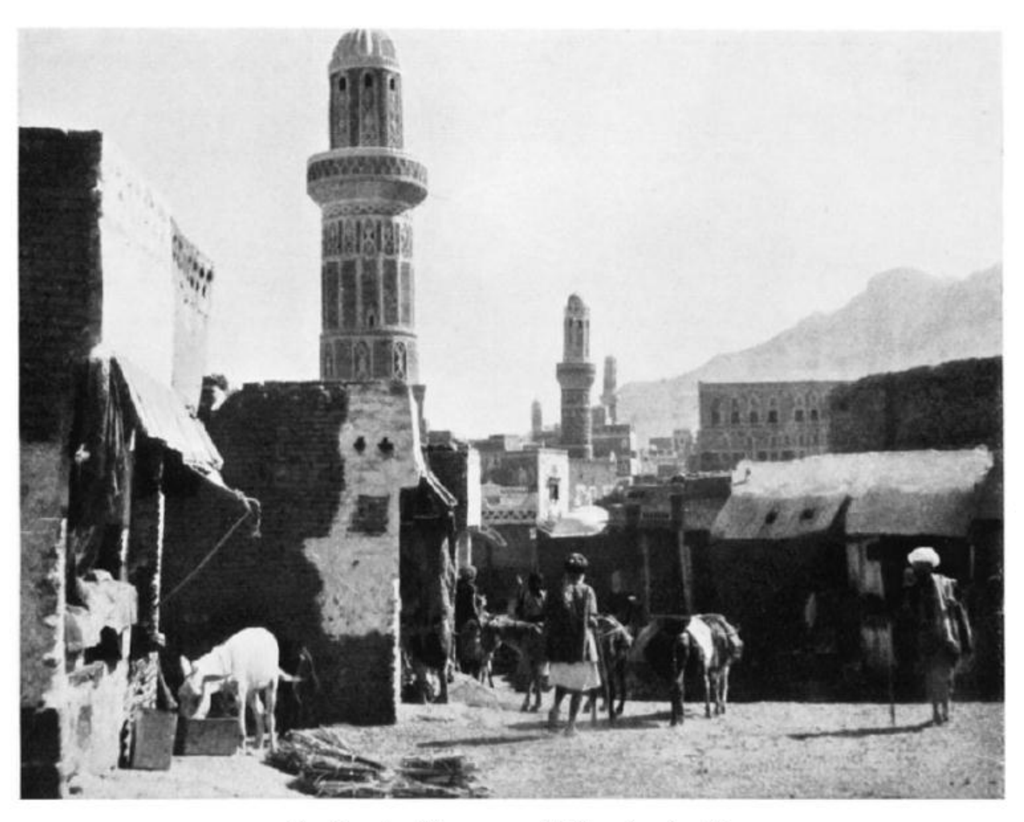
San'a: houses in the old city, near Al Abhar mosque



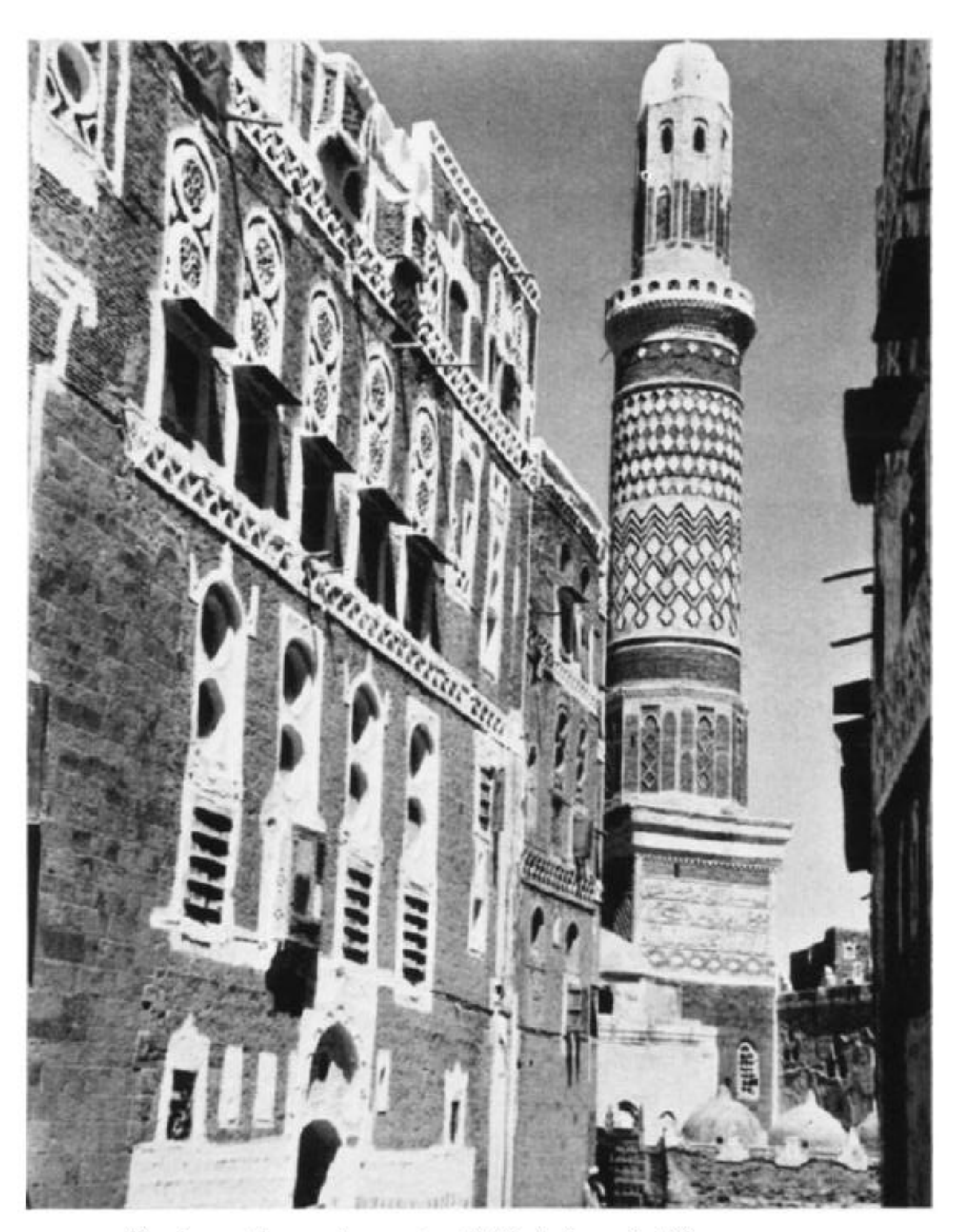
Raising water in Bir al 'Azab; dung drying for fuel on the right



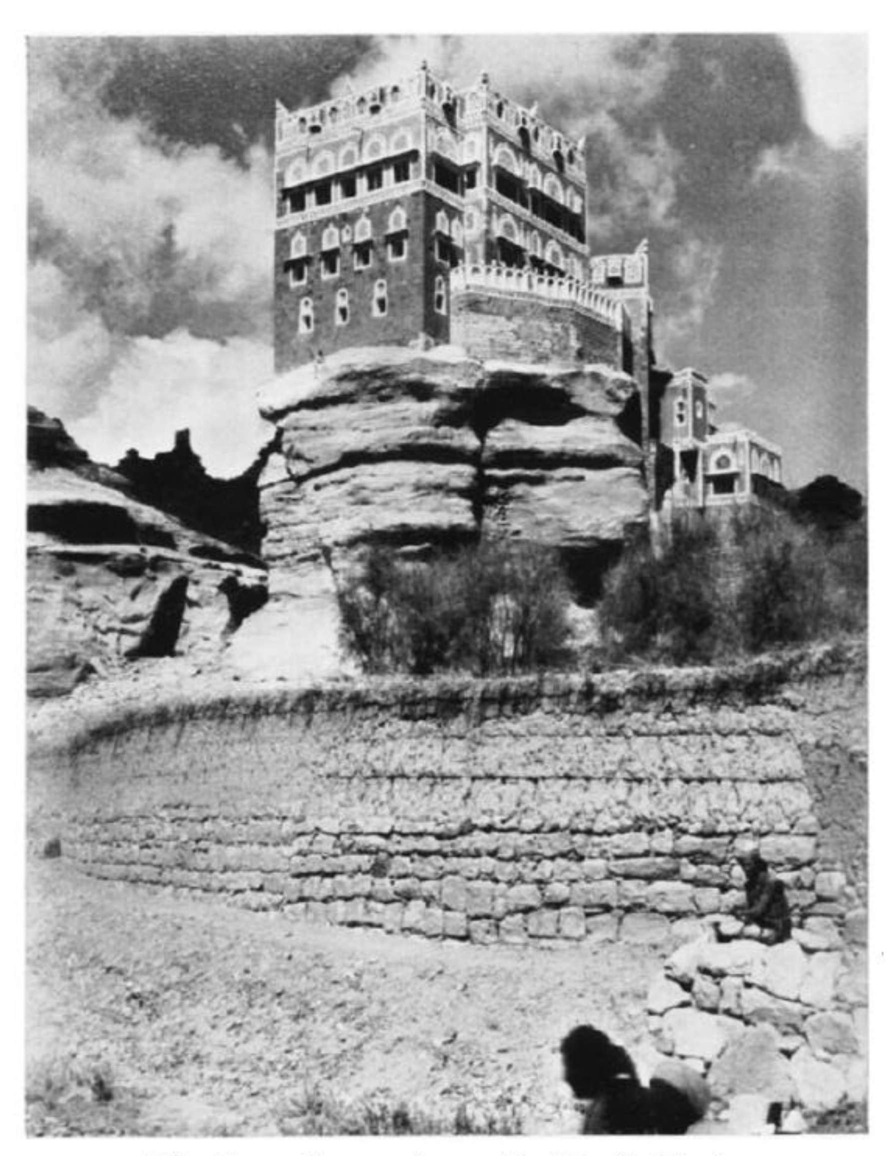
Double-traceried windows and plaster-work in the guest-house, Ta'izz



San'a: in the suqs of the Arab city



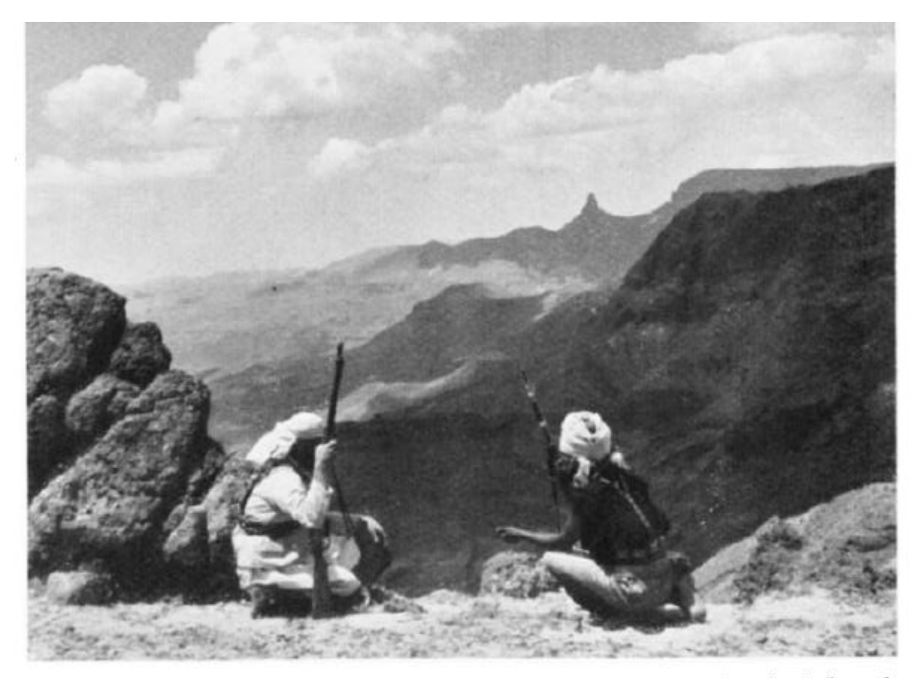
San'a: the minaret of Salah ad Din mosque



The Imam's new house in Wadi Dhahr



San'a plain: ploughman followed by men wielding heavy shovel with pole and cords



Wadi Masnah and Jebel Sub' Doran from the brink of Jebel Masnah

الرحلــة السادســة

مذكـرات حـول رحلـة فـي اليمـن

الكاتب: شارلز ملنجن

Chorles Melingin

عرضت في: ٢٣ فبراير ١٨٧٤م.

بادئ ذي بدئ سوف أتناول بالوصف الطريق بين الحديدة وصنعاء، ذلك هو الهدف الأول لرحلتي، ولسوف أعرج على تفاصيل أطول على وصف البلاد التي طرقت طريقها في رحلة العودة من صنعاء إلى الحديدة مرورا بكل من كوكبان Kauakaban، طولح Twailah، وداري نهر سردود Sordud.

انطلقت من الحديدة، وسرنا باستخدام طريق القوافل المعتاد عبر طحماح Tihamah ومررنا بعدد من القرى منها مرعوح Marouwah، وقطعي Kuttay، وقضينا بعض الوقت في باجل Bayil عند قاعدة التلال، أما عن طحماح، أو أعني السهل الواقع بين الحديدة والإقليم المرتفع ارتفاع التلال، عرضه حوالي ٣٠ ميل، وهو سهل رملي، وينحدر تدريجيًا نحو البحر، والنصف الأول من المسافة القريبة من البحر صحراوية، ومياه الآبار ملحية، والمنطقة نادرة المطر، أما عن النصف الآخر، ابتداء من قربه إلى الجبال، فإن المنطقة كلها يسقط عليها المطر طوال العام، وتزداد الكمية في موسم الصيف، ومن هنا يقبل الناس على زراعة القطن، والذرة، والشعير، بالإضافة إلى النيلة Indigo -يصنع من ألياف هذا النبات السلال التي يجمع فيها محصول البن- وتكثر أشجار النخيل حول مدينة زبيد Zabid، وطبيعي أن تنتشر القرى هنا وهناك على امتداد هذا السهل، وتنعقد الأسواق في أيام محددة في مختلف القرى الصغيرة حيث تمتلئ بأشكال منتجات الأرض.

أما عن باجل Bajil فإنها تقع عند مدخل الوادي الذي يعد الطريق إلى صنعاء، وهي قرية ذات أهمية ويقوم بحراستها حامية تركية، وبعد باجيل Bajil يسير المرء في اتجاه شرقي، ويصل إلى قرية بوحي Buhay، وهي في وادي بالقرب من قاعدة جبل طامور Thamur، وبعد مسافة قصيرة تدخل وادي صحم W. Saham الذي

يحيط به جبل برعه J. Buroah الذي يحيط بقاعدة جبل حرظ Haraz، عند الضفة اليسرى من نهر صحم R. Saham بعيداً عند قرية هي النقطة العسكرية في صنفور Sanfur، وبعبور النهير عند هذه النقطة يتركها المرء ليدخل ممر ضيق امتداده عدة أميال، فيه توجد محطات قوافل بيت صح-شيخ- Bait – Sh- Shikh، وصحم Saham، وبعد مسافة يترك المرء مضايق جبل حرظ J. Haraz، ويصل إلى إقليم مفتوح في مفحك Mifhak، وهي قلعة شيخ عربي، ولكن منذ عام ١٨٧١م، أصبحت قلعة تركية وتقع القلعة فوف كتلة بازلتية ارتفاعها ٢٠٠ قدم، وهناك طريق آخر قصير، وهو أقصر مدة حوالي ست ساعات، وهو أحياناً تقطعه القوافل من باجل Bajil، إلى مفحك Mifhak، وهذا الطريق يتفرع عن قرية بوحي Buhay، وبعد الصعود والنزول عدة مرات، تصل إلى قرية كبيرة ومحطة عسكرية في المناخة Munakhah في منطقة حرظ Haraz، وتصبح مفحك Mifhak على مسافة ١٨ ميل عن حرظ، ويفضل معظم المسافرين على طريق وادي صحم W. Saham، ذلك لأنه أقل تضرساً والإبل حاملة السلع التجارية تستخدم طريق الوادي، وعند وصولها إلى صنفور Sunfur تستبدل إبل تهامة Tihamah بإبل من الجبل Jabal؛ ذلك لأن إبل تهامة غير معدة الإعداد الجيد، وعرضه أن تتعثر وتؤذى في منطقة متضرسة، جدير بالذكر أن الإبل الجبلية تختلف في طبيعتها، وهي أخف راسخة الخطى عن تلك من تهامة، ونفس الكلام ينطبق على حمير تهامة والأخرى من الجبل.

ومن باجل Bajil إلى مفحك Mifhak؛ حيث الارتفاع يزيد عن ٢٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر يسير المرء إلى أعلى وأعلى، ولكن في غالب الأحيان صعود لا يشعر به المرء، وفي صحم ومفحك كانت درجة الحرارة مناسبة، الليل بارد، وهواء الجبل منعش، والمنقطة يكسوها اللون الأخضر، وفي بعض الأجزاء بالمنطقة توجد

الأشجار بكثافة، وجوانب التلال تغطيها شجيرات، والجبال حتى أعلاها ارتفاعًا تكسوها أشجار البن، والقات والذرة، وتوجد أشجار سنط أكاكيا من كل الأنواع وأشجار الطرفاء، وغير ذلك من أنواع الأشجار، وكلها أنواع جديدة في عيوننا، تزين الوادي، وهناك عدد من أنواع الـ Euphorbiacaoe، ومن Asclepias، وهناك شجرة معينة في ندرتها، وهي شجرة الـ Aleander Abesum تنمو على جانبي التل الصخري، جذعها ضخم في شكل ثمرة الكمثري، أو جذر نبات اللفت، يخرج منها فروع مثل أصابع اليد، وهذه الشجرة يعرفها الأهالي باسم Adamm (يقصد بالتسمية نبات قزمي) ولها خواص سامة وزهورها صغيرة، لونها وردي، ورائحتها واسعة الانتشار، ورأيت في وادي صحم أشجار الكاذي[١] Pandanus Odoratissimus، زهور هذه الشجرة ذات قيمة عند العرب، يرصعون بها العمامة مع زهرة الياسمين، وغيرها من الزهور.

ومن أنواع الأشجار التي رأيتها واحدة تسمي الثالوج Thalugi، وهي فصيلة الـ Ficus، وهي شجرة ذات أوراق عريضة، وتعطي ظلاً واسعًا أكثر من غيرها، وأنه ما بين صحم Saham ومفحك Mifhak توجد أعداد كبيرة من شجرة الثالوج، بعضها يزيد عمره عن المائة عام، وعلى امتداد الطريق ما بين القريتين يوجد أعداد صغيرة من مزارع البن، وهي أشجار البن الوحيدة التي شاهدناها ما بين الحديدة وصنعاء، وشاهدت أنواع من الطرائد ومنها الفرعة (الدجاج الحبشي)، وطائر الحجل الأحمر الذي يعرف باسم كابج Kabj يشبه النوع الأوربي ذو الأرجل الحمراء، ولكن هذا النوع أكبر، والريش مختلف، وهذا الطائر منتشر بشكل واسع في اليمن والحجاز، أما عن الغزال والظبيان فإنها نادرة الوجود، أما عن الحيوانات المفترسة من أمثال

(١) - أشجار الكاذي من النوع الاستوائي نحيل الساق (المورد) المترجم.

الفهود والضباع، وغيرها، أتصور أن هذه الأنواع كانت موجودة يوماً ما ثم انقرضت، وشاهدت الزراعة في كل مكان من الإقليم، ولا توجد غابات، والناس انتشروا حتى في الأماكن العالية من الجبال التي يصعب صعودها، أما عن القردة من نوع Pithecus فإنها منتشرة في كل أنحاء الجزيرة العربية، ما بين المدينة وعدن، وسمعنا عن وجودها أحياناً في منطقة جبال حرظ J.Haraz أما عن أنوع السحالي خاصة النوع ذو اللون الأزرق الداكن، فقد شاهدته بين الحين والحين، ولكن لم أشاهد أفعى واحدة.

وعندما غادرنا مفحك Mifhak نزلنا منحدر جبلي تجود فيه زراعة أنواع الحبوب، وبعد أن مررنا على عدد من القرى التي تصل إحداها عند الطرف العلوي من الممر على ارتفاع حوالي ٦٠٠٠ قدم فوق مستوي سطح البحر؛ حيث رياح شمالية خفيفة، ولكنها كانت شديدة البرودة، وأخذنا ننظر نظرة حقد على هؤلاء القوم الذين يرتدون الملابس المصنوعة من أوبار الأغنام لتحميهم من البرد، وعندما نزلنا إلى بوعان Buaan، وعبرنا فوق جسر حيث قابلنا نهر يجري جهة الغرب، وحسب رأي نيبور Niebuhr هذا النهر متفرع من صحم Saham، والآن نسير على أرض مستوية، وتوقفنا عند قرية تسمي ماثانا Mathana، وبعد أن سرنا عشرة أميال نزلنا حوالي ١٠٠٠ قدم إلى سهل وادي صنعاء، والمنطقة ما بين مفحك Mifhak وصنعاء مختلفة بشكل مذهل إذا قورنت بمنطقة تهامة ما بين باجل Bajil ومفحك Mifhak، لا يرى المرء أي شيء إلا جبالاً ملساء جرداء، وأودية سهول جرداء من الأشجار وصخور بركانية وحمم بركانية، والهواء بارد ليلاً والحرارة معتدلة نهاراً، قدر كروتندن Cruttenden ارتفاع هذه الهضبة حوالي ٥٠٠٠ قدم، والأرض يجود فيها زراعة القمح، والشعير، والفول والبرسيم، والخردل، والزيت الذي يحصل عليه بعد عصر بذور الخردل، يستخدم لأغراض الإضاءة وفوق

الصخور الرملية والتلال البازلتية التي حول هذا السهل يوجد عدد من القرى، منازلها عبارة عن طابقين أو ثلاث طوابق، مبنية على شكل أبراج مربعة الشكل؛ مبنية من الأحجار المنحوتة من الجبل.

تقع صنعاء في الوادي الذي يقع عند قاعدة جبل نجم J. Najum، ويحيط بها من ناحية الجنوب تلال من الصخر الرملي تعرف باسم جو ملان Jumlan، وباسم آخر وهو أسر الجبال Usur Mountain، وتربة الوادي تتألف من رمال مختلطة بالحصى، مع صخور بركانية تحتوي على الحديد، وعرض السهل في منطقة صنعاء حوالي ثلاثة أميال، ولكن جهة الشمال فإنه يتسع، أما جهة الجنوب فإنه يتقلص في الاتساع، وهناك جدول صغير يجري نحو الشمال وتستغل مياهه في ري كل حدائق، وهي مدينة حولها سور، اتساع دائرته حوالي ساعتين على الأقدام، وهي تنقسم إلى حي يهودي في الطرف الغربي، ببير العزب Biru Al Azub، والمدينة مع القلعة في الجهة الشرقية، وهناك مساكن جميلة، ولكن معظم أحياء المدينة عفا عليها الزمن، وسكانها اليوم بالإضافة إلى الحامية التركية التي عددها حوالي ١٠٠٠ رجل لا يزيد عددهم عن ٢٠٠٠ نسمة.

يتكون جبل نجم J. Najum من صخور من الحجر الرملي تتكدس بداخلها كتل من الصخور البازلتية، وفي بعض الأجزاء من الجبل تشكل أعمدة متعددة الأضلاع، وهناك صخور سوداء قوامها البيريت[١]، وهي غنية بمعدن الحديد، وفي بعض الأجزاء من الجبل يوجد العقيق الصافي، بالإضافة إلى هذا يوجد الجبس، والمرمر، والرخام، في مجموعة التلال المجاورة، إن الملح المستخدم في صنعاء وفي المرتفعات من اليمن من الصخر الملحي، والذي يجلب من مأرب في إقليم الجوف Jauf، والإقليم الأخير تعيش فيه الخيول.

---

(١) **البيريت**: معدن قوامه ثاني أكسيد الحديد (المترجم).

قضينا في صنعاء أربعة أيام لم ينقطع المطر عنها خلال أيام ثلاث، وهبطت الحرارة إلى ٥٩ ف درجة، وعموما فإن مناخ صنعاء يخضع لمتغيرات كثيرة، فإن الليالي الباردة تتبع الأيام شديدة الحرارة، ويتجمد الماء بشكل لا ينقطع شتاء، ويضطر الأهالي إلى ارتداء أنواع من الوبر، ومن جلود الأغنام، والأطباء الأتراك الذين عاشوا زمنًا في صنعاء يتفق رأيهم أن المناخ غير ملائم، وغير صحي.

أحسن من وصفوا صنعاء تيبور وكورتندن، وهولتون، سيتزن، وغيرهم من الرحالة وليس ضرورياً أن تدخل في تفاصيل وصف المدينة، وأنه باستثناء وجود الحامية التركية فإنني أعتقد أن المدينة وكأنها لم تتغير منذ قرن مضى، ولو كان هناك شيء فإن عدد السكان أخذ يتأرجح.

إن المسافة ما بين الحديدة وصنعاء حوالي ١٣٠ ميل وإلى أن احتل الأتراك منطقة الجوف Jauf ، ونجران Nagran ، فإن الرحلة في هذه الأجزاء تحفها المخاطر -يشهد بذلك أرنود، وهالوي في رحلاتهم-، ومن هنا فإن المسافر العادي ينبغي أن يستبق سعادة اكتشاف أقاليم غنية بالآثار الحميرية.

وعندما تركنا صنعاء، عزمنا على العودة إلى الحديدة عن طريق كوكبان Kawkaban، والطويلة Twilah وجبل حفاش J.Hafash، وأخيراً باجيل Bajil.

في مطلع الرحلة زرنا الروضة Rwudhah التي تقع على مسافة خمسة أميال شمال صنعاء، وهنا توجد مساكن منتجعات صيفية يقدم إليها أثرياء صنعاء، وعندما دخلنا السهل في الاتجاه الغربي، شاهدنا على مسافة قرية جدر Jadr، وبمرورنا على قرى أخرى وصلنا إلى التلال، ودخلنا مضيق وادي ثور W. Thaur، وهنا توجد مدينة حولها

سور تحمل نفس الاسم، والوادي عبارة عن مضيق كثير الالتواءات تغلقه تلال من الحجر الرملي الذي اكتسب اللون الأحمر المتدرج.

امتداد هذا المضيق حوالي عشرة أميال، ويوجد هنا جدول ماء صغير، مصدر مياهه من جبل هاتور J. Hathur، ويسمي جبل النبي شعيب J. Nabi – Shaib، ويتدفق في اتجاه شمالي شرقي نحو السهل، وفي جريانه يروي عدة أميال من الحدائق، ووادي هاتور W. Hathur يمد صنعاء بأنواع الفواكه، ومن بينها العنب، والتين، والجوز، والخوخ، والبرقوق، والكمثيري، والتفاح، والليمون، والبرتقال، والتوت، والسفرجل، وهنا أشجار النخيل قليلة، ولكن النخيل لم ينضج بعد، وتمور صنعاء تأتي من نجران، وهنا نجد الأهالي فخورين بوادي ثور W. Thaur، ويربطون بينه وبين دمشق، إنه وادي خصب جميل مياهه وفيرة.

انطلقنا من الوادي إلى شيبام، نزلنا من التلال التي تحيط بالوادي جهة الغرب، وسرنا عدة ساعات فوق هضبة صخرية، يغطيها بقع مزروعة بالحبوب، ومن فوق أعلى جزء من الأرض المستوية شاهدنا منظرا رائعا يقع غرب امتداد من المنحدرات التي تسير من جهة الشمال إلى الجنوب، ومن فوق واحدة من هذه المنحدرات استطعنا رؤية مدينة كوكبان Kaukaban، وجهة الجنوب كان يقع جبل النبي شعيب J. Nabi– Shuib، وهو أحد أعلى جبال اليمن(يسقط عليه الجليد في أوقات من فصل الشتاء)، وعندما نزلنا وصلنا السهل، وعلى مسافة تقع مدينة شيبام Shibam، وحولها سور عند قاعدة المنحدر الذي تقع عليه مدينة كوكبان Kaukaban، وجهة الشمال فوق المرتفعات التي تتألف من امتداد من الصخر الرملي شاهدنا قرية وقلعة طالح Thallah، ووراء هذه القرية فوق السهل قرية عجران Amran وسهل شيبام Shibam أرضه خصبة، ومنتجاته الرئيسية

الحبوب، والبرسيم، والفول، والخردل، وتنتشر قليل من أشجار الصفصاف وأشجار الفاكهة بالقرب من عين تقع خارج المدينة، وفي واجهة المنحدر توجد عدد من المغارات التي تتكون من صخر منحوت ولقد لاحظنا وجود عدد من هذه المغارات في وادي ثور W. Thour.

بعض هذه المغارات آهلة بالناس، وأخرى تستخدم لتخزين علف الماشية، أو تربى فيها الماشية، وأنه من المستحيل أن تقول على وجه التحديد الزمن الذي أنشأت فيه هذه الحجرات، ولكن الاحتمال الأكبر أنها تعود إلى العصور القديمة.

إن الطريق الصاعد الذي تحفه شجيرات الورد، والسرخس، والبلادونه[(١)] وغيره من النباتات، أخذنا إلى قمة المنحدر على ارتفاع ٨٠٠٠ قدم فوق شيبام، ولاحظنا أن حيوانات الحمل تصعد وتنزل هذا المنحدر في سهولة؛ لأن الطريق جهز جيداً، إن هذا الطريق يذكرنا بالطريق العربي الصاعد الذي يصل إلى قمة جبل شمسان J.Shamsan في عدن، وأنه مجرد أن يصل المرء إلى القمة يجد أسوار كوكبان Kaukaban، هذا المعقل العربي القديم الذي استسلم للأتراك عام ١٨٧٢م بعد حصار دام سبعة أشهر، وقد بُني فوق حافة هضبة من الحجر الرملي تسمى جبل ضحلة J. Dhala، وعلى جانبي المدينة منحدرات واسعة، عند قاع واحد منها توجد شيبام Shibam، وعند المنحدر الآخر يوجد صدع صخري يعرف باسم وادي الناعي W. Nai، أما الجانب الثالث من هذا المثلث شكلته هذا الجزء المسطح من الهضبة، والذي يعد الجانب القابل للهجوم لعدم تحصنه، وأن المنظر من مرتفعات كوكبان Kaukaban يشكل سهل شيبام، وهو جزء من سهل صنعاء، وجبل نجم J. Najum، وفي أيام صفاء الطقس تشاهد مآذن صنعاء، على مسافة حوالي ١٨ ميلا في خط مباشر؛ بالإضافة إلى

---

(١) **البلادونه:** نبات من الفصيلة الباذنجية (المورد).

أرض مسطحة واسعة مرتفعات جملان Gumlan، وجبل النبي شعيب J. Nabi – Shaib، وفي جهة الجنوب بعيداً يوجد جبل حرز J. Haraz وغيره من الجبال، وإذا نظرت جهة الغرب لا تشاهد أي شيء غير أرض مسطحة صخرية، وإلي الشمال تشاهد جبل المثناري J.Mithnary ، وطلة Thallha، وعمران Amran، ومصدر المياه لمنطقة كوكبان لا ينقطع، من عدد من السدود المحفورة في الصخر، والأمطار تسقط هنا بشكل دائم، والحرارة منخفضة جدا، وأنه خلال فترة إقاماتنا كانت الحرارة في منتصف شهر مايو ٥٠ ف درجة قبل ظهر الشمس، ونهاراً ترتفع إلى ٦٨ درجة ف والأرض المسطحة في ضحلة Dahala، قد يصل ارتفاعها إلى ٦٠٠٠ قدم فوق مستوي سطح البحر.

وجدير بالذكر أن القوات التركية واجهت طقساً شديد البرودة وأمطار غزيرة، وبلغ عدد القوات التركية في كوكبان حوالي ٢٠٠ تركي، وأنه من خلال نظرة إلى الأسوار، وإلي الأبواب، وإلي عدد من المنازل تدرك مدى قدرة قذف المدينة وأسوارها، ومن الواضح أن الحرائق قصد بها القصر الرئاسي للإمام في صنعاء، وعلى مسافة حوالي ربع ميل عن المدينة، ولأجل السيطرة عليها، يشاهد المرء الخنادق وتشاهد الأتراك: هلك هنا سبعمائة رجل من الأتراك خلال حصار وقع في الميدان المجاور، أما عن مدافن المدينة فإنها خارج الأسوار، والقبور عليها شواهد علامات من الصخر، لكن دون نعت اسم صاحبه، ونفس هذه الظاهرة أدهشتنا في مقابر صنعاء، وفي وادي ثور W. Thaur.

وبعد رحلة ركوب استمرت ستة أميال على أرض صخرية وصلنا عند رأس وادي، في مجراه الأدنى يعرف باسم وادي لعة Laah، والنزول شديد الانحدار، وهذا نتيجة لتغيرات طبيعية، والهواء هنا

دافئ تفوح فيه روائح الزهور، وجوانب التل تغطيها الأشجار منها الألوة –الصبر-، والفوربيون -شبيه الصبار-، والدفلي (الحبن- نبات عطري) ونبات الفرنوقي، والشفوي -نبات من الفصيلة الشفوية-، والسرخيس، والورد الطحلبي، وغير ذلك من النبات التي شاهدتها بغزارة، بدلا من رؤية النسر، الذي يكون هنا أمراً غريباً في هذه الصحراء، وباختصار بعد صحاري صخرية جرداء.

أما عن جبل مسوار J.Msuwar فإنه يحيط بالجانب المقابل من الوادي، والطريق إلى الطاولة Tawlah يسير في واحدة من منحدرات جبل ضلة J. Dhala والطاولة مدينة يحيطها سور، مع وجود قلاع على ثلاث من سبع كتل بازلتية، ترتفع هذه القلاع ما بين ٥٠ إلى ٢٠٠ قدم أعلى من المدينة، كانت هذه القلعة فيما مضي معقلا لشيوخ كوكبان، وتطل المدينة على جزء من وادي لعه Laah ومن هذا المكان تستطيع رؤية حقول البن فوق المنحدرات، إلى جانب رؤية عدد من القرى، وإذا نظرت جنوباً سوف ترى امتداد وراء الآخر من الجبال التي تسير من الغرب إلى الشرق، وجبل برعه J.Buroah، على مقربة، وبعدئذ تشاهد حرز Haraz، والخيامة Al Khaimah، وسارع Sara، حفش Hafash، وملهن Milhan، ثم ركبنا إلى رجوم Rugum التي تقع على مسافة ١٥ ميلا عن الطويلة Tawilah، وارتفاعها عدة مئات من الأقدام، والإقليم فيه زراعة جيدة، جوانب التل حولها أسوار من الحجر؛ حيث توجد أرض، والحقول محروثة باستخدام الثور -الثيران هنا ذات سنام مثل أنواع منها في الهند-، وهنا في هذا الوقت هلكت آلاف من رؤوس الماشية بسبب طاعون انتشر، وسبب هلاكاً مفزعا في الأقاليم التلالية اليمنية.

أما عن روجوم Rugum فهي مدينة حولها سور، وقد بنيت فوق صخرة بازلتية ترتفع فوق سهل من المستنقعات، وفي هذا السهل

ينعقد سوق تجاري كل أسبوعين، وعلى مسافة خمسة عشرة ميلا من روجوم Rugum تقع محوت Muhwit، وهي كذلك مدينة حولها سور، وتقطن فيها حامية تركية، والحي اليهودي في الجزء الأدنى من المدينة، وحيث إن المدينة تقع فوق مكان مرتفع، فالمناخ هنا بارد، وعين الماء في المنطقة المجاورة تصل إلى خزانات صنعها الأهالي للاستحمام، ويعتقد الناس أن حماماً واحداً في عين ماء محوت Muhuit يشفي من كثير من الأوجاع، وعرفنا من الأهالي أن حمام الماء يشفي من الحمى المتقطعة.

كنا قد عقدنا العزم أنه عند الرحيل من محوت Muhuit أن نستخدم المنحدر الشرقي ونصل إلى جبل حفش J. Hafash، ونقضي بعض الوقت في سفاكيان Safakian، وهي مركز عسكري تركي، ونزلنا المنحدر الغربي إلى ربوعه Rubuaah، ومنها إلى باجيل Bajil، وهنا مررنا على عدد من حقول البن ومزارع القات، ولكن أصابنا شيء من الضعف بسبب حمي أصابتنا في رجوم Rujum، ومن هنا اخترنا سهل طريق إلى باجل Bajil نزلنا باستخدام منحدر شديد الانحدار حتى وصلنا وادي محضره W. Muhdirah؛ حيث يصب جدول ماء يعيش فيه نوع من الأسماك شبيه بالسالمون، وهذا الجدول يرتفع في جبل حفش Hafash، ويصب في اتجاه جنوبي، وفي بعض أجزاء منه تنمو على الجانبين بعض الأشجار، وهنا أيضا بعض حقول البن، وبعد أن تركنا هذا الجدول، ووصلنا عند قرية سرع Sara توقفنا في غفاف Ghaffaf، وفي اليوم التالي ركبنا ووصلنا سوق قرية أخرى، وهو يسمى سوق الجمعة عند طرف جبل سرع J. Sara مع جبل حفش J. Hafash في الغرب.

والوادي الذي يقع بين الجبلين يعرف باسم وادي غفاف W. Ghaffaf، وهو يمتد حوالي خمسة عشر ميلاً في اتجاه جنوب غربي

حتى يتصل بوادي حراج Harrah في سوق الخميس، وهنا توجد أشجار الكافور، والحنة، والنبق، والتمر هندي، وأشجار السنط، وهناك كثير من حقول الذرة والدخن Duhn، الآن وقد دخلنا في أودية شديدة الحرارة قريبة جدا من تهامة Tuhamah، والأهالي هنا ليسو من الدم العربي الصافي من سكان المناطق الجبلية، ولكنهم من جنس مهجن، ولون البشرة الزيتوني، وبعض شعره ليفي، والشفاة غليظة، ولهجتهم العربية مختلفة عن اللهجة التي يتحدثها العرب الآخرين من الجنس العربي الصافي، والعربية فيها كلمات أجنبية كثيرة، وأهالي تهامة ينتمون إلى نفس هذا الجنس، وهم إلى حد ما منتشرين، والنسوة عندما يخرجن من بيوتهن ترتدين قبعة شبيهة بهذه اللاتي ترتديها النسوة في ويلز، مصنوعة من أوراق شجر النخيل، وبعض الرجال يرتدون خوذة من نفس المادة.

وقبل وصول سوق الخميس خضنا في جدول صغير يسمي سردود Sardud، وعرفنا أنه يصل حتى جبل النبي شعيب J. Nabi Shaib، ثم يسير إلى وادي سردود W.Sardud إن هذا الجدول تسير فيه مياه من جبل النبي شعيب، ومن حرز Haraz، والخيمة Al – Khaimah، وجبل سارة J. Sara، وغيره من الجبال، وبالتالي تتجمع فيه كمية كبيرة من المياه، ومن خميس سرنا إلى حمراء Hamaraa على امتداد وادي سردود W.Sardud، والنصف الأول منه ضيق شديد الانحناءات، وتسده الجبال الجرانيتية، أما عن قاع هذا الجدول فإنه ضيق جداً، ويضطر المرء أن يخوض في الماء أكثر من مرة، وبعد الأمطار الغزيرة يتسع النهير، وتجري فيه المياه بقوة، وهنا يصعب الاتصال أو الانتقال إلى حمراء Hamraa، أما النصف الثاني من الوادي، والذي يبزغ من التلال ويصل إلى سهل يحده من الشمال جبل حفش J. Hafash، ولكن الذي يحده بشكل رئيسي هو جبل ملحان J. Milhan، ومن الحمراء يتدفق النهر غرباً، ويمر على تربة غرينية حتى يصل إلى تهامة عند

قرية تسمي زوبة Zhubah، وبعد الأمطار الصيفية فإنه في بعض الأحيان يصل ويصب في البحر إلى الشمال من الحديدة، وبعد أن تركنا الحمراء وجبل سردود اتجهنا جنوبا عبر وادي عزان W. Azzain إلى باجل Bajil، على مسافة اثني عشر ميلاً، ومن باجل Bajil عرجنا بالزيارة على كل من قطيع Kuttay، ومرواح Marawah، في تهامة، وفي هذه القرية سوق كبير ينعقد في الأسبوع مرتين، وفيها يعرض المانجو، والموز، والقات، والذرة، واللبن، ومنتجات التلال المجاورة، هذا بالإضافة إلى الأرز، والتبغ، والتوابل، وغير ذلك من السلع التي تأتي من الحديدة، وفي مرواح قصر السيد Asayyid، وهو ينال تقدير الناس الذين يحضرون من كل صوب للتحادث معه، والأتراك يعظمونه لدرجة أن قرية مرواح معفاة من دفع الضرائب، وبعد رحلة ركوب استمرت حوالي أربع ساعات عدنا إلى الجديدة، ومن هنا من فوق مرتفعات صنعاء وكوكبان حيث منطقة إنتاج الحبوب، اجتزنا منطقة حقول البن، إلى المناطق الاستوائية المناخ في تهامة؛ حيث حقول الذرة، والقطن، وأشجار النخيل، ومن ذلك المكان إلى الأطراف الصحراوية للبحر الأحمر.

ملحوظة :

توضع هنا الخريطة الموجودة في آخر الملف رقم ١٧٩٨٧٨٢

وكذلك الجدول

Map of Part
of
YEMEN
(from Niebuhr)
to accompany the Paper
by Dr. C. Millingen.

on same Scale as the Map
by Dr. Millingen

Edwd. Weller

Society by John Murray Albemarle Str. 1874.



Published for the Journal of the Royal Geographical

Route from al-Hudaidah to Sanâ̂â̂.

As written by Niebuhr. S. P. B.		Hours.	Miles.
Hodéida	al-Hudaidah ..	..	..
Maráua	Marâwah ..	4½	13½
Kataja	Kuttáy	2	6
	Bâjil	4½	13½
	Bolúy	2½	7
	Ubbâl	4	12
Sanfûr	Sanfûr	6	16
	Baitu-'sh-Shaikh	1½	4
Sehân	Sâham	4	12
Möfhak	Mifhâk	5	13
	Hauthein ..	2	4
Boân	Buáân	4	8
Möttene	Máthna	2	6
Saná	Sanáâ	5	14
		47	128

Return route from Sanâ̂â̂ to al-Hudaidah.

Saná	Sanáâ	..	..
Rödda	Raudhah	1½	4½
	Wâdi-Thaur ..	2	6
Schibam	Shibâm	7	18
Kaukebân ..	Kaukabân ..	1	*
Tauíle	Tawilah	6½	17
Red-ŝjum ..	Rujûm	6	15
Mehauled ..	Muhwit	5	13
	Ghaffâf	5	13
	Sûku-'l-Juma'ah	5	13
	Sûku-'l-Khamîs	4	12
	Hamrâ	4	11
	'Azzân	1½	5
	Bâjil	2	6
Kataja	Kuttáy	4½	13½
Maráua	Marâwah ..	2	6
Hodéida	al-Hudaidah ..	4½	13½
		60	166½

* 800 feet above.

الرحلــة السابعــة

رحلـة مـن عسيـر إلـى اليمـن

المؤلف : روزتا أوربز .Rosita Eorbes

المصدر: المجلة الجغرافية (أكتوبر ١٩٢٣م)

ص ٢٧١ - ص ٢٧٨.

في نوفمبر من عام ١٩٢٢م نزلت إلى أرض جيزان بصحبة كامل فهمي، وذلك بعد رحلة بحرية بالقارب عبرت البحر الأحمر من ميناء بورسودان؛ حيث استقبلنا هنا استقبالاً طيباً بالإنابة عن الأمير الذي كان على علم بزيارتي المزمعة منذ وقت، استقبلنا ابن عمه ونائبه السيد السنوسي، وكان بصحبته ولده السيد العبد، إن جيزان وميدي أكبر وأهم ميناءين في منطقة عسير، ويبلغ عدد سكانها حوالي ٨٠٠٠ نسمة، وهنا تزدهر تجارة البن، والعسل، واللؤلؤ، والجلود، وزيت السمسم، والحبوب، وبعض رؤوس الماشية، ولاحظت أن مساكن التجار هنا تتألف من طابقين مبنية من الحجر مرجاني اللون، يغطيه الجص في بعض الأحيان المزخرف بأشكال بارزة، أما مساكن الفقراء، وهم في الغالب من الصيادين، مساكنهم من قش الذرة الملطخ بالطين الصلصالي، وسمكها في الغالب حوالي قدمين، والطابق العلوي من الطين، تتخلل الجدران فتحات متفاوتة الحجم، تعلق فيها آنية الشرب، وأحيانا تزخرف الجدران بأشكال من الأرابيسك المزخرف يعلق عليها مشغولات يدوية تصنعها النسوة؛ من بينها سجاجيد صلاة، حصير، أطباق، قبعات، وسلال، كلها مصنوعة من القش الملون، أما عن الأثاث في هذه المنازل عبارة عن أسرة هي عبارة عن إطار من الخشب يعلوه شبكة من الحبال من القش، وكرسي مصنوع من طبقتين من أوراق شجر الدوم، مغطاة بقطعة من الحصير والسجاد، مع جزء من جلد الأغنام.

ذلك الجزء من عسير، وهو يقع مباشرة تحت حكم الإدريسي؛ على الأقل من الناحية الاسمية، يخضع الإقليم لطريقة Tarika، وهذه الطريقة هي طريقة وضع نظمها السنوسي المشهور، وهو تلميذ وتابع للجد الأكبر للأمير الحالي[1]، لمنطقة عسير؛ الذي ترك كل

(١) كتبت هذا المقال بعد وفاة الأمير إدريس، وتولي بعده السيد مصطفي.

أشكال الرفاهية، ويعيش حياة بسيطة، حياة الزاهد بعيدة عن أي تأثيرات مادية فارهة، ويعمل بكل إخلاص على تطبيق شرائع القرآن الكريم؛ جدير بالذكر أنه لا يسمح للغرباء؛ سواء كانوا مسلمين، أو مسيحيين، أو يهود، بالدخول إلى عسير؛ لأن سكان الإقليم حتى سكان المدن منهم متعصبين متشددين مذهبهم الشافعي Shafi، يقوم على تطبيق مبادئه مجموعة من القضاة Gaids، لا يعرفون تشريعاً غيره، وهذا الإدريسي يترأس المحكمة التي ترفع أمامها الدعاوى القضائية، وهذا الرجل يحصل من الأزهر على أعلى الشهادات في العقيدة والقضاء، ويشرف عليه الأزهر، وهذا الرجل لا تنظر إليه على أنه رجل السلام في منطقة غرب الجزيرة العربية؛ بل هو من أكثر رجالاتها علماً، والمؤسسة التعليمية هنا هي ما يعرف باسم الكتاتيب Katubs، ويقوم بالتدريس هنا شيخ يعلم القرآن وأحاديث الرسولﷺ، وشيء من الحساب، ويبدأ اليوم التعليمي مع بداية ظهور الشمس وينتهي مع اختفائها، لأن تكاليف الإضاءة لا يقدر عليها غير الأغنياء القادرين على شراء زيت الإضاءة، وتقرع الطبلة ثلاث مرات تنذر الأهالي بالتزام مساكنهم حتى الفجر.

إن النظام والقانون كانا يطبقان جيداً في مخلاف اليمن؛ ذلك الذي يحيط بإقليم الإدريسي، والتي تسير من سابيا Sabya إلى إقليم جيزان Jizan، ولكن خارج هذا الإقليم فإن الرحالة أو المسافر، إذا كان رجلاً شخصية مهمة، لابد أن يصحبه حراس من القبائل، وتطبق كل أحكام القرآن الكريم بحذافيرها، بقطع رأس القاتل، والسارق تقطع يده، أو يده ورجله، وذلك حسب حجم جريمته، والشريكان في الزنا يدفنان في الرمل حتى امتداد الزراعيين ويرجمان، بالطوب حتى الموت، والمتشاجر يدفع غرامة قدرها خمسة ريالات، ويجري اختبار الكذب باستخدام قضيب من الحديد الساخن على اللسان، ويؤدي المسلمون الصلاة خمس مرات في اليوم، والتدخين محرم، ولا توجد

هنا مقاهي، ولا راقصات، وفرقة المغنين الوحيدة من الدراويش Derwishes شاهدتهم في أقصى جنوب اليمن؛ حيث يعيشون هنا مستوى من حياة الحرية والتحلل من القيود.

في عسير لا توجد أضرحة، والعائلات المثقفة ثقافة دينية من الأسياد هم أصحاب النفوذ خلال هذا الصراع الطويل مع الأتراك، ومع بيت حسن أبو الريش تضاءل دورهم، وأهميتهم في ظل حكم أسرة الأدارسة المتشددين، والإقليم الذي يمارس عليه الأمير سيادة كبيرة أو صغيرة عبارة عن شريط امتداده حوالي ٢٧٠ ميل يمتد بعد برك Birk جهة الشمال بحوالي عدة أميال، ويسير نحو الداخل إلى موحيل Muhail؛ حيث تتحول الحدود جنوبا وتتعدى أبها Ebha العاصمة التركية القديمة، التي تقع على مسافة سبعة أميال نحو الشرق، وتسير محاذية للساحل مسافة حوالي ما بين ٥٠ إلى ٦٠ ميل منها، عبر جبل سيرات Sirat، وجبل شاحل J. Shahil، وجبل ملهان J. Milhan، وعند آخر نقطة فيه تتحول غربًا نحو عمير جنوبًا من مروة Marawa، ويصل الساحل على بعد أميال قليلة من الحديدة.

عندما كنت في عسير عقد الإدريسي معاهدة مع ابن سعود في الرياض؛ بمقتضاها حددت له حدوده الشرقية، ومقابل ضمان هذه الحدود تصبح حرية التجارة بالدخول أو الخروج من موانئ عسير للسلع التي تخص الرياض، ومعظم الزكاة على الماشية من عسير شقت طريقها عبر الجبال لمواجهة خطر المجاعة التي كانت تهدد نجد، وكانت علاقات الإدريسي طيبة مع الملك حسين؛ رغم أن الحسين كان يقدم مساعدة سرية لمحمد حسن، ابن عيض وقبيلة بني موعيد المتمردة ضده، ولكن في كفل Qufl، وفي جبل ملحان J. Milhan، وجبل ريما J. Rima دخل الأمير في حرب بسيطة مع الإمام يحيى في صنعاء الذي احتل الإقليم الجبلي، وهدد الأدارسة من جهة

الشمال في صعده Sada، ورغم ذلك فإن قبائل حاشد Hashid، وبقل Bekil الذين كانوا يسيطرون على الحافة الرئيسية تحالفوا مع الإدريسي، وذلك لأجل ضمان وتشجيع تداخله مع ابن سعود حتى يقوم ابن سعود بغارة أخرى في اتجاه اليمن.

اليوم جهز الإدريسي ١٥,٠٠٠ رجل في الميدان ضد الإمام، ومعه قبيلة القراصنة قبيلة الزرانيق التي تعيش عند حدوده الجنوبية، وهناك احتمال أنه في حالة الظروف الطارئة، يستطيع أن يرفع هذا العدد إلى ٣٠,٠٠٠ رجل، قدرنا عدد سكان المنطقة الخاضعة لسلطانه بحوالي مليونين، وقدرنا دخله من عوائد الجمارك بحوالي ١٢٠,٠٠٠ جنيه إسترليني في العام الماضي، وتقدر قيمة الأعشار تقريبا حوالي ٢٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني، حكم البلاد مقسم بين واحد وعشرين من الآمال Amils، وهم عبارة عن مسئولين مدنيين، كل واحد مسئول عن الإقليم التابع له، ولكن في واقع الأمر تقع كل السلطة الفعلية في يد الإدريسي، وحيث إن كل شيء يعرض عليه في صبايا Sabya، وتجري عمليات إدارة الحكومة عن طريق تنقل الإبل بين العاصمة وبين المدن وعواصم الأقاليم.

تقع صاباي على بعد حوالي ٢٧ ميلاً من جيزان شمالاً تقديراً، تسير السيارة دون استخدام مؤشر السرعة، وهذه المدينة بالإضافة إلى أهالي القرى التي حولها يبلغ إجمالي تعداد المنطقة ٢٠,٠٠٠ نسمة، وهي مقسمة إلى مدينتين مستقلتين عن بعضهما، في حضن اثنين من التلال الصغيرة، وهما عكوة اليمنية، وعكوة الشامية، أكد لنا الأهالي وجود الزمرد هنا، والمدينة القديمة تتألف من أكواخ ذات قمة مدببة (عريش) نفسها في جيزان، وتقع عند قاعدة جبل شامية Shamia، أما المدينة الجديدة، والتي يعرف أن بناءها كان على أساس تخطيط الأمير، تزداد حجماً وأهمية بطبيعة حال الإدريسي ووزرائه، يحيى

زكريا، والحكم فرعين من بني مصارحا Bani Masareha، ومحمد يحيى باساهي، وهو رجل نشيط وطرد من مركزه، وأثرى على حساب الدولة، والرجلين بنيا لأنفسهما مساكن من الطوب اللبن، ومن الحجر المزخرف واجهته بالجص، السيد أحمد الإدريسي، وهو المؤسس الحقيقي للطريقة الإدريسية (الأحمدية) قبره في صابيا في قبة صغيرة، يهتم بها الأهالي، ويعتبروها ضريحًا، والمكان يتمتع بالاهتمام يشكل بسبب ما لأهل السنة شيء من القلق.

رغم الجدل والنقاش الذي استمر تقريبًا تسع ساعات تخلله احتساء الشاي خمس مرات، كل واحد أيد بشكل مختلف، ورفض الأمير علنًا أن نتوجه شمالاً، ومن هنا اقتنعنا أن نسير في الإقليم الواقع شرقًا وجنوبًا؛ إن هذا الحزام المتموج أو المسطح من أرض تهامة Tehama، والذي تظهر فيه أول التلال فجأة، ودون أن ترى ارتفاع، ولو خفيف تدريجي عند قواعد تلال الحجاز Hejaz، يقطعه عدد من الأودية التي تسيل هابطة نحو الساحل، وتدريجيا تلتوي عندما تقترب منه، وقد رأيت هذه الأودية من الشمال إلى الجنوب، وادي داماد Dhamad، وادي جيزان W. Jezan؛ حيث يلتقيان عند عيون ماء هافاعر Hafair الذي من مسافة ميلين يزود الميناء بالمياه، وادي خولاب W.Khulab، له حافة تحمل نفس الاسم، ووادي داماغ W. Damagh ووادي طاشر W. Tashar، والذي يبلغ اتساعه حوالي ثلاثة أميال عند مصبه، ووادي حيران W. Heiran وله رأس وادي حبل W. Hable وهو زراعي خصب، وهو ملك للشيخ سيد مسعد، وهذا الرجل من أثرياء عسير، ووادي باحس W. Bahis، تراه من فوق قبة الوالي الصالح باناجي Banaji؛ حيث توجد مقابر دفن فيها مجموعة من اللصوص الذين كانوا يقطعون الطريق هنا، ووادي العين W. Ain، ووادي مر W. Mur، توجد لاحيا Lahia بين مصباته الكبيرة الكثيرة،

وادي سردود W. Sardud الذي تغطية أشجار كثيفة منها الميمور[١]، والطرفاء والتمر هندي، ثم وادي أنيس W. Anis بالقرب من الحديدة.

بعد وادي جيزان W. Jizan أعلى هذه الأودية في الكثافة السكانية؛ حيث توجد عند مدخله على مسافة عشرين ميلاً تسعة قرى مدينة أبو الريش Abu Alrish، وفي الداخل قليلاً توجد ثمانية قرى أخرى، وكل قرية منها تتألف ما بين أربعة عشر إلى مائة كوخ من القش، يحيط بها سور بسيط، وعدد سكانها يتراوح ما بين خمسين إلى خمسمائة نسمة، والغلة الزراعية الأساسية في الوادي هي الذرة، والدخن والسمسم، وأنواع من الخضروات، وهنا يزرع القنب الهندي، إلى جانب النباتات العطرية والفل؛ حيث تشتم رائحة قوية هنا، ومع ارتفاع مستوي سطح الأرض يزرع القمح، وبعض الشعير، ومن التلال يأتي البن، والموز، والورد، والعنب، واللوز، والبابايا، والتفاح، والبطيخ، ويزرع الأرز في منطقة وازات Wa-Zat، أما القطن فتزرعه قبائل الحشابرة Hshabira، وهو قطن طويل التيلة، أشجاره مرتفعة، وحيث أنهم لا يعرفون طريقة غزل ألياف القطن هنا، فإن القطن الخام يقوم برحلة ذهاب وعودة، وتقوم الحكومة بعمليات نسف الصخور الملحية في التلال الصغيرة، والصناعات الوحيدة هي النسيج باستخدام النول اليدوي، وأعمال الصباغة؛ بالإضافة إلى الصناعات المعدنية المشهورة في كل من زيدية Zediya، وصابيا Sabya.

يحمل المقاتلين خناجر مصنوعة محليًا، مطعمة برقائق من الذهب، أو الفضة، ويد الخنجر من القرون المطعمة بأحجار تقليدية للجواهر، وهذا السلاح منتشر في التلال، منها ما هو العقيق الأبيض، والعقيق الأحمر، والأخضر التفاحي، والعقيقي، وهناك أشكال من

---

(١) **الميمور**: من السنطيات (المورد).

مقابض الخناجر مزخرفة بشبه حصوات مطعمة بقطع أشباه الحفريات المتحجرة من نبات السرخس، وأهل المدينة فئتين، وهما الأشراف والتجار، ومعظمهم مهاجر من حضرموت، المولدين Mumallad، أو الأحرار ترى فيهم ملامح الدم الأسود، وهؤلاء يصرون على أنهم من العرب، أما الرقيق فإنهم من الحبشة، أو من الصومال، والخدم Alkhdam، وهم من طبقة الحمالين، يقدر الشخص منهم على حمل مقدار ٥٠٠ رطل، وهناك خدم من اليمنيين، وهؤلاء لا ينتمون إلى الرقيق، أو إلى الخدم، ومظهرهم خفيف معتدل القامة، يحلق شعر ذقنه، والبشرة لامعة، لونها أصفر، يضع الواحد منهم فوق رأسه قبعة على شكل جمجمة مخططه تسمى فوتاح Futah، ويحمل سيفًا.

هناك مقولة مؤداها أن المرأة والحلاقين واليهود من الممكن سفرهم في أمان، لأنهم لا يحملون سلاحًا، ولكني لم أقابل يهوديًا حتى وصولي إلى الحديدة؛ حيث فيها التقيت مع مجموعة من اليهود ضربهم الفقر، وهم من الحرفيين جاؤوا من صنعاء، وهم مسموح لهم أن يرتدوا لباسًا واحدًا يشبه قميص النوم، ولا يجلسون في وجود وجهاء العرب، وللأمير حرس يتألف من حوالي ٥٠٠ رجل من أقوى رجال أبو الريش Abu Alrish، ومن صابيا Sabya، وهم يمثلون نوع من الجنس العربي النقي في البلاد، والرجال من ذوي البنية المتوسطة، فيهم رشاقة وخفة لون بشرتهم زيتوني، ملامحهم عادية، أنوفهم مستقيمة طويلة، والجباه عريضة يبدأ من عندها شعر الرأس مسترسلاً إلى الوراء، مجدولة على الكتفين، وبدو الساحل مختلفين عن هذا النمط، ولكن أهل الداخل ملامحهم خشنة، وقابلت بعض الناس من جبل حوراس J. Huras ذوي أكتاف عريضة بدينة، وهم لا يختلفون عن أشكال البشر الوحشية في وسط أفريقيا، أصحاب الشعر المجعد، والجبهة الضيقة والملامح الضخمة، أما عن بدو تهامة

يرتدون جزءً من جلود الأسد، وتلتصق في جدائل شعورهم أعشاب عطرية، يدهنون أجسادهم بالزيت، ويحملون الرماح الطويلة؛ رغم وجود البنادق في بلادهم، والمشتري يختار ما بين الإنجليزي، والألماني، والإيطالي بمقدار ١٢٥ جنيه إسترليني.

وأنه باستثناء تحالفات جبلية من أمثال قبيلة حاشد، وقبيلة بكل Bekil، فإن البدو أشباه وثنيين، على الفطرة، يحملون معهم أحجار سوداء تمائمهم: مسلمون بالاسم، وليست لهم طريقة محددة، ولقد رأيتهم يؤدون الصلاة، يجعلون اتجاه مكة خلف ظهورهم، ورأيت بعضاً منهم يعبد الشمس، هناك كثيرين يعبدون الطبيعة، وهم يؤمنون بالفأل الشؤم، والجن والجنيات التي تظهر في شكل غيلان، والأهالي من سكان التلال الجبلية يعتبرون جنس نقي، بشرتهم داكنة، والملامح تشبه الرومانية، نشيطين، يرتدون الخوذة الزرقاء المعروفة باسم فوتاح Futah، وعلى أكتافهم يتدلى جزء من جلد الماعز، وهم لا يتزوجون من غير أهليهم من أهل السهول، ومعظمهم من الزيدية.

ولقد وجدنا في مدن تهامة معظم الطرق المشهورة؛ بالإضافة إلى طريقة الإدريسي، هناك الرشيدية، والقادرية، والصدرية، والمغانية، والرفاعية، ولكني لم ألمس تمسك شديد بالعقيدة، هم يكرهون الأجانب بشدة، ولذلك كان انتقالنا من قرية إلى أخرى يمثل تعاقب معارك صغيرة، وبسبب ذلك تحفظهم بهويتهم أكثر من تعصب، كانوا يصيحون في وجوهنا أننا لسنا أبناء آدم، وأننا لسنا مسلمين، ورغم أنني سرت في هيئة امرأة مصرية أرتدي الزي التقليدي الأهلي، كنت أسمع صيحات لعنات النسوة تطاردني أنني كافرة، وأنني مسيحية.

إن المرأة الإدريسية من الطبقة العليا معزولة كلية عنه في مثيلاتها من الدول العربية التي زرتها، عدا نظيرتها في الكفرة

Kufra، لا يخرجن من بيوتهن إلا للزواج، أو تصير إلى قبرها، وكلا الحالتين في حالة العرس أو حالة الموت لا تخرج العروس إلا ليلاً، تخرج الجثة ليلاً، وينظر أهالي المدن إلى أهالي الريف على أنهم همجيون، ورغم أنهم يعتمدون عليهم في الحصول على احتياجاتهم الغذائية، إن الأرض لسكان القبائل، وهم يقومون بتربية أعداد من الماشية، ومن الأغنام، ومن الإبل الصغيرة النحيلة التي تستطيع أن تحمل مقدار ٧٠٠ رطل، وسعر الفدان هنا يتراوح ما بين ١٠٠ إلى ٣٠٠ دولار، وهذا المقياس أكبر منه في المقياس المصري، تنتج الأرض ثلاثة محاصيل من الذرة في العام، ويصل متوسط إجمالي الإنتاج ما بين ١٢ إلى ١٥ أردب للفدان، وهذا هو إنتاج الأودية، وحيث إن الإقليم خصب في إنتاج المحاصيل وتربية الماشية، فإن الأسعار بسيطة، سعر الناقة ٤ جنيه إسترليني وسعر الغنم ستة بنسات للواحدة، وسعر سلة التفاح ١/٥ فارذنج[١] والقمح ما بين ٢١ رطل إلى ٢٥ رطل، سعره بنسان لكل مقدار، والذرة ٣٢٥ رطل سعره أحد عشر بنساً، ولا توجد بغال، ولا توجد إبل للسباق في الإقليم، ولكن توجد حمير لونها رمادي، مستوردة، وهي وسيلة النقل الأساسية؛ ذلك لأن سلالة الخيل المحلية قليلة، وصغيرة الحجم، وتوجد أعداد من خيول الاستيلاد مستوردة من نجد، ولكن باستثناء هذه الخيول لا أشاهد أنواع جيدة من الخيول في الإقليم.

المنطقة محرومة من طريق ممهد، وهناك درب يسير بامتداد مواز للساحل يسير بعيداً عن الشاطئ بعدد من الياردات، تستطيع سيارة الأمير السير عليه، وبعد حوالي ٢٠ ميلاً في الداخل هناك درب آخر من صابيا sabya عن طريق أبو الريش، وحرضه Haradha، وزور Zahra، وزديا Zediaya إلى الحديدة.

---

(١) **الفارذنج:** قطعة نقدية بريطانية سابقة تساوي ١/٤ بنس.

وهناك أيضا اتصال محدود، عدا ما يكون بين القرى التي تشكل في مجموعها مدينة وادي، وبسبب قلة الاتصال فإن شيوخ قرية صغيرة في غالب الأحيان لا يعرفون أسماء زعماء قرية أخرى على بعد أميال من هذه القرية إن عالمهم محبوس داخل دائرة صحراوية محدودة، وأملهم في الاتصال بالخارج بوجود بقع منتشرة من حشائش جافة وشجيرات قصيرة وسط الصحراء.

لم أشهد أي نوع من الحيوانات البرية غير الغزال؛ إلا أنه شاهدت طائر البشروش على الساحل (شبيه النعام) والصقور، والنسور، والغربان.

كلما دخلنا جنوباً في اليمن، تتغير طبيعة البلد، القرى بيوتها أكواخ من عيدان القش؛ مثل المسكن الإنجليزي يغطيه نبات اللبلاب؛ بالإضافة إلى نبات اليقطين المتسلق، وحولها حدائق نخيل الدوم، أو أشجار كثيفة من أنواع سدب Sadab والأرض Erdh، والصند Sandh وفي هذه الصحراء تنتشر سهول يغطيها الحشائش، وشجيرات البروم Broom، والميموسا Mimosa تنتشر وكأنها مظلة كبيرة، وشاهدت أشكال من الزهور البرية، وفي بعض البقع تنمو المحاصيل على امتداد الطريق؛ هذا حيث كانت تهامة تضيق ما بين جبل ملحان J. Milhan، والساحل يسيطر على هذا المضيق وادي سردود W. Sardud الخصيب.

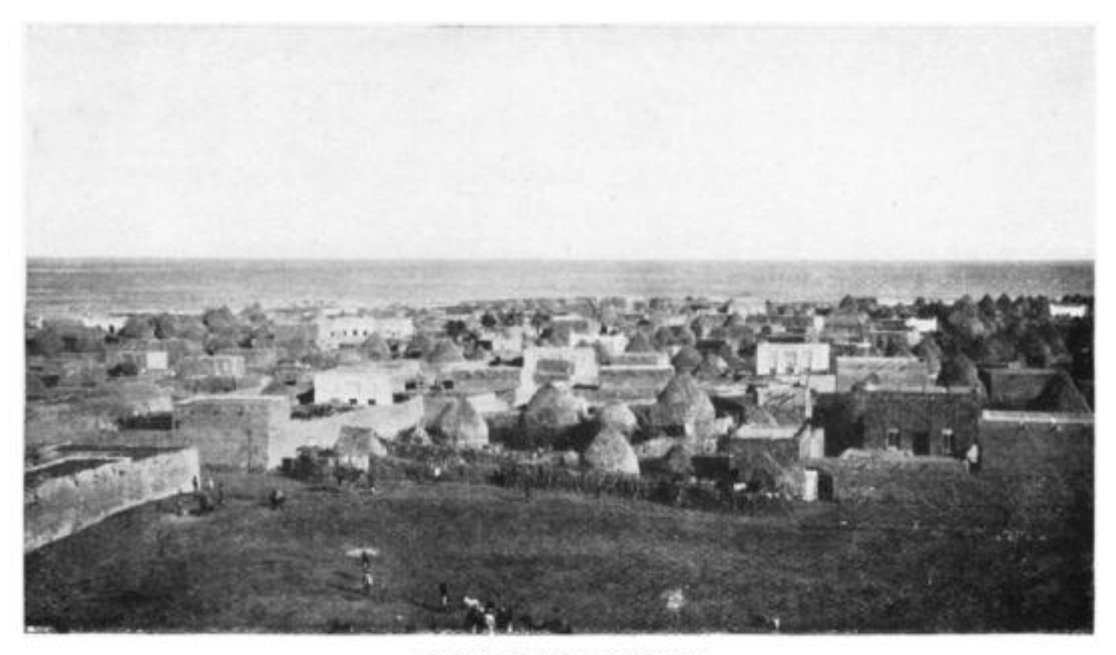
جدير بالملاحظة أن المناخ لم يتغير كثيراً في تهامة في الفترة التي تواجدت فيها هناك، كان متوسط درجات الحرارة عند الظهيرة حوالي ٨٤ درجة ف، وكانت هناك رياح جنوبية مضادة، ونادراً أن تهبط الحرارة عن درجة حرارة ٢ أو ٣ ف عند الفجر، ومتوسطها ما بين ٧٥ إلى ٧٦، ويسقط المطر في يونيو، ويوليو، وأغسطس، وهنا

مباشرة يبدأ موسم بذر البذور، وأحيانا تسقط أمطار في فبراير، ولكنها لا يعتمد عليها.

إن الحياة في اليمن الشمالي في جملتها تختلف عن الحياة في عسير باستخدام القات، وهذه الشجيرات تنبت في العروض عند ارتفاع ٤٠٠٠ قدم، وتحتوي أوراقها على مادة منبهة من الكافيين القوي التأثير، وتقوم قوة من إناث الإبل برحلة يوميه لنقل هذا النبات من أعالي التلال إلى المدن في الأودية والسهول، وهنا تشاهد مساكن من القش؛ حيث إن الجو لا تقدر على وصفه من الحرارة الشديدة، ومن العرق، ومن رائحة النبات، والرجال هنا يدخنون النارجيلة، ويمضغون أوراق نبات القات فترة وسط النهار مدتها ثلاث ساعات، والرجل من الأثرياء ينفق في اليوم الواحد ما قيمته جنيه إسترليني واحد على القات، والشحاذ ليس من العلماء Alms يستهلك عدداً من الأوراق يومياً، ويستتبع فترة التنبيه باستخدام القات إلى فترة من القلق والملل، والناس هنا يسهرون حتى وقت بعيد من الليل، ومن هنا فإنهم لا يستيقظون مبكراً لأعمالهم، وأي واحد يريد أن يسافر متعجلاً ينتظر حتى صلاة العشاء، في هذا الوقت يكون تأثير المخدر في أعلى ذروته، ومن الواضح أن القات يؤثر على طبيعة الناس في جملتها، إن الحياة في عسير تتمتع بالاقتصاد في الإنفاق وبالبساطة، والاعتدال، وذلك بخلاف أسلوب الحياة في اليمن، والرجل المسن من الأسياد يجمع من الزوجات مائة تقريبا، وذلك لتحصيل عدد من الفوائد، الطلاق هنا أمر سهل، وشرعه الإسلام، وهو أمر شائع هنا في جنوب ميدي Midi، ويوجد عدد من الأضرحة في موينرا Munera، وفي مروا Marawa، والمنصورية Mansuriya، وفي قطاي Qutai، ويتجمع حولها الحراس (المناسيب) وهؤلاء معروفين بالقوة البدنية الخارقة، أما المساجد مثل التي في لحية Lahia، فهي مساجد كبيرة ويزينها القباب، وهنا تكثر المقاهي لأجل التسلية والتدخين، إنها حياة

آكلي اللوتس، وبذل المجهود في العمل قليل، وترى النسوة في الشوارع يرتدين ملابس بسيطة، يحملن في الخصر مجموعة من الأجراس التي تحدث صوتًا كلما تحركن.

ووصلنا عند مجموعة من الآثار القديمة في رحلتنا؛ مثلاً في ابن عباس شاهدت لوحة عليها نقوش بالخط المسماري، وفي ميدي Midi شاهدت إناء من المرمر أخرجوه من بين الحفريات قبيل وصولنا، وفي حرض Hardh شاهدت بعض أشكال الكلاب من الحجر في أحجام مختلفة، وأخرجوها من بين الحفريات أيضا، ورأيت بعض النقود السبئية والحميرية، وهذه شاهدتها كثيراً، وفي الإقليم الذي تغطيه الأعشاب حول ميدي Midi شاهدت مجموعة من القبور تعود إلى عصر ما قبل الإسلام، وهي عبارة عن كتل من حجر المونوثليت دون وجود نقوش، ترتفع عن الأرض ما بين ثمانية إلى ثلاثة أقدام، والقبور في خطوط بفضل استخدام كتل صخرية أخرى.



THE PORT OF JIZAN



MERCHANTS' HOUSES IN MIDI



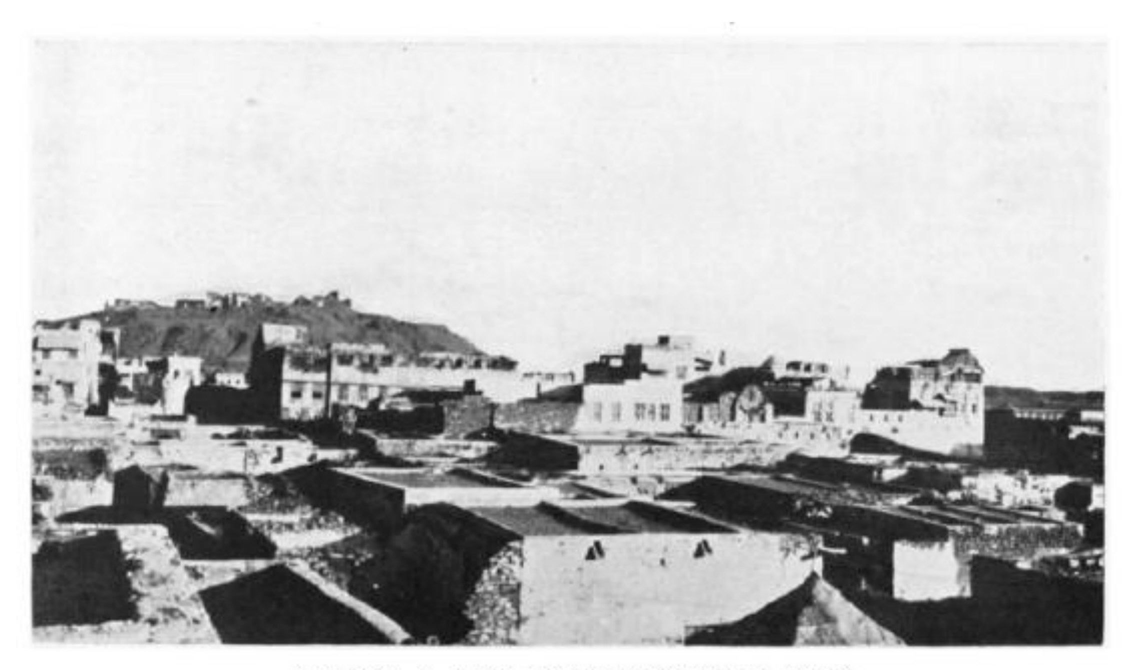
A TYPICAL YEMEN VILLAGE



A TOWN ON THE EDGE OF THE FLAT TEHAMA



LAHIYA, A CITY DEAD SINCE THE WAR



LAHIYA, A CITY DEAD SINCE THE WAR



WOMEN WATER-SELLERS IN THE LOCAL STRAW HAT

Sketch-map of Yemen and 'Asir.

T

الرحلــة الثامنــة

رحلة في جبال تهامة، وعسير، والحجاز

المؤلف: و. ثسجــر W. Thisiger

المصدر: المجلة الجغرافية - ديسمبر ١٩٤٧م - ص ١٨٨ - ص ٢٠٠

في عام ١٩٤٥م بعد أن أمضيت شهرين في أرض نجد القاحلة الجدبة، سرت بسرعة عبر أرض تهامة من جده Jidda، إلى جيزان Gizan، ومنذ ذلك الحين يثير خواطري أن أتذكر هذا الشعب الغريب، في عام ١٩٤٦م طاردتنا حرارة الصحراء من منطقة الربع الخالي Empty Quarter؛ حيث عدت أحمل أكاليل سباق مغري مشوق.

ففي أبريل، ومايو، ويونيو كلفتني وحدة مقاومة الجراد في الشرق الأوسط Middle East Anti Locusts Unit للقيام برحلة امتدت ٩٥٠ ميل، قطعت فيها جبال تهامة وعسير والحجاز، ابتداءً من القنفدة إلى حدود اليمن، ثم العودة عن طريق أبها Abha إلى الطائف Taif، في يونيو ويوليو من عام ١٩٤٧ سافرت بالإبل من القنفدة على امتداد الساحل إلى صابيا Sabiya وجيزان، ومن هناك عن طريق أبو الريش Abu Arish إلى جبل فيافا J. Faifa، وعبر منطقة معقدة هي منطقة جبال الطاليد J. Al Talid إلى الظهران، ومن الظهران عرجت على نجران، ثم إلى أبها، والمعلومات التي جمعتها من هذه الرحلة أضفتها إلى المقال وإلي الخريطة.

بدأت الرحلة من وادي أحسبة W. Ahsaba شمال قنفدة، وكان بصحبتي حرس بتكليف من الحكومة، وهو من خدم الشريف؛ بالإضافة إلى صبيان لخدمة الإبل، واستأجرت أربعة من الإبل، على طريقة أهل تهامة، كانت مربوطة بحبل من الذيل إلى الرأس أثناء سيرها، لم يكن مسموحًا للإبل أن تأكل العشب، كانت هناك شبكة تكمم الفم، فلا تأكل إلا بتقديم عيدان الذرة من خلال فتحة في الشبكة، وكانت الإبل تحمل عيدان الذرة على أحد جانبي الهودج، وكانت عملية توفير هذا العلف صعبة ومكلفة، وإبل تهامة قادرة على حمل أشياء ثقيلة، ولكن الطريق الذي نسير فيه الآن وعر، والسير فيه صعب

ومشقة فوق الصخور، وكانت الإبل تشرب يوميًا مرتين في اليوم في هذا الجو الحار، واعتاد العرب على السفر في هذه الصحراء ليلاً؛ بل كانوا ينامون فوق ظهور الإبل(١)، وكانت الإبل تسير مستخدمة الدرب دون كلل، رفضت السفر ليلاً؛ رغم شدة الحرارة، لأن السفر ليلاً سوف يقلل من ملاحظاتي ومشاهداتي.

سرنا من أحسبه W. Ahsaba إلى ماخوا Makhwa، وفي وادي سهلي جبلي كان يسكنه بعض من قبيلة العبادلة Abadala من الأشراف، ولكن الطريق الآن دخل منطقة صخرية تتناثر فيها القرى بعيدًا عن بعضها، وتقل فرص الزراعة، وأمامنا على مسافة توجد جبال الحجاز، وبالقرب من هذا المكان توجد قمتين من الجرانيت هما شذا يمانية Shadha Yamani وشذا الشامية، وترتفع قممها إلى حوالي ٨٠٠٠ قدم، وتراهما من عفار Afar، هنا يزرع البن على هذه الجبال؛ رغم أنه على نفس المستوى لا يزرع أي شيء جهة الشمال، أما عن قرية ماخوا Makhwa فإن مساكنها من الحجر من طابق واحد، وأهم أيام الأسبوع فيها يوم الثلاثاء يوم السوق(٢)، تقع ما بين شضا Shadha ومنطقة صخرية وعرة من الأودية؛ حيث تلال متصدعة تتوجها آثار قرية قديمة، وفي منطقة بني عمر Bani Omar، وهي تخضع إداريًا لضافر Dhafir، وهنا الماشية والأغنام، والماعز، وعدد قليل من الإبل، والحمير تعرض للبيع، بالإضافة إلى الحبوب، والبن، والملح، والأقمشة، والأواني الفخارية، والحصير المصنوع من سعف النحيل، والخضروات، وعسل النحل؛ بالإضافة إلى الأعشاب العطرية،

---

(١) كانت جيوب السرج التي توضع على ظهور إبل تهامة طويلة وواسعة، وعندما كانت تمتلئ بالأمتعة وتستوي على ظهور البعير تشكل سريراً يصلح للنوم.

(٢) أذكر هنا بعض أماكن الأسواق وأيامها، القنفدة: الثلاثاء، وادي أحسبة: الجمعة (اليمني)، الأحد (الكرما)، وادي يابس: الاثنين، (غامد) الثلاثاء، (بني عيسي) وادي دوقا: الأحد، بني صحيوم الاثنين، بني بوهير: الأربعاء، بنيمونتشر (الخميس)، عوامل الأحد، شمران السبت، بني رزق الأحد، عمارة الثلاثاء، أهل سليمان الأربعاء (في النخل) الثلاثاء (في الجوف).

وإلى هنا يأتي رجال القبائل من آل غامد Gamid وآل زهران Zaharan، قادمين من الحجاز بأعداد كبيرة، يحملون سيوف طويلة، يرتدي الواحد منهم ما يعرف باسم السمق[1]، مزركش ومطرز حسب ما يجري في الحجاز بالخيط الأحمر، ومعظم هؤلاء يحلقون شعر رؤوسهم، خصلات شعرهم جعلوها عصابة للرأس من الأعشاب العطرية، إنهم كآخرين يضعون فوق رؤوسهم ما يشبه المنديل (عقال) مربوط على الرأس باستخدام رباط من الذهب أو الفضة.

تركنا مخوا Makhwa، وسرنا عند الأطراف الدنيا للتلال مع الجدار العمودي للمنحدر الذي يرتفع فوقنا حوالي ٣٠٠٠ قدم، هذا الإقليم يتبع جزءً قويًا من قبيلة غامد Gamid، التي يعيش معظمها في الجبال الواقعة جهة الشرق، تنتشر مزارع هذه القبيلة على امتداد وادي باتات W. Batat الذي جهزت ضفتيه للزراعة، وتستمد المياه اللازمة لها من الآبار ومن الفيضانات، عبرنا وراء وادي باتات رأس القانونا The Qanuna ودخلنا إقليم بلعريان Bal Aryan، وهذا إقليم جرانيتي خصب تحرسه عدد من أبراج المراقبة والحراسة، وصلنا في اليوم التالي عند نقطة صغيرة تابعة لثوريابان Tharaiban، وهنا استقبلنا الأمير استقبالاً كريمًا، ومن هنا سرنا مستغلين برودة الصباح وسط حشد من أبناء القرى على ظهور الحمير، ومعهم إبل محملة إلى سوق الثلث Suq Al Thuluth الذي يقع بين الصخور الجرانيتية، وتلال من جلاميد صخرية على جوانب اليابا The Yaba، وهذا الوادي مليء بأشجار النخيل، وهنا تزرع الذرة الجيدة؛ بالإضافة إلى السمسم، وكلها تشرب من الجدول الذي يصب في الوادي، وهنا يوجد سوق العمارة Amara، وهي قبيلة لا تختلف عن عرب تهامة، يرتدي أهلها ملابس قصيرة من جلد الأسد حاملين السيوف، وشعرهم

---

(١) **السمق**: ثوب خارجي فضفاض يرتدي فوق الملابس لحفظها من الاتساخ(المورد) المترجم.

الطويل تزخرفه أعواد من الأعشاب العطرية، الموجودة في السوق، شاهدت قليلاً من الرجال، ومعظم النسوة ترتدين قبعات مصنوعة من القش، ولاحظت أن الرجال بدينين عراض الأكتاف، والنسوة على عكس ذلك طويلات القامة، وهنا قمنا بعبور النهير؛ حيث التقينا بصبي واعي جميل، وكأنه الإله فون[١]، يغني على الناي الذي ملأ صوته حدائق النخيل، ودخلنا إلى إقليم صخري قفر وإلي تلال جرداء؛ حيث تنتشر أشجار سنط الأكاكيا، والتي كانت عارية من الأوراق، ولكن تملأها الزهور.

استمر سيرنا في هذا الوادي المنعزل إلى أن وصلنا وادي حات W. Hat؛ حيث الأراضي المزروعة التي تتبع قبيلة حميدة في بارك Barik، وهم مثل قبائل حميدة Humaidah في بارك Barik، وهم مثل قبائل عمارة Amara، ويسكنون مساكن جيدة البناء، ذات السطح مستوية هذه القبائل المستقرة عندها بعض الإبل، وبعض الماشية، وأعداد من الماعز والأغنام، وهم فلاحين يزرعون الذرة أو الدخن، إما في سهول صغيرة ترويها الفيضانات، أو يزرعونها على جانب الأنهار الصغيرة، ووراءهم توجد قبيلة آل جبلي، Al Jabli، وهؤلاء يعيشون على ضفتي رافد حيلي Hali من وادي جبلي W. Jabli، وتحولنا عن هذا المكان ووصلنا إلى حيلي Hali، وكنت شديد الاهتمام أن أتبع هذا الوادي حتى أصل إلى الساحل لأجل أن أزور قرية عرب تهامة.

الآن وقد تركنا الإقليم الزراعي، ودخلنا في أرض البدو The Badu، وهذا الاسم تعرف به قبائل رعوية سكنت في إقليم وعر يقع ما بين الجبال والسهل الساحلي، وهؤلاء بالدرجة الأولى أصحاب قطعان من الأغنام، وهناك قليل من الماعز، ومن الماشية، وعدد قليل من الإبل، ويقومون بزراعة بقع صغيرة على امتداد ضفتي الوادي،

(١) **Faun الإله فون:** أحد آلهة الحقول والرعي عند الرومان (المترجم) المورد.

وهنا في هذا المكان لم أر خيام من الشعر Sh-ar الأسود مما يوجد في وسط الجزيرة العربية في هذه المنطقة غرب جبال الحجاز؛ لأن قبائل البدو Badu تسكن مساكن مصنوعة من الحصير، وتعرف باسم خدور Khadur، والأثاث الأساسي في هذه المساكن عبارة عن أشكال أسرة من الحبال، وهؤلاء البدو Badu، منهم الطحاحين Tahahin، وربيعة Rabia، ومسيفرة Musaifara، وبني هلال Bani Hilal، ومنجحا Minjaha، وإلى الجنوب فصائل البدو Badu من بني نمر Bani Numar، وشحرن Shahran، وقحطان Qahatan، وخولان Khaulan، ثم أخيراً ريث Raith وفي الماضي القريب كانت سمعتهم سيئة؛ لأنهم كانوا قطاع طرق، ويستخدمون العنف، ولكن تغيرت طبائعهم بشكل غير طبيعي بسبب خوفهم من ابن سعود، يرتدي الرجال الملابس القصيرة شبيهة بجلد الأسد مصبوغة باللون الأخضر، أو الأزرق، أو اللون الأحمر الفاتح، أما النسوة تضعن فوق رؤوسهن قبعة من القش ذات حافة قصيرة، ولقد وصلنا ديار الحلي The Hali عند الامتداد المعروف باسم حلوية Halwaiya، وهنا يتدفق نهير صافي إلى أرض الوادي عبر منطقة قفرة وعرة، حول هذا الأرض حشائش الحلفا، وبعض من شجيرات سنط الأكاكيا الراقا Raka، والماراخ Marakh، وذات الزهر الأحمر الماضا Madha، وشجرات أدانا Adana، ذات الزهور الجميلة فوق جذوع عارية؛ بالإضافة إلى أشجار المر Myrrh، الغربيون[1]، الألوه[2]، كل هذه الأنواع تنمو عند قواعد التلال في الأرض الوعرة القاحلة، وهنا شاهدت أيضا البجع Pelican، وطائر الملاعقي Spoonlill، وطائر أبو منجل اللامع Ibis، حول مجرى هذا الجدول الذي تجري في مياهه بعض الأسماك، ولاحظت أيضاً وجود اللقلق، ولاحظت وجود ثلاثة أنواع من البلشون، منها البلشون الأبيض، ومالك الحزين، وسنونو البحر، والغرعز

---

(١) **الغربيون:** نوع من الصباح (المورد).

(٢) **الألوة:** الصبر.

(الدجاج الحبشي)، والدارج، (طائر شبيه بالحجل)، والخنو (أبو قرن)، وطائر الشقراق الحبشي، وآكل النمل، وطيور الشمس اللامعة، والنهس (طائر عريض المنقار) والثرثار (طائر بحجم الشحرور)، والوقواق، ونادرًا ما كان يظهر النسر، ويجري وادي حيلي Haili في ممر ضيق يعرف باسم حصن الطرفين Husn al Tarafiain، في السهل الساحلي الرملي، وأول قرية نواجهها هي صاباطا Sabata؛ حيث ينعقد فيها سوق يوم الأربعاء للوادي قلة، ويسكنها بني عامر Amer.

تتكون تهامة من سهل ساحلي ضيق اتساعه ما بين ١٢ إلى ٢٠ ميل، وتنقسم إلى تهامة الشام التي تمتد شمالاً من برك Birk؛ حتى ليث Lith، وتهامة اليمن، والمنطقة الصخرية الوعرة ترتفع ما بين ٥٠٠ إلى ٤٥٠٠ قدم، وهي تدخل ما بين تهامة الشام وبين الحرف نفسه، وتعرف باسم الأرض The Ardhi، وجهة الجنوب من أبها Abha، تعرف باسم حباتا Hibtat، والامتداد الجبلي في جملته يشمل عسير التي ترتفع إلى ما يزيد عن ٩٠٠٠ قدم، ويسمى جبال الحجاز، واسم القسم الشمالي يعرف بالشام، والجنوبي يعرف باسم اليمن، واسم الجبلي Jabali للجزء الشرقي، والبحري Bahri للقسم الغربي، وسكان تهامة يعرفون باسم التهاميين، يتمركزون على الأودية، التي تتدفق من الجبال، هم شعب مستقر، وعلى وجه العموم فإن الرجل لا يوزع أرضه خارج قبيلته، وفي حالة أن يكون للرجل أبناء بالغين كبار له أن يبيع أرضه دون الرجوع إلى موافقتهم، والأبناء الذكور متساويين في الميراث، وللبنات النصف، وجهة الشمال توجد الأودية الرئيسية، ومنها ليث Lith ودانجا Danga، أحسبه Ahasaba، وقنونه Qanuna، ويابا Yaba، وحيلي Hali، ويعد الأخير –حيلي- أهم هذه الأودية؛ حيث إن منطقة الصرف واسعة تمتد من صحاري Shari في الشمال إلى طايا Taiya في الجنوب، والذي يفوقه في الاتساع وادي بيش W.Baish؛ بالإضافة إلى الأصغر منه إيتواد Jtwad، وظامر Dhamad، وهما واديان رئيسيان في تهامة العسير، وفي العادة أن التهاميين

يطلقون على أنفسهم اسم واديهم، على سبيل المثال سكان وادي حيلي يعرفون باسم الحيلان Halaun، وأهالي وادي يابا يعرفون باسم اليابانا Yababana، والأودية سكنها قبائل كثيرة مختلفة، ففي وادي حيلي هناك أربع قبائل كبيرة وهم العلويين Alawina، وصاحب Sahab، وكنانة Kanina، وعمر Aumar، وفي وادي يابا Yaba، بني يعلى Bani Yala، والنواشرة Nawashira، وبالعير Bal-Air، وشردي Shardi في وادي أحسبه W. Ahsaba يسكنه عبادلة الأشراف، وادي لوما Luma سكنه زبيد Zubiad، وصعدا Sada، وادي دانجا .w Danga يسكنه بني خيرية Bani Khiryra، وموشك Mushaik وحرازية الأشراف Haraziya، ووادي قانونه W.Qanuna يسكنه بني زيد Banizaid، ووادي ناوان W. Nawan يسكنه رواشد بودا Ruwashid Buda، ووادي كرما W.Qurama تسكنه زبيد Zubid، وادي عمق W.Aumq يسكنه بني هلال. هذه القبائل لا تزعم لنفسها أصل واحد، ولكنها تتوحد تحت راية واحدة وقت الخطر على الساحل الرملي، وأول قرية نواجهها هي صاباطا Sabata؛ حيث ينعقد فيها سوق يوم الأربعاء لوادي مكة، ويسكنها بني عامر Amur.

وهذه القبائل لا تزعم لنفسها أصل واحد ولكنها تتوحد تحت راية واحدة وقت الخطر، وهنا عدد كبير من الرقيق بين الأهالي خاصة في تهامة العسير، ولكن اليوم معظمهم أصبحوا أحرار ويمتلكون أرضا، وفي السنوات التي يحدث فيها جفاف لقلة المطر فإن الأهالي يهاجرون إلى أي مكان في تهامة حيث يرحب بهم الآخرين يقدمون لهم المحاصيل ثم يعودون بعد ذلك إلى ديارهم حاملين معهم الغلال، وفي السنوات التي يعم فيها الرخاء هؤلاء الناس فإنهم يستقبلون في ديارهم هؤلاء الذين استضافوهم، وهذا النظام الطيب يسير على الأرض من جيزان حتى ليث، ولقد واجهت عائلات من المنطقة حول صابيا Sabya على الطريقة إلى القنفدة، لا تتعرض الأودية الصغيرة باستمرار لسنوات الجفاف، ولكن وادي حيلي Hali ووادي بيش .W

Baish يعتمدان سنويا على الفيضان، ففي العام الماضي لم يستفيد وادي حيلي من الري وبالتالي فإن السكان في بيضان Baidhain هاجرو من المكان، ولكن السكان لم يذهبوا إلى وادي يابا W. Yaba والفيضانات التي قد تحدث في عدة شهور ولكنها عادية في فصلي الشتاء والخريف، تحتجز وتوزع على مساحة واسعة على عدد من هذه الأماكن التي تعرف باسم زابر Zabir، ويحتاج الأمر إلى اهتمام متواصل، وهذه الفيضانات لا يمكن السيطرة عليها، وقد تحدث حالات من الدمار عندما يسيل الفيضان ويجري على المحاصيل.

تعد الذرة والدخن المحصولين الأساسيين، الذرة تزرع في الأرض ذات الرواسب الغرينية، والذرة تحصد خمس مرات في الموسم الزراعي الواحد، خلال رحلتي في تهامة عام ١٩٤٧م تأكدت شخصيا من هذه المعلومة عندما رأيت المحصول الخامس من الذرة في وادي حيي في شهر يونيو، أما الدخن الذي تجهز له الأرض بالحرث باعتباره محصول يعتمد على المطر على أرض تسمي أرض الخبت Khabat، أو الأرض الرملية بين الأودية، والذرة تحصد للمرة الأولى بعد فترة ثلاثة شهور من زراعته، ثم بعد ذلك يحصد مرة واحدة كل شهرين، ولكن هذا لا يسير على الدخن الذي يحصد مرة واحدة بعد ثلاثة شهور، وعيدان الذرة، وليست كعيدان الدخن، عندما تجف تصبح علفًا جيدًا، والمحصول ينضج في شهر يوليو وأغسطس؛ حيث يستخدم للغذاء للسكان؛ لأن الرياح الحارة تؤثر على نوعية المحصول بعد ذلك، والسمسم يزرع عند أطراف أرض الفيضان؛ حيث يزرع أيضًا القطن، والفول وأهالي تهامة لا يعرفون نظام الدورة الزراعية؛ بل يقومون بالزراعة عندما يقع الفيضان، وتوجد عدد من الحدائق حول بعض الآبار؛ حيث تزرع الطماطم، والباذنجان وصوابع الست، واليقطين، والبطيخ، والبطيخ الحلو، والأعشاب العطرية، ولا يوجد هنا بصل أو ثوم، أو فلفل أحمر، وهنا شاهدت الليمون، والعنب، والبرقوق، والرمان، والموز، والبطاطس، والأعشاب؛ مثل البرك Birk والأشعر

Ashar، وكل هذه المحاصيل تذهب إلى السوق من الحجاز، وأشجار التمر قليلة، وتظهر بشكل أوسع في وادي يابا W. Yaba، وعلى امتداد الساحل ما بين عمق Amq، وقمحه Qahma ، ومحصول التمر يستهلك محلياً؛ حيث يصل عن طريق البحر، أو من واحات بشا Bisha، أما عن نخيل الدوم، الذي يصدر إلى الخارج، ويباع في هذه الأسواق لصنع الحصير، والحقائب، والسلال، والحبال فإنه يزرع هنا في وادي تهامة عسير.

إن أهالي تهامة عندهم القليل من الإبل، ومعظم الإبل يمتلكها قبائل في شمال قنفدة، إنهم يستخدمون الماشية في أعمال الحرث، وفي شق قنوات الري، ولقد عرفت أن الرجل الغني عنده ما بين ثلاثين إلى أربعين رأس من الماشية، ومن الواضح أنهم يمتلكون أكثر مما رأيت، وكانت هناك أعداد معقولة من الأغنام، وبعضها كان يعهد به إلى الجيران من البدو Badu لرعيها، وحول القرى كانت تنتشر أعداد من الدجاج، وكانت الحمير وسيلتهم المفضلة وبالاعتماد عليها يقطعون مسافات طويلة في وقت قصير، وكانوا يعتمدون عليها في جلب المياه من الآبار في جرار فخارية معلقة على الجانبين، وكانت عيدان من الأغصان اللازمة للوقود قليلة؛ حيث كانت توجد مناطق من أشجار الأراك Arak، والطرفاء، والسدر؛ حيث يزرعونها لأجل ثمارها، كان هؤلاء العرب يسكنون أكواخ من القش، من حجرة واحدة تبنى في جملتها من فروع الأشجار؛ دون الاعتماد على سنادة عمود في الوسط، ويغطي الجدران من الداخل طبقة من الطين المخلوط بالقش مع وجود حبل رفيع يمسك الطين، وكانت البيوت متجاورة في القرية، وهناك مساكن أخرى يوضع إلى جوارها حظيرة تصنع من عيدان الذرة، وكانت العادة أن يسير المرء وراء الناقة عند مروره في هذه القرى، أما عن أواني الطعام والماء، والأكواب، فكانت مصنوعة من الفخار المحلي، وكان لونها في العادة أحمر، وأواني الشرب كانت تصنع من الخشب، أما عن حصيرة

الجلوس والمعيشة مصنوعة من ألياف النخيل، وقربة الزبد مصنوعة من جلد الحيوان، وكانت تعلق حول جدران الحجرة برباط من الجلد، وكانت الأسرة تستخدم لاستقبال الضيوف وللنوم عليها؛ لأن الأرض كان يزحف عليها حشرة القراد، وكانت هذه القرى خالية من حشرات البق والبرغوث؛ كانت القهوة الحارة هي المشروب العادي، وفي العادة تملأ الفنجان مرتين للضيف، وكانوا يصنعون الخبز والعصيدة من دقيق الذرة، وفي حالة عدم توفرها يصنعونه من الدخن، وهذا هو الطعام العادي الذي كانوا يأكلونه مع الزبد، وكان الطعام العادي يتكون من الخبز الجاف والتمر، ولكن اللحم كان وجبة ترفيهية، واللبن نادراً، وكان من أهل تهامة بالمفهوم العربي أقل كرماً بالمعايير العربية للكرم وحسن الضيافة.

يرتدي الرجال ملابس شبيهة بجلد الأسد، ويحملون سيفًا في المقدمة، وفي غالب الأحيان تغطي يد السيف رقائق من الفضة، والكل يحمل السيف، ويكتسي الأطفال بالملابس منذ عمر مبكر، وكل الذكور حتى الأطفال منهم يلبسون حزاما من سير جلدي حول الوسط، وأذكر أنه ذات مرة جلس صبي على الطعام معنا، وكان قد نسي أن يربط الحزام، ومجرد أن اكتشف ذلك رفض أن يستكمل طعامه معنا، ويرتدون جاكت قصير فاتح اللون له أكمام ضيقة، ويرتدونها خاصة في الأعياد والاحتفالات، ومن الملاحظ أن الرجال والصبيان شعرهم طويل، يدهن بالزيت من بذور اللبلاب المطحون، وهناك رباط جلدي ضيق مطعم بالفضة، وفيه توضع عيدان الأعشاب العطرية حول رباط الرأس، إن أجسادهم قوية، لون البشرة قريب من لون البن، والشعر مموج طويل، والرجال والصبيان يتمتعون بحسن الطلعة التي تعطيك الإحساس أنهم مخنثون، تعلو وجوههم علامات البهجة والسعادة، والنظر إليهم يعطيك الإحساس بدماثة الطابع على المعايير العربية الأصيلة، وهؤلاء لا يقفون لتحية الضيف، وفي المجالس العامة يرقدون بشكل طبيعي، وفي حقيقة الأمر هؤلاء

طائشين ولكنهم ليسو وقحين، تنتشر هنا الملاريا، وروعني انتشار مرض الزهري بينهم ، وحالات كثيرة منه منذ الولادة، وهذه الحالات شاهدناها في وادي حيلي W.Hilay ولاحظت انتشار حالات التراكوما وحالات قليلة من التقيحات الاستوائية، وشاهدت حالات من التهابات الزائدة الدودية، ولاحظت وجود حالات من دودة غينيا، ولاحظت انتشار حالات منها حول صابيا Sabya.

وصلت قرية بيضان Baidhan ، وهي في مشياك Mushaik ، وكان الأهالي وجيرانهم يحتفلون بعملية ختان، وهذه المناسبة لها أهمية كبيرة بين كل القبائل، وتستمر الاحتفالية بالرقص مدة ما بين أسبوعين وشهر، وتجري العملية على الصبيان في الأعمار ما بين السادسة عشر والعشرين، وفي هذه المناسبة يتم ختان أربعة من الصبيان، وفي بعض الأحيان قد يصل العدد إلى ثمانية صبية، أو عشرة، وهؤلاء يرتدون ملابس مخصصة؛ سراويل مزركشة باللون الأحمر حول الكاحل، وتحتها جونلة بيضاء مربوطة بحزام من الحبل حول الوسط، وجاكت أحمر اللون، ويجتمع الأهالي في كل مساء وليلة، ويبدءون الاحتفالات بالرقص والغناء.

كان العازفين من الزنوج Negroes، وكانوا يعزفون على آلات منها الزلافة Zalafa ، وهي طبلة تقرع باليد، مع وجود طبلتين صغيرتين هما "الزير" Zair ، وتقرع بالعصا مع وجود آلتين هما السفراجا Safraga، وكان الرقص يسير على إيقاع الآلة الأولى الزلافا، وكان الرقص فردي وزوجي.

وكانت حركات الرقص ما بين الانحناء والسير متبختراً باستخدام السيوف تتعانق، وكان هناك صبيين يتعلمان الرقص بالتقليد، وهناك صبية آخرين يمارسون الرقص على أطراف هذا الجمهور، ووراءهم المحاربين مصطفين في خط واحد، رافعين

السيوف عارية لامعة، يرقصون نصف عراة في ضوء القمر على ضربات الطبول.

قبل إجراء العمليات بيومين ينطلق الصبيان فوق اثنين من الإبل، بصحبتهم رفاقهم تتقدمهم الفرقة، ويتجولون في القرى المجاورة، في كل قرية تكون هناك وليمة واحتفال راقص، ويجتمع حشد من الناس يوم إجراء عملية الختان، وبعد الظهيرة يرقص الصبيان ثم يدخلون مساكنهم.

وفي الوقت المحدد يخرج واحد يرتدي ملابس شبيهة بجلد الأسد، ويركب الصبيان فوق كتف واحد من الرقيق، وينزل أمام الحشد الصبي الذي يبدأ به العمليات ويداه مربوطتان، ويقوم بالعملية اثنان من الرقيق، ثم يركب الصبي مرة أخرى فوق ظهر العبد.

وتبدأ الموسيقي في الدق، ويطوف هذا العبد بين الحشد حاملاً الصبي بين يديه، وهو يؤدي رقصات مستخدماً يديه وكتفيه، ويقوم أحدهم باستعراض رقصة طويلة، والجدير بالذكر أن الصبي يكتم آلامه ولا يعبر عنها، وهذه العملية صدر قرار ملكي بتعديلها في هذه الأيام، وإن كانت لا تزال تمارس بشكل مؤلم موجع[١].

وبعد أن تركت حائلHail، وصلت قياد Kiyad؛ حيث يوجد سوق يأتي له كل القرى المجاورة للبدو Badu، وسرنا في انحناءة الوادي في منطقة تابعة لبني هلال، وأبناء هذه القبيلة ينتمون إلى سفاح

---

(١) عملية الختان بالسلخ، كان الجلد يسلخ من عند الصرة إلي ما بين الفخذين، وكان هذا يجري في تهامة حتى أربعين عاما مضت، ولا تزال هذه العملية يمارسها بعض قبائل البدو Badu، وهذه العملية عدلت في تهامة، وظلت تمارس حتى وقت قريب؛ حيث كان القضيب يسلخ كله، ولكن هذا العمل منع بناءً على أوامر ملكية، والذي يسلخ مقدار إصبعين تحت الجلد، حيث يقبض القضيب في كماشة ويقطع في منطقتين، قطع فوق وقطع أسفل، وهذا الجرح يطيب يوميا وتستخدم أوراق نبات السالا في تضميده، في عام ١٩٤٥م حكم بالعقوبة على اثنين من الصبيان في وادي جبل لامتناعهما عن ذلك بقطع أيديهما.

مشهور يعيشون اليوم في المنطقة البركانية ما بين ماهيل Mahiail، وبرك Birk، وقمحه، والرواية المحلية تنسب بطولات أبو زيد إلى منطقة الحيل Hail، ومقبرة ولده عزيز من الشائع وجودها هناك، إن عمليات قطع الطرق والقتل لا تزال حتى وقت قريب عمل مرتبط ببني هلال؛ بل إنه حتى يومنا هذا ينظر المسافرين إليهم نظرة توجس عندما يمرون من هذا الطريق عددهم قليل، ويعيشون حياة بدوية في هذه المنطقة البركانية، في الماضي حدثت انبعاثات بركانية من جبل شريف J. Sharif؛ حيث لا يزال يوجد الجزء المركزي من البركان في حالته، ولا يزال يوجد الحقل البركاني، نستنتج من حياته النباتية أنه يعود إلى عصر قديم، وهو يجري من هنا إلى البحر ما بين عمق Amaq، والرقبة Al Raqaba جنوب قمحة Qamha، ويوجد داخل هذه المنطقة حبحاب الشيخ Habahab al Shiehk المشهورة بالقرب من برك Birk، ومرة أخرى عبرنا حيلي Haili بالقرب من ماحيل Mahil، وهي قرية تتبع أبها Abha إداريًا، وفيها يوجد سوق هام ينعقد يوم السبت، وهذه القرية تقع على ارتفاع ١٦٩٠ قدم فوق مستوى سطح البحر، وتتكون من مساكن حجرية ذات طابق واحد؛ مثل غيرها من قرى الأرضي Al Ardhai، وفوق أسقفها المسطحة تنمو بعض الأعشاب العطرية.

ومرة أخرى استبدلنا الإبل؛ حيث إن الإبل لا يمكن أن تستأجر للسفر بعيدًا عن ديارها، وسرنا مع وادي طايع W. Taiya إلى عقبة شعر Aqabat Sha-ar، وصعدنا الممر فوق المنحدر إلى جبال الحجاز وادي طايع W. Taiya خصب يقوم بالزراعة فيه فروع مستقرة من بني ثور Bani Thuwar، وهنا صنعت الفيضانات لنفسها مجرى عمقه أربعون قدمًا عبر الرواسب الغرينية إلى القاع الحصوي، وهناك مجوعة من قنوات الري توصل المياه إلى كل المستويات، ومحصول الذرة الجيد حصل على حاجته من المياه من الفيضانات التي وقعت

قريباً، إن العواصف التي هبت على الجبال في الأيام الأخيرة جلبت إلى الوادي طبقة سميكة من الغرين أن نهاية طرف الوادي عرضها أقل من ٢٠٠ يارده، وهو صخري تسده صخرة جرداء من منحدر جبلي، إنه منظر خلاب، منعزل بعيداً، والصخور التي حول عقبة شعر تعطي لمعان فضي غريب، وعند طرف الممر، وهو مستوٍ سهل يوجد حلقة من القلاع التركية، وهنا وجدنا طريق جيد أعده الأتراك، يمتد من هنا إلى أبها عن طريق إقليم بني مالك، والقبائل التي مع بعضها تكون عسير هي بني مغيث Bani Mughaith، بني مالك، القام Al Qam، ربيعة، ورفيدة، وهناك قبائل صغيرة، وهم: أسام Asam، ورجال الما Rigal Al Ma تحت سودا Suda، وعلى امتداد الطريق، وفي أودية صغيرة بين التلال الصخرية، عدة قرى، وحقول القمح، والشعير، وحدائق الفاكهة، والمنازل مبنية من الطين، وعند السقف يوجد صف من الطوب الحجري حتى تمنع التآكل، وحقول المنطقة يحرسها عدد من أبراج الحراسة، هذه الأبراج بعضها مربع والآخر مستدير، وهي مبنية من كتل صخرية ضخمة مزخرفة بالكوارتز، وهناك أخرى مستديرة من الطين المزود حوائطها بالطوب البارز.

أبها مدينة صغيرة على ارتفاع ٧٥٠٠ قدم، فوق مستوى سطح البحر بنيت حول القلعة، وبها عدد من المتاجر، وهي مركز إداري هام يحكمها حتى اليوم سودياري التركي، وهو أكبر أبناء أسرة مشهورة تتولى إدارة جيزان والقنفدة وحيرة، والجوف، والظهران على الخليج الفارسي، ينعقد السوق يوم الثلاثاء، ويعد فريداً في ألوان الأشياء التي تعرض فيه، ويذهب النسوة مرتدين ملابس ذات ألوان زاهية، ويضعن على رؤوسهن غطاء فاتح اللون، ومن بين وجوه العرب الذين يحضرون إلى هذا السوق تشاهد وجوه من تهامة، ومن نجد في عباءة من صوف الإبل، ويأتي البدو Badu من الصحاري البعيدة جهة الشرق، أما عرب الجبال فيحضرون في عباءات مزخرفة، وعلى رؤوسهم

الأعشاب العطرية، ويأتي زوار من بلاد اليمن، ويحضر الرقيق من حراس الأمير، وهنا تعرض الحبوب، والجبن، واللبن، وخشب الوقود، والملح والحنة، غسول تبيض الملابس، والبن، والعسل، والتوابل، والأواني الفخارية، والمشغولات المعدنية، والحصير، والسلال والحبال، والملابس، جلود الماعز، والفاكهة والأعشاب وعلف الماشية، ويعرض القليل من الماشية للبيع، وهذه تباع في ركن مخصص لها، وفي هذه الجبال يبذر القمح (البر)، والشق (شعير) شتاءً، أما الذرة فتزرع صيفًا.

وصلت إلى أبها يوم ٢ من مايو؛ حيث كانت الحقول خالية من الزراعة، إلا بعض الأحواض من الذرة؛ رغم أن القمح والشعير لم يحصدان بعد، وكانت المنحدرات المزروعة في شكل مساطب، وهناك بعض الحقول ترويها الآبار، وهناك شاهدت من أنواع الفاكهة البرقوق، والمشمش، والخوخ، والكمثرى، واللوز، وكلها تزرع في الحجاز.

ومن هنا سافرت إلى الظهران، ووصلتها بعد رحلة استغرقت أربعة أيام ونصف، واجتزت أقاليم شحران Sharan وبعدها تامنيا Tamniya، ثم قحطان Qahtan[١]، وهما قبيلتان قويتان، لقد كانت رحلة ممتعة أن سرت على مرتفعات باردة، هواؤها منعش؛ حيث تتعاقب رؤية القرى في مشهد ممتع لا ينقطع، وهنا نجد تنوعًا في المساكن وطريقة بنائها بغية الدفاع، وهي من طوابق متعددة، ولكنها بنيت بشكل ممتع ومنسجة الجمال، كانت حجرة استقبال الضيوف باردة وواسعة، أسفل الجدران مزخرف بخطوط من الألوان؛ الأخضر،

---

(١) يسكن قحطان: بني بشر، روفيدة، بني شريف، سنحان، عبيدة، وداع، ومن قبائل شحران، تامنيا، مسقى، الجهرة، سيمان، وادي بن حسبان، نحاس، كوت تنطاطا، أطور، قرة، بني ماجار.

والأحمر، والأسود، وهم هنا يجمعهم فنجان القهوة، ولا يزالون على الفطرة لم يتأثروا بالغرب، وهنا قضينا ليالي ممتعة.

وبعبور ممر قواري Qawri، والذي على ارتفاع٩٠٠٠ قدم، وكان يزخرفه منحدراته الزهور، ووصلنا إلى الظهران في اليوم التالي، وفي نصف اليوم الأخير من هذه الرحلة سرنا على أرض صخرية بازلتية على قاعدة من الصخر الجرانيتي ترتفع الظهران ٧٥٠٠ قدم يميزها كثرة منازلها ذات الطوابق، وكانت ضيقة، وقد بنيت على امتداد وادي عرين W. Arin يزرع بعض البن، وتنتشر أمراض العيون بين سكان هذه المدينة، ومن هنا نزلنا وادي قاع Qa-a، وعن طريق ممر مفتاح الخشبة Miftal al khashab، وهو ممر وعر، وقبل أن تدخله عرفنا أنه يصعب على الإبل السير فيه، والجبال تكسوها الزهور البرية، وتنتشر أشجار الصنوبر على قمم المنحدرات، ويعد الوادي في إقليم استوائي عشبي؛ حيث تكثر دجاج غينيا، وتجاوزنا المنحدر الصخري في موشيات Mushaith، ووصلنا عند جلات الموت Jallat al Mout، وهذا مكان شؤم على ارتفاع ٣٥٠٠ قدم، وهو يقع عند التقاء وادي دفه W. Dafa مع وادي دهبة Dahaba في حوض بين الجبال المرتفعة، وفي خلال عامين توفي خمسة وأربعون جندياً من حرس الحكومة بسبب الحمى يعملون في هذه الموقع الإداري، وهنا في هذا الإقليم الواسع القفر يصعب الوصول إليه، وتكثر فيه الحمي، بين هذه القبائل المختلفة الذين دخلوا منذ عهد قريب تحت سيطرة الحكومة، هنا عينت الحكومة أميراً، وعدداً من الحراس لتطبيق القانون، وإقرار النظام تحت اسم ابن سعود.

يعيشون في شرق دفه Dafa بادون قحطان، وإلي الغرب يعيش الريث The Raith، وعزين Aziyin، وعلى حدود اليمن تعيش قبائل خولان من الثاليد Al Thalid، وبني مالك، وبني غازي، Bal Ghazi وجدتها كلها قبائل سخية الكرم، يختلف مظهرهم عن البدو Badu

في الأرضي Ardhi ظلهم خفيف، أنوفهم معقوفة يطلقون لحاهم، وهم يشبهون كثيراً البدو في وسط الجزيرة ،يرتدون قميصاً قصيراً يكاد يغطيهم عند الجلوس قرفصاء، يطلقون شعرهم، والذين لم يختتنوا يميزهم عن غيرهم وجود خط خال الشعر في الرأس، وهنا يؤخر الختان إلى سن العشرين أو الثلاثين؛ إلى أن يتزوجوا وينجبوا أطفالاً، مسلحون جيداً، ومعظم الأسلحة التي يحملونها بنادق إيطالية الصنع تعود إلى عام ١٨٨٩م، يعيشون في بيوت بسيطة مستديرة الشكل، مبنية من الحجر، سقفها من القش، وفروع الأشجار، يغطون هذه السقوف بجلد الحيوان؛ ليحميهم من أمطار الشتاء، لديهم قطعان كبيرة من الأغنام والماعز، وعدد قليل من الأبقار، والأكثر من الإبل عن قبائل الشمال، وعلى سفوح الجبال يزرعون البن، ومساحات قليلة من القمح، والذرة، والتبغ، ولكن على وجه العموم لا يمارسون الزراعة، يتبادلون السمن بالحبوب، والبن في الأسواق في تهامة، وعند الحدود اليمنية، ويجلبون هذه السلع على ظهور الإبل عبر ممرات وعرة وسط الجبال، وبدلاً من استخدام سرج من جلد الماعز، فإنهم يربطون هذه السلع فوق ظهور الإبل ملفوفة في الجلود.

يقع جبل فيافا على الحدود اليمنية، وارتفاعه ٦٠٠٠ قدم، وهو عبارة عن عدد من المصاطب؛ حيث يزرعون البن، والقات، والموز، والبيو والعنب والرمان والكمثرى، والذرة والقمح والشعير، ويجاوره جبل بني مالك، وارتفاعه ٧٥٠٠ قدم، وهو عبارة عن عدد من المصاطب؛ حيث يزرع البن والموز والذرة والقمح والشعير والقات، من جبل فيافا يباع في تهامة، وفي جيزان صابيا، وأبو الريش، ويعود بأسعار عالية، ولكن هذا النبات لا يزرع، ولا يستعمل في مكان آخر غير تهامة، والحجاز، أو عسير، والمياه في الجبلين غير كافية، وفي أيام سوق فافيا فإن عبوة جلد الماعز تباع بقيمة (أربعة ريالات ٥ سنت).

ومن جلات الموت سرنا عبر دفا الذي تغير اسمه اليوم إلى اسم بيش Baish، وتسيل الفيضانات ليلاً بعد العواصف الليلية، وهذه السيول عطلتنا كثيراً؛ لأن طريقنا الوحيد هو طريق هذا الجدول المائي، وصباحًا رأينا قردة البابون، وفي جماعات كبيرة، وشاهدت الأرانب البرية في كل مكان، والذئاب والضباع، والنمور ذات الألوان الخفيفة توجد هنا بأعداد كبيرة، وتنتشر أعداد كبيرة من الوعل في المنحدرات، ولا يوجد الغزال في منطقة السهل الساحلي، وسرنا حول المنحدرات الشديدة الشرقية والشمالية من جبل الريث J. Al Raith؛ حيث يوجد نخيل الدوم على هوامش الوادي، ويسير بشكل لا ينقطع عند أطراف التلال، وكانت الحرارة معتدلة، ويأتي الفيضان حاملاً الغرين الذي قد يصل ارتفاعه حتى ركبة المرء، ولا يصلح الماء للشرب، وبعد الوصول إلى السهل تحولنا جنوبا عند حاقو Haqu، وصعدنا إلى حروب Harub، والجو هنا بارد؛ حيث تقترب من السحب عند قيمة أرض آل عزين، ومنجد، وهنا يزرع القمح والشعير، والموز، والبابو في الوادي.

إن طريقنا إلى صابيا كان لابد أن يمر في منطقة الإدريسي عاصمة صابيا الجديدة، وهنا قصور مزخرفة تحولت إلى آثار، واليوم يدور الحديث حول العودة؛ لأن صابيا بالي Sabya bali تعاني من الفيضانات، وصابيا الجديدة مدينة من أكواخ القش مع وجود بعض المباني من الحجر، والقرى هنا أكبر عن القرى في تهامة الشام، وهي تغطي المنطقة المحيطة، والزراعة هنا في بقاع واسعة، والنيلة تزرع هنا على نطاق واسع؛ رغم أنه يقل وجودها في جهة الشمال، والصمغ المستخلص من هذا النبات يصنع باستخدام مراقد واسعة قرب آبار القرية، وجيزان التي تخضع لإدارة تهامة العسير، عبارة عن ميناء محلي، والقنفدة تعرف بأنها البندر Al Bandar، وهي تخدم المنطقة الشمالية من تهامة، والميناءين يهيئان مراسي للقوارب

الصغيرة التي تدخل إلى برك Birk، وقمحة Qahma، وهنا حضرنا يوم الثلاثاء يوم السوق في أم الخشب في وادي بيش، وهذا السوق من أكبر أسواق تهامة، وهنا يصنعون الخوذ من سعف نخيل الدوم، وهذه الصناعة تميز هذه المنطقة، وهذه الخوذة يلبسها الرجال؛ رغم أن كبار السن يفضلون لبس القبعات المصنوعة من القش.

والآن عدت إلى أبها عن طريق ممر عتواد Itwad ودهلي Dhli وشاهدت في هذا الوادي أعداداً كبيرة من الحمام، وكانت توجد من الطيور أيضا طائر الحباك[١]، وصياد السمك، والكروان، والأبلق المغرد، وهنا شاهدت النسر الخضم كاسر العظام، منتشر بين الجبال ينزل عند أطراف التلال حتى ارتفاع ٢٠٠٠ قدم، وهناك أنواع متعددة من الطيور البرية تتكاثر بين الصخور البركانية، وكلها تشكل الواجهة الغربية للجبل عند القمة الجرانيتية، والزهور البرية من كل نوع تنتشر على الصخور البركانية التي تشكل الواجهة الغربية للجبل، وعلى الصخور الجرانيتية عند قمة الجبل.

وحيث إن الطريق إلى الطائف Taif تتعثر قبة الإبل، اضطررت إلى شراء ثلاث حمير من أبها؛ ذلك لأن استئجارها يؤدي إلى التأخير عدة أيام، وكان طريقنا يقع عبر نوماس Numas، وظفر Dhair على امتداد القمة، وتوجد ممرات كبيرة، وعدد من جوانب التلال المنحدرة التي لا حصر لها، ومن هنا كان الركوب متعذر، وسرنا حوالي ثلاث أرباع الطريق إلى الطائف، وكان الأمر شديد الصعوبة بالنسبة لي، لقد تقطعت أوصال النعال الذي أرتديه، وليس في وسعي الحصول على غيره، وراء عقبة شعر Aqabat Shaar، الجبال تتكون من صخور جرداء، ولكن بالقرب من بيهان Baihan شاهدت غابة كثيفة من أشجار الصنوبر، وبعد رحلة تحت المنحدر، وبعدئذ على امتداد قمة الجبل إلى الظهران اعتقدت أن أشجار الصنوبر حول صودا

---

(١) **طائر الحبك:** الذي يحبك عشه (المورد) المترجم.

Suda التي شاهدتها العام الماضي، مجرد صدفة في مثل هذه الجبال القاحلة، خالية من الأشجار عدا شجرة الطلة Talh المتناثرة هنا وهناك، والآن لابد أن ألاحظ أنه شمال أبها، فإن قمة جبل الحجاز على امتدادها الطويلة غنية بالأشجار، وفي بعض الأماكن نجد أنها كثيفة منها الصنوبر، الزيتون البري، والرسي Rhus، والطلة Talla، يختلف ارتفاع هذه الجبال ما بين ٦٥٠٠ قدم إلى ٩٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وهي أعلى حول صودا Suda، وهضبة بيحان Baihan، والصخرة في جملتها من أصل بركاني، ولكن القمم العالية من أمثال جبل ماني J. Mani في تانوما Tanuma، وجبل كشنا Askn جنوب ضافر Dhafir، وجبل إبراهيم في بني مالك، وجبل بيدحان J. Baidhan في منطقة بني سعد كلها من أصل جرانيتي، وجبل إبراهيم تراه من مسافة قريبة، ويشد انتباهك أنه كتلة جرانيتية ناعمة تظهر فوق الهضبة البازلتية.

ومن حدود اليمن إلى وادي جدارة W. Jadara جنوب الطائف تجري جداول المياه من المنحدر القريب أحيانًا من ارتفاع ١٠٠ قدم من القمة، ونادراً أن يكون أكثر من ميل، وهناك شبورة مستديمة تغطي جبل تهامة، ويتصادف أن تكون كثيفة لدرجة أن طبقات الجروفات الرقيقة تسقط في فراغ ضبابي، وفي فصل الصيف هذا السحاب البحري يقلل من القدرة على الرؤية على الساحل البحري لمسافة طويلة، وتهب عند الصباح رياح غربية قوية، تتوقف عند الغروب، واستيقظت حوالي الساعة الحادية عشر، وتقل الرؤية طوال اليوم، والغطاء النباتي محدود على المنحدرات الشرقية؛ لأن التحدر رقيق جداً، صخري وخالي من التربة، في الأرض بقع صالحة للزراعة، نبات الهيث Heath ليس واسع الانتشار إلا الزهور البرية، ونبات العليق، والياسمين، ونبات ضريمة الجدي (نبات مفترس) وزهرة القرنفل، وهرة الربيع، والسرخس؛ بالإضافة إلى الحماض،

والقراص (نبات عشبي ذو وبر شائك) والبرسيم، وكل هذا ينمو على ضفتي المضايق بوفرة؛ خاصة في فصل الصيف، وروائح اللافندر، والسذاب (نبات طبي) تفوح رائحته في الهواء الدافئ، وهناك عدد من أشجار الصفصاف تنمو على جانبي الوادي بالقرب من ظفر Dhafir، وحينما تيسر الظروف فإن المنحدرات تحولت إلى مصاطب يزرع عليها محاصيل القمح، والشعير، والحنطة، والذرة، وهذه المحاصيل تعتمد على المطر عدا بعض الحقول تروى من الآبار، ويتم الحصول على الماء باستخدام حبل جلدي تجره الحيوانات من البئر باستخدام حبل طويل، وهذا النظام في الري معمول به في الحجاز وفي تهامة، ويزرع الكروم على تعريشات عند هذه الآبار، وكذلك تزرع البطاطس والطماطم، والكوسا، كلها تزرع حول نوماس Numas، والمطر قد يسقط في أي شهر، ولكنه في الغالب يسقط بشكل عادي في ما بين نوفمبر، ويناير، أو في أغسطس، وسبتمبر، وسقطت أمطار منذ فترة قصيرة جنوب نوماس عندما مررت بها، ولكن جهة الشمال كانت هناك رشات قليلة في فبراير.

وشمال عسير توجد با الأحمر Bal Ahmar، وبا الأسمر Bal Asmar، وبني شاحر Bani Shaher حول توماس، وبني عمر Bani Amr، وهذه القبائل في مجموعها رجال الحجر Rigal al Hagar يعيشون في مساكن من عدة طوابق، ومتمسكون بطريقة بنائها بالكتل الحجرية، وأحيانا يدهنون هذه البيوت بطبقة بيضاء، أو يزخرفونها مثلما هو شائع في الحجاز بطبقة من الكوارتز حول الشبابيك الضيقة، ووراء توماس تعيش القبائل في مساكن من طابق واحد، الصالة فيها واسعة، ورفوف هذه المساكن محمولة على صف من الأعمدة من خشب الصنوبر والأسطح مزخرفة بأشكال، ومدهونة باللون الأسود، وأحيانا يسكنون في حجرات صغيرة فوق حظيرة الماشية، ومعظم هذه الحجرات وراء حائط، وفي الطقس الدافئ ينام

الناس فوق سطوح هذه البيوت في الفضاء، هرباً من البق والبراغيث التي تملأ أرضية هذه المساكن.

وصلنا إلى نوماس في يوم احتفالية ختان، والعادة بين هذه القبائل أن الاحتفالية تسبق اليوم المخصص للعملية، وتجرى العملية على الصبيان في عمر ما بين العاشرة والثانية عشر، وكانت هناك وليمة جمعت كل الحاضرين، وذلك على عكس الاحتفالية في وادي حيلي Haily؛ حيث لم تعد وليمة، وكان هناك حوالي مائة وخمسون من رجال القبائل جاءوا حاملين بنادقهم، وأخذوا يطلقون أعيرة صوتية باستخدام فتيل من القماش، انقسم هؤلاء الرجال إلى أربعة فرق، وأخذوا يتبادلون الحركات في شكل منسجم، وهم يرقصون بنادقهم في الهواء، ويلتقطونها فيما بينهم، ثم يفرغون هذه البنادق، ويتدافعون لأجل شحنها مرة أخرى، ويقوم الفريق الآخر بتفريغها، كان المكان مزخرفًا بقوارير من المسحوق الفضي، وغير ذلك من الزخارف، وكان الصبيان يرتدون أجمل وأرق الملابس، وكانوا في مشهد شجاعة وسط دوامات الدخان، وكان هناك حشد من المشاهدين، وقد امتلأ المكان بالأصوات العالية، وقد احتشد المشاهدين حول الجدران والأسقف، وتمت عملية ختان الصبيان الثلاثة.

وبعد رحلة في ديار با القرن Bal Qarn، وبني كهثم Bani Kahtham، ودخلنا ديار غامد Ghamid الذي يقع وسط ظفر Dhaifir، وهي قرية صغيرة بنيت حول القلعة، وينعقد فيها سوق يوم الثلاثاء، ومنها تشاهد مشهداً جميلاً يصور شذا شامي Shadha Shami، وفي نهاية الوادي وجدت أن قبيلة غامد وقبيلة زهران أكثر قبائل الحجاز كرمًا، ووجدت أنه في غالب الأحيان في با القرن وبني خشعم Bani Khathiam يغلق أهل القرى أبوب منازلهم في وجه الغريب، ولم يكن سبب هذا تعصب ديني، كنت أرتدي الزي العربي،

ولم أكن موضع شك على مسافة قريبة، وفي مطلع الأمر كان مفترضًا أنني مسلم؛ رغم غموض أمري؛ لأنه من الغريب أن تقابل هذه الأرض غريبًا من أبناء عقيدة أخرى، وهنا يدخل الضيوف المنزل في حالة غياب صاحبه، ويكرمون أنفسهم، وأنه بين القبائل الكريمة تفتح أبوابها أمام الغريب، ولكن لا تنتظر الكرم من بني سعد بالقرب من الطائف، وتنتظر القليل منه من قبيلة بني مالك المجاورة، أنهم لن يقدموا الطعام، ولا يسمحون بالإقامة دون مقابل نقدي، ويقدمون العذر لأنفسهم بوجود أعداد من الحجاج اليمنيين الذين يمرون من الطريق، وهم لا يخجلون أن يبيعوا حتى ماء الشرب للحجاج الذين يحتاجون الماء عند مرورهم بالممرات المنحدرة.

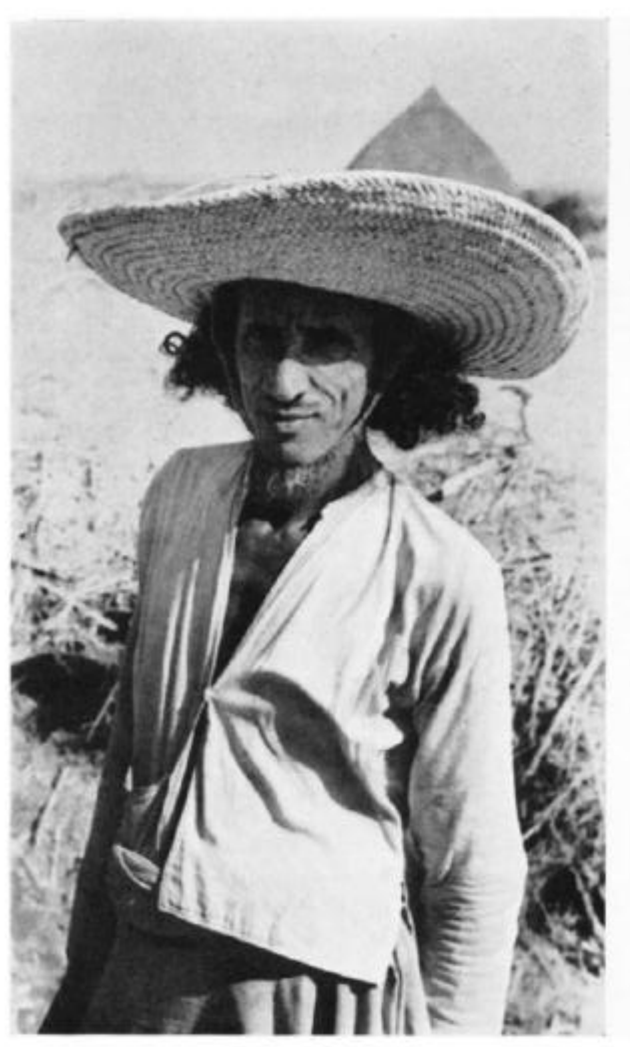
وصلنا الطائف يوم ٢٤ يونيو، وقد قطعنا مسافة ٣٠٠ ميل من أبها في مدة ستة عشر يوما، ووصلنا إلى نوماس في أربعة أيام، وظفر في ستة أيام، والطائف في ستة أيام أخرى، ومن ظفر هناك طريق للإبل يقع جهة الشرق ويصل إلى الطائف في أربعة أيام ونصف، ولكن هذا الطريق يستدعي أن تحمل مياه شرب تكفي ليومين، وهذا لم يكن ضروريًا في الجبال، لقد سافرنا في مشقة، وكنا نقطع عشرة ساعات سفر على الطريق في اليوم الواحد، وكان غذاؤنا الأساسي من خبز القمح والتمر.

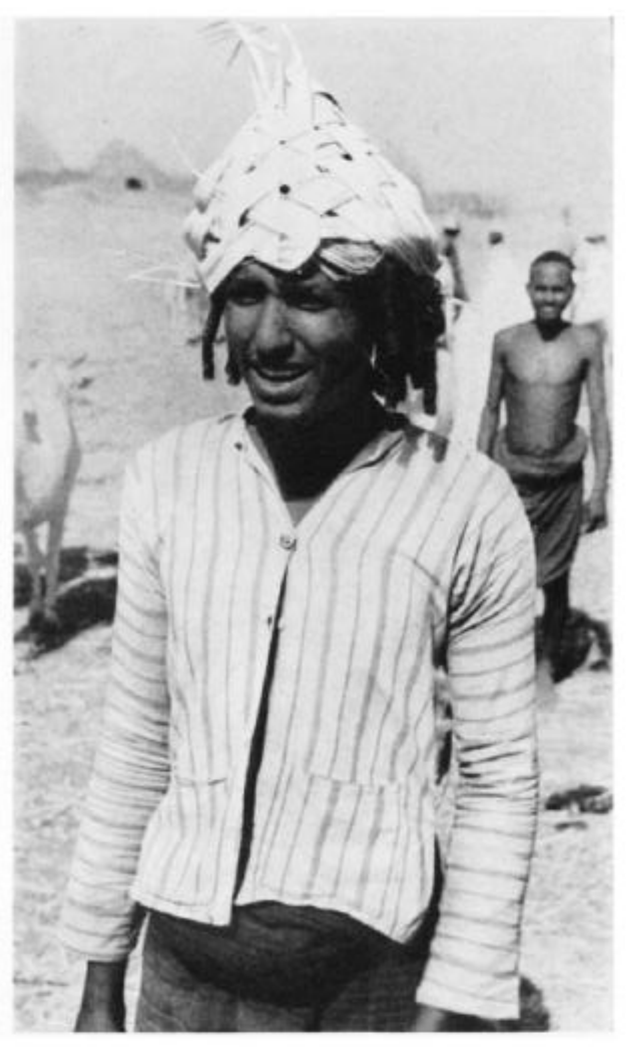
وأنه خلال هذه الأشهر الثلاث تمتعت بكل مساعدة من الأمراء الذين زرتهم، وتمتعت بالكرم الذي عرف به العرب، قطعت الطريق بين عدد من القبائل الذين اعتادوا أن يقابلوا القليل، لو أن الأجانب أو المسيحيين وأنا شخصيًا استقبلت دائمًا استقبالاً حسنًا؛ لأن الرحالة الذي يحمل تصريحًا من أبن سعود، يتمتع في كل مكان بالأمن والمساعدة.



On the Hijaz plateau. 'Abis village and cultivation in Qahtan country

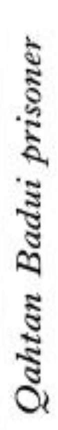
Wadi Baish near where it enters the Tihama from the Hibata



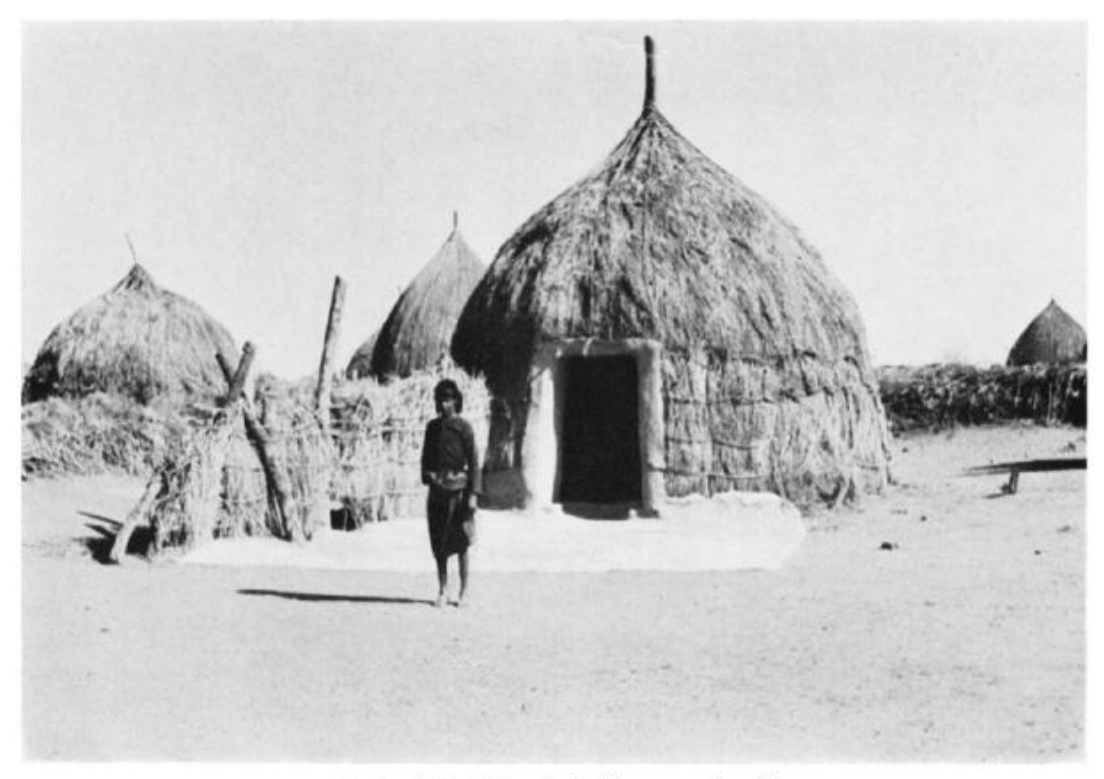


People of Tihamat al 'Asir, wearing straw hat and palm frond helmet

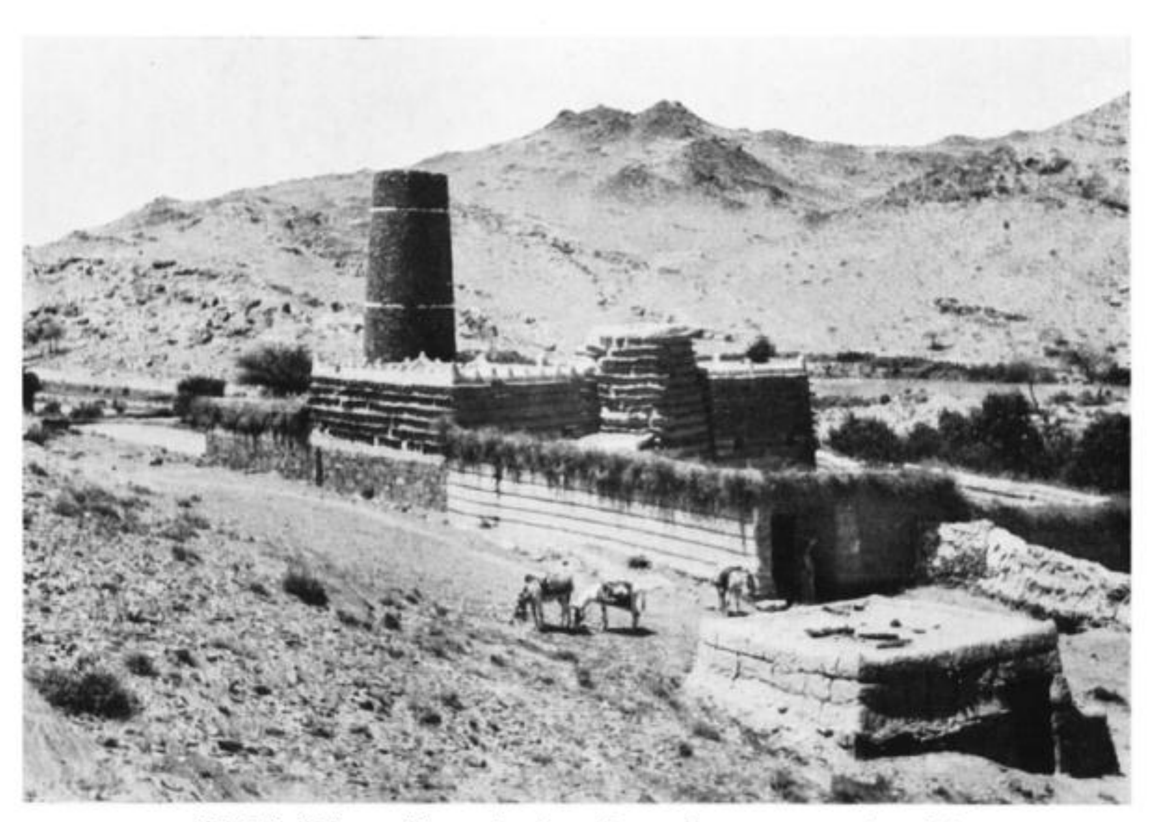




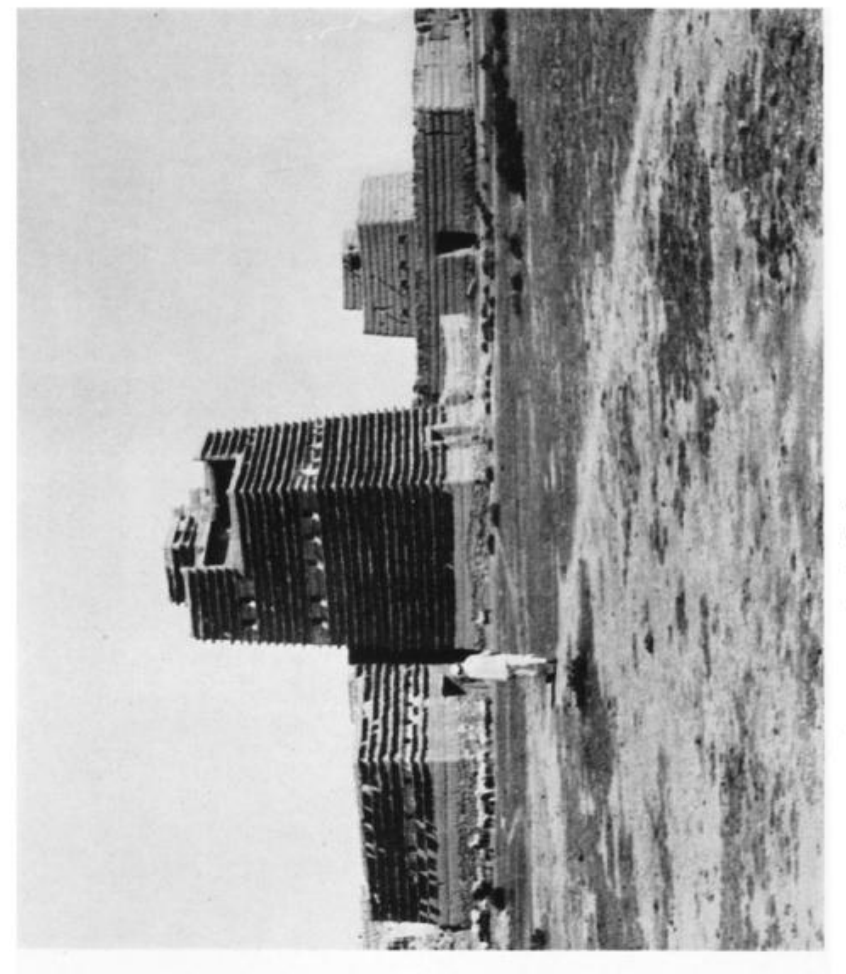
Qahtan Badui prisoner

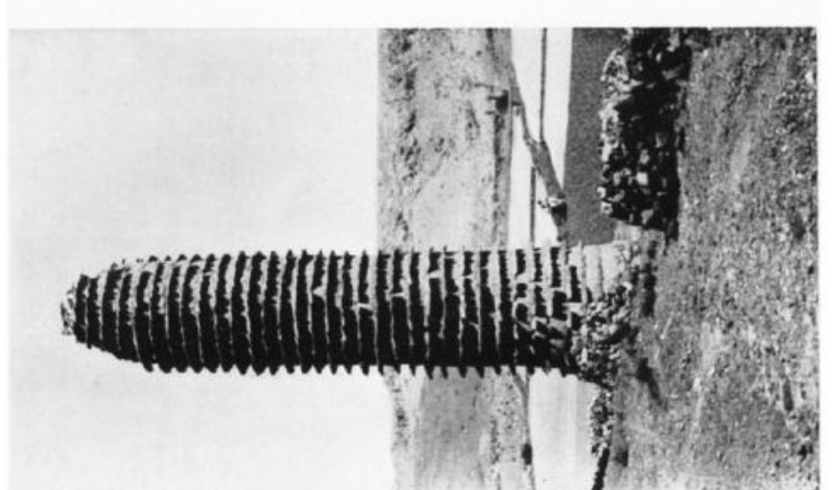


Typical dwelling in Tihamat al 'Asir



Mud building with projecting tiles and stone tower in 'Asir





Mud tower and house with projecting stone tiles in Qahtan country



The Geographical Journal, October — December 1947.
ARABIA
A journey through
THE TIHAMA, THE 'ASIR &
THE HIJAZ MOUNTAINS
in 1946 by W. Thesiger
Scale 1:1 000 000
Miles
10 0 10 20 30 40
Heights in feet from aneroid readings
Tribe names in red and sub sections listed and indexed
Wells and springs • Route
Ghamid Tribe
1 Bani 'Abdillah
2 Bani Kabir
3 Bani Dhabyan
4 Al Bisham
Cairo
ARABIA
Mecca
Massawa
Aden
Tribes of
Rijal al Hajar
1 Bani 'Amr
2 Bani Shahr
3 Bal Asmar
4 Bal Ahmar
Badu Tribes
1 Rabi'a
2 Tahahin
3 Musaifara
4 Bani Hilal
5 Minjaha
Shahran Tribe
1 Tamniya
2 Sirhan
3 Bani Mojar
Masqi
Wadi ibn Hashban
Nahis
Kaut Tistaha
Itwad
Qara
Al Jahr
Al Mussiriq
Qahtan Tribe
1 Rufaida
2 Bani Bishr
3 Abida
4 Shuraif
5 Sanhan
6 Wada'a
7 Āl al Siri
Khaulan Tribes
1 Āl Thalid
2 Bani Malik
3 Bal Ghazi
4 Harub
'Abs Qahtan Tribe
1 Āl Raith
2 Āl 'Aziyin
3 Āl al Haqu
Bani Mashur
Āl al Khulaif
Bani Thuwar
Abha
'ASIR
TIHAMAT AL 'ASIR
YAMAN
Qizan
Abu Arish
Sabya Bali
Sabya Jadida
Dhahran
very broken mountainous country
Geographical Society
SA'UDI ARABIA
Thesiger



41°
21°
20°
19°
18°
Taif
Liya
Al Mahdham
J. Katb al N'ad
Rakib al Usba'
Manifa
Dar Abu Rukba
Al Ya'qib
Dar al Hamra
Al Jasawari
Qariyat al Muhammad
W. al Khalf
Shidara
Al A'ta
J. Kauba
J. Hasin
Aqabat Gha'ith
Ghalyun
Shitafa
Shafyan Ibn Khufa
W. Arada
Jabal Ibrahim
Al Qa
J. Saihan
J. Kahla
J. Khudhaira
An Na'ama
Al Hala
Al Mandaq
Al Nasba
Rubu'at Assafa
Suq al Naqa
Al Dhafir
Al Huqair
J. Anis
J. Rubah
Shadh'a Shami
Shadh'a Yamani
Bani Sharfa
Makhwa
Bani Suhaim
Dar al Qarn
Al Asala
Al Rahwa
Al Zahra
Al Fauqa
J. Qidhana
Al Rahaita
Al Marrat
Al Garaya
Bal Aryan
Ibn al Muntashar
Al Rauhu
Thuraiban
Al Milha
Mashuqa
Al Jauf
Al Ghail
Maqharib
Suq al Thuluth 'Amara
'Amara
J. Tharban
J. Bakarattain
Humaidha
J. Qatrani
Al al Ja
Lith
W. Liyth
Zahran Tribe
1 Quraish
2 Bani Adhwan
3 Bani 'Amr
4 Bani Kanana
5 Bal Khazmar
6 Bani Hassan
7 Baidhan
8 Bani 'Umr
S A U D
Thaqif
Khiyara
Mushaik
Haraziya (Ashraf)
'Abadila (Ashraf)
Bainan
Al 'Uqda
Sha'ira
Umm al Khashab
Ugra
Salma'
Zubaid
Sa'ada
Bani Zaid
W. Yaba Tribes
Nuwashira
Mahamid
Bani Yata
Bal 'Air
Hasana
Shugaifa
Shardi
W. Qanuna
Umm Jirm
Qunfidha
Hadharib
W. Yaba
Suq Rubu'
Dar as Suda
J. Laini
Husn al Tarafain
Sabata
Amur
W. Amni
Manjaha
Kiyad
J. Hathgain
Talham
Bani Dhib
Maghshush
Abu Nakla
Bani Hilal
J. Rahban
Al Hajf
Bir Az'aqa
W. Dhirba
lava field
Arkh
W. Matla
W. Dhahaban
Qahma
Reaqaba
Shauf
Nuhus
R E D
S E A
'Asir
WADI HALI DELTA
Miles
Amur
Sabata
Salalima
Wadi Hali
Qar al Ahmari
Kadwat al 'Awaj
Kadwat al Ghuwanima
Al Shaib
Hadaba
Al Kaya
Mahazir
Qauz al Shahid
Manjaha
Radha
Al Fariq
Jaira
Kiyad
J. Hathgain
Sulb
Al al Sulb
Al 'Ajja
Salama
Barim
Al Ali
Bani Dhib
Mushaik
lava field
Baidhain
Talham (volcanic ridge)
Fasala
Ma'ashiya
Maghshush
Kinana
Bani Yahyah
Al Sanim
W. Kufaira
W. Shafqa
spring
W. Matarid
Marwa
Drawn by G.W. Whibley & K.C. Jordan
Published by the Royal

الرحلـــة التاسعـــة

رحلة في وسط الجزيرة العربية

الكاتب: ليتشمان Leachman

المصدر: المجلة الجغرافية مايو ١٩١٤م ص ٥٠٠ إلى ص ٥٢٠.

إن الرحلة التي تتناولها هذه الورقة البحثية جهزت للقيام بها في الأشهر الأخيرة من عام ١٩١٢م، وكان هدفي أن أقطع الطريق من دمشق نحو الجنوب الشرقي في اتجاه آبار لينا Liena، وهي فكرة طرأت على خاطري من خلال رحلة سبقت، ثم بعد ذلك أضرب الطريق جنوبا إلى القصيم Kasim، ثم بعد ذلك في هذا الاتجاه أواصل الرحلة إلى أن أصل الرياض العاصمة في قلب الجزيرة العربية، ومن ذلك المكان كان أملي أن أتوغل في إقليم لم تدخله قدم المكتشفين في الصحراء الواسعة Great Deasert، أقصد صحراء الربع الخالي Ruba el Khali إلى الجنوب، ولكن هذه الخطوة ثبت استحالة تحقيقها.

غادرت دمشق في مطلع شهر نوفمبر، وأخذت الطريق الذي كانت تسير فيه قوافل إبل البريد حتى شهر مضي، والتي كانت تقطع المسافة بين دمشق وبغداد، ومقدارها ٥٠٠ ميل في تسعة أيام، ولكن هذه الرحلة انقطعت، والرحالة الذين قاموا بهذه الرحلة بصحبة البريد لن ينسوا أبدا كم كانت رحلة قاسية، وهذا الطريق صرف النظر عنه بسبب تكرار الإغارات العدوانية التي كان يمارسها البدو، وكثيراً ضاع البريد، وأخذت حقائب البريد تسير من طريق آخر أكثر أمامنا وأطول -أعني طريق حلب-، ولقد كان بصحبتي فريق من عشرين أجيل Ageyal في طريق عودتهم إلى ديارهم في القصيم.

هناك اختلافات في الرأي حول معنى كلمة أجيل Ageyal اعتقد بعض الكتاب القدماء أنه اسم قبيلة في وسط الجزيرة العربية، ويبدو أن الاسم وصف لعرب القصيم الذين كانوا يعملون في تجارة الإبل، والخيول، والسلع التجارية ما بين الكويت، وبغداد، ودمشق، ومصر، ومهما يكن المعنى الحقيقي للكلمة، فالحقيقة أن الأجيل Agyeal

يستطيع أن يعبر كل شمال الجزيرة العربية؛ دون أن يخاف من شيء من إغارات البدو، ولسوف أثبت صحة ذلك الآن.

بعد أن رحلنا عن دومير Dumier، وهي قرية تقع أقصى شرق سهل دمشق، يسير الطريق فوق سهول مسطحة، وبين الحين والآخر تقابل حافة مرتفعة، والبرودة شديدة جداً في هذه السهول شتاءً، حتى كانت الجرار الجلدية Jirbas تتجمد فيها المياه في الصباح، وكنا نضطر أن ندفئها على النار قبل تحميلها، وإلا أنها كانت تسبب احتكاكًا في جلد الناقة، وفي الليلة الثانية بعد خروجنا من دومير، أخذنا نشق طريقنا في ليل حالك، والنوم يداعب جفوننا، وفجأة نجد الإبل ودون مقدمات تصطف في جانب واحد، وهنا عرفنا أنها اكتشفت قطيعا آخر قادماً، وهنا وقف واحد من الرجال يصيح بأعلى صوته: "سلاحكم"، وهذا أمر صحيح؛ ذلك أن معنا ثلاث بنادق، أما الفريق الآخر الذي يفصلنا عنه مسافة مائة يارده، سمع هذه الصيحة وبادر بالرد بإطلاق النار نحو قطيع الإبل السوداء، ثم تغيرت صيحة الاستنجاد بالمناداة على "الأجيل" Agyeal، وبالفعل وفوراً توقف إطلاق النار، واقترب الفريق للمواجهة، وثبت بالفعل أنهم غرازو Ghrazzu أي مغيرين من القبائل البدوية من قبائل وادي على W.Aly عائدين لتوهم من إغارة غير ناجحة، وهؤلاء غرازو Ghrazzu ينشطون في فصل الشتاء؛ ذلك أنه في هذا الوقت يحصلون على الماء من عدة بقع تتجمع فيها الماء بعد الأمطار الأخيرة، وهؤلاء غير مضطرين أن يعرجوا على أماكن للشرب معروفة؛ ذلك أن ظهورهم هنا يعرضهم للأخطار، وأرى على جزء من الرولة Ruwala، وهم فرع من عشيرة كبيرة من عنيزة Anaize، والرولة يشغلون الجزء الشرقي من صحراء بلاد الشام Syria، يجتازونه للقيام بالإغارات على الفرع الآخر من عنيزة، وهم العمارات Amarat أعداءهم، وفي اليوم التالي واجهنا فريقًا آخر من وادي علي كانوا في

عملية إغارة على منطقة دير الزور، Dur ez-zor التي تقع على بعد ثلاثمائة ميل عن ديارهم، وكان في صحبتهم عدد كبير من الإبل التي سلبوها.

وأثناء جولتنا داخل صحراء الشام، أصبح المكان أكثر جدبًا، وحيث كان الدرب يسير شمالاً نحو حمد Hamad نادرًا أن ترى الأعشاب معظم أيام السنة، السهل يغطيه الحصى البازلتي، كان خف الجمل يغوص فيه، وفي الربيع في كل الصحراء كانت تغطيها حشائش يصل ارتفاعها مقدار قدم، وفي اليوم الخامس من دمشق، في إقليم تغطيه الأودية التي تجري في اتجاه الشمال الشرقي، فإن الفريق المصاحب ترك الأجيل Agyel الذين كانوا يواصلون رحلتهم إلى بغداد، وهؤلاء لم يهتموا أن يحملوا معهم فوائد بيع الإبل عير هذه الصحراء لأنفسهم، وأخذوا من دمشق رسوم خرائط عن العرب في بغداد، ومن هذا المكان ركبوا السفينة البخارية إلى البصرة، أو الكويت ثم من هناك تصطحبهم القوافل إلى القصيم، ومن هذه النقطة على طريق دمشق بغداد بدأت رحلتنا الحقيقية للتوغل في قلب الجزيرة العربية.

يتألف فريقي من رفيق قام برحلات سابقة هو صالح، وهذا الرجل من الأجيل Agyel؛ بالإضافة إلى اثنين من الشباب من القصيم، ونحن بذلك أربعة أفراد، وعندما دخلنا إقليم قبيلة عنيزة، وإقليم آل شمر البدوية، كان بصحبتنا رجل من كل واحدة من هذه القبائل استعنا به ليصحبنا أثناء المرور في أرض القبيلة؛ حتى يمنع وقوعنا في يد فرق الإغارة، وهنا في الجزيرة العربية يعرف أمثال هؤلاء باسم الرفيق Rafik.

كانت نقطة انطلاقنا من طريق دمشق بغداد الكبير عند منطقة آبار تعرف باسم غارة Ghara، وهم يعرفونها في العادة باسم ميلوز

Meluse، أو بير ميلوز Bir Meluse على معظم الخرائط، ومن هنا سرنا في اتجاه جنوبي شرقي عبرنا عدد من الأودية الصغيرة، أو تسمي شايبس Shaibes، وخلال يومين من وصلنا وادي حوران W. Huran، وهو وادي هام، وهذا الوادي الذي يغطي هذا الجزء من شمال الجزيرة العربية يجري نحو الفرات، وعند هذه النقطة تراه حوضاً واسعاً يصل إلى عشرة أميال في اتساعه، وأقصى عرض له في الوسط يصل إلى ما يقرب من عدة مئات من الياردات، وبعد هطول الأمطار تتوقف هنا عدة أيام، ولكني واثق أنه لا يوجد شيء طبيعي يمنع تدفق الماء في هذه النقطة، ويسير الوادي في اتجاه شمالي شرقي، ثم أخيراً يفرغ مياهه في الفرات على بعد عدة أميال أعالي حيط Hit.

الماء موجود على بعد ميل من السطح، ويوجد عدد من الآبار في قاع الوادي، ففي آبار المات Elmat تصل إلى الماء عند عمق ثلاثين قدماً، وهنا يوجد بعض من غجر الصحراء، أو يعرفون باسم سالب Salib، وهؤلاء مشغولون بعمليات الري، ويستعدون لتحريك معسكرهم، ووصلتهم أنباء عن طريق هيئة غريبة أن معسكراً من البدو يتحرك نحو هذه الآبار، وفي العادة أن هؤلاء الغجر يكرهون أن ينسبوا البدو Bedu الذين أخذوا قطعانهم وحميرهم.

لا توجد معلومات مؤكده عن أصل هؤلاء الناس؛ رغم عرض عدد من النظريات، أحد هذه الآراء أنهم سلالة الصليبيين؛ ذلك أن كلمة سالب Salib تعني "صليب" Acroos، والغجر أنفسهم يجهلون أصلهم، ولكن البدو يميلون للقول أنهم ينتسبون إلى الإنجليز Anglez، وهم ينتشرون في كل أنحاء الجزء الشمالي من الجزيرة العربية فوق المنحدرات؛ ما بين الخليج الفارسي وكذلك في غرب نجد، وليس هناك ما يشير إلى أنهم دخلوا إلى الصحراء الجنوبية، وتتألف معسكراتهم من حوالي عشرين خيمة من الحجم الصغير عن معسكرات

قبائل البدو، وفي العادة يضربون هذه المعسكرات على مسافة قريبة من مصدر مياه لا يعرفه غيرهم، وهؤلاء يمتلكون عدداً من الإبل، وينقلون أمتعتهم وهم أنفسهم فوق ظهور الحمير، وهذه تتحمل العطش؛ مثل قدرة الإبل على ذلك، وعندهم بعض من الأغنام، والماعز، ورغم أنهم يعيشون مظهر الفقر فإنهم يأخذون على عاتقهم مبدأ عدم إثارة جشع وطمع البدو، إنهم في العادة عندهم من الطعام ما يكفيهم، والبدو لا يغيرون عليهم، ولكن يحصلون منهم على شيء كثير من الكرم، وهؤلاء الغجر يقدمون لأنفسهم صورة طيبة، عندما يتحدثون بدرجة صوت عالية، وفي العادة كلهم، ويقال إن البدو يتحدثون عن جمال نسوتهم، وأن سمعتهم ليست جيدة تمام، يلبس الرجال رداءً يشبه جلد الغزال مع شيء يغطي الرأس، وهذه عملية تمويه حتى يقترب الواحد منهم من الغزال وفي الغالب لا يقعون في شرك، وأسلحتهم من نوع البنادق القديمة، طولها حوالي ستة أقدام، وفرصة الصياد قليلة على أية مسافة، ولقد رأيت فخًا في الرمل، ورأيت الصياد يزحف ما يقرب من ميل حتى يقترب من قطيع الغزلان.

عندما رحلنا عن بئر الماتEl Mat واتخذنا طريقًا نحو الجنوب، استطعنا بذلك أن نتجنب السير على أرض وعرة لأن الأودية صنعت منطقة عرفها عرب الجزيرة باسم الوديان El Wadian هناك حوالي عشرين من الأودية؛ بالإضافة إلى روافدهما تبدأ من هنا، وتسير في اتجاه شمالي شرقي، ومعظم هذه الأودية وروافدهما تضيع في وسط الصحراء على مسافة مائة ميل غرب الفرات، وهناك أخرى تصل حتى مستنقعات الفرات بالقرب من كربلاء.

في وقت قريب قام الرحالة النمساوي الدكتور موسل Musil باجتياز منطقة الوديان، وشق طريق في هذه الأودية التي يجد البدو

صعوبة في تسميتها، وبعد ستة أيام عجاف بدون ماء وصلنا عند بعض الآبار في وادي يعرف باسم إغرار Aghrar، أو أرار Arar، وفي هذا المكان وجدنا معسكر كبير للغجر، كان الدكتور موسيل دخل في رفقتهم عدة أيام، ومن الواضح أنهم غير مخلصين، كان شيخهم معروف أنه شاعر، كان يؤلف الشعر، يمجد إنجازات أي واحد ينتظر من ورائه مكافأة، ومساءً عندما خلدت إلى الراحة سمعته يتحدث إلى صالح رفيقي، إنه نظم قصيدة عن شخصي، وأخذ يتساءل كم سأعطيه؟ وتليت القصيدة على مسامعي في فجر جميل، كنت أخشى أن مكافأتي لا ترقى إلى مستوى توقعاته، ومن هنا اجتزت الطريق الذي سار فيه الكابتن يلمر Yalmer، والكابتن بتلر Butler اللذين جاءا من حيط Hit إلى الجوف عام ١٩٠٩م، ومن هذه التغطية شرقًا إلى آبار حازل Hazil لم يذكر اسم أوربي واحد غير هذه المنطقة، إن طبيعة الأرض تتغير، وهذا السطح الحصوي أفسح المجال بظهور بقع من الحجر الجيري المتفسخ؛ مخلوطا بالعديد من الأشكال المتفاوتة من التلال المنخفضة، وشاهدت أعداء من الطيور، ومن الحيوانات، ومنها الحجل، والسمان، والأرانب الجبلي، والحباري؛ بالإضافة إلى قطعان كبيرة من الغزلان، وكان هناك أيضًا وبشكل غير عادي تنوع وأعداد كبيرة من الثعابين، والعرب يعرفونها باسم السامة؛ حيث إنه لا خطورة من الثعابين بالنسبة لهم، ومسيرة أربعة أيام في اتجاه جنوبي شرقي بلغنا آبار حازل Hazil، وعلى مسافة اثنى عشر ميلاً قبل وصولنا هذه الآبار دخلنا منطقة يسميها العرب وادي الخير W. Alkhair، وهي أرض غير منحدرة باعتبارها وادي وعرضها حوالي أربعة أميال، ومن المعروف أن هذا الوادي رأسه يقع عند الجوف، عبرت هذا الوادي في رحلة سابقة حوالي ٨٠ ميلا شرق هذه النقطة، ومن هنا يبدو أن وادي الخير الذي يصرف مياهه جهة الشمال للجزيرة العربية ينحني بشدة جهة الشمال، وأكد الدكتور

موسل أنه زار هذا المكان على بعد عدة أميال جهة الشمال الغربي، ولكنني أرى بفضل خريطته المنشورة أنه يسمي واديه هذا الاسم، أبو الخير Abo Elhkair، ويظهر على بعد عدة أميال جهة الجنوب الشرقي من نقطته البعيدة في هذا الاتجاه.

وإذا وضعنا في الاعتبار مسألة أن وادي الخير يمثل طريقًا ما بين الواحات الوسطي العظيمة في الجوف، وفي النجف على نهر الفرات، واعتباره استمراراً للطريق من معان Ma-an على خط سكة حديد الحجاز، وكل المنطقة تشكل جزءً من الطريق التجاري القديم ما بين مصر وموزبوتاميا، يبدو هنا أنه الآن لا يوجد طريق قوافل محدد بعينه يستخدم مثل هذا الطريق القديم، ما بين الجوف والنجف، ولأن المسافرين بين هذين الموقعين لابد وأن يكونوا من ركاب ناقة واحدة أو آجل Agyel.

مثل هؤلاء المسافرين سوف يقطعون المسافة ٣٠٠ ميل بين البقعتين في مدة خمسة أو ستة أيام، وفي الصيف من المحتمل أن يتوقفوا عند آبار آرار Arar، ثم منها ينطلقون مباشرة إلى النجف، وشتاءً من المحتمل لا يتزودوا بالماء إلى أن يصلوا إلى الفرات.

والأمر موضع شك أن قافلة الإبل تسير في مثل هذا الدرب مثل وادي الخير على امتداد الطريق من الجوف إلى النجف؛ لأنه رغم أن الوادي متسع، فإن السير على أرضية المنحدر أمر عسير، وعلمت أن الجوف هي أكبر الواحات في شمال الجزيرة العربية وقعت اليوم في يد الشيخ ابن شيلان من فرع الروالا Ruwalla في العنيزة، وهم أكبر قبيلة بدوية تسيطر على الجزء الشمالي الغربي من الجوف إلى حدود دمشق وصعوداً حتى نهر الفرات.

وهم اليوم أعداء العمارات Amarat الفرع الكبير الآخر من عنيزة، الذين يسيطرون على المنطقة الشمالية الشرقية صعوداً إلى الفرات في هذا الاتجاه.

واليوم لا يستطيع شيخ الروالا أن يغامر بإرسال قوافل الإبل إلى النجف؛ ذلك لأن هؤلاء محتمل أن استقبالهم غير طيب من أعدائهم العمارات، وتجارة الجوف اليوم مع سوريا وفلسطين على امتداد الطرق عبر وادي سرحان W.Sirhan هذه الدروب الغربية في يد بني جلدتهم، ومن هنا يتضح أنه حدث تغير في خلال السنوات الأخيرة في وضع اليد على الجوف؛ ذلك أنه عندما زار هذا المكان بتلر ويلمر عام ١٩٠٩م، كان استقبالهم له بارداً من الحاكم الذي عينه ابن الرشيد زعيم القسم الكبير من شمال الجزيرة العربية، والذي يقيم في حائل Hail، والتي تقع جنوباً بعيداً عن الجانب الآخر من صحراء النفوذ.

إن آبار حازل في المقال الثاني من الأهمية في هذه المنطقة بعد آبار لينا Leina، عددهم حوالي ١٠٠ بئر منفصلة، وتنتشر على امتداد حوض عرضه ١٠ متر منفصلة، وتنتشر على امتداد عرضه حوالي ١٠ ميل، والماء يحصل عليه من عمق ٦٠ قدم، ومقداره ثابت، والزائر الوحيد الأخير هو الرحالة السويدي والين Wallin الذي زار هذه الآبار، وهو مر هنا عام ١٨٤٨م في يونيو، وأكد الوصول إلى الماء على عمق ٢٠ زراع، وهذا الرقم مبالغ فيه، إنه لم يستخدم أدوات، وعلى تقدير حساباتي تقع حازل على بعد عدة أميال جهة الشرق، وهذه الآبار كان يتردد عليها قبائل عمارات من قبائل عنيزة، وعلى مسافة عدة أميال حولها عثر على آثار المعسكرات، وأن معظم الآبار الصحراوية التي عثر عليها هنا في هذا المكان من شمال الجزيرة العربية ضيقة عند الفتحة السطحية لا تزيد عن ثلاثة أقدام، ولكنها

تتسع في الجزء الأدنى، وعند فتحة البئر يوجد حوض يصب الماء فيه من البئر عندما يصل إلى السطح، ومن هذا الحوض تشرب الإبل في منظر مألوف؛ ذلك أنك تراه وكأنه يستمتع بشرب وطعم المياه، في بداية عملية الشرب يبلل الشفتين، ثم يرفع رأسه ويتقدم ليشرب، وبعد لحظة توقف عن الشرب يعود للشرب مرة أخرى، ويكرر هذه العملية، وهكذا، فإن كل قطرة من الماء يستمتع بها في فصل الشتاء قد تتحمل الناقة سبعة أيام دون أن تشرب، ودون أن تشعر بالتعب، أما في الربيع مع ظهور الأعشاب الخضراء تشرب الإبل لكن على فترات متباعدة، وتبقى في غالب الأحيان شهرين دون أن ترتوي، أما عن العلف فإن مدة ساعة أو يزيد قليلاً من الرعي تكفي الإبل لرحلة قصيرة، ويحمل الفرد من الآجيل Agayl خليط من الشعير والدقيق الخشن يعرف باسم"اليج" Alej، يقومون كل ليلة بصنعها عدة كور، الكورة الواحدة في حجم قبضة اليد، ويقدمون منها ما بين خمسة إلى ستة وحدات لكل ناقة، وفي جنوب نجد يقوم العرب بصنع كور من التمور، ويطحن معها النواة الداخلية للتمر، وهذه تستخدم علاجًا.

جدير بالذكر أن البدوي شديد الاهتمام بناقته بشكل فوق العادة، وفي مقابل هذا فإن الناقة العربية مختلفة تمامًا عن نظيرتها الهندية التي تعرف بأنها عنيدة الطابع، صعبة الانصياع وخائنة، الناقة العربية لا يمكن لها أن تعض أو أن تركل، ولا تعبر عن العناد وعدم الانصياع، قدرته على التحمل فوق العادة، وهناك قصص عن رحلات مهمة أنجزتها الإبل فوق أن تصدق، وصاحب الناقة الذي كانت مهمته نقل البريد من دمشق إلى بغداد في العراق، كان يغطي في اليوم الواحد ستين ميلاً، وينجز المسافة في تسعة أيام بشكل مريح، وهناك قصة يتكرر روايتها عن صاحب الناقة الذي كان يحمل أخباراً عاجلة إلى واحد من ولاة هارون الرشيد في الرياض في هذا الوقت، وأن

الرجل قطع المسافة التي تقدر بـ ٦٠٠ ميل ما بين نجد والرياض في ستة أيام، وأن الناقة نفقت بمجرد وصول الرجل إلى مقصده.

ومن آبار حازل Hazil فإن الرحلة الثالثة تقودنا إلى آبار لينا Liena، ولا زلنا نسير صوب الجنوب الشرقي من حازل، ودخلنا منطقة تعرف باسم الحجارة Al Hajara بمعنى الصخرية، وهذه المنطقة تمتد حول الركن الشمالي الشرقي من النفوذ، وسمعتها سيئة للإبل والمسافرين؛ ذلك أن الإبل تصبح عرجاء بسبب قطع الأحجار الحادة، ومجرد أن اجتزنا هذا المكان دخلنا الجزء الشمالي من صحراء النفوذ الكبرى، وفيما بين الحجرة والنفوذ توجد بقعة رملية يعرفها البدو باسم شعف Shaaf، ولابد من عبور واحدة من أركانها لأجل الوصول إلى لينا Leina، وهذه مثلت زيارتي الثانية إلى النفوذ، وزادت من ارتباطي به، هذه الرقعة الرملية الواسعة تمتد ما بين الشرق والغرب إلى مسافة ٣٥٠ ميل، ويذكرها كثير من الرحالة بالرعب من أمثال بلجريف، وهي في نظر البدو يفضلونها أكثر من أماكن أخرى هي منطقة باردة صيفًا، دافئة شتاءً، أرضها مستوية ناعمة تشجع العيش عليها، معوشبة للرعي، يتوفر فيها الوقود، وحدودها ملاذ يأوي إليه عدد كبير من قبائل شمر Shammar معظم شهور السنة، وفي هذا المكان شاهدت لأول مرة آثار حوافر الخيل منقوشة على صفحة الرمل، وهذه يسميها العرب فلك Falak، وتحدث إلى عرب القبائل، وعرفت أن هذه النقوش مكان الحوافر تسمى جرات Garat، ولكن استخدموا كمة فلك Falak تشير إلى الأحواض الموجودة في النفوذ ما بين الجوف وحائل التي شاهدها عدد من الرحالة، ولقد رأيتها في الدهناء Dahanaa في جهة الشرق، وكذلك في النفوذ، وفي كل الأحوال فإن أكبر الأحواض التي تشير إلى حوافر الخيل في جهة الغرب، أما الجوانب تشير إلى الشرق، والعمق عند المقدمة يتراوح ما بين ٧٠ إلى ١٠٠ قدم، مع

وجود حوائط منحدرة عموديًا، وتدريجيًا تميل أن تكون ضحلة جهة الشرق، ومن نقطة حافر الحصان إلى العقب في العادة طوله ما بين ٤٠٠ إلى ٥٠٠ ياردة، وهذا أمر عادي.

اجتزت طريق الحجاج ما بين بغداد ومكة والمعروف باسم درب زبيدة، وهذا الطريق استخدمه بلونتس عام ١٨٧٩م واستخدمه هويد عام ١٨٨١م من حائل إلى بغداد، ونزلنا المنخفض؛ حيث توجد آبار لينا Leina، وهذه الآبار المشهورة زرتها عام ١٩١٠م، وفي هذا الوقت، وبسبب الأمطار الشتوية كانت أرض الوادي يكسوها العشب الأخضر بارتفاع قدم، وكانت معسكرات خيام البدو تنتشر في بقع كثيرة في كل المنطقة المجاورة، والآن لا أشاهد أرضًا منزوعة العشب، ولا أشاهد شجيرات صحراوية، مياه هذه الآبار من الواضح أنها دائمة، ولقد وجدتها الآن على نفس مستواها في زيارتي السابقة، رغم وجود طعم الملح فيها إلى حد ما، وعلاوة على ذلك هناك مقولة عربية عن هذه المياه تقول Leina, Liena, Mithal Ajine, Gado Bil Leina Asha Gil Busra معني المقولة: "أنه من يشرب من ماء لينا وكأنه تناول ما يكسر صيامه بأن يشرب مياه لينا، لسوف يتناول عشاءه في البصرة على بعد ٢٥٠ ميلاً. وبعد أن خرجنا من لينا دخلنا إلى الدهناء، واسم الدهناء يطلق على هذا الشريط الرملي الذي يبدأ من النفوذ حتى يصل إلى هنا، ويسير هذا الشرط في اتجاه جنوبي إلى الجنوب الشرقي، مرورًا ما بين الخليج الفارسي ووسط الجزيرة العربية، ولابد أن يتصل بالربع الخالي، أي الصحراء الكبرى الجنوبية التي تقع على بعد ٧٠٠ ميلاً نحو الجنوب، وسواء هنا أو في المنطقة ما بين الرياض والإحساء في عدة نقط مررت عليها، فإن اتساع الدهناء يصل إلى ١٥ ميلا، والرمال تتموج إلى حوالي ٣٠٠ ياردة، وترتفع حوالي ٥٠ قدما، ويجري انحدارها شرقًا وغربًا بشكل سلس نحو الجوانب، والرمال نفسها تظهر ذات طبيعة مختلفة، ثقيلة عن مثيلتها في النفوذ

شمالاً، وفي هذا الجزء من الدهناء، وصلنا عند منحدر سنجار العرب Singar Arabs، وهم فصيل من أهل شمر، واحتاج الأمر إلى طرح تساؤلات من بينها معرفة مختلف القبائل العربية هنا، والأمطار في الإقليم، فرق الإغارة وتوزيعها في الإقليم، وغير ذلك من الأمور العادية التي تشغل اهتمام البدو، وحيث أنني لم أرغب أن أزور مضيافي السابق، زعيم شمر ابن راشد، وعاصمته حائل، والذي منعني من السفر هناك من قبل؛ اعتقدت في نفسي أن أنكر هويتي الإنجليزية، ووجدت أنه من السهل جداً أن أقدم نفسي على أنني موصلي من أهل الموصل شمال موزوبو تاميا، وفي الحقيقة أن لكنتي العربية كانت غير مختلفة، ولن تجر عليّ حب الاستطلاع، أو أن تثير الشكوك حولي من جانب هؤلاء الناس، ووجدت نفسي في هذا الشيء في بعض مدن وسط الجزيرة العربية؛ حيث وجدت أنه من الأفضل أن أنكر هويتي، واكتشفت أن الصعوبة الوحيدة تتمثل في جهالتي بالسعر الجاري للإبل، وللسلع الغذائية وغير ذلك، في بغداد أو في دمشق، وهذه مسألة لابد من طرحها على لسان أي عربي قادم جديد يزعم أنه من أهالي هذه البلاد.

وبعد الرحيل عن الدهناء، دخلنا في منطقة تعرض باسم تايسيات Taisiat، وهي منطقة تقطعها عدد من الأودية مصادرها تبدأ من عند حافة النفوذ، وتسير كلها نحو وادي الرمة الكبير W. Er Rumma الذي يحمل صرف كل هذه الأودية إلى جهة البصرة، وفي العادة بعد سقوط المطر تتدفق المياه بقوة في هذه الأودية حاملة في طريقها قطع فروع الأشجار التي تتكوم، وتصل إلى ارتفاع عدة أقدام، والشجرة الوحيدة في الصحاري الشمالية هي شجرة السدر، وهي نوع من السنطيات؛ حيث تنمو هنا في قيعان الأودية إلى ارتفاع ما بين ١٥ إلى ٢٠ قدم، وشاهدتها هنا بكميات كبيرة أكثر من أماكن أخرى على امتداد الطريق، ومعظم هذه الجهة عبارة عن صخر كلسي

جيري؛ مثل هذا الذي يكون في منطقة حجر Hagara، وفوق هذا الغطاء الكلسي يسير خط من الركام الصخري الذي يصل إلى منطقة آبار الزبير Zubire، والتي يسميها العرب "طريق Road"، وأصل هذه الصخور من الصعب أن تفسره إلا تفسيرًا واحدًا أن فردًا في العصور القديمة من أصحاب الأعمال العامة الخيرية بذل جهده ليبني دربًا من الصخور اللينة، ويجمع العرب أن هذه الشخصية هي زبيدة زوجة هارون الرشيد، وملكة هذا العصر المعروفة بالأعمال الخيرية.

وفي اليوم التالي حصل الفريق الذي معي على حاجته من المياه من آبار الزبير، وهذه الآبار في منخفض عند طرف النفوذ، وهي عبارة عن حفر صنعت في الرمال التي تحت الصخور، وكان هناك عدد كبير من بدو شمر يسقون إبلهم هنا، وكانت المياه على وشك أن تقل، وعرفت منهم أنه بعد مضي ليلة فإنه في الصباح يأتي الماء الوفير.

وعند الرحيل عن الزبير دخلنا في وسط شريط رملي يعرف باسم أرض الماضوا Ard El Madhou، وهذه المنطقة وجدت أنه من الصعب جدًا اجتيازها بشكل لم أعهده من قبل هي عبارة عن شريط رملي مثل الدهناء، منفصل عن النفوذ، واتساعه حوالي ستة أميال بحري جنوب وجنوب شرقي إلى وادي الرمة، ويتوقف عند طرفه، وتشكل من موجات رملية تجري نحو الشرق والغرب؛ مع اختلافات وفروق في المستوى إلى ١٥٠ قدم ما بين الغور والقمة، وفي أماكن معينة فإن الأحواض التي على شكل حدوة الفرس تصل إلى الغور، والرمل هنا لونه أحمر قاني عن لون رمال النفوذ رمل ثقيل، ومن الصعب السير فوقه، أما جوانب هذه الموجات عبارة عن جروف عمودية تفرض على الراكب أن ينزل من فوق الدابة حتى ييسر للناقة السير فوقها، وإلى الجنوب من أرض الماضوا Ard El

هناك سهل صخري يعرف باسم شمال الزرد Shamal al Madhou Zarud، وبعد هذا السهل تدخل في شريط رملي يعرف باسم بط Bitte، وهذا يتألف من مجموعة شرائط من الرمال، بدلاً من أن تكون منفصلة عن النفوذ في الشمال، تأتي من الدهناء من زلفي Zilfi المجاورة، ويرى العرب الذين هم معي أنها قبل الوصول إلى النفوذ بمسافة قصيرة، هذه الشرائط السبعة ترتفع بمقدار ١٥٠ قدم فوق السهل، وكل شريط من هذه عرضه حوالي ميل واحد، والجانب الشمالي من كل موجة شديد الانحدار، ويرتفع في درجات متوالية حتى أقصى نقطة ارتفاع، ومن هنا ينحني نحو الجنوب في انحدار طويل، ومن الواضح أن الرياح هنا تأتي من ناحية الجنوب، وإلى الجنوب من بط Bitte هناك عائق آخر لابد من مواجهته، وهذا العائق شكلته موجة رمل منخفضة إلى حوالي ٣٠٠ قدم، مع وجود جوانب انحدار طفيفة، وتعرف باسم نواثر Nuwathir وأخبرني العرب، أن هذه منفصلة عن بط في جهة الجنوب.

ومن هذا المكان وبعد مسيرة يوم فوق سهل حصوي وصل الفريق إلى القصيم، وفي اليوم الثامن والعشرين من دمشق، وعند المغرب وصلنا عند أطراف القصيبة Kasaiba، وهي المدينة الحدودية بين إقليم ابن الرشيد -أمير شمر- والقصيم.

وقبل أن أدخل في وصف رحلتي القادمة في وسط الجزيرة العربية، فإنني أرى من المفيد أن أقدم شيئ من التفاصيل عن السلطة، وأتحدث قليلاً عن الأحوال السياسية في هذا الجزء من البلاد، ولابد أن أؤكد بداية أن كل الأجزاء المسكونة وسط الجزيرة العربية تعرف باسم نجد، وهذه تنقسم إلى قسمين رئيسيين مع وجود حدود متغيرة؛ القسم الشمالي منها، أو ما يعرف باسم إمارة شمر، أو مملكة شمر تحت أسرة آل الرشيد، وأحد أفراد هذه الأسرة في الأيام

الماضية كان يحكم هذه الأجزاء، وكان يحكم مملكة الجنوب مستقلاً عن ابن سعود، وقام أحد هؤلاء الحكام بالانفصال عن سيده الأكبر؛ إذ أنه جمع كل القبائل الشمالية وبينها قبائل شمر وحرب، وشكلوا هذه القوة الشمالية، واتخذوا عاصمتها حائل، أما القسم الجنوبي، أو المملكة الوهابية فهذه في يد أسرة ابن سعود، وكانت عاصمتها الرياض، والقوتين في الغالب تتمتعان بقوة كبيرة، ومنطقة النزاع بين القوتين هي القصيم التي تقع في منتصف الطريق بين العاصمتين، وهنا توجد مدينتين كبيرتين مستقلتين، وهما عنيزة وبريده، وحولها قرى غنية، والمنطقة يسكنها شعب مقاتل ذكي جوال، وهؤلاء كانوا في أوقات كثيرة يقفون مع جانب ضد الآخر، وكان الانتصار حليف الجانب الذي يكونوا فيه، والأتراك أنفسهم زعموا لأنفسهم السيادة على القصيم مدة عامين، وذلك قبل انسحاب قواتهم العسكرية، وعند القيام بعملية الإخلاء عام ١٩٠٦م أصبحت القصيم ولاية تابعة لابن سعود، واستمرت حتى وقتنا هذا، والآن ابن سعود، وابن الرشيد في حالة من الاتفاق والسلام، ولكن لا نعرف إلى متى سوف تستمر عملية التفاهم هذه.

إن الخط الحدودي الفاصل بين مملكة شمر وبين القصيم يسير شمال مدن قصيبة Kusaiba وكورا، والمدينتان تتبادلان السيطرة باستمرار، وذلك حسب قدرة ابن سعود، أو ابن راشد على السيادة، إن القصيبة مدينة معتادة على النضال، وتتألف من عدة أجزاء منفصلة، وكل حي منها يتألف من عدد من المنازل، وكلها تمتد قرابة ميل عند قاعدة امتداد حافة صخرية رملية تنحدر عموديا وارتفاعها ٣٠٠ قدم، وعند قمة هذه الحافة توجد أبراج مراقبة تميزها عن بقية مدن نجد، وفي كل برج في وقت الحرب يجلس مراقب بمساعدة مساهمة شعبية؛ ليعطي معلوماته عن اقتراب العدو، والماء يوجد على مسافة قدم أو اثنين من سطح الأرض قرب المدينة، ووفرة الماء يتسبب عنها

انتشار البعوض؛ حتى في فصل الشتاء جو الهواء في المدينة شديد الحرارة، والرطوبة والحرارة شديدة جداً في فصل الصيف، بسبب موقعها المحبوس عند قاعدة حافة صخرية عالية، والناس هنا وجوههم شاحبة، مظهرهم يدل على الضعف والهزال؛ بالإضافة إلى المزاج الحساس الواهن.

قطع فريقنا حتى الآن ٨٠٠ ميل عبر الصحراء من دمشق إلى القصيم يحالفهم الحظ، رغم كل التحذيرات الفاسدة التي حاول الأجيل Ageyle وغيرهم إقناعهم بها عند بداية الرحلة، واعتقدنا أنه من الواضح توقع القيام برحلة آمنة في هذه الأجزاء المستقرة، لقد كانت صدمة أن تسمع أن كل الطرق عبر القصيم؛ خاصة هذه من القصيبة إلى بريده غير آمنة للمسافرين، وذلك بسبب الإغارات الأخيرة التي قام بها بدو عتيبة Ataiba Beclouin هؤلاء منذ أسبوع أوقفوا وسرقوا زعيم القصيبة نفسه، ولم يكن في رفقتنا فرد من عتيبة، ولم نكن في صحبة مسافر منهم؛ حيث قررنا أن نقطع الطريق دون واحد منهم، وبالفعل بدأنا نصعد الحافة الصخرية العالية التي في ظهر المدينة قبل غروب الشمس، نحن والإبل تخفينا في فجوة حتى أسدل الليل ستائره، وذلك حتى نتجنب أن يرانا أحد من البدو قد يكون في مراقبتنا، أو مراقبة أحد يخرج من المدينة، هربنا من كل الأنظار، ومجرد أن حل الظلام انطلقنا مسرعين عبر صحراء صخرية، وقبل ساعتين من الفجر أخذنا النوم بجوار الإبل عند أطراف عيون القصيم Ayun El Kasim، وذلك حتى نفرق بينها وبين عيون عسير Ayun Essairr جهة الجنوب، وتشكل مرحلة على الطريق الرئيسي من حائل إلى بريدة، كان الأمير شقيق رفيقي صالح، وكان قد ترك موطنه الأصلي منذ سنوات في صباه، وحيث إننا سرنا وسط المدينة عند الفجر تعرف كثيراً من أهلها علي صالح، وانتشرت أخبار وصوله وجاءنا عدد كبير من الناس من كافة

الأعمار والجنس يقدمون له التحية، وسار بنا موكب النصر حتى منزل الأمير، وهمس صالح في أذن شقيقة أني إنجليزي الجنسية، ورد عليه أن يحرص على أن يقول أنني موصلي، أو من أهالي الموصل في ميزويوتاميا، وبالفعل نفذت هذه الوصية، وفي كل مكان استقبلت في حفاوة بالغة ورقة باعتباري من طرف شقيق الحاكم، وفي كل ضيافة كانت دورة القهوة، وطرحت على أسئلة كثيرة متكررة عن رحلتنا، وعن أخبار الأهالي في العيون ممن هم في بغداد أو في دمشق، ومن الواضح أن صالح التقى بهؤلاء الناس منذ أيام قبل الرحيل، وكل واحد طلب أن نتذكره ولا ننساه، وكانت هناك وليمة على شرفنا، وأثناء الطعام ضلت قطعة كبيرة من اللحم إلى فمي، وشعرت بخنقة شديدة، وأخذ الحاضرين يتهامسون، ويعبر كل واحد للآخر عن الفرق بين المتحضر وبينهم في طريقة تناول الطعام؛ ذلك أن المتحضرين يستخدمون الملاعق، وهم يستخدمون كفة اليد.

والعيون بلا أسوار، وهذا يعد استثناءً في وسط الجزيرة العربية، على وجه الخصوص إنها مدينة حدودية، إنها تقع في حوض رملي فيه عدد من التلال الصخرية حول المدينة من ثلاثة جوانب، ومساكنها المبنية من الطين اللبن حولها حدائق النخيل والزراعة، وهذه المزارع ليست بعيدة عنهم، ويظهر الأهالي في عقلية متفتحة يهتمون بالأعمال والمشاريع، وبصفة عامة يشكلون مجتمعًا سعيداً، وترى عدداً قليلاً من كبار السن بسبب الخسائر الكبيرة في الأرواح في هذا النزاع الأبدي بين أسرة آل سعود والرواشد، وهذا ينطبق على مدن وسط الجزيرة العربية والعيون تحت حكم أمير يعينه ابن سعود من بين العائلات الكبيرة في المنطقة، وهذه الوظيفة وراثية، ومهمته أن يحافظ على النظام، وأن يجمع الضرائب، ويجمع المجندين للعمل

تحت راية ابن سعود في حالة الضرورة، ومقابل هذا يحصل على مرتب معين، ويتمتع بتشريف عظيم.

ولقد عقدت العزم على أن أواصل رحلتي نحو الجنوب على امتداد الطريق الغربي عن طريق رس Russ، وغرب القصيم عبر أراضي لم تطأها قدم أوربي، ولكن في العيون سمعت أن ابن سعود الأمير الكبير شخصيًا قدم إلى زيارة بريدة، وشرحت إلى حاكم العيون الطريق الذي أحب أن أسير فيه، وذكرت أيضًا أنني أرغب في زيارة ابن سعود في عاصمته الرياض، إن آخر شيء أتوقع أن أقابلة في بريده، ومن هذا المكان يستطيع بسهولة أن يقتفي رحلتي إلى الكويت، وعبر لي الحاكم عن مدى صعوبة أن يتخذ بنفسه قرارًا، وأن يسمح لي أن أسافر باستخدام الطريق الغربي الذي يتجنب دخول بريدة، والالتقاء مع ابن سعود، ويؤكد أنه فعل هذا، فإنه سوف يجلب على نفسه غضب سيده، وهذا قد يكلفه مركزه، ولذلك مع تحذيرات صالح، وأنا نفسي قررت أن انطلق إلى بريدة التي تقع على مسافة ٢٨ ميل عن العيون، وعلى امتداد الطريق مررنا بعدد من القرى، وعدد من حقول نخيل التمور، وشاهدنا أشكال متنوعة من خصوبة التربة، ولكن من الواضح أن هناك تغيرات كثيرة منذ زمن وجود بلجريف هنا، وكان بلجريف قد سافر، وقطع الطريق هنا متخفيًا عام ١٨٦٢م، وأكد أنه شاهد سهلاً فسيحًا ممتلئ بالمدن، والقرى، والقلاع، والحدائق، وكل الذي يشير إلى وجود حياة، ونشاط، وعند الاقتراب من بريدة عبرنا صحراء فيها كثبان رملية بيضاء، وعند المساء ظهرت المدينة بأسوارها فجأة، وكأنها سقطت من السماء في هذا الفراغ الصحراوي، ومن ناحية الشمال والشرق لا يري المسافر حدائق التمور، ولكن يرى كتلة من المساكن مربعة الشكل يحيطها سور مرتفع، وفي هذا السور بوابة شامخة من الخشب، ودخلنا، وسرنا في فضاء واسع مفتوح في جهة الشمال الشرقي كانت قلعة ابن سعود؛ حيث تحتفظ هنا بقوة

عسكرية لتتعامل مع قوى القبائل المشاغبة المجاورة، تركنا الإبل ترتاح عند باب منزل الأمير، ابن معمر Ibn Maamar، وهو معين من قبل ابن سعود، وتجمع حولنا في لحظات عدد من الرقيق الزنوج، جاءوا من القلعة، وعرفنا من هؤلاء الزنوج أن ابن سعود رحل هذا الصباح عائداً إلى الرياض، وحدث موقف غريب ومثير بين الحاضرين بإعلان أنني إنجليزي الجنسية، وأنني جئت هنا في شأن مع ابن سعود، ولكن الأمير لم ينطق بكلمة واحدة، ومن الواضح أنه لم يتخذ قراراً باستقبالي، ورغم ذلك بعد دقائق من وصولي كان هناك رسول مع ناقة سريعة هرول جنوباً وراء ابن سعود حاملاً أخبار وصولي، وبقيت حوالي ساعة أو يزيد في الفناء مع إبلنا، تلفت نحوي كل أنظار بريدة، وأخيراً أخذونا إلى بيت قذر، وتركونا في أمان، لكن دون طعام، ومساءً أخذوني لمقابلة الأمير، ورغم غضبه الشديد؛ لأنني رفضت أن أتحدث له عن مهمتي مع ابن سعود؛ رغم أنني كنت في حيرة أن أقول له ذلك، وفي الحقيقة أنه لا يوجد شيء، وقد وافق أن يستمع لاقتراحي أنه في كل الاحتمالات أن ابن سعود لن يفرح كثيراً عندما يعرف كيفية استقبالي في بريدة، وبعد هذا الموقف تحسنت العلاقة بيني وبين الأمير، وأصبحت صداقة، واكتشفت أنه رجل صاحب شخصية ضعيفة، وأنه تحت تأثير رفيقه من الزنوج؛ دون أن يظهر أي مشاعر مباشرة نحوي، وعلى الفور انتهزت الفرصة للانسحاب.

مدينة بريدة تنافس مدينة عنيزة في القصيم، وهي أكبر مدينة بين أربعة مدن كبيرة في نجد، يصل تعداد سكانها ١٠,٠٠٠ نسمة، جهة الغرب من المدينة توجد حافة من الرمال البيضاء ارتفاعها ٢٠٠ قدم، دفعت بها الرياح في شكل غريب لتحمي المدينة من هذه الجهة، ويقع عدد من حدائق النخيل بين هذه الحافة والمنازل في شريط متصل طويل، والمياه هنا قريبة جداً على بعد أقدام من السطح، ولكن الخطر

الذي يهدد المزارعين يتمثل في الرمال الزاحفة، إن أهالي بريدة وعنيزة معروفين بميولهم التجارية، وهناك نشاط تجاري واسع مع مدن الساحل على الخليج الفارسي، ومع القبائل البدوية المجاورة، والمكان نفسه يعج بالمحلات التجارية، ورغم كل هذا فإن بلجريف، وهوير، ودوفني، وكل من زار هذا المكان يشهدون بطبيعة عجيبة يعرف بها سكان المدن، وفي الوقت الحاضر رغم ازدياد الاتصالات مع الخليج الفارسي ومع العراق، وهدوء الأحوال في المنطقة، فإنها تعد واحدة بين مدن نجد لم أجد في أهلها الكرم.

إن الرسول الذي بعثه الحاكم إلى ابن سعود عاد حاملاً تعليمات من الأمير أن يرسلني إلى الرياض حتى ألحق به، وعلمت أن ابن سعود أرسل تعليماته بتوفير سبل الراحة لي في كل مدينة على امتداد الطريق، وهذه الأوامر يسرت لي الأمور بشدة، وهنا وجدت الفرصة حتى أسافر من بريدة إلى الرياض باستخدام الطريق المباشر عن طريق شجرة Shagara في ووشوم Wosham التي سار فيها الكابتن سادلر من قبل، وهو الوحيد الذي سار في هذا الطريق، وهو ضابط من الهند، وذلك منذ مائة عام تقريبًا، وانطلقنا مع رفيق واحد من قبيلة عتيبة البدوية، ورغم أنه شاب صغير إلا أنه من الواضح أنه زار معظم أنحاء الجزيرة العربية؛ حيث كان عضواً في جماعات الإغارة في زمن أو آخر، ومررنا أولاً بحزام من الكثبان الرملية حول بريدة، وسرنا في الطريق إلى عنيزة جهة الغرب، وبعد أن سرنا مسافة عشرة أميال دخلنا واحداً من أكبر الروافد في شمال شرق الجزيرة العربية، وهو وادي الرمة، والمعروف باسم الوادي El Wadi، ومن حدود القصيم إلى مخرجه بالقرب من الببير Babeir، والذي يعرف باسم الباطن El Batin، أو الحوض، وفي عنيزة والتي تقع على ضفته اليمنى على بعد عشرة أميال غرب الطريق الذي أسير فيه، يقال أن قاع الوادي عرضه ميلين، ولكن عند نقطة عبورنا لا

يزيد اتساعه عن ٥٠٠ ياردة في العرض، ويجري فيه مجرى مائي مشهور عند قاعدة منحدر من الحجر الجيري على ضفته اليمني، وبعد مغادرة الوادي ينحني الطريق إلى اتجاه جنوبي شرقي فوق سهل منبسط جدب، في بعض أجزائه يغطيه الملح، والانحدار العام للإقليم كله يسير نحو الشرق، ويطوق الجهة الشرقية من طريقنا منحدر من النوع الذي يعرفه العرب باسم جال Jal، يبلغ ارتفاعه ٢٠٠ قدم، ويقع فيه شريط رملي ممتد من هذه النقطة حتى المنطقة المرتفعة المجاورة من شجرا Shagra، وقابلنا عدداً من المعاقل في فصل الربيع يعيش عليها المزارعين من المدن، ويحرثون الأرض، ويعودون إلى ديارهم في المدينة بعد الحصاد.

عندما تركنا قرية تسمى أوفذ Aufizie، وصلنا عند حدود القصيم، ومن هنا دخلنا إلى جنوب نجد، أو بالمعني الدقيق مملكة الوهابيين، والإقليم يعرف باسم المذنب El Mudhnib، والمدينة التي تحمل هذا الاسم تقع على مسافة ٢٥ ميل جنوب شرق بريدة، والمدينة عند قاعدة جرف بارز من المنحدر الشرقي، عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمه، يزرعون التمر في حدائقهم؛ بالإضافة إلى زراعة أرض تمتد إلى ما يزيد عن ميل على ثلاثة جوانب من المدينة، والماء الذي يسيل من المنحدر من جهة الغرب، ويتحكم فيه منحدر صخري -يحجب المدينة من جهة الشرق-، والماء في معظمه ملحي وغير صالح للشرب، وعرفت أنه توجد بعض الآبار عذبة المياه بالقرب من المدينة، ولكن ليس هنا من يدلنا على أماكنها، أو أن يعطينا أية إجابة على الإطلاق، وأنه حسب عادتهم المتبعة كانوا يخشون دخولهم في حديث معنا قد يضيع عليهم الليلة في تسليتنا، وأهل المدينة أقل كرماً إذا قورنوا بالبدو في الصحراء، وسكان نجد في جملتهم من أصل بدوي، ومعظمهم من أهل عنيزة، وهم يعرفون قواعد كرم الضيافة، ومعظم هؤلاء الأهالي المستقرين يعود أصلهم إلى قبيلة بني

تميم، وأنا أعرف أنهم اليوم بعيدون عن حياة البداوة، وأصبحوا اليوم يعيشون حياة استقرار.

وعندما تركنا مذنب دخلنا في سهل لا تزال توجد فيه منحدرات رملية على الجهة الشرقية، وتصادف أنه ليلاً، مررنا بقرية المرابع Murabba، كان هناك رجل مراقب في البرج، وعندما سمع أصواتنا نادى أن نتوقف، وأجبنا أننا ننوي السير، وهنا تعالت أصوات أخرى تحذرنا من مواصلة السير، وسمعنا أصواتًا تحذرنا من إطلاق النار نحونا، وأجبنا بصوت مرتفع أننا قاصدين زيارة ابن سعود، وجاء رد الأصوات أننا سمعنا هذا أكثر من مرة، ثم نكتشف أنكم لصوص مخادعين، ومن الأفضل علينا أن نتوقف، ووجدنا أنه من الأفضل أن نتوقف، وأنزلنا الأحمال من فوق الإبل، وتأكد لدينا أنه ليس لصالحنا أن نقف تحت جدران القرية، وأشعلنا النيران، وجاء بعض الأهالي والتفوا حولنا، وتوقعوا أن نعد لهم القهوة، ولم نفعل ورغم ذلك أحسسنا بالألفة وبالإضافة إلى هذا كان النوم يداعبنا، وذهب عنا الأهالي، وكل شيء أصبح هادئا عند الأسوار، وقبل أذن الفجر بحوالي ساعة أو يزيد استعدنا نشاطنا، وواصلنا الطريق إلى الرياض.

وخلال رحلة اليوم التالي مررنا بمنطقة المذنب El Moudhnib، ونزلنا إلى حوض يعرف باسم عيون السر Ayun Esserr، وهي عبارة عن بقعة من التربة اللينة اتساعها ٢٠ ميلاً، وعرضها أقل من ذلك، ومحرومة من سطح يتلقى الصرف، وبعد سقوط المطر يشكل الماء بحيرات كبيرة في هذا الحوض، ووقت مروري كانت المياه تتدفق من العيون، وعلى مدى البصر لمحت قصوراً منتشرة على أبعاد الأميال عن بعضها، وحول هذه القصور توجد أسوار، وداخل الأسوار مساكن صاحبها، والأرض التي تجاورها، ومعه مواليه وخدمة

والرقيق الذين يصل عددهم إلى ستين فرداً، وهنا لمست مساواة تجمع بين السيد والخدم في الحديث، وهم يشكلون مجتمعاً سعيداً.

قضى فريقي ليلة في القصر صاحبه يدعى ناصر من جماعة الهتيمي Heteyami، وهم معروفون بالكرم، لقد تحول إلى رجل مسن، وأخذ يتحدث إلينا في أمور الدين، وأخذ يكرر عليّ آيات من القرآن الكريم، وعبارة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكان يغضبه أن أتوقف عند المقطع الأول من العبارة [لا إله إلا الله]، وأخذت منه عبداً زنجياً أعطاه لي لخدمتي، وبعد دفع ديون هذا العبد إلى ناصر، ولكن عندما وصلنا إلى الرياض اختفى بشكل غامض، وهذا يشير إلى أن الزنوج ولو طال بهم المقام في العربية لا يؤمنون بسهولة بأسلوب البدو في التقشف الشديد في الشئون النقدية.

ومن العيون اتجهنا شرقاً وسرنا في شريط رملي، اتساعه هنا ١٥ ميلاً، ثم يظهر في سهول صخرية تشكل رقاعاً في هذه الكتلة البازلتية، وكان طريقنا واضحاً فوق حافة ذات تلال مربعة من الحجر الرملي، من فوقها استطعت مشاهدة جبل الطويق J. Towik، وينزل الدرب عبر مضيق ضيق، ثم يدخل السهل الرملي الذي تقع فيه الشقرة Shakra عاصمة إقليم وشم Washm.

هذه المنطقة التي لا يعرفها الأوربيون، هي واحدة من خمسة أجزاء في جنوب نجد، إنه يقع شمال غرب الرياض، عاصمة نجد، ويتألف من شريط من الرمل اللين يحيطه من جهة الشرق جبل طويق، وحدوده من جهة الغرب غير محدود، ويحده من جهة الجنوب وادي حسيات W. Haisiat هذا الاسم يسير بحذافيره على الرافد الكبير في جنوب نجد، وادي حنيفة شريط ضيق من الرمال يجري هبوطاً نحو وسط الإقليم، ومن الواضح أن كل الجزء الغربي من الإقليم يصب فيه، ويسير الماء نحو إقليم ضروما Dhruma الصغير

من جهة الجنوب، وإقليم وشم فيه عدد من المدن والقرى، وبعض القصور المتباعدة يأتي إليها المزارعين في فصلي الصيف والربيع.

وهؤلاء العرب من سكان عنيزة، وبني تميم محاربين، وأقل تعصبا عن أهالي القصيم، والشقرة، عاصمة إقليم وشم، تعداد سكانها ما يقرب من ٥٠٠٠ نسمة، وتقع عند الطرف الشرقي من منحدر رملي طويل، وتمتد حقول التمر والحدائق حوالي ميل، طريقنا يصل إلى المدينة من جهة الشمال، ويمر عن طريق سور خارجي (أجزاء منه مهدمة) ثم يمر الطريق إلى ممر مرتفع يصل إلى ٢٠ قدم فوق الحدائق المجاورة، وهذا الممر المرتفع صنعته الرمال المتدفقة من الفتحة التي صنعت في السور لأجل الطريق، وسرنا عبر هذا الممر وسور آخر جديد، وجدنا أنفسنا داخل مدينة هواءها نقي وتضم برخاء ولا مثيل له في مدن نجد الجنوبية، الأمير محمد بن سعود رجل طيب الأخلاق واسع الفكر استقبلني في القصر رغم احتياجات الزعيم الملا Mulla، الذي كان يرى أن أكون خارج المدينة، لقد كان الحديث واسعاً طيباً مثيراً، تناول موضوعات من التي يهتم بها الأوربيون؛ مثل الطائرات، والاتصالات اللاسلكية التلغرافية، وفي شقرة Shakra لمست شيئ من التأثيرات الهندية، ووجدت أن النقد والموازين الهندية تدخل ميدان التعامل، وأنه في السنوات الماضية كانت المدينة توفر الجياد للسوق الهندية، ولكن ضعف هذا النشاط اليوم بعد الحرب، وفي هذا العام وصل إلى الساحل خمسة فقط.

وعندما تركنا شقرة Shakra فالطريق يسير في اتجاه شرقي على امتداد الجانب الأيمن من شريط رملي، ويمر بمدينة ترميدة Tharmida، والمدينة لا تزال ترى فيها آثار انتقام ابن سعود عليها؛ لوقوفها ضده في صراعه ضد منافسة آل الرشيد، ونحن بصدد الوصول إلى نهاية الصحراء على الجانب الأيسر، اجتزنا حدود وشم

Woshim، واجتزنا أيضا الإقليم الأول في نجد الجنوبية، والمعروف باسم الأرض El Ardh، وهذا الإقليم فيه مدينة الرياض عاصمة نجد؛ بالإضافة إلى أماكن هامة أخرى مثل الدرعية Dereiya، ومنفوع Manfuha، وأرجا Arga.

عندما تركنا النفوذ هناك حافة من سلسلة من التلال من الحجر الجيري الأسود تسير محاذية للجانب الأيسر من الطريق، وهي حافة عمودية في طبيعتها تزيد عن ٥٠٠ قدم عن السهل، هذه التلال تنتهي نحو الجنوب في عنق طويل، الطريق يهبط منحدر حصوي وراء قرية بورع Burra، وأخيراً يصل هذا الطريق حتى جبل طويق؛ حيث يأخذ الطريق في الالتقاء بالجبل بشكل تدريجي، هذه السلسلة من التلال هي الأكبر في وسط الجزيرة العربية، وتتألف من الحجر الجيري، وتمتد هذه سلسلة ابتداءً من زلفى Zilfi في الشمال، وتفصل إقليم سدر Sedier عن إقليم وشم Woshm، وتنفصل عن الرياض جهة الشرق، وبعد هذا تتحول هذه السلسلة في اتجاه جنوبي غربي حتى نصل إلى وادي الدواسر W. Duwaser حسب حديث ورواية العرب لي أن هذه السلسلة تصل بيش Bishe، والسلسة الغربية من وسط الجزيرة العربية والحجاز، وعلى الجانب الغربي تظهر وكأنها منحدر أبيض مثل حائط ارتفاعه يتراوح ما بين ٦٠٠ إلى ١٠٠٠ قدم، بارزة أما المنحدر الشرقي منه فإنه ينحدر انحداراً خفيفاً، ويفقد انحداره العمودي الشديد في السهل المجاور، وهو بذلك يمثل هضبة ذات منحدر غربي عمودي أكثر من ظهورها في شكل سلسلة الجبال.

وهنا اتصل طريقنا بطريق الحجاج من مكة إلى الرياض، ثم دخلنا مضيق في جبل طويق، كان مليئًا بأشجار السدر والطلح، وبعد نزول هذا المضيق مسافة عشر أميال وصلنا عند مسقط مائي، ووصلنا عند

رأس وادي حنيفة W. Hanifa، وهنا يعرف باسم وادي حيسيات W. Haisiat.

وشرق هذه المنطقة فإن هذا الوادي ينحدر انحداراً خفيفاً مرة أخرى، ويصل اتساعه هنا إلى ٨٠٠ يارده، وتأخذ الجوانب في الانحدار تدريجياً كلما سرنا، ويتصل الطريق من زلفي Zilfi، وسيدوس Sedus جهة الشمال، والآن قاع الوادي مرسوم بعلامات، وفي عيان Ayane بعد عدة أميال، نقابل بقايا سواتر حجرية حجمها كبير، وقد بنيت هذه السواتر لتقف أمام اندفاع الماء إلى الوادي، وهذا يحدث عادة بعد الأمطار، وعيان مدينة وكذلك الدرعية Dereiya تعرضت لإغارات إبراهيم باشا عام ١٨١٨م قائد الجيوش المصرية، ولابد أن هذه المدينة موقع له حجمه، وتمتد خرائبها مسافة حوالي ثلاثة أميال في مجرى الوادي، وعلى مقربة توجد قرية ملجا Malga؛ حيث وجد بلجريف هنا أن الوادي ينقسم إلى رافدين، وفي الحقيقة أن هذين الرافدين يتصلان مرة أخرى بعد مسافة نصف ميل، ويقع بين الرافدين مساحة رملية كبيرة، ومن هنا تمتد مساحة كبيرة من حدائق النخيل، ومن المزارع على امتداد قاع الوادي، وتظهر خرائب الدرعية Dereiya على الضفة اليمني من الوادي، وتظهر القرى الجديدة جهة اليسار، وهذه المدينة-وهي العاصمة القديمة لمنطقة جنوب نجد- استولى عليها المصريون، وقتلوا معظم سكانها، إن امتداد خرائب المدينة يشير إلى حجمها السالف؛ التي يبدو أنها كانت أكبر من الرياض، عاصمة البلاد اليوم، وبصعودنا الوادي الذي تركناه جنوبا، وعبورنا هضبة صخرية عرضها ٢٠ ميلاً توجد مدينة الرياض العاصمة الكبرى لنجد، وهي تظهر أمامنا فجأة وقد كانت من قبل تختفي في رقعة عميقة من الأرض.

وهذه المدينة التي أصبحت عاصمة جنوب نجد، وهي مقر الوهابيين بعد أن وقع الدمار على الدرعية عام ١٨١٨م بسبب الغزو المصري، تقع في منخفض عمقه ١٠٠ قدم أسفل السهل المحيط بها، وهذه المدينة مع ضواحيها من حقول النخيل تمتد ميلين شمالاً وجنوباً، وحدها الجنوبي يصل حتى وادي حنيفة، وهو هنا يعرف باسم الباطن El Batin، والمدينة محاطة من جوانبها الثلاثة بحدائق كثيفة من النخيل، محاطة بسور ضخم حديث الإنشاء، فيه أبراج تتباعد عن بعضها عدداً من مئات الياردات، وبعض هذه الأبراج يسيطر على أبواب المداخل، ومن جهة الشمال توجد مقابر يتخللها الطريق الكبير المؤدي إلى مكة والإحساء.

وعبر هذا السهل المفتوح الواسع انطلقنا في طريقنا أنا وصالح، وكانت الشكوك تراودنا حول طبيعة الاستقبال الذي سوف ينتظرنا في هذه القلعة الوهابية، وقد سمعنا روايات عن تعصب هذه الفرقة الإسلامية، وقد دخلنا المدينة من بوابة كبيرة ذات مزاليج من حديد وبوابات خشبية، ثم مررنا في عدد من الشوارع الهادئة، ثم فجأة ظهر أمامنا ميدان واسع فيه محلات تجارية، وكانت حركة البيع والشراء في ذروتها وقت منتصف النهار، وكانت عيون الناس ترقبنا في استغراب، وأخيراً وصلنا إلى فضاء واسع على الجهة اليمني منه تقف قلعة، من المؤكد أن هذا قصر عبد العزيز بين سعود الأمير الوهابي في نجد، تركنا الإبل ترتاح، وجلسنا على مصطبة من الطين بجانب الحائط، وجاء أهل المدينة يلتفون حولنا يلتقطون أخبار الحجاج العائدين من مكة؛ ذلك لأنهم اعتقدوا أننا طلائع العائدين، وجاء بعض الناس يسلمون علينا، ونحن في انتظار استقبال الأمير، إلى أن جاء خادم الأمير، وأخذ يبعد الناس من حولنا، ثم أخذنا داخل القصر، وفي الطريق طرح علينا عدداً من الأسئلة تناولت أحوالنا الصحية وطبيعة زيارتنا، وكانت أولى الشكليات أن نشرب القهوة في صالة

الاستقبال العمومية، وخلال هذا الوقت كان الحاضرون في القصر يدخلون ويخرجون علينا؛ بالإضافة إلى الرقيق، وكلهم ملأوا المكان في عباءات مزخرفة، حاملين سيوفًا ذات مقابض من الفضة، وبعد قليل اصطحبنا الخدم إلى الصالة العليا المطلة على السوق وعلى المدينة، وهنا استقبلنا عبد العزيز الأمير الوهابي شخصيًا.

إنه رجل في عمر الأربعين عامًا، طوله حوالي ستة أقدام، واسع المنكبين، وجهه كريم جاد، ومتواضع السلوك، سلّم عليّ وشد على يدي، وأكرمني بتحياته، ودار بيننا نقاش طويل حول شئون العالم خاصة الحرب التركية البلقانية، واعتذر عبد العزيز أن قصره بسيط في الأثاث، وقال إنه وصل الرياض منذ عشر سنوات، وهو يتقدم في الصحراء يضرب على يد أعدائه ويحاول أن يُخضع القبائل تحت سيطرته، وليس لديه الوقت الكافي حتى يهيئ قصره بأفضل مما هو عليه.

تحدث معي كيف وصل إلى سدة الحكم، وعرفت أنه منذ سنوات خلال حكم محمد آل الرشيد حاكم حائل، وأقوى أمراء شمر، وكانت كل جنوب نجد ضاعت من يد ابن سعود، ولجأ عبد الرحمن بن سعود، والد الأمير الحاضر، إلى أمير الكويت، وفي عام ١٩٠٢م توفي محمد بن آل الرشيد، وضعفت قوة شمر، وترك عبد العزيز الكويت ومعه أربعين رجلاً، ومعهم عشرين ناقة، واندفعوا عبر الصحراء للاستيلاء على الرياض مرة أخرى، وصل إلى المكان وترك رجلين مع الإبل خارج أسوار المدينة، ودخل الرجال المدينة ليلاً قاصدين القلعة التي يسكنها الحاكم من آل الرشيد، وفي ميدان فسيح تصادف أن تقابلوا مع امرأة عجوز، وعرفوا منها أن الأمير لا يتواجد في القلعة ليلاً، ولكنه يأتي إليها في الصباح المبكر، وهنا فكروا في دخول القلعة وإغلاق البوابة الرئيسية، وتركوا أحد أبوابها الفرعية مفتوحًا، وفي

الصباح جاء الأمير ومعه حامية صغيرة، وواجه مصيره عند دخوله من هذه الفتحة الصغيرة، وكان نفسه مصير أتباعه، وصعد عبد العزيز إلى البرج، وأعلن عن مقتل الحاكم الأمير التابع لآل الرشيد، وأن ابن سعود عاد، ووقف أهالي المدينة مع ابن سعود، واستمر آل الرشيد يناضلون، ولكنهم اضطروا للزحف والتراجع شمالاً إلى أن تم توقيع اتفاق سلام عام ١٩١٠م بين الطرفين.

رغم أن عبد الرحمن -والد عبد العزيز- لا يزال على قيد الحياة في الرياض، فإن الرعايا يعرفونه باسم الإمام أو الأمير، وعبد العزيز يعرّف عبد الرحمن أنه الإمام، وفي الحقيقة أن السلطة الفعلية كانت في يد عبد العزيز، وكان عبد الرحمن يشرف على الشئون الدينية.

خلال فترة إقامتي في الرياض منحت مسكنًا في القصر، وكنت على امتداد اليوم أستقبل في حجرتي سيل لا ينقطع من الزائرين، وكانوا جميعًا يعبرون عن ترحيبهم بوجودي، وفي بعض الأحيان كنت أتجول في المدينة؛ إما في صحبة الأمير، أو في صحبة أحد الأرقاء الذي كلفه الأمير بخدمتي، ومعظم أهالي المدينة ظهروا متحضرين بعيدين عن التعصب؛ رغم أنه في بعض الأحيان كان يطل علينا رجل من كبار السن، ونسأل الأمير عن السبب الذي يدعوه أن يستضيف مسيحي في مدينة الوهابيين، وكان رد الأمير أن أي رجل إنجليزي سواء كان مسيحي أو غير ذلك من أصدقائه المقربين، وقد يكون هذا أقرب إليه عن أي مسلم من طائفة أخرى.

في هذا الوقت كانت التجارة ضعيفة في الرياض، يبلغ عدد سكان المدينة وضواحيها ٢٥٠٠٠ نسمة، وهذا رقم مبالغ فيه، ولكن أكدوا لي أن ٧٠٠٠ رجل يحضرون صلاة الجماعة في المسجد الكبير في آخر صلاة عيد، وهذا الرقم يؤكد مصداقية الرقم المذكور، ورغم ذلك كان السوق التجاري صغيراً، وكانت السلع الغذائية وغيرها قليلة في

السوق، وكان التمر هو أهم سلعة في السوق وذلك لجودته، وهناك أنواع أخرى من الفاكهة؛ مثل التين، والبرقوق، والبطيخ، والبرسيم، يزرع في كل مزرعة من مزارع النخيل، وفي الرياض عدد قليل من الخيول، ولا توجد أبقار ولا ماعز، وكان الأمير يمتلك مئات الخيول التي ترعى في الخرج Kharj، وهي منطقة تقع على مسافة يومين نحو الجنوب؛ حيث تتوفر المراعي والمياه الجارية، وهذه لا تتوفر في الرياض، ومن المعلومات التي وصلتني من عرب الرياض أن مصدر مياه الخرج Kharj من العيون، قام بلجريف بزيارة المكان، ولم يعطِ أي معلومات عن هذه النقطة، لا يوجد في الرياض جداول ماء، وكل أشغال الري تتم من الآبار، وفي معظم الأحيان يصل عمق الماء إلى ٨٠٠ قدم، والمناخ هنا صحي والجو هنا ليس بارد، وهذا تقرأه من ملابس الناس، وكان اللباس يتكون من قميص أبيض طويل يصل حتى القدمين، والأكمام طويلة تصل حتى الكفين، وفوق هذا القميص عباءة من قماش أسود مزخرفة بخيوط من الذهب، وغطاء الرأس عبارة عن منديل فوق الرأس، وفي الغالب لونه أحمر، ويعلوه العقال Aghal، أو حزم من وبر الإبل مزخرف بخيوط من الذهب، وكان الوجهاء يحملون السيوف المزخرفة وينتعلون الصندل الذي يكتمل به لباسهم.

وبالنظر إلى الرفاهية التي وراء هذا اللباس، سوف نلخص في العرض بعض معتقدات الوهابين في أول ظهورها، وهي كانت حركة كبيرة لإحياء التطهير الذي دعت إليه الظروف، التبغ محرم دون اعتراض؛ لأن هذا النبات يشجع عليه إبليس أو السيئ من الناس، ولبس الحرير محرم على الرجال، وهو محلل للنسوة في حدود معينة، أما الشعر والموسيقي وغير ذلك من المتع محرمة، وفرضت قيود على الأرز كطعام؛ حيث إن هذا النوع من الطعام لم يكن موجودا زمن

الرسول ﷺ، وأنه لم يتناوله، بالإضافة إلى ما سبق كانت هناك قواعد أخرى غير مقبولة وتسبب نوع من الإغاظة.

واليوم سقطت أو ضاعت كثير من هذه المعتقدات الوهابية الصارمة، التدخين أسوأ الذنوب في نظر الوهابيين المتشددين، مطلق العنان لممارسته سراً، ولم تمر ليلة إلا زار فيها أحد المتواجدين في القصر يستأذنني أن يستمتع بهذه الرذيلة؛ حيث كانوا يطلقون عليها مثل هذا الاسم، وهم يتمسكون أن تكون المساجد بسيطة المظهر، مآذنها لا تزيد عن عدة أقدام، كما تظهر الصور، يساق الناس لحضور الصلوات الخمس بالعصا، وتغلق المحلات التجارية وقت الصلاة، والأمير هو الأكثر التزاماً بحضوره هذه الصلوات؛ بالإضافة إلى ساعة الفجر، ومرة أخرى وفي وقت متأخر من الليل يقوم المطوع Mitowaa، أو الملا Mulla بقراءة أجزاء من القرآن الكريم على الأمير في غرفته الخاصة.

تصادف أن قابلت في الرياض أحمد بن طانيان، وهو أحد وجهاء الرياض من أم جركسية، تلقي تعليمه في القسطنطينية، ويجيد التحدث بالفرنسية، وهو وعرب آخرين كانوا مستعدين أن يقدموا تطوعياً معلومات تتعلق بالمشكلات الجغرافية للجنوب، وتفاقم الجدل في حجرتي حول اتجاه ومدى الأودية الكبيرة هنا، ويظهر أنه لا شك أن وادي حنيفة الذي يمر إلى الغرب من الرياض مباشرة، بعد أن يعبر جنوبا نحو الخرج Kharij، ثم ينقسم الفرع الشمالي منه ليسير شرقا نحو الدهناء؛ حيث تنتهي هناك، أما الفرع الجنوبي منه فيواصل السير شمالا حتى واحة جبرين Jabrin، وهنا يصبح اسمه وادي شابا W. Shabba، ويصل حتى الخليج الفارسي حتى يصل بالقرب من قطر.

وادي نجران يعرف في مجراه الأدنى باسم وادي أفطنه W. Aftana، وهذه حقيقة موضع شك؛ حتى يختفي في الربع الخالي، أو الصحراء الكبرى الجنوبية، أما وادي الدواسر الكبير الذي يرتفع عند المنحدرات الشرقية من هضبة عسير، يختفي أيضًا في نفس هذه الصحراء، ولا يصل إلى الخليج، ورغم أنني التقيت مع عدد من البدو من قبائل مختلفة تعيش عند الحدود الجنوبية من الصحراء؛ مثل بعض من رجال الدواسر، ومُرة Murra والمناسير Manasir لم يتحدث لي واحد منهم عن هذه الصحراء الكبرى -أقصد الربع الخالي- إن معظمهم يطلق عليهم اسم النفوذ؛ مثل حديثهم عن النفوذ الشمالية، إن هؤلاء من الواضح أنه ليس عندهم أي فزع منها.

إنني لم أستطع أن أجمع وأعرف أي معلومات عن أية طرق عبر هذه الصحراء تسير جنوبًا إلى حضرموت، ونتيجة لتساؤلاتي لم أتوصل إلى معلومات محددة غير أنها صحراء، إنهم لم يسمعوا عن حضرموت أو أي مكان عبر هذا الاتساع الصحراوي، ويبدو أنه لا توجد مدن ولا توجد مجتمعات سكانية في هذه الصحراء.

من الرياض نزولاً مع وادي الدواسر يوجد طريق إلى رنياع Reniya، أو بيشة Bisha، والوصول إلى هذه الأماكن من الرياض يحتاج إلى ثمانية أيام، ومن نقطة في وادي الدواسر تعرف باسم صايح Saih على امتداد الطريق حتى رنياع تنتشر مزارع وحقول النخيل، إن سفري بين هذه الأماكن غير محبوب ذلك أنني عرفت أن النظرة لامرأة لن تكون في محلها لأي رجل في قبيلة الدواسر إلا بعد أن قتل سبعة رجال، وفي الرياض تكرر ذكر واحة جابري Jabriu، وتأكد أن في هذه الواحة بقايا أثرية لمدينتين، وامتداد الواحة حوالي عشرة أميال.

كانت السلطة الشرعية التي يتمتع بها ابن سعود مرتبطة في جهة الشمال بطبيعة الأمور في العلاقة مع آل الرشيد، أما سلطته هذه في الجنوب الشرقي تمتد لتشمل واحة جايري Jabriu جنوباً حتى الحدود الشمالية لصحراء الربع الخالي، أما في جهة الجنوب الغربي فإن سلطانه الشرعي يصل حتى بيشة Bisha، ورِيناع Reniya، وأبورما Upurma.

لم يرتَح ابن سعود أن يلبي رغبتي في مواصلة رحلتي إلى جبرين Jabrin، وإلي الجنوب، ولذلك بعد أسبوع رحلت عن الرياض إلى الإحسا El Hasa والساحل، وكان في صحبتي بدو من أربعة قبائل وهم بدو عجمان، والدواسر، وبني هاجر، وبني مرة، من الطبيعي أن هؤلاء الناس مختلفين تماماً عن القبائل الشمالية، هؤلاء القبائل من أهل الجنوب لم تؤثر فيهم حقيقة أنهم كانوا عائدين لتوهم من رحلة الحج، إلى درجة ما هم متعصبون، مظهرهم يرثى له، وطريقتهم في الرقود لا مثيل لها أبداً بين العرب في الجزيرة العربية، وسلوكهم يؤكد عدم الثقة في صحبتهم في السفر.

إن هذا الامتداد الصحراوي ما بين الرياض والهفوف عديم الماء، عدا وجود مجموعة من الآبار على مسافة ٢٠٠ ميل عن الإحسا El Hasa، وبعد أن تغادر الرياض تسير على امتداد صحراوي حصوي مسيرة يومين، ثم تواجه حافة صخرية شاهقة هي عرما Urma التي تمتد شمالاً وجنوباً عدة أميال، وفي هذا المنحدر الصخري عدة آبار، شمال هذه الآبار بعدة أميال منطقة تعرف باسم أبو جيفان Abu Jifan، ويتكرر وجود الآبار. اتجه الفريق المصاحب إلى بئر جنوبي، وحصلوا على الماء من جلتا Jelta، أو بركة ماء تجمعت في الصخور بعد أمطار سقطت منذ وقت قريب، والمسافة بين عرما Urma والدهناء مسيرة يوم، والصحراء هنا تتخذ مظهر آخر حتى الدهناء في الشمال، التموجات الرملية هنا صغيرة، والرمال قليلة العمق، وهي

لا تعدو أن تكون سهل رملي، عرضه حوالي ثلاثين ميلاً، وبعد عبوره نواجه منطقة جرداء، قليلة العشب، وقليلة الأخشاب اللازمة للوقود، وعبرنا وادي فاروق W. Faruk؛ حيث يوجد فيها بئر، وعبرنا تلال الحجر الجيري التي تمثل آخر حدود الإحسا El Hasa، وفي اليوم الثامن من الرياض وبعد مسيرة بطيئة دخلنا مدينة الهفوف؛ حيث كان استقبالي عظيم الكرم من الضباط الأتراك.

عدد سكان الهفوف حوالي ٣٠٠٠٠ نسمة، معظمهم من الوهابيين، حولها مزارع وحدائق النخيل، وهنا توجد "الكوت" Kut أو مدينة حولها سور، وداخل ضواحيها القلعة القديمة التي تحتوي ثكنات الحامية التركية والمقر الرسمي، والسوق التجاري في السهل المفتوح الذي يقع خارج الأسوار، وتمر معظم تجارة شرق نجد من هذا المكان في طريقها إلى الخليج.

والضواحي الأساسية تتمثل في نعاتل Nqatil في الشرق حيث توجد منازل جميلة، وكذلك رفعة Rufaa جهة الغرب، وهي مجموعة من المساكن البسيطة، ومصادر المياه هنا تعد أجودها في شبه الجزيرة العربية، وتجري جداول الماء تروي الحدائق، وهنا توجد مجاري جوفية تصل إلى سطح الأرض، في شكل عيون ماء، وبعض هذه العيون حارة عند سطح الأرض، وبعضها ملحي لا تصلح للشرب، ونفس هذه الظاهرة تجدها في القطيف على الساحل؛ حيث توجد مجموعة من نافورات الماء ومجموعة من العيون في البحرين، وبعضها على الشاطئ، وهي غير معروفة وفي مبارز Mobarrez بالقرب من الهفوف توجد مجموعة من سبع عيون حارة، تستخدم مياهها لري حقول الأرز والقمح.

تمتد واحات الإحسا والهفوف مسافة من الهفوف في الوسط، ويوجد فيها عدد من القرى، وهنا تنتج الأرض القمح، والقطن، والنيلة، وقصب السكر، وأنواع من الفاكهة منها البرقوق، والعنب،

والبطيخ والتين، والرمان، والذرة، والفصفصة، ومياه هذه العيون تمتد لري الحدائق، ومن الممكن استخدامها بشكل جيد، وتشاهد مجموعة من أشكال الصخور الرملية في هيئة أعمدة، أو كثبان في عدة أماكن من الواحات، وعلى وجه الخصوص في جتر Gittr.

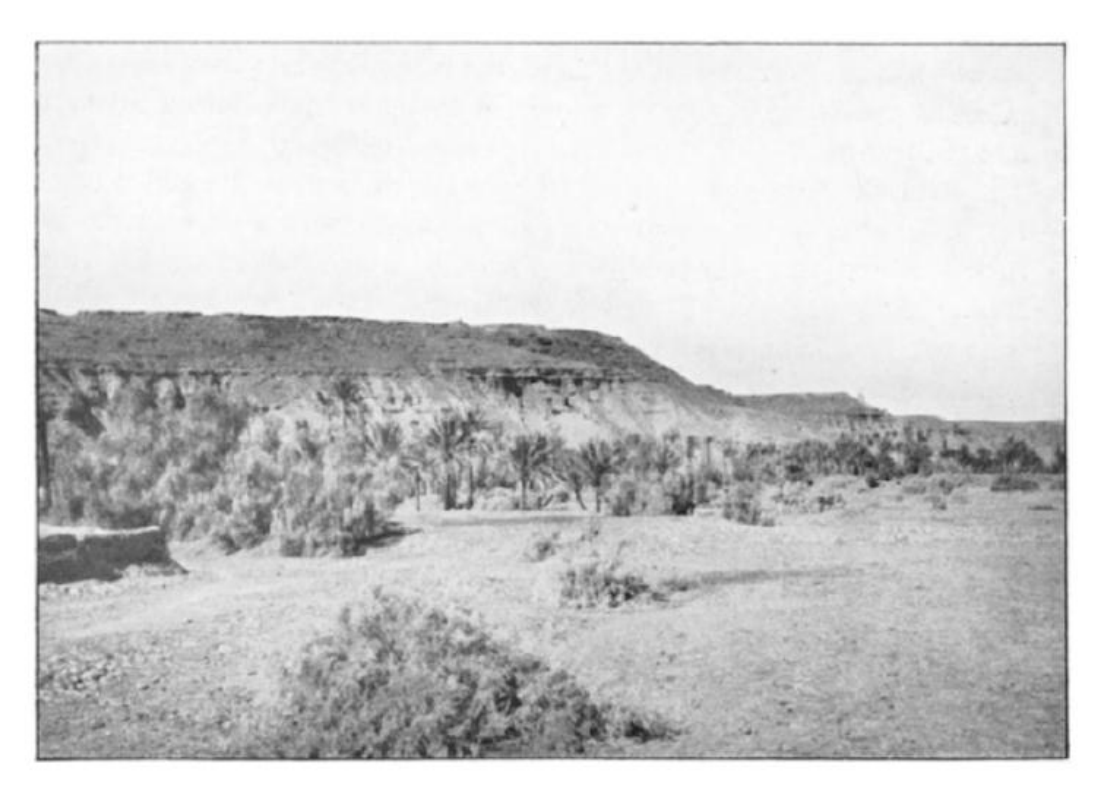
ومن بين القبائل العربية التي حول الهفوف، قبيلة عجمان التي تتجول في المنطقة شمال الواحات، أما عن قبيلة بني هاجر فإنهم في جهة الجنوب الشرقي مباشرة، وأقصى الجنوب قبيلة المناصر Manasir، وأشد هذه القبائل تعصباً هي القبائل المجاورة لقطر Katar؛ مثل بني هاجر، والدواسر.

استقبلني ضباط الحامية التركية في الهفوف بحفاوة بالغة، ولكن كان مستحيلاً أن أطلب منهم أن يسمحوا لي بالدخول جهة الجنوب لاكتشاف البلاد، وكنت أتمنى أن أدخلها، وبعد أن تركت الهفوف سرت في ليلة واحدة مسافة أربعة ميلا بين مجموعة من التلال القفر، والكثبان الرملية التي تفصل هذا المكان عن أوجير Ojair ميناء المنطقة على الخليج الفارسي، رغم أن المنطقة تظهر جافة من مصادر المياه، فإن العثور عليها سهل في عدة أماكن على امتداد الطريق على مسافة ما بين قدمين أو ثلاث أقدام في الرمل؛ لتحصل على قدر مناسب من الماء، وأن القوافل أو الرحالة يستغرقون يومين، ويتوقفون عادة في الصحراء.

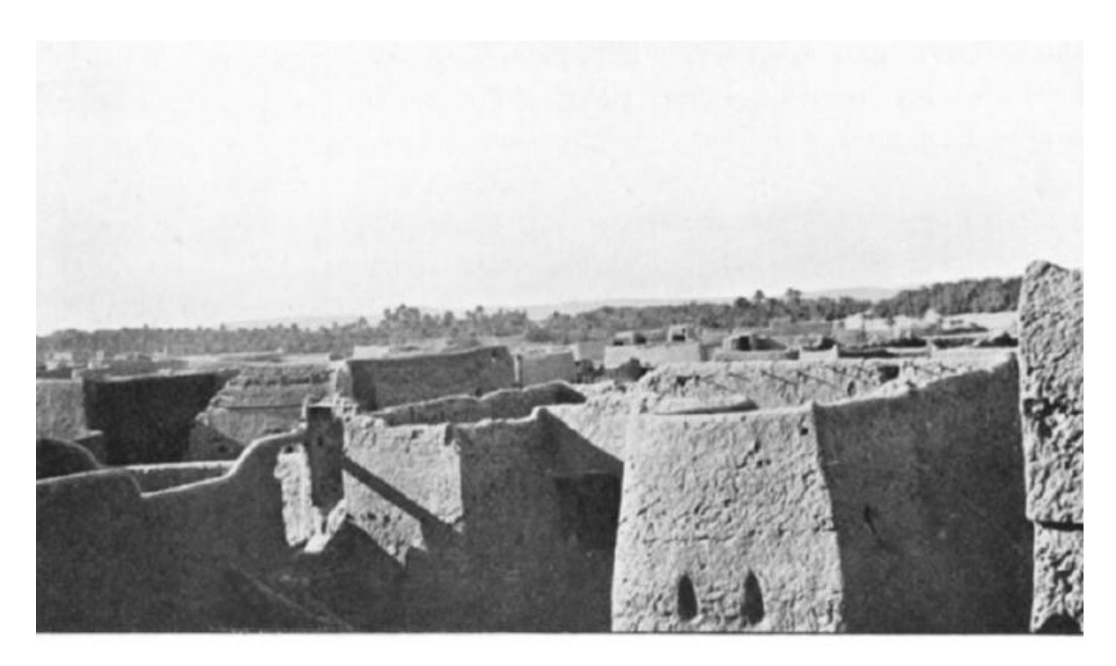
أوجير Ojair مكان صغير؛ حيث يوجد مقر جمارك صغير، وتوجد قلعة عربية قديمة، وبعض المساكن القديمة وسط الصحراء، والمكان غير صحي، والحمى تنتشر، وهنا تقوم تجارة قوافل على نطاق محدود مع الداخل، ومن أوجير Ojair ركبت قارباً صغيراً إلى البحرين، وكان يوم عيد رأس السنة الميلادية والمركب الشراعي يسير ضد الرياح، وبعد رحلة بحرية رست المراكب في البحرين، ومرة أخرى دخلت القنصلية البريطانية.



WELLS OF HAZIL.



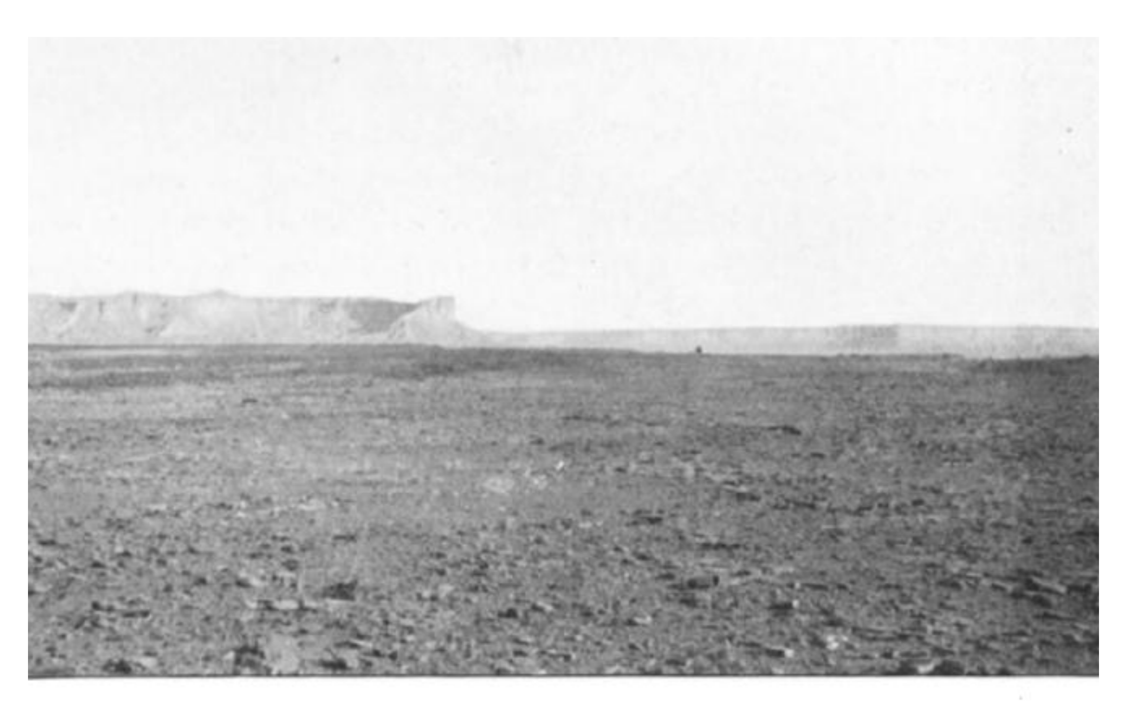
KUSAIBA IN KASIM.



BOREIDA.



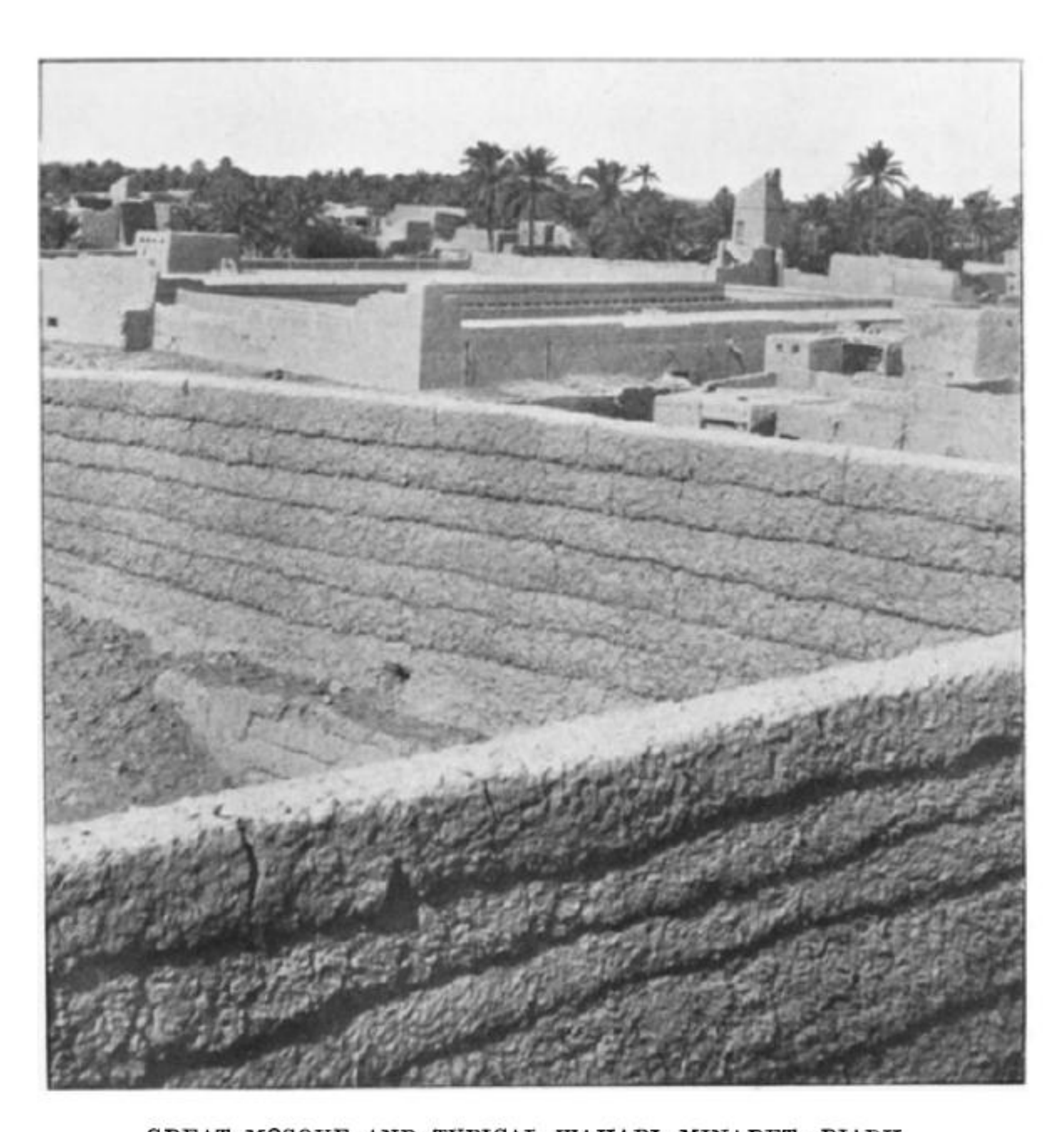
EL MUDHNIB.



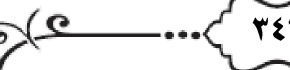
JEBEL TOWEIK.



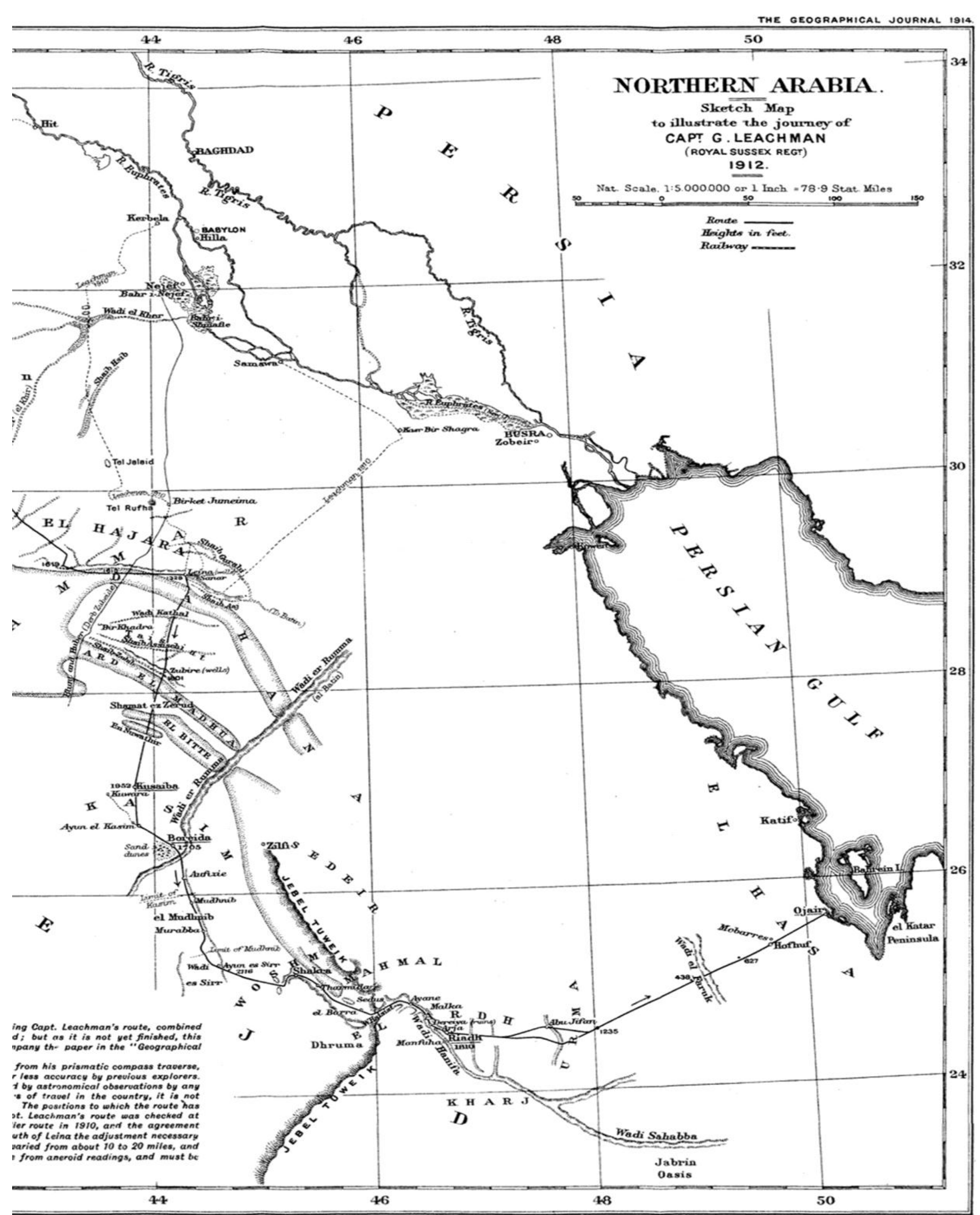
RIADH FROM SOUTH.

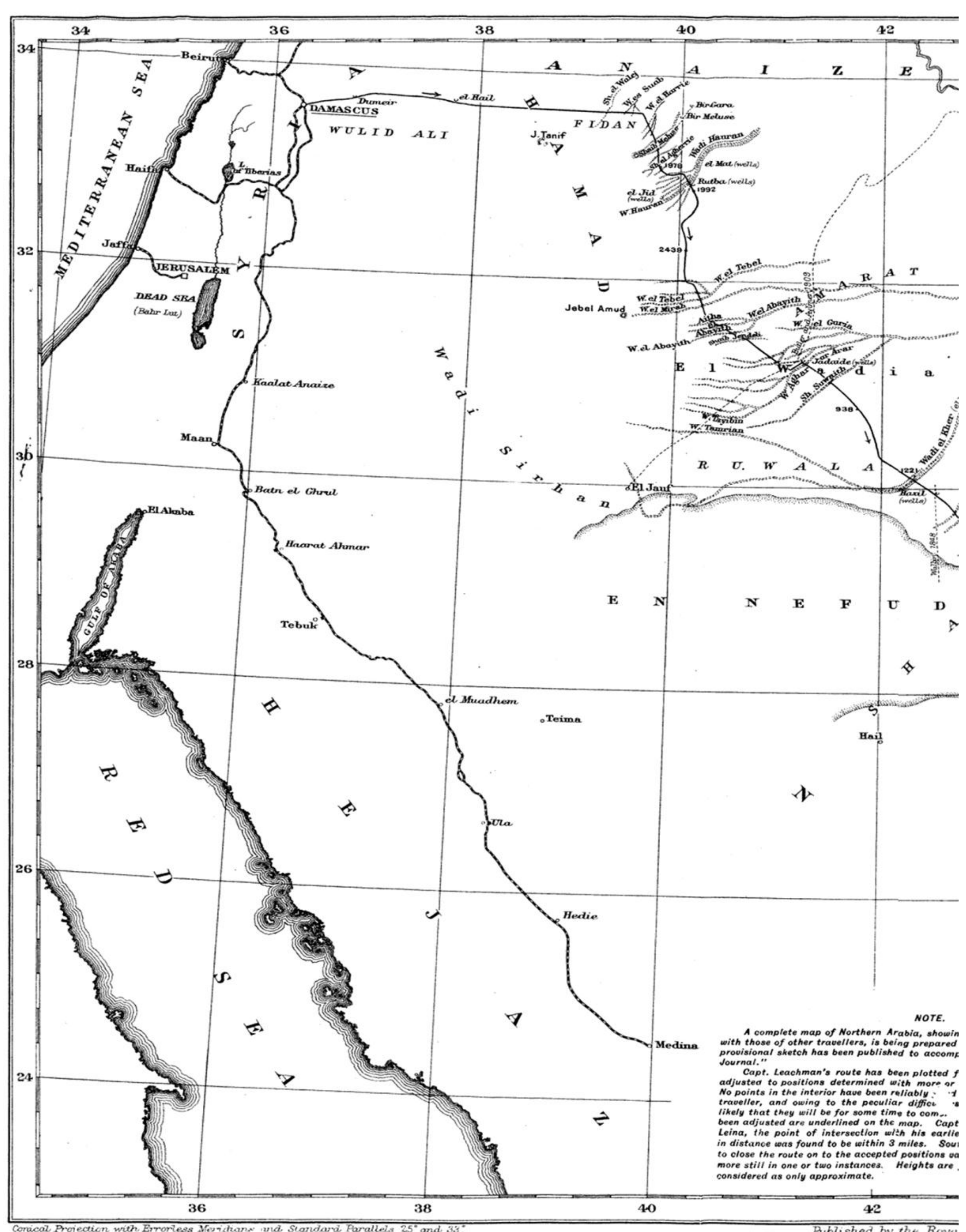


GREAT MOSQUE AND TYPICAL WAHABI MINARET, RIADH.



PALACE SLAVES IN RIADH. THE CENTRE FIGURE IN WHITE IS IBN SAUD'S BROTHER.


THE GEOGRAPHICAL JOURNAL 1914.
NORTHERN ARABIA.
Sketch Map
to illustrate the journey of
CAPT. G. LEACHMAN
(ROYAL SUSSEX REGT)
1912.
Nat. Scale, 1:5.000.000 or 1 Inch = 78·9 Stat. Miles
Route
Heights in feet.
Railway
PERSIA
PERSIAN GULF
R. Tigris
Hit
BAGHDAD
R. Euphrates
Kerbela
BABYLON
Hilla
Nejef
Bahr i Nejef
Wadi el Khar
Samawa
R. Euphrates
Kasr Bir Shagra
BUSRA
Zobeir
Tel Jeleid
Tel Rufha
Birket Jumeima
EL HAJARA
Leina
Wadi er Rumma
Shamat ez Zerud
EL BITTE
Kusaiba
Ayun el Kasim
Boreida
Sand dunes
Aufixie
el Mudhnib
Murabba
Zilfi
SEDEIR
JEBEL TUWEIK
MAHMAL
Shakra
Sedus
Ayane
Malka
el Barra
Dhruma
Riadh
Manfuha
Abu Jifan
Katif
Bahrein I.
Ojair
Mobarres
Hofhuf
el Katar
Peninsula
Wadi Sahabba
KHARJ
Jabrin
Oasis
EL HASA
ing Capt. Leachman's route, combined
d; but as it is not yet finished, this
npany the paper in the "Geographical
from his prismatic compass traverse,
r less accuracy by previous explorers.
d by astronomical observations by any
s of travel in the country, it is not
The positions to which the route has
ot. Leachman's route was checked at
ier route in 1910, and the agreement
uth of Leina the adjustment necessary
aried from about 10 to 20 miles, and
from aneroid readings, and must be
al Geographical Society.
NORTHERN ARABIA
Leachman.


MEDITERRANEAN SEA
Beirut
DAMASCUS
Dumeir
el Hail
WULID ALI
J. Tanif
FIDAN
Haifa
L. of Tiberias
Jaffa
JERUSALEM
DEAD SEA
(Bahr Lut)
Bir Gara
Bir Meluse
Wadi Hauran
el Mat (wells)
Rutba (wells)
el Jid (wells)
W. Hauran
2439
W. el Tebel
Jebel Amud
W. el Abayith
Jadaide (wells)
Sh. Suwaith
938
W. Tamrian
Kaalat Anaize
Maan
Wadi Sirhan
R U W A L A
El Jauf
Wadi el Kher
Baxil (wells)
Batn el Ghrul
El Akaba
GULF OF AKABA
Haarat Ahmar
E N N E F U D
Tebuk
el Muadhem
Teima
Hail
Ula
R E D S E A
H E J A Z
Hedie
Medina
NOTE.
A complete map of Northern Arabia, showin
with those of other travellers, is being prepared
provisional sketch has been published to accomp
Journal."
Capt. Leachman's route has been plotted f
adjusted to positions determined with more or
No points in the interior have been reliably
traveller, and owing to the peculiar diffic
likely that they will be for some time to com
been adjusted are underlined on the map. Capt
Leina, the point of intersection with his earlie
in distance was found to be within 3 miles. Sou
to close the route on to the accepted positions va
more still in one or two instances. Heights are
considered as only approximate.
34
36
38
40
42
32
30
28
26
24
Conical Projection with Errorless Meridians and Standard Parallels 25° and 33°
Published by the Roya

المحتويـات

المركز الثقافي الآسيوي

- مؤسسة بحثية مستقلة، تتبع جمعية خريجي معهد الدراسات والبحوث الآسيوية، تخضع لقانون الجمعيات الأهلية المصري، مشهرة في وزارة التضامن الاجتماعي برقم ١٣٢٨ لسنة ٢٠٠٢م.
- يتكون **المركز الثقافي الآسيوي** من الوحدات التالية :
  1) وحدة دراسات الخليج وشبه الجزيرة العربية.
  2) وحدة الدراسات الإيرانية.
  3) وحدة الدراسات التركية والعثمانية.
  4) وحدة الدراسات الأرمنية والقوقازية.
  5) وحدة الدراسات اليهودية والإسرائيلية.
  6) وحدة دراسات الشرق الأقصى.
  7) وحدة دراسات الفنون والتراث.
  8) وحدة دراسات تركستان الشرقية - شينجيانج
- يهدف **المركز الثقافي الآسيوي** إلى عمل البحوث والدراسات المتعلقة بقارة آسيا في النواحي التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكافة النواحي الحضارية.
- يعمل **المركز الثقافي الآسيوي** على طباعة ونشر الدراسات التي تنتجها وحداته المختلفة، كذلك الدراسات التي يتقدم بها الباحثون المتخصصون في مجال اهتمامات وحدات المركز.
- كما يقوم **المركز الثقافي الآسيوي** بترجمة الإصدارات العالمية الخاصة بقارة آسيا وإصدارها في نشرات خاصة.
- يسعى **المركز الثقافي الآسيوي** إلى إصدار عدة سلاسل من الكتب والدوريات المتخصصة والتي تخدم الدراسات الآسيوية خاصة، والثقافة الإنسانية بشكل عام.
- يمد **المركز الثقافي الآسيوي** يد التعاون للباحثين والمراكز البحثية والهيئات العلمية الأخرى، للقيام بالأنشطة العلمية والندوات والمؤتمرات وعمل الأبحاث ونشرها.

harpgeneration@yahoo.com

002 - 01229365348